

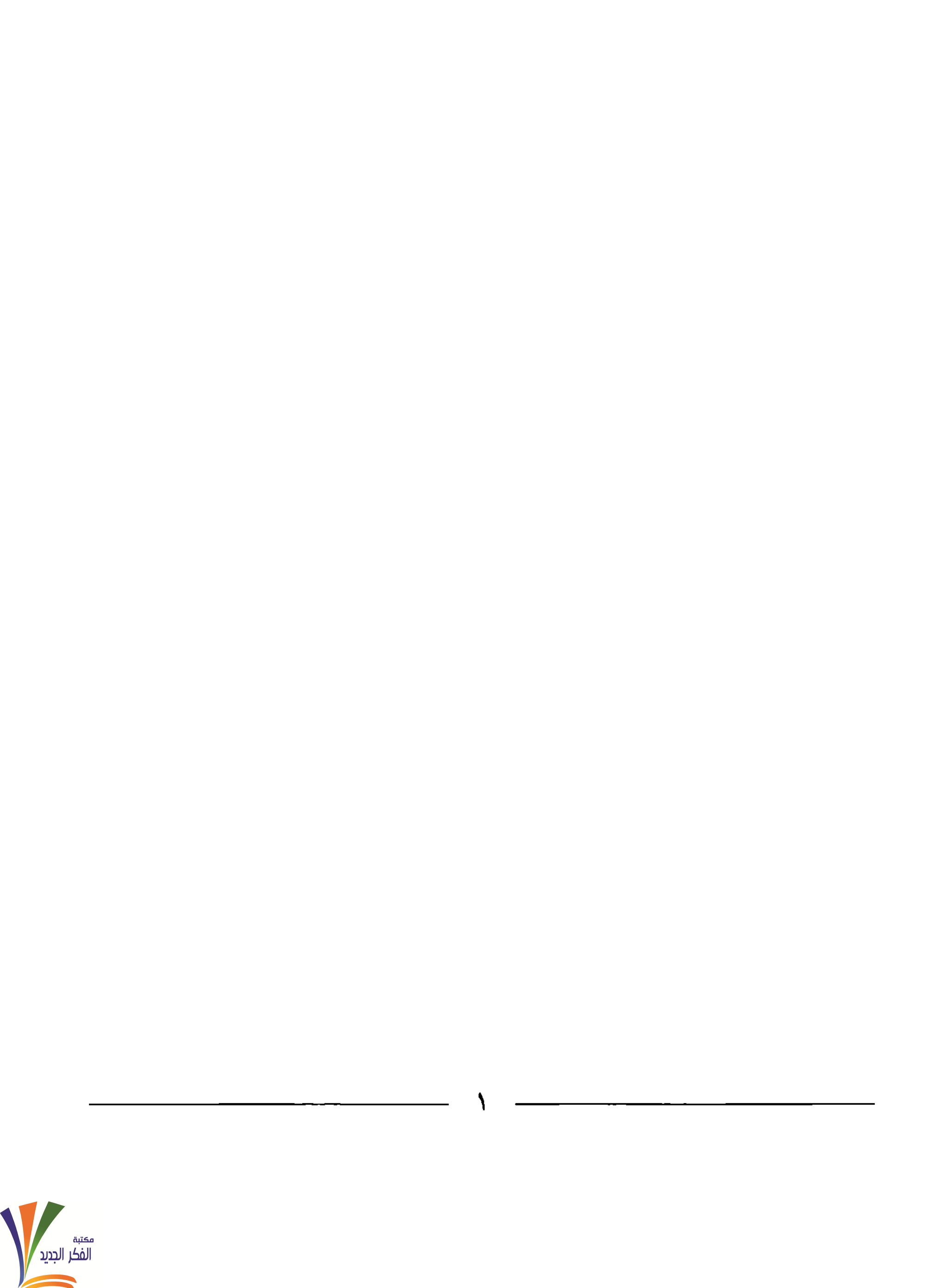
الحلم وتأويله

الهذيان والأحلام في الفن
ما بعد علم النفس
مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء

سيغموند فرويد

ترجمة:
جورج طرابيشي




مكتبة
الفكر الجديد

الكتاب: **الحلم وتأويله- الهذيان والأحلام في الفن- ما بعد علم النفس- مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء**

المؤلف: **سيغموند فرويد**

ترجمة: **جورج طرابيشي**

التصنيف: **علم نفس**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: يوليو (تموز) 2015

الرقم الدولى المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 974 - 6

الكتاب متوفر لدى معرض مدارك للنشـــر والتـــوزيع

الرياض، حي المحمدية، طريق الامام سعود بن عبدالعزيز

عنوان المعرض



www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة

Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977







Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing



سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة

المجلد الخامس

الحلم وتأويله

الهذيان والأحلام في الفن

ما بعد علم النفس

مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء

ترجمة جورج طرابيشي




مكتبة
الفكر الجديد

فهرس المجلد الخامس




مكتبة
الفكر الجديد

الحلم وتأويله



تقديم

في آخر عام ١٨٨٩ نشر فرويد سفره الضخم عن **تأويل الحلم** الذي اقتضى منه أربع سنين من العمل والذي كانت عقد عليه آمالاً كباراً في أن يكون بمثابة مدخل تأسيسي إلى علم اللاشعور الذي سيمثّل اكتشافه في مضمار علم النفس ما مثّله اكتشاف كوبرنيكوس في مضمار علم الفلك أو اكتشاف داروين في مضمار علم الأحياء.

ولكن الخيبة كانت على قدر الأمل. فالكتاب ما تعدَّت مبيعاته في الشهرين الأولين ١٢٣ نسخة من أصل الستمائة نسخة المطبوعة التي لن تنفد أصلاً إلا بعد زهاء عشر سنوات كما يؤكد إرنست جونز في كتابه عن **حياة فرويد وأعماله**. وعدا هذه القطيعة من قبل القراء، فإن **تأويل الحلم** لم يحظَ في حينه إلا بتعليق واحد في الصحافة الفييناوية، ولم يكن بالأصل إيجابياً.

وفي سياق هذه الخيبة تلقى فرويد دعوة من ناشر فييناوي، هو ل. لوفنفلد ليقدِّم للقراء خلاصة عن كتابه الضخم في سلسلة جماعية من الكراسات كانت تصدر في فيينا تحت عنوان مشترك: **مسائل عند الحدود بين علم الأعصاب وعلم النفس**. وقد تردد فرويد طويلاً في تلبية هذه الدعوة، ولم يردّ عليها بالإيجاب إلا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٠ بعد أن ضاق صدراً على إثر نشر تعليق سلبي آخر في الصحافة الفييناوية على كتابه **تأويل الحلم**. ومع ذلك، عندما تصدى لكتابة هذا الكراس الصغير عن الحلم لم يُقبِل على ذلك بهمة كبيرة ولا بغبطة كما كتب ذلك في رسالة منه إلى صديقه فلهلم فليس ـ قبل القطيعة اللاحقة معه ـ بتاريخ ١٤ تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٠٠. والواقع أن فرويد ما كان مكرهاً على تكرار نفسه فحسب، بل كذلك على أن يضغط في كراس صغير ما كان اقتضى منه سِفراً ضخماً. وهذا ما يرتدّ أثره على القارئ



لهذا النصّ، الذي قد يحسب نفسه أمام موجز مبسَّط عن علم الأحلام والذي قد تصدمه مع ذلك العديد من فقراته بحكم ما أصابها من استغلاق من جراء الضغط والتكثيف. ومع ذلك تبقى لهذا النص الصغير قيمة تعليمية كبيرة من شأنها أن تبرر سلفاً ما تقتضيه قراءته من تمهل وتدقيق، وحتى من إعادة قراءة أحياناً.

يبقى أن نقول إن العنوان الأصلي لهذا النص هو: **عن الحلم**. ولكن ذاعت شهرته في الترجمة إلى الفرنسية وإلى لغات أخرى بعنوان: **الحلم وتأويله**. وبه كنا أصدرنا الترجمة العربية التي تعددت طبعاتها خمساً. وقد كنا ترجمناه عن الطبعة الفرنسية التي قامت بها هيلين لوغرو والتي تعددت طبعاتها مرات لا تحصى منذ نشرها لأول مرة عام ١٩٢٥، وهذا إلى أن أصدرت دار النشر المعنية، وهي غاليمار، ترجمة جديدة عام ١٩٨٨ بقلم كورنيليوس حاييم، وهي ترجمة أكثر تمسكاً بحرف النص الألماني من سابقتها وإن أعسر هضماً على القارئ.

وبالإحالة إلى هذه الترجمة الجديدة أدخلنا على ترجمتنا السابقة كل ما ارتأيناه ضرورياً من التعديلات.

ج. ط



(١)

ما كانت البشرية تجد حرجاً في العصر القابل للوصف بأنه عصر ما قبل العلم في تأويل أحلامها. فالأحلام التي تبقى في الذاكرة عند اليقظة كانت تُعدّ تجلياً نافعاً أو ضاراً للقوى العليا، من آلهة أو أبالسة. ومع تفتح الروح العلمي، أخلت كل تلك الميتولوجيا الأريبة الساح لعلم النفس؛ ويجمع اليوم العلماء قاطبة، خلا نزراً يسيراً منهم، على عزو الحلم إلى النشاط النفسي للنائم بالذات.

بيد أنه بات من الضروري، بعد نبذ الفرضية الميثولوجية، البحث للحلم عن تأويلات جديدة. فما الشروط التي يحدث فيها الحلم؟ وما صلاته بالحياة النفسية في حالة اليقظة؟ وكيف تتمكن التنبيهات الآتية من الخارج من التأثير على النائم؟ ولمَ تلك التفاصيل التي كثيراً ما ينفر منها ذهن الإنسان الصاحي، ولمَ ذلك التنافر بين وسائل الحلم التعبيرية وبين الحالات الوجدانية التي تصاحبه؟ وما مصدر الطابع السريع الزوال للحلم أخيراً؟ لماذا يردّه الذهن عنه فور الاستيقاظ وكأنه عنصر غريب، ولماذا يحرَّف في الذاكرة، أو يُمحى منها كلياً أو جزئياً؟ إن هذه المعضلات، التي ما ونت منذ عديد القرون تتطلب حلاً، لم تجد حتى الآن حلاً مُرضياً.

إن المعضلة التي تحظى باهتمامنا الأول، معضلة دلالة الحلم، لهي ذات وجهين: فمن جهة أولى نبحث عما يعنيه الحلم من وجهة النظر السيكولوجية وعن مكانته في منظومة الظاهرات النفسية الأخرى وعما إذا لم تكن له وظيفة بيولوجية ما، ونريد من الجهة الثانية أن نعرف هل الحلم قابل للتأويل وهل ينطوي مضمون الحلم، مثله مثل أي نتاج نفسي آخر قد نميل إلى مماثلته به، على «معنى»؟

تواجهنا هنا، باعتبار الوضع الراهن للمسألة، ثلاثة اتجاهات متمايزة بلا لبس. فالاتجاه الأول، الذي يبدو وكأنه صدى متأخر للعصر الذي كان يُعزى فيه إلى



الحلم أصل خارق للطبيعة، يروِّج له عدد من الفلاسفة. فحياة الحلم في نظرهم يكمن مبدؤها في حالة خاصة من النشاط النفسي: فهو ضرب من ارتقاء الروح نحو حالة عليا. ذلكم هو، على سبيل المثال، رأي شوبرت[1]: «بالحلم يتحرر الفكر من قيود الطبيعة الخارجية، وتتملص الروح من الأغلال الحسّية». ويؤكد آخرون، من غير أن يتطرفوا هذا التطرف، أن الأحلام في جوهرها تنبيهات نفسية، وأنها تجليات لبعض القوى النفسية التي تحول حالة اليقظة دون تظاهرها تظاهراً حراً[2]. ومن المعلوم أن غالبية المراقبين يعزون إلى تجليات الحياة الحلمية تفوقاً بيّناً في عدد من الميادين (ميدان الذاكرة على سبيل المثال).

أما الأطباء الذين يكتبون عن الحلم فيقولون، بوجه عام، برأي معاكس جذرياً لرأي الفلاسفة: فهم يكادون لا يقرّون للحلم بأي قيمة بوصفه ظاهرة نفسية. فهو ينجم في رأيهم عن تنبيهات جسمانية وحسّية تأتي إلى النائم من العالم الخارجي ومن أعضائه الداخلية على حدّ سواء. وعلى هذا الأساس، يكون مضمون الحلم عارياً من كل معنى وعصياً على كل تأويل، مثله مثل النغمات التي تصدر عن مَلامس البيانو حين تعزف عليها الأصابع العشر لفرد يجهل بالموسيقى جهلاً مطبقاً. أما تعريفه في هذه الحالة فهو ببساطة كما يلي: «سيرورة بدنية عديمة الجدوى دائماً ومَرَضية في غالب الأحيان» (بينز)[3]. أما تفسير الإشارات والرموز التي تميّز الحياة الحلمية فيكمن، بالتالي، في النشاط غير

---

١ ـ الأرجح أنه الفيلسوف الألماني غوتليف شوبرت (١٧٨٠ ـ ١٨٦٠)، وهو ذو منزع صوفي. من مؤلفاته: **تاريخ النفس، الكنيسة والآلهة، رمزية الحلم**. «م».

٢ ـ شرنر(*) وفولكلت(**).

(*) كارل شرنر: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٢٥ ـ ١٨٨٩). كان مدار اهتمامه على طبيعة النفس الإنسانية. اشتهر بكتابه **حياة الحلم**، الذي استشهد به فرويد في كتاباته نحواً من عشرين مرة، معتبراً مؤلفه المكتشف الحقيقي للرمزية في الأحلام. «م».

(**) يوهان فولكلت: فيلسوف ألماني (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠). عارض المذهب الوضعي وحاول بناء نظرية ميتافيزيقية «نقدية» جديدة وصفها بأنها ذاتية عابرة للذات. من مؤلفاته: **ما الدين؟**، **مشكلة الفردية**، **الفينومينولوجيا والزمان الميتافيزيقي**. وله أيضاً كتاب عن **أخاييل الأحلام**، وإليه يحيل فرويد. «م».

٣ ـ كارل بينز: طبيب ألماني (١٨٣٢ ـ ١٩١٣)٣ اشتهر ببحوثه الصيدلانية. له كتاب بعنوان: **حول الحلم**، وإليه يحيل فرويد. «م».



المتساوق لمجموعات معيَّنة من الخلايا تظل في حالة يقظة في الدماغ تحت سلطان تلك التنبيهات الفيزيولوجية، بينما يلبث باقي الجسم غارقاً في النوم.

ويتشبث الحس الشعبي، أخيراً، من دون أن يتأثر ـ إلا في أضيق الحدود ـ بأحكام العلم تلك، ومن دون أن يكترث لمصادر الحلم، يتشبث بمعتقده بأن للحلم معنى، وبأن هذا المعنى ينطوي على نبوءة ما بالمستقبل. وحتى نستخلص هذه النبوءة من مضمون الحلم، الذي غالباً ما يكون مبهماً ملغزاً، فلا بدّ من اللجوء إلى بعض الطرائق في التفسير، وهذه الطرائق لا تعدو أن تكون بوجه عام استبدالاً لمضمون الحلم، كما انطبع في الذاكرة، بمضمون آخر. ومن الممكن أن يتمّ هذا الإبدال شذرة شذرة، بواسطة «مفتاح» مسبق الوجود. ومن الممكن أيضاً استبدال الموضوع الرئيسي للحلم دفعة واحدة بموضوع آخر لا يعدو الأول أن يكون رمزاً له.

وأهل الجِدّ يتسمون لهذه الصبيّنات، ولسان حالهم جميعاً التعبير الشائع: «إنها أضغاث أحلام».



(٢)

كم كانت دهشتي عظيمة حين اكتشفت ذات يوم أن أصدق تصور للحلم لا ينبغي البحث عنه لدى الأطباء، وإنما لدى الجهلة بالطب ممن يبقى لديهم ذلك التصور مختلطاً بالخرافة والتطيُّر. وبالفعل، كنت قد انتهيت، فيما يتعلق بالحلم، إلى نتائج غير متوقعة أتاحها لي منهج جديد في الاستقصاء السيكولوجي، وهو عين المنهج الذي أدى لي خدمات جلى في معالجة ضروب الحَصَر والوساوس والأفكار الهذائية وما إلى ذلك من الصراعات النفسية، والذي جرى تبنِّيه منذ ذلك الحين باسم «التحليل النفسي» من قبل مدرسة بأسرها من الباحثين. فمعظم هؤلاء الباحثين الطبِّيين المحترفين ما أمكنهم إلا أن يقروا بالتشابهات الكثيرة القائمة بين الحياة الحلمية وبين شتى أنواع الاضطرابات السيكولوجية التي تمكن ملاحظتها في حالة اليقظة. وعليه، بدا لنا أنه من المفيد والمثير للاهتمام أن نطبِّق على تفسير الحلم نفس طريقة التقصي التي أثبتت فاعليتها فيما يتعلق باللوحات السريرية السيكوباتية. فالأفكار الحصَرية والأفكار الوسواسية غريبة عن الشعور السوي غربة الأحلام عن الوعي في حالة اليقظة. والوعي يجهل أصول تلك الأفكار تماماً كما يجهل أصول الحلم. ولئن ذهب الرأي إلى أن هناك فائدة من وجهة النظر العملية من دراسة نشوء تلك التشكيلات السيكوباتية وتطورها، فهذا لأنه قد قام البرهان تجريبياً على أنه يكفي أن تكتشف السبل اللاشعورية التي تلتحق عبرها الأفكار المرَضية لفرد من الأفراد بباقي المضمون النفسي، حتى يجد العرض العصابي حلَّه وحتى تصبح الفكرة المرَضية قابلة كل القابلية للقمع واللجم. إنني أدين إذاً للطب النفسي بالطريقة التي استخدمتها لحلّ مشكلة الحلم.

من اليسير وصف هذه الطريقة، لكن تطبيقها يقتضي خبرة ومهارة. لنفترض



أن أمامنا مريضاً تتسلط عليه فكرة مقلقة. ولندْعُه إلى تثبيت انتباهه على هذه الفكرة، لا لكي يحلم بها كما في أوقات سابقة، وإنما لكي يرصد بوضوح وجلاء وجوهها كافة ويطلِع الطبيب، بلا تحفظ، على كل ما يعنّ بباله بصددها. في غالب الأحيان يبدأ المريض بالإجابة بأن انتباهه عاجز عن استيعاب أي شيء. وهنا لا بدّ من تكذيبه والتأكيد الجازم له بأنه من المستحيل أن تنعدم لديه الأفكار أو التصورات. وبالفعل، سرعان ما تنهمر أفواج من الخواطر ومن تداعيات الأفكار، لكنها تكون مسبوقة على الدوام بملاحظة من المريض يعلن فيها أنها لامعقولة وعديمة الدلالة، أو يزعم أنها خطرت بباله مصادفة من دون أن يربطها شيء بالموضوع المعني. عندئذ نتبين أن هذا النقد على وجه التحديد هو الذي حال بين المريض وبين إظهار تداعياته والإبانة عنها أو حتى وعيها. وإذا أمكننا أن نجعله ينكص عن انتقاد أفكاره العارضة ويتابع بكل بساطة التصريح عن جميع التداعيات التي سترد إلى ذهنه بفعل مجهودٍ انتباهيّ متصل، حصلنا على مادة نفسية ذات صلة مباشرة بالفكرة المرَضية المعنية، من شأنها أن تتيح إمكانية اكتشاف التداعيات القائمة بين هذه الفكرة وبين حياة المريض النفسية، وبفضلها يستطيع الطبيب في نهاية الأمر أن يستبدل الفكرة المرَضية بفكرة جديدة قابلة للاندراج على نحو مفهوم في السياق النفسي.

لا يتسع المجال هنا لتمحيص الفرضيات التي تقوم على أساسها هذه التجربة، ولا لدراسة الاستنتاجات الواجب استخلاصها من كون هذه التجربة مؤكدة النجاح في غالب من الأحوال. حسبنا أن نقول إننا بتثبيتنا انتباهنا على التداعيات «اللاإرادية»، على التداعيات التي «تشوِّش التفكير»، على تلك التي يسرع النقد الذاتي إلى نبذها باعتبارها عديمة الدلالة، نحصل، إلى جانب الفكرة المرَضية، على مادة تسمح لنا بأن نجد لتلك الفكرة فهماً وحلاً. وإذا طبَّق المرء هذه الطريقة على نفسه، فإن خير وسيلة لمتابعة التجربة هي أن يسجل، كتابة، الأفكار التي لا يجد من تفسير لظهورها، وهذا طرداً مع حضورها وتداعياتها.

أودّ الآن أن أبيِّن النتيجة التي يمكن الوصول إليها عن طريق تطبيق ذلك المنهج التنقيبي في تأويل الحلم. إن أول حلم يخطر للبال يمكن أن يصلح للبرهان على



ما أرمي إليه. لكنني أفضِّل، لأسباب شتى، اختيار الحلم الذي حلمته في الليلة الماضية. فهو قصير، وهذا ما يتيح لنا استعماله، ثم إن ما حفظت منه لا معنى له ومبهم ومتداخل وفق المراد. إليكم مضمون الحلم الذي سجَّلته بعد الاستيقاظ مباشرة:

(اجتماع على مائدة ـ أو على مائدة ضيافة[1]. يقدِّمون سبانخ. السيدة إ. ل جالسة بقربي ومستديرة نحوي. يدها تلامس بألفة ركبتي. أهمّ بإبعاد يدها بحركة دفاعية. تقول لي: «كان لك على الدوام عينان في غاية الجمال!». ألمح بإبهام شيئاً يشبه رسماً يمثِّل عينين، أو بلورتي نظارة...).

ذلك هو الحلم، أو على الأقل، ذلك ما أمكنني أن أسجل منه. إنني أجده غامضاً، عديم الدلالة، يبعث على شيء من الدهشة. فالسيدة إ. ل شخص ربطتني به صلات صداقة واهية، ولم أرغب قط، على ما أعلم، في علاقات أمتن. لقد انقضى زمن طويل منذ أن رأيتها آخر مرة، ولا أحسب أنني سمعت أحداً يتحدث عنها في الآونة الأخيرة. إنني لا أعثر، في سيرورة هذا الحلم، على أي أثر من مشاعر عاطفية.

كلما أمعنت فيه تفكيراً، بدا لي أعصى على الفهم. وسأقوم الآن بتسجيل التداعيات التي ستراودني، بلا موقف مسبق وبلا انتقاد، في أثناء استبطاني لنفسي. لكني لن أتـأخر عن أن أكتشف أن هذا العمل أسهل بكثير إذا قسَّمت أولاً الحلم وعناصره، وإذا جمعت حول هذه الشذرات المعزولة التداعيات المرتبطة بها.

اجتماع، مائدة، أو مائدة ضيافة. إنني أتذكر بادئ الأمر الحادث الذي ختم سهرة الأمس. فحين كنت أهمّ بمغادرة حفل صغير بصحبة صديق، عرض عليّ أن نستقل عربة لإيصالي إلى بيتي. وأضاف قوله: «أفضِّل عربة ذات عداد. إنني أحب كثيراً اختراع العداد. فأنت تتبعه بعينيك وتنشغل به، وتتسلى...». وحين

---

١ ـ بالفرنسية في النص: TABLE D'HOTE ، وهو تعبير خاص يطلق في الفنادق والمطاعم على مائدة مشتركة تقدَّم فيها الوجبات في ساعات محددة وأسعار ثابتة ويسدِّد فيها كل زبون على حدة فاتورته. «م».



جلسنا في العربة، وحرَّك الحوذي زجاج النافذة بحيث أمكننا أن نقرأ الرقم ٦٠ هيلراً[٢]، قلت متابعاً دعابته: «ما كدنا نقعد حتى صرنا مدينين. إن العداد في العربة كمائدة الضيافة؛ فأنت تشعر بأنك صرت شحيحاً وأنانياً من كثرة تفكيرك بالدين الذي يتزايد. فهذا الدين يتعاظم بسرعة كبيرة، وإنك لتخشى أن يذهب مالك سدى. وعلى مائدة الضيافة أيضاً كان شاغلي الدائم، المضحك بعض الشيء، ألا أدع الحساب يتراكم في غير صالحي». واستشهدت، من غير مبرر - إنني لأقرّ بذلك - ببيتين لغوته:

أنتِ تهبيننا الحياة

فتجعلنا، نحن الفقراء، نغلّ عنقنا بالدين...[٣]

وثمة فكرة عارضة ثانية ذات صلة بمائدة الضيافة: فقد دارت بيني وبين زوجتي مناقشة قبل بضعة أسابيع ونحن على المائدة في فندق بالتيرول[٤]. فقد ضايقني منها أن تبشّ وجهاً لبعض الأشخاص الغرباء على المائدة ممن كنت أريد أن أتحاشى بأي ثمن معشرهم. ويخيَّل إليّ، هنا أيضاً، أن المال الذي أنفقته في مائدة الضيافة لم يعد عليّ بما كنت آمل فيه من حبور وانبساط. وما يدهشني الآن أيضاً التباين بين موقف زوجتي على تلك المائدة وبين الموقف الذي أخذته في الحلم السيدة إ. ل التي كانت تدير وجهها كله إليّ.

ملاحظة أخرى: إن هذا التفصيل من تفاصيل حلمي ينسخ مشهداً صغيراً مشابهاً دار بيني وبين زوجتي يوم كنت أغازلها سراً. والملامسة تحت المائدة كانت قد بادرتني بها رداً على رسالة طلبت فيها يدها للزواج. والمرأة الغريبة إ. ل هي التي احتلت في الحلم مكان زوجتي.

إن السيدة إ. ل ابنة رجل كنت أدين له بالمال فيما غبر من الزمن. وهنا أكتشف صلة ما كانت لتخطر لي ببال بين تفاصيل حلمي والأفكار التي أيقظها

---

٢ - الهيلر: عملة ألمانية قديمة. «م».

٣ - الشاهد هنا من رواية غوته: **سنوات تدريب فلهلم مايستر**. وهذان البيتان من الشعر موجَّهان في الرواية إلى «القوى السماوية». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٤ - التيرول: منطقة اصطيافية في جبال الألب تقع بين النمسا وإيطاليا. «م».



فيّ. فلو تتبعنا سلسلة التداعيات التي تنطلق من واحد من عناصر الحلم، لوجدنا أنفسنا نعود بسرعة إلى عنصر آخر. وبعبارة أخرى، إن بين الأفكار التي يبتعثها الحلم لديّ روابط يتعذر تمييزها وإدراكها في الحلم نفسه.

فحين يبدو للعيان أن شخصاً من الأشخاص يعوّل على خدمات الآخرين من دون أن يتنازل فيكلّف نفسه أي جهد أو مشقة، فما العبارة التي درجت العادة على استخدامها لتقريعه؟ إننا نقول له: «هل تعتقد أننا هنا لجمال عينيك؟». وهكذا لا يكون للكلمات التي تفوهت بها السيدة إ. ل في حلمي: «كان لك على الدوام عينان في غاية الجمال» من معنى سوى: «إن ما نفعله إنما نفعله حباً بك؛ ولقد حصلت بالمجّان على الدوام على ما ترغب فيه». وبديهي أن العكس هو الصحيح. فقد جعلني أصدقائي أدفع غالياً على الدوام ثمن مجاملاتهم وملاطفاتهم. ولهذا ما كان إلا ليدهشني أن أركب مجاناً مساء أمس في العربة التي أعادني فيها صديقي إلى البيت.

من جهة أخرى، كثيراً ما كنت وجدت نفسي مديناً لذلك الصديق الآخر الذي تناولنا العشاء على مائدته مساء البارحة. وكنت قد فوَّتُّ، قبل أيام قليلة، فرصة لأفي بما عليّ له. فأنا لم أقدِّم له في حياتي قط سوى هدية واحدة، وهي عبارة عن كأس قديمة رُسمت عيون على طول مدارها. إنها تسمى «أوشيال»[٥]، وهي تقي من عين الحسود. والصديق الذي أتكلم عنه طبيب عيون. وبالأمس أيضاً سألته عن أخبار مريض كنت قد أرسلته إليه لاستشارته بصدد مسألة نظارات.

لنلاحظ هنا أن جميع عناصر حلمي تقريباً متضمَّنة في هذا السياق الجديد. ويبقى أن نتساءل ماذا يمثل السبانخ المقدَّم على المائدة. وفي الحق، يشير هذا السبانخ إلى حادث جرى في يوم سابق في بيتي، على مائدتنا العائلية، حين أبى طفل ـ هو ذاته الذي يمكن أن يدَّعي لنفسه العينين الجميلتين ـ أن يأكل من السبانخ. وكنت أنا أيضاً أقرف، في طفولتي، من هذه الخضار، ولم يتبدل ذوقي

٥ ـ أوشيال: أي بالإيطالية النظارات. «م».



وما صرت أستطيبها إلا في زمن متأخر. هكذا يكون ذِكْر تلك الأكلة قد ربط بصورة صبي صغير صورة طفولتي بالذات. كانت والدتي تستهجن سلوكي ذاك وتقول لي: «من حسن حظك أن يكون لديك سبانخ، فما أكثر الأولاد الذين يتمنون لو كانوا مكانك!». وهذا يعيدني إلى واجبات الأهل تجاه أولادهم، وتأخذ بالتالي كلمات غوته:

أنت تهبيننا الحياة

فتجعلنا، نحن الفقراء، نغلّ عنقنا بالدين...

في هذا السياق معنى جديداً.

لنتوقف هنا ولنلقِ نظرة سريعة على النتائج التي توصلنا إليها حتى الآن عن طريق تحليل ذلك الحلم. لقد بدأت بأن عزلت جميع تفاصيله عن سياقها، قاطعاً بذلك الروابط التي كانت تربطها بعضها ببعض؛ ثم تتبعت انطلاقاً من هذه التفاصيل تداعيات الأفكار التي تواردت في ذهني. وحصلت بهذه الطريقة على جملة من أفكار وذكريات تعرّفت بها تعبيراً ثميناً عن حياتي النفسية الذاتية. وقد اتضح أن هذه المادة، بعد تسليط الضوء عليها عن طريق تحليل الحلم، ذات صلة وثيقة بالحلم نفسه؛ وهذا أمر ما كنت لأكتشفه لو اكتفيت بمجرد فحص بسيط لمضمون الحلم. لقد كان الحلم متفككاً، غير قابل للفهم، ومجرداً من كل عنصر وجداني. وبالمقابل، يتحسس المرء في الأفكار التي استخلصتها من خلفيته سحنة وجدانية مكثفة لها ما يفسرها ويعللها؛ وهذه الأفكار تترابط فيما بينها بمنطق كامل فتشكِّل سلاسل تتكرر في حلقات مركزية منها الأفكارُ والتمثلات الأهمّ من غيرها. وبعض هذه الأفكار الرئيسية لم يظهر في مضمون الحلم الذي اقترحناه كمثال: التعارض بين «المغرض» و«المتجرد»، أو بين فكرة «المديونية» و«المجانية». وكان في مستطاعي، لو وددت، أن أبيِّن أن جميع خيوط تلك الحزمة من الأفكار التي تكشفت لي بطريق التحليل تفضي إلى عقدة واحدة، فيما لو شدَّدت عليها بقوة أكبر. لكن هناك، إلى جانب مصالح العلم، مصالح خاصة تنهاني نهياً قاطعاً عن نشر بحث كهذا. إذ إن مثل هذا العمل كان يقتضيني أن



أميط اللثام عن بعض مشاعري الحميمة التي كشفها لي التحليل، لكن التي لا يحلو لي أن أعترف بها أمام نفسي. فخير لي إذاً أن ألزم الصمت. وإذا سألني سائل: لماذا لم يقع اختياري على حلم أستطيع أن أبوح بتحليله بلا تحفظ ولا تقييد بحيث يمسك القارئ على نحو أفضل وأعمق بمعنى الأفكار المعروضة وبارتباطها، فإن الجواب على ذلك لبسيط: فكل حلم آخر كان يمكن أن أختاره سيرتدّ في خاتمة المطاف إلى نفس تلك العناصر الأساسية التي تصعب المجاهرة بها والتي ستقسرني في هذه الحال على التزام التكتم نفسه. ولن تتضاءل الصعوبة فيما لو أخضعت للتحليل حلم شخص غريب، اللهم إلا إذا تمّ ذلك في شروط يمكنني فيها أن أزيح الستُر كلها من دون أن ألحِق مضرَّة بذاك الذي يصارحني بحلمه.

إنه لفي وسعي من الآن تحديد الحلم بأنه ضرب من بديل عن كل مضمون سلاسل الأفكار المشحونة وجدانياً والثرية بالمعنى التي قادني إليها التحليل. ولست أدري بعد طريقة تولُّد الحلم عن هذه الأفكار، لكن في مقدوري أن أجزم من الآن أنه من الخطل ألا نرى في الحلم سوى ظاهرة بدنية عادمة الأهمية بالنسبة إلى علم النفس ولا علة لها سوى النشاط الدائب لبعض مجموعات الخلايا الدماغية أثناء الرقاد.

لنلاحظ هنا أن مضمون الحلم أقصر بكثير من كل تلك الشبكة من الأفكار التي يبدو وكأنه بديلها. ثم إن الحلم قد نجم، كما بيّن لنا التحليل ذلك، عن حادث عديم الأهمية وقع في سهرة الليلة السابقة.

طبيعي أنني لا أريد أن أستخلص استنتاجات عامة من تحليل حلم واحد. لكن حين توضح لي التجربة أن أي حلم يرد على البال يقودني، بمجرد إخضاعه للتحليل الآنف الذكر، إلى أشباه تلك الترابطات بين الأفكار، وأن تلك الأفكار ليست مترابطة فيما بينها ترابطاً صحيحاً وعقلانياً فحسب بل هي تستنسخ أيضاً عناصر الحلم جزئياً، فقد يكون من حقي في هذه الحال أن أؤكد أن تداعيات الأفكار التي لاحظتها لأول مرة ليست وليدة المصادفة المحضة؛ بل قد يخيَّل إليَّ أنه من المباح لي أن أثبِّت هذه الرؤية الجديدة وأحدِّد مصطلحاتها.



إنني أقيم مقابلة بين الحلم، كما ألقاه في ذاكرتي، وبين المادة التي سيقدّمها لي التحليل فيما بعد. وأنا أطلق على الأول اسم **المضمون الظاهر للحلم**، وأطلق على المادة، بدون أي تمييز آخر في البداية، اسم **المضمون الكامن للحلم**. وعلى هذا النحو أجدني في مواجهة مشكلتين جديدتين لم أقم بصياغتهما حتى الآن:

١ ـ ما السيرورة النفسية التي انقلب بها المضمون الكامن للحلم إلى ذلك المضمون الظاهر الذي ألقاه في ذاكرتي عند استيقاظي؟

٢ ـ ما الدافع أو الدوافع التي جعلت من مثل هذه الترجمة ضرورية؟

إنني سأطلق على عملية تحول الحلم الكامن إلى حلم ظاهر اسم **عمل الحلم**. أما العمل المناقض له، العمل الذي ينتج عنه تحول بالاتجاه المعاكس، فقد أطلقت عليه اسم **العمل التحليلي**. أما باقي المشكلات، المتعلقة بطبيعة التحريض على الحلم، وبأصل مادة الحلم، وبمعناه المحتمل، وبوظيفته، وبالحوافز التي تجعل نسيانه أمراً بالغ اليسر، فلن أوليها اهتمامي إلا في ما بعد، حين سأنتقل من مسألة الحلم الظاهر إلى مسألة مضمونه الكامن. وسأبذل كل جهد ممكن أثناء ذلك لتحاشي الخلط **بين الحلم الظاهر وبين أفكار الحلم الكامنة**، إذ كثيراً ما تبدى لي أننا إذا كنا نلاقي في الأدب كثرة من المعطيات الكاذبة والمتناقضة عن الحياة الحلمية، فالسبب في ذلك إنما يعود إلى أن الكتّاب يجهلون في غالب الأحيان مضمون الحلم الكامن هذا الذي لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق التحليل.



(٣)

إن تحول أفكار الحلم الكامنة إلى مضمونه الظاهر يستأهل أن يستأثر بانتباهنا كله، لأنه المثال الأول المعروف على الطريقة التي تنتقل بها مادة نفسية من شكل تعبيري إلى شكل آخر لا نتوصل إلى فهمه إلا عن طريق مجهود منهجي.

ونظراً إلى العلاقات القائمة بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر، يمكن تقسيم الأحلام إلى ثلاث فئات.

في الفئة الأولى نضع الأحلام **المعقولة، والمفهومة** في الوقت نفسه، أي القابلة للدمج بسهولة في حياتنا النفسية الواعية. وهذه الأحلام متواترة الحدوث. وهي مقتضبة وتبدو لنا وكأنها لا تستأهل اهتمامنا، لأنه ليس فيها ما يدهش وليس فيها ما يثير الخيال. ووجود مثل هذه الأحلام هو خير حجة ضد النظرية التي تريد أن يكون الحلم نتاجاً لنشاط منعزل لبعض مجموعات من الخلايا المخية. فهذه الأحلام لا تشهد بحال من الأحوال على نشاط نفسي مختزل أو مجتزأ، ومع ذلك لا نتردد في الإقرار لها بسمات الحلم، ولا نخلط بينها البتة وبين منتجات حالة اليقظة.

وفي الفئة الثانية ندرج مجموعة الأحلام المعقولة التي لا يكفّ معناها، بالرغم من وضوحه التام، عن **إدهاشنا**، لأننا لا نعرف أين نضع هذا المعنى في سياق حياتنا النفسية. من قبيل ذلك على سبيل المثال حين نحلم بأن قريباً عزيزاً علينا قضى نحبه بسبب الطاعون، مع أنه ليس عندنا أي دافع لنخشى وقوع حادث كهذا أو لنعتقد بإمكان حدوثه. وهكذا نتساءل بدهشة: «من أين أمكن لهذه الفكرة أن تجيئني؟».

ونضع في الفئة الثالثة أخيراً الأحلام التي تفتقر إلى المعنى والوضوح معاً،



الأحلام التي تتبدى لنا **متفككة، غامضة، عبثية**. وذلك هو بالأصل الشكل الذي تتجلى فيه في غالب الأحيان. ولهذا يرفض الأطباء، الذين لا يعزون إلى الأحلام غير أهمية ضئيلة، أن يروا فيها سوى نتاج نشاط نفسي مختزل. ولنقل، فضلاً عن ذلك، إنه من النادر بوجه عام ألا تتضمن الأحلام الطويلة بعض الشيء والمتماسكة منطقياً ولو أثراً طفيفاً من التفكك وعدم الترابط.

نستطيع أن نخلص مما سبق إلى أن التعارض بين مضمون الحلم الكامن ومضمونه الظاهر لا يمثّل من أهمية إلا بالنسبة إلى أحلام الفئة الثانية، ثم على وجه الخصوص، الفئة الثالثة. ففي أحلام الفئة الأخيرة نصادف الألغاز التي لا سبيل إلى حلّها إلا إذا جرى استبدال الحلم الظاهر بالمضمون الكامن. والتحليل الذي عرضناه آنفاً هو تحليل لحلم من تلك الفئة، حلم غامض بقدر ما هو غير قابل للفهم. لكننا اصطدمنا، على غير ما كنا نتوقع، بموجباتِ تكتُّم حالت بيننا وبين تعميق تحليلنا. ويخيَّل إلينا، بعد بضع تجارب من النمط نفسه، أن من حقنا أن نتكهن بأنه **توجد علاقة خفية وضرورية بين الطابع المبهم واللامفهوم للحلم وبين المقاومة التي تواجه كل محاولة لجلاء أفكاره الكامنة.**

سوف نسعى إلى معرفة طبيعة هذه العلاقة، لكن من المرغوب فيه قبل ذلك أن نحوّل انتباهنا نحو أحلام الفئة الأولى الأكثر بساطة وقابلية للفهم، الأحلام التي يتداخل فيها المضمون الظاهر والمضمون الكامن على نحو يبدو معه عمل الحلم معدوماً.

إن دراسة هذه الأحلام ضرورية أيضاً من وجهة نظر أخرى. فهي تمثّل النموذج التي تتكون وفقاً له أحلام الأطفال، وهي أحلام متماسكة مترابطة، وواضحة كل الوضوح على الدوام. وهذا، بالمناسبة، حافز آخر يبعث على الامتناع عن إرجاع الحلم إلى نشاط جزئي للدماغ أثناء النوم، إذ ما الموجب لقصر اختزال الوظائف النفسية على نوم الراشد دون نوم الطفل؟ أياً ما يكن من أمر، فإن دراسة السيرورات النفسية لدى الطفل، مهما بدت لنا بسيطة، تبقى تمهيداً ضرورياً لدراسة سيكولوجيا الراشد.

سأضرب هنا كأمثلة بعض أحلام طفلية أمكن لي أن أجمعها.



فُرضت الحِمية على فتاة صغيرة في شهرها التاسع عشر طوال يوم كامل بعد أن تقيأت في الصباح وكان التوت البري (الفريز) هو الذي تسبَّب في القيء على حدّ زعم الخادمة. وفي الليلة التالية لذلك اليوم من الصيام لفظت الفتاة أثناء منامها اسمها، ثم أضافت قولها: «**فريز... كِشمش.. عجّة... مغلي**». الطفلة تحلم، إذاً، بأنها تأكل، وترى في وجبة طعامها نفس الأشياء التي تتوقع أن تحرم منها. كذلك رأى طفل في الشهر الثاني والعشرين من العمر، في منامه، لذة حُرِّمت عليه: فقد كان كُلِّف في البارحة بأن يقدِّم إلى عمِّه سلّة صغيرة من الكرز ولم يؤذن له بأن يأكل منها سوى كرزة واحدة. وحين استيقظ في الصباح قال مبتهجاً: «**لقد أكل هرمان الكرز كله**». وثمة فتاة صغيرة لها من العمر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر قامت بنزهة في مركب، ولكن النزهة كانت أقصر مما تشتهي لأنها طفقت تبكي لحظة النزول إلى الأرض. وفي اليوم التالي روت أنها هامت فوق البحيرة طوال الليل؛ لقد تابعت إذاً في الحلم النزهة المقطوعة. كما ظهر على طفل له من العمر خمس سنوات وثلاثة أشهر كدر المزاج أثناء جولة في منطقة الداخشتاين[1]. وكان يسأل عند الوصول إلى كل قمة جديدة: أهو الداخشتاين، وفي نهاية الأمر أبى أن يرافق الآخرين لرؤية الشلال. وقد وجد موقفه هذا، الذي عُزي إلى التعب، تفسيره في اليوم التالي؛ فقد صرَّح عند يقظته أنه حلِم **بأنه يتسلق الداخشتاين**. وآية ذلك أنه كان داخله الاعتقاد بأن هدف النزهة ارتقاء الداخشتاين، ثم شعر بخيبة أمل حين لم يشاهد الجبل. وغبّ ذلك، عوَّضه الحلم عن خيبة النهار. وهذا المثال نفسه يتكرر لدى فتاة صغيرة لها من العمر ست سنوات: فقد كانت تتنزه مع والدها، لكن تأخر الساعة حمل أباها على قطع النزهة قبل بلوغ الهدف. فقد كانت تتمنى الوصول إلى عمود يحمل لافتة عليها اسم مكان آخر للتنزه، ووعدها أبوها بأنه سيأخذها إليه أيضاً في مرة قادمة. وفي صبيحة اليوم التالي، قصّت على والدها أنها حلمت بأنه **قام معها بالنزهة الأولى، وبعدها بالثانية**.

ليس من العسير علينا أن نتبيَّن أن جميع أحلام الأطفال هذه متشابهة في نقطة

١ ـ الداخشتاين: متزلَّج في المنطقة النمساوية من جبال الإلب. «م».



معيَّنة. فهي جميعها تحقق الرغائب التي ولّدها فيهم النهار ولم يشبعها. إنها إذاً، **ببساطة وبلا لف أو دوران، رغائب متحققة.**

وإليكم أيضاً حلم طفل قد لا يُفهم للوهلة الأولى، ولكنه يحقق هو الآخر رغبة، لا أكثر ولا أقل. فتاة صغيرة في حوالي الرابعة اقتيدت من الريف إلى المدينة لإصابتها بشلل الأطفال. وقد قضت الليل لدى عمة لا أطفال لها، في سرير لا يناسب حجم قامتها. وفي صبيحة اليوم التالي قالت إنها حلمت بأن **السرير صغر كثيراً بحيث لم يعد لها متَّسع فيه.** إن لغز هذا الحلم، من حيث أنه تحقيق لرغبة، سهل الفك والتوضيح. فمن يجهل أن الأطفال لا يرغبون في شيء كرغبتهم في أن **يصيروا كباراً!** وقد ذكّر طول السرير الفتاة الصغيرة بصغر قامتها فأسرعت تتدارك في الحلم هذه الوضعية التي لا تروق لها، فصارت كبيرة للغاية حتى ما عاد السرير على كبره يسعها.

وحتى عندما يتعقد الحلم الطفلي وينزع إلى الرهافة، يظل في الميسور إرجاعه على الدوام إلى إشباع رغبة. حلم صبي صغير في الثامنة من العمر بأنه يقف بجانب آخيل في المركبة التي يقودها ديوميدس[٢]. وكان في البارحة قد استغرق في قراءة أساطير اليونان البطولية. فلا غرو بعد تحمسه لذينك البطلين أن يكون قد أسف على أنه لم يعش في زمانهما.

تكشف لنا هذه الأمثلة المتنوعة عن سمة ثانية للحلم الطفلي: **فهو ذو صلة مباشرة بالحياة النهارية.** فالأماني التي تتحقق فيه، يكون الطفل قد كوّنها أثناء النهار، وفي غالب الأحيان النهار السابق، بتوق عظيم. وهو، من جهة أخرى، لا يحلم أبداً بأشياء تبدو عديمة الدلالة أو غير مثيرة للاهتمام بالنسبة إلى عقل طفل.

ولدى الراشد أيضاً نلاقي الكثير من الأمثلة على هذه الأحلام الطفلية النمط، لكنها مقتضبة جداً، على الدوام تقريباً، كما ذكرنا آنفاً. هكذا نرى الكثيرين من الناس يحلمون بأنهم يشربون إذا ما ظمئوا أثناء النوم؛ وبعد تنحية الرغبة آنياً على هذا النحو يجدون سبيلاً إلى متابعة النوم. هذه الأحلام، التي نستطيع أن نسمّيها

٢ ـ آخيل: من أبطال حرب طروادة الأسطوريين، وكذلك ديوميدس ملك آرغوس. «م».



أحلاماً ترفيهية إذا شئنا، ليست نادرة، وغالباً ما تحدث قبيل اليقظة، حين يحدس النائم بأنه لم يعد هناك بدّ من الاستيقاظ، فيطفق يحلم بأنه واقف على قدميه، منصرف إلى غسيل وجهه وتسريح شعره، أو حتى منهمك في المدرسة أو في المكتب، أي في المكان الذي يتوجب عليه الذهاب إليه. وغالباً ما يحلم المرء، في الليلة السابقة للسفر، بأنه وصل إلى المكان الذي يقصده. كذلك يحدث، قبل حضور عرض مسرحي أو اجتماع أصدقاء، أن يستبق الحلم، من قبيل ما يشبه نفاد الصبر، المسرّة الموعودة.

وقد يعبِّر الحلم عن تحقيق الرغبة تعبيراً غير مباشر أحياناً. ومن الضروري في هذه الحال أن نضيف إلى السلسلة الحلقة المفقودة منها، إذا أردنا الوصول إلى فكر النائم الحقيقي. وتلكم هي الخطوة الأولى على طريق تأويل الحلم. روى لي زوج، على سبيل المثال، حلم زوجته الشابة. فقد حلمت هذه الأخيرة بأن الطمث جاءها. والحال أن انقطاع الطمث هو من علائم الحمل. وهاتان الفكرتان لا يمكن إلا أن تتطابقا في ذهن الزوجة الشابة. ومضمون حلمها، من حيث أنه تحقيق لرغبة، يبيِّن لي بوضوح أنها تتمنى أن يتأخر الحمل لفترة أخرى أيضاً.

وفي ظروف غير معتادة ومرتهنة بضرورة قصوى، تغدو أحلام النمط الطفلي متواترة إلى حدٍّ يبعث على الاستغراب. فقد روى رئيس بعثة قطبية أن رجاله، المقضيّ عليهم أثناء التشتية في الجليد بوجبات محدودة ومحددة من الطعام لا تتنوع أبداً، كانوا يحلمون في كل ليلة، كالأطفال، بوجبات فاخرة وافرة، وبكدسات من التبغ، وبمباهج الحياة البيتية.

وليس من النادر أن تنفصل عن خلفية حلم معقد، طويل ومبهم، شذرةٌ أوضح نتعرَّف فيها للحال تحقيق رغبة. لكن هذه الشذرة تكون ملتحمة بمواد غير مفهومة. وحين يقضي المرء فترة طويلة في تحليل أحلام الراشدين، يتبيَّن بشيء من الدهشة أنه حتى الأحلام التي تبدو سطحية للغاية ليست بسيطة البتة بساطة أحلام الأطفال، وأنها قد تنطوي أيضاً على معنى آخر مغاير لمعنى التحقيق لرغبة.

إن لغز الحلم سيجد حلَّه بلا ريب على أبسط نحو وبصورة مُرضية ومقنعة إلى أبعد الحدود لو أتاح لنا التحليل أن نُرجِع أيضاً أحلام الراشدين الغامضة



واللامفهومة إلى النمط الطفلي، أي لو رأينا فيها تحقيقاً لرغبة راودت الراشد بلجاجة في النهار. لكن هذا التوقع ليس له ما يبرره البتة. فأحلام الراشدين مكتظة على الدوام تقريباً بمواد عبثية ومختلطة ومتنافرة، ولا يكون في مقدورنا بالتالي أن نتبيَّن في مضمونها أثراً من تحقيق لرغبة.

ولنلفت الانتباه، قبل أن ندع وشأنها هذه الأحلام الطفلية التي هي بكل جلاء تحقيق لرغبات، إلى خاصية أخرى لوحظت في الحلم منذ زمن طويل، ويمكن التحقق منها على أحسن وجه في أحلام الفئة الأولى. فكل حلم من الأحلام التي درسناها يمكن صوغه بصيغة التمني: «آه لو دامت النزهة على البحيرة فترة أطول! ـ ليتني اغتسلت ولبست ثيابي قبل الآن! ـ ليتني أكلت الكرز كله بدل أن أقدِّمه لعمي!». لكن الحلم لا يقف عند صيغة التمني هذه، بل يتجاوزها أيضاً إلى تحقيق للرغبة، ويصوِّر لنا هذا التحقيق في شكل واقعي وراهن. وغالباً ما تتمثل المواد التي يستخدمها الحلم لتصوير تحقيق الرغبة في مواقف وصور حسِّية، بصرية في المقام الأول ـ وإن ليس حصراً. إذاً، حتى في هذه الفئة من الأحلام لا مناص من أن يحدث ضرب من تبديل ـ من حقِّنا أن نطلق عليه اسم عمل الحلم ـ: **إذ تحلّ صورة راهنة محل فكرة كان وجودها لا يتعدى صيغة التمني.**



(٤)

وجدنا آنفاً ما يحملنا على الاعتقاد بأن مثل هذا التبديل للموقف يحدث أيضاً في أكثر أحلامنا تفككاً وعدم ارتباط، وإن لم يكن في مستطاعنا أن نعلم هل ينطوي هذا التبديل هنا أيضاً على أمنية أو رغبة ما. ولكن مثال الحلم الآنف الذكر الذي أوغلنا في تحليله بما فيه الكفاية يبدو، في جانبين على الأقل من جوانبه، وكأنه يؤكد ذلك الافتراض. أنتم تذكرون أن زوجتي، في تحليل ذلك الحلم، كانت مهتمة على مائدة الضيافة بأشخاص غرباء أكثر من اهتمامها بي بكثير، وأني اغتظت من ذلك. أما في الحلم فقد كان **عكس ذلك بالضبط**: فالمرأة التي حلّت محل زوجتي كانت ملتفتة نحوي بكلِّيتها. والحال أنه إذا كان ثمة رغبة يمكن أن تتولد عن حادث يحزّ في النفس، فهي الرغبة في حدوث حادث معاكس، تماماً كما حدث في الحلم. فالشعور بالضغينة الذي نمّ عنه التحليل، الضغينة بسبب الحب المضنون به عليّ، ألا يجد معادله في كلمات المرأة في الحلم: «كان لك على الدوام عينان في غاية الجمال!»؟ وهكذا يكون في الإمكان إرجاع قسم من التعارضات بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن إلى تحقيق لرغبة.

إن لعمل الحلم تأثيراً يبعث على دهشة أكبر أيضاً، وإليه ترجع، بلا أدنى شك، أحلامنا الأكثر تفككاً وعدم ارتباط. لنأخذ حلماً من الأحلام، ولنحصِ عدد عناصره الفكرية، إما بصورة مباشرة وإما عن طريق تسجيلها كتابة، ولنجرِ بعد ذلك الحساب نفسه على الأفكار الكامنة التي احتفظ الحلم بأثر منها والتي يشفّ عنها التحليل؛ إذا فعلنا ذلك يتبيَّن لنا أن عمل الحلم قام بضغط، **بتكثيف** غريب في نوعه. ومن الصعب أن نكوّن صورة مسبقة عن أهمية هذا التكثيف، ولكنه لن يثير إلا المزيد من دهشتنا طرداً مع تقدمنا في تحليل الحلم. فمع تقدمنا، لن



نصادف عنصراً واحداً من عناصر مضمونه لا تذهب خيوطه في اتجاهين أو عدة اتجاهات، كما لن نصادف أي موقف غير مستمدة عناصره من انطباعين أو عدة انطباعات من الحياة الواقعية. لقد حدث لي على سبيل المثال أن رأيت في الحلم ما يشبه حوض سباحة كان يبدو على المستحمات فيه وكأنهن يلوذنَّ بالفرار من كل جانب. وفي واحد من المواضع، انحنى واحد من الأشخاص فوق حافة الحوض نحو إحدى المستحمات لينتشلها خارج الماء. والمشهد هنا يتألف من ذكرى حادث من عهد مراهقتي ومن لوحتين كنت شاهدت إحداهما قبيل الحلم مباشرة. وهاتان اللوحتان هما «**مباغتة في الحمام**» من مجموعة الرسوم التي خصصها شفيند[1] عن ميلوزينا[2] (**المستحمات اللائذات بالفرار**) ولوحة عن **الطوفان** بريشة فنان إيطالي. أما الحادث البسيط فمردّه إلى واحدة من ذكرياتي عن مدرسة السباحة وإلى مشهد المعلم وهو يساعد على خروج امرأة تأخرت إلى ميقات الرجال. وثمة في الحلم، الذي اخترته مثالاً لعمل التحليل، موقف يبيّن لنا التحليل ارتباطه بذكريات متباينة؛ والحال أن كل واحدة من هذه الذكريات أسهمت بقسطها في مضمون الحلم. فهناك قبل كل شيء الحادث الصغير الذي كان يعود إلى عهد خطوبتي: ملامسة اليد تحت الطاولة التي تحدثت عنها آنفاً والتي زوّدت الحلم بتفصيل «تحت الطاولة» الممكن عزوه إلى الذاكرة. أما المرأة «المستديرة نحوي» فلم يكن لها وجود آنئذ؛ والتحليل ينبئني بأن هذا التفصيل تحقيق للرغبة عن طريق العكس وبأنه يعود إلى موقف زوجتي على مائدة الضيافة. وخلف هذه الذكرى الحديثة العهد يختبئ مشهد مشابه، لكنه أعظم أهمية بكثير، يعود إلى عهد خطوبتنا، وقد تسبَّب في تخاصمنا طوال يوم كامل. أما حركة اليد الأليفة التي لامست ركبتي فإنها تستدعي إلى الذاكرة أشخاصاً

---

١ ـ موريس فون شفيند: رسام نمساوي (١٨٠٤ ـ ١٨٧١). تخصص في رسوم الشعر الغرائبي ولقِّب بـ«رسام الشعراء»، وممن رسمهم غوته. «م».

٢ ـ ميلوزينا: جنية من القصص الشعبي الألماني والفرنسي من العصر الوسيط. واسمها يعني «الرائعة» أو «ضباب البحر». وقد صيغت عنها قصص وأساطير عديدة وأغرت العديدين من الرسامين، ومنهم شفيند، باتخاذها موضوعاً للوحاتهم. واللوحة التي يشير إليها فرويد باسم «**مباغتة في الحمام**» تحمل في الواقع اسم «**الحنث باليمين**». «م».



آخرين وتداعيات أفكار أخرى؛ إذ تغدو بدورها نقطة انطلاق لسلسلتين من الذكريات مختلفتين كل الاختلاف؛ وهكذا دواليك.

من الضروري بالطبع أن تكون التفاصيل، المقتبسة عن الأفكار الكامنة، والمحدِثة باجتماعها موقفاً حلمياً، من الضروري أن تكون صالحة قبلياً للاستعمال. والشرط الأول لذلك هو وجود عنصر مشترك، بل عدة عناصر مشتركة، في جميع تلك المركّبات. عندئذ يلجأ عمل الحلم إلى نفس الطريقة التي لجأ إليها فرنسيس غالتون[٣] في صوره الفوتوغرافية العائلية؛ فهو سيركّب بين العناصر على نحو تبرز معه بجلاء تام النقطة المركزية المشتركة بين جميع الصور المتناضد بعضها فوق بعض، بينما ستؤول العناصر المتناقضة، المنعزلة، إلى التلاشي والاضمحلال بقدر أو بآخر. وطريقة التركيب هذه تفسّر جزئياً الطابع الغامض والغائم لتفاصيل الحلم الثانوية.

لقد استفدت من الملاحظات الآنفة لأتخذها أساساً أقيم عليه واحدة من قواعد تأويل الحلم: فحين نجد أنفسنا أثناء تحليل أفكار الحلم أمام شيء غير متعيِّن وقابل للتأويل بـ «**إما**» أو بـ **إما**»، علينا أن ندرك أن هذا الخيار بين الأمرين ما هو إلا إثبات مقنَّع، وعلينا بالتالي أن نستبدل الـ «**إما**» بـ «**و**»، وأن نتخذ من كلا حدَّي الإحراج الكاذب نقطة انطلاق لسلاسل جديدة من التداعيات.

وحتى إذا لم يكن بين الأفكار الكامنة **عناصر مشتركة**، يتواصل العمل الحلمي، الرامي على الدوام إلى تشكيل صورة واحدة، إلى الدمج بين تلك الأفكار وصهرها في **فكرة واحدة**. والحيلة التي يستخدمها ليجمع على هذا النحو بين فكرتين ليس بينهما شيء مشترك تكمن في تغيير التعبير الشفهي

٣ ـ فرانسيس دالتون: رجل علم بريطاني (١٨٢٢ ـ ١٩١١). تخصص في الأنثروبولوجيا والجغرافيا والإحصاء وفي علم النفس المقارن، وكان من المطبّقين الأوائل لتقنية تعرُّف هوية الأشخاص من خلال بصمات أصابعهم. وقد اخترع طريقة في التصوير الفوتوغرافي، أشار إليها فرويد في بضعة نصوص له، تتمثل بتوضيب عدة صور فوتوغرافية لأشخاص من أسرة واحدة بعضها فوق بعض في صفيحة حساسة واحدة بحيث تبرِز قسَمات الهوية المشتركة لأفراد الأسرة المعنية. «م».



لواحدة منهما، بل لكلتيهما معاً في أحيان كثيرة. ومثل هذا العمل يرتدّ في خاتمة المطاف إلى صبّ صورتين متنافرتين في قالب واحد لشكل لغوي واحد. وفي مقدورنا، إذا شئنا، أن نشبّه هذه الوظيفة بوظيفة ناظم الشعر المقفّى الذي يلقى في توافق الأصوات الوحدة المنشودة.

يكمن الشطر الأكبر من عمل الحلم في خلق تحولات وانتقالات في غاية الدهاء أحياناً، لكنها تبدو لنا مع ذلك في كثير من الأحيان متصنعة. وهي تفيد في الوصل والربط بين مضمون الحلم وبين الفكرة الكامنة نفسها، المختلفة في شكلها وفي مادتها، والمصاغة تعليلياً من قبل الظروف التي استدعت الحلم.

وبمتابعة تحليل حلمنا النموذجي ألتقي بفكرة جرى تشويهها بغرض مطابقتها مع فكرة أخرى غريبة كل الغرابة عن الأولى. فبين الأفكار التي أفضى إليها التحليل الفكرة التالية: ألن أتمتع إذاً أبداً، كما يتمتع الآخرون، بهبة مجانية؟ بيد أن هذه الصيغة غير صالحة للاستعمال بالنسبة إلى مضمون الحلم، وعليه يتمّ استبدالها بالصيغة التالية: **ألن أتمتع أبداً بشيء لن يكون متوجّباً عليّ أن أدفع تكاليفه؟** وسوف تتخذ كلمة «تكاليف» معنى جديداً كي تدخل في حلقة الأفكار المرتبطة بمائدة الضيافة، وسوف يمثّلها فيها **السبانخ** المقدَّم على المائدة. وبالفعل، حين يرفض الأطفال عندنا أن يمسوا طعاماً مقدَّماً إليهم، تسعى أمهم إلى أخذهم باللين والنعومة وتقنعهم بأن «يتذوقوا»[٤] منه قليلاً. ومن المثير للاستغراب أن نرى العمل الحلمي يستخدم بلا تردد معنيين لكلمة واحدة، لكن ستبيِّن لنا التجربة عما قليل أن ذلك كثير ومتواتر.

وفي مقدورنا أيضاً أن نفسّر، عن طريق عمل التكثيف، بعض الصور الخاصة بالحلم التي تجهلها حالة اليقظة جهلاً تاماً. هذه الصور تتمثل في **الوجوه البشرية الجماعية المتعددة الشخصيات أو المزيجة**، وكذلك في التصاميم الغريبة المتنافرة العناصر التي لا تمكن مقارنتها إلا بالأوجه الحيوانية التي أبدعتها مخيِّلة شعوب الشرق؛ لكن على حين أن هذه الأوجه الأخيرة تتبلور مرة واحدة ونهائية، نجد أن

٤ ـ كلمة KOSTEN بالألمانية لها معنى مزدوج: كلَّف وتذوَّق. «م».



ابتكارات الحلم يعاد صوغها وتركيبها في أشكال متجددة على الدوام من قبل خيال لا ينضب له معين.

من منا لم يصادف في أحلامه الذاتية صوراً من هذا النوع؟ إنها تنتج عن أكثر التركيبات تبايناً وتنوعاً. ففي وسعي أن أؤلّف وجهاً واحداً أوحد من قسمات مقتبسة عن عدة وجوه؛ ومن الممكن أن أرى في الحلم سحنة معروفة وأعطيها اسم شخص آخر، كما أنه من الممكن أن أتعرفها تماماً وأضعها في الوقت نفسه في موقف يجابهه في الواقع شخص آخر. وفي مختلف هذه الحالات، نجد أن تكثيف عدة أشخاص في شخص واحد يضفي ضرباً من التكافؤ على أولئك الأشخاص جميعاً، واضعاً إياهم، من وجهة نظر خاصة، في سوية واحدة. ومن الممكن أن يشير مضمون الحلم إلى هذا التكافؤ، لكن اكتشافه لا يتمّ في أحيان كثيرة إلا بواسطة التحليل، ولا شيء يميط اللثام عنه في الحلم إن لم يمطه الوجه المنسوب إلى الشخص الجماعي.

إن هذه القاعدة الواحدة وهذه الطرق المتعددة في التركيب تنطبق أيضاً على جميع الصور المتنافرة العناصر التي يربل بها الحلم والتي لا داعي لضرب أمثلة عليها. وهذه الصور تبدو لنا أقل غرابة بمجرد عزوفنا عن مماثلتها بمواضيع إدراكنا في حالة اليقظة، لنتذكر أنها ناجمة عن عمل الحلم التكثيفي وأن الغرض منها إبراز الطابع المشترك بين مختلف المواضيع المركبة، وذلك على نحو مقتضب وأخاذ. والتحليل هو الذي سيتيح لنا أن نكتشف ذلك الطابع العام، لأن كل ما نستطيع أن نستخلصه، في معظم الأحيان، من مضمون الحلم هو أن هناك **مجهولاً**، قيمة (س) مشتركة بين جميع تلك الصور الملفقة المتنافرة. والتحليل، بتفكيكه أوصال هذه الصور، سيقودنا بأقصر طريق إلى تأويل الحلم.

لنأخذ مثالاً. حلمت بأنني جالس على مقعد بصحبة واحد من قدامى أساتذتي في الجامعة، وأن ذلك المقعد كان مقذوفاً به إلى الأمام بحركة سريعة، مثله مثل العديد من المقاعد الأخرى. إنني أعتقد أن في مقدوري، إذا ما ضربت صفحاً عن تداعيات الأفكار التي قادتني إلى الخلوص إلى ما خلصت عليه، أن أؤكد أن في ذلك الحلم تركيباً بين قاعة الدروس والرصيف الآلي



المتحرك[٥]. وفي حلم آخر أرى نفسي جالساً على مقعد في مقصورة في قطار حديدي، واضعاً قبعتي على ركبتيّ. قبعة سهرة ولكن من البلور الشفاف. وقد حملتني هذه الصورة بادئ الأمر على التفكير بالمثل القائل: «**أخفض قبعتك**[٦] **فتحصل على كل ما تريد في هذه الدنيا**». أما القبعة الزجاجية فقد وجَّهت فكري، من دون لفٍّ أو دوران كثير، نحو مصباح أور[٧]، ومن ثم قلت بيني وبين نفسي إنه لن يحنقني أن اخترع مثلي مثل ابن بلدي الدكتور فون ولشباخ اختراعاً يجعلني غنياً ومستقلاً... وفي هذه الحال سأطوف عبر العالم بدل البقاء في فيينا... وفي الحلم، سافرت مع اختراعي، تلك القبعة الزجاجية التي لم يدرُج بطبيعة الحال استعمالها.

كذلك لا يندر أن يروق للعمل الحلمي أن يؤلف صورة مزيجة ملفقة من فكرتين متناقضتين، وعلى سبيل المثال، حلم تلك المرأة الصبية التي رأت نفسها تحمل غصناً مزهراً هو نفس الغصن الذي يحمله الملاك في لوحات البشارة[٨] (رمز البراءة: فتلك المرأة تدعى مريم). بيد أن الغصن كان يحمل زهوراً بيضاً كبيرة شبيهة بزهور الكاميليا (نقيض البراءة: غادة الكاميليا)[٩].

إن شطراً كبيراً من اكتشافاتنا بصدد عمل التكثيف في الحلم يمكن تلخيصه على النحو الآتي:

إن مادة الحلم الكامنة هي التي تحدد المضمون الظاهر حتى في أدق تفاصيله

---

٥ ـ بالفرنسية في النص: TROTTOIR ROULANT . وقد كان عُرض في معرض باريس العالمي سنة ١٩٠٠. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٦ ـ أي تحصل على كل ما تريد، وهو مجاز يقابله بالعربية قولنا: أرق ماء وجهك. «م».

٧ ـ أور فون ولشباخ: كيميائي فييناوي (١٨٥٨ ـ ١٩٢٩). اخترع المصباح المتوهج المعروف باسمه. «م».

٨ ـ الإحالة الضمنية هنا إلى القصة الإنجيلية عن ظهور ملاك الرب لمريم العذراء ليبشِّرها بمولد عيسى من رحمها. «م».

٩ ـ **غادة الكاميليا**: رواية مشهورة لألكسندر ديماس الابن نشرها عام ١٨٤٨ واستوحاها من حبه للغانية المومس كاميليا. ويبدو أن في وصف هذه الزهور بأنها «بيض» سهوة قلم من قبل فرويد لأنه يفترض بها أن تكون في هذه الحال حمراء. وبهذا اللون أصلاً وصفها فرويد في كتابه الكبير: **تأويل الحلم**. «م».



تقريباً؛ وكل تفصيل من هذه التفاصيل لا يشتق من فكرة منعزلة، وإنما من **عدة أفكار** مقتبسة من تلك المادة الأساسية وغير مترابطة فيما بينها بالضرورة. بل من الممكن أن تكون منتمية إلى أشد ميادين الأفكار الكامنة اختلافاً. إن كل تفصيل من تفاصيل الحلم هو، بكل معنى الكلمة، تمثيل في مضمون الحلم لزمرة من زمر الأفكار المتنافرة تلك.

لكن التحليل يكشف لنا أيضاً عن خاصية أخرى لتلك المبادلات المعقدة بين مضمون الحلم والأفكار الكامنة. فإلى جانب تلك الخيوط المتضاربة المنطلقة من كل تفصيل من تفاصيل الحلم، هناك خيوط أخرى تنطلق من الأفكار الكامنة وتتجه متباعدة نحو مضمون الحلم **بحيث يمكن لعدة تفاصيل أن تمثِّل فكرة كامنة واحدة**، وبحيث تتشكل بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن شبكة معقدة من الخيوط المتصالبة.

إن التكثيف يبدو لنا عنصراً مهماً ومميِّزاً للعمل الحلمي، مثله مثل تحويل الفكرة إلى موقف (الإخراج الدرامي). لكن ما الدافع الذي يجعل من هذا الضغط أو التكثيف للمضمون ضرورياً؟ لقد تعذر علينا حتى الآن أن نكتشفه.



(٥)

إن ما نلحظه في الأحلام المعقدة والمشوشة التي نهتم بها الآن من تنافر بين مضمون الحلم الظاهر ومضمونه الكامن لا يمكن أن يعزى إلى ضرورة التكثيف والإخراج الدرامي وحدها. بل ثمة مؤشرات معينة ـ في الإشارة إليها فائدة ـ تشهد على وجود عامل ثالث.

لنلاحظ أولاً أننا حين توصلنا بطريق التحليل إلى معرفة أفكار الحلم الكامنة بدا لنا أن المضمون الظاهر للحلم يتعامل مع مواد مغايرة تماماً للمضمون الكامن. لكن ذلك لا يعدو أن يكون انطباعاً أول سيتبدد غبَّ التمحيص، لأننا نجد في نهاية المطاف أن كل مضمون الحلم يجري توظيفه في أفكار الحلم، وأن معظم أفكار الحلم الكامنة يتولى تمثيلها مضمون الحلم الظاهر. بيد أن ثمة فارقاً يبقى قائماً: فما يعمل الحلم على تطويره وإبرازه في تفاصيله، وكأنه يرغب في أن يجعل منه جوهر مضمونه، هو عينه ما سيلعب، بعد التحليل وفي الأفكار الكامنة، دوراً ثانوياً تماماً؛ وعلى النقيض من ذلك نجد أن المادة التمثيلية، التي كان يمكن أن تدَّعي لنفسها، طبقاً لما أحدس به، الحق بالاعتراف بأهميتها البالغة في أفكار الحلم الكامنة، لا تجد مكاناً لها في مضمون الحلم الظاهر، ربما باستثناء محض تلميح واهن إليها في منطقة عادمة الأهمية من الحلم. وفي وسعنا وصف هذه السيرورة على النحو التالي:

أثناء قيام الحلم بعمله، تنتقل الشدة النفسية للأفكار والتصورات التي هي موضوع عمل الحلم لتتلبس أفكاراً وتصورات أخرى هي بالضبط تلك التي ما كنا نتوقع البتة أن نراها تأخذ مثل هذه تلك الحدّة والكثافة.

إن هذه النقلة في النبرة النفسية هي التي تسهم بأوفر قسط في تعتيم معنى الحلم وفي الحؤول دون تعرُّف العلاقات بين الحلم الظاهر والحلم الكامن. وأثناء



تلك العملية، التي أسمّيها **بالنقل في الحلم**، أرى أيضاً الشدة النفسية أو الوجدانية للفكرة الكامنة تتحول إلى بلبلة حسّية؛ وفي الوقت الذي أجد فيه نفسي مدفوعاً بأكثر من إغراء إلى أن أعتبر أن الأكثر وضوحاً وجلاء هو الأساسي والجوهري في مضمون الحلم، أتبيَّن أنه ينبغي البحث على العكس في تفصيل غامض مبهم عن بديل لفكرة الحلم الأساسية.

إن ما أسميته بالنقل في الحلم أستطيع أن أسمّيه أيضاً: **قلب القيم النفسية**. والظاهرة تستأهل أن نتوقف عندها. سأضيف القول، إذاً، بأنني صادفت في التحاليل التي أجريتها لأحلام متباينة جميع درجات النقل والقلب تلك. فهناك أحلام لا يكاد يحدث فيها نقل أو قلب، وهي الأحلام المعقولة والمفهومة كتلك التي أتيت بذكرها في البداية والتي لا تعدو أن تكون رغبات معبَّراً عنها تعبيراً سافراً. وفي أحلام أخرى لا نجد، على العكس، عنصراً واحداً احتفظ بقيمته الحقيقية؛ فكل ما كان جوهرياً وأساسياً في الأفكار الكامنة نجده ممثَّلاً بتفاصيل ثانوية، ونكتشف بين هذه التفاصيل وتلك الأفكار سلسلة بكاملها من التحولات. وكلما كان الحلم أشدَّ إبهاماً وغموضاً وتشوشاً، توجَّب علينا أن نقيم المزيد من الاعتبار، بغية تأويله، لعامل النقل في تكوينه.

لقد تمّ النقل، في الحلم الذي أخضعناه للتحليل، على نحو **تمركز** معه مضمون الحلم الظاهر في نقطة مغايرة تماماً لتلك التي تمركز فيها مضمونه الكامن. فأول ما يبرزه لنا الحلم موقف: موقف المرأة التي يبدو عليها أنها تريد أن تمهِّد لوصال بيننا؛ أما ما يحتل مكانة الصدارة في الأفكار الكامنة فهو الأمنية التي عبَّرتُ عنها في التمتع ولو لمرة واحدة على الأقل في حب متجرد، حب «لا يكلِّف شيئاً»، وهذه الفكرة تختفي خلف الجملة المتعلقة بـ«العينين الجميلتين» وخلف كناية «السبانخ».

إذا فكَّكنا عن طريق التحليل عملية النقل في الحلم توصَّلنا إلى معلومات مؤكدة تماماً حول المعضلتين اللتين يدور حولهما نقاش حامي الوطيس: معضلة العامل الحاضّ على الحلم ومعضلة العلاقات بين الحلم وحياة اليقظة. فثمة أحلام تنمّ عن ارتباط مباشر بأحداث النهار، وثمة أحلام أخرى لا تبدو هذه الأحداث



تلعب فيها دوراً كبيراً. وعندما نستنجد في هذه الحال بالتحليل، نتبيَّن أن جميع الأحلام بلا استثناء يكمن جذرها في انطباع تمَّ تلقِّيه في العشية، أو بالأحرى أثناء النهار السابق للحلم. هذا الانطباع، الذي يمكن أن يسمى بالمحرِّض على الحلم، يكون أحياناً قوياً إلى درجة لا نعجب معها من كونه شغل اهتمامنا أثناء حالة اليقظة؛ وفي هذه الحال نقول بصواب إن حلم الليل إن هو إلا استمرار لمشاغل النهار. لكن مضمون الحلم لا يسترجع في غالب الأحيان من انطباعات سوى تفصيل صغير وعديم الدلالة إلى درجة تقتضي منا أن نقوم بجهد كي نعود إلى تذكُّره؛ وفي هذه الحال يبدو لنا مضمون الحلم، وإن يكن متماسكاً ومفهوماً، مؤلفاً من ترَّهات وسفاسف كثيرة على درجة ينتفي معها داعي الدهشة إذا ما رأينا الناس ينظرون بعين الازدراء بصفة عامة إلى جميع التظاهرات التي هي من هذا القبيل.

بيد أن التحليل يأتي ليكذِّب هذا الحكم بكشفه عما يختفي وراء الظواهر: فمن الممكن، في وهلة أولى، أن نحسب أن ظرفاً تافهاً غير ذي شأن، لكنه يحتل مكانة الصدارة، هو الحافز الذي حضّ على الحلم. بيد أننا سرعان ما سنكتشف، بواسطة التحليل، السبب الحقيقي للحلم، أي الظرف الذي كان على درجة كافية من الأهمية لاستثارته والذي حلّ محله الظرف الآخر لأن بينهما العديد من نقاط التماس. وحين يتبدى مضمون الحلم في شكل مجرد من المعنى والفائدة، يميط التحليل اللثام عن الدروب الجانبية التي تسلكها هذه العناصر العديمة القيمة لتنضمّ إلى عناصر أخرى لها أهميتها القصوى بالنسبة إلى نفسية الفرد الذي يحلم. وإنما إلى مفعول النقل ترجع علة ما يحدث في مضمون الحلم من إبدال للواقعة المثيرة للانفعال بحادث تافه، وللمواد المثيرة للاهتمام بمواد لا أهمية لها. واستناداً إلى هذا المكتسب الجديد نستطيع، على ما يخيَّل إليّ، أن نخطو الخطوة الأولى نحو حلّ المعضلة المزدوجة، معضلة الحضّ على الحلم ومعضلة العلاقات بين الحلم والحياة اليومية، وأن نقول:

إن الأشياء التي لا تثير الاهتمام أثناء النهار لا تكون مثيرة للاهتمام بالنسبة إلى الحلم، وإن الترهات التي لا تؤثر فينا في حالة اليقظة لا تكون مؤهلة هي



الأخرى لأن تلاحقنا أثناء رقادنا.

ولنعد إلى المثال الذي اقترحناه موضوعاً للتحليل ولنتساءل:

ماذا يمكن أن يكون المحرّض على الحلم؟ إنه يتمثل في واقعة غير ذات شأن، وذلك حين عرض عليّ صديق من الأصدقاء القيام بجولة بالركوب مجاناً في عربة. والموقف الحلمي، أي مائدة الضيافة، كناية عن تلك الواقعة غير ذات الشأن، على اعتبار أنني أقمت توازياً، أثناء حديثي مع الصديق المذكور، بين العدّاد ومائدة الضيافة. أما الواقعة الأساسية التي تختبئ هنا فتتمثل في أنني كنت أنفقت، قبل أيام قليلة، مبلغاً كبيراً من المال على شخص من أفراد عائلتي يعزّ عليّ. وفي عداد الأفكار الكامنة أجد افتراضي بأن ذلك الشخص المدين لي بالفضل سيعرب لي عن عرفانه بالجميل، ولكن من دون أن تكون مشاعره نحوي منزَّهة عن الغرض. والحب المتجرد هو الذي يحتلّ مكانة الصدارة في مضمون الحلم الكامن. وكنت قد صحبت ذلك الشخص في مناسبات عدة في العربة، وهكذا تكون الجولة التي قمت بها عشية مع أحد الأصدقاء قد أعادت إلى ذاكرتي الجولات التي قمت بها في وقت سابق. والحادث التافه، الذي تحوَّل إلى محرِّض على الحلم بفعل عملية ربط ووصل من ذلك النوع، يخضع لشرط منعدم الوجود بالنسبة إلى منبع الحلم الحقيقي: إذ لا بدّ بالحتم والضرورة أن يكون حديث العهد، أي أن يكون قد حدث في النهار السابق للحلم.

لا أستطيع أن أدع جانباً فكرة النقل في الحلم من دون أن أشير إلى مثال يتضافر فيه التكثيف والنقل لإنتاج مفعول حلمي. لقد سبق أن عرضنا الحالة التي تندمج فيها فكرتان حلميتان لهما نقطة تماس واحدة لتدخِلا على مضمون الحلم الظاهر فكرة مزيجة، فكرة ستتطابق نقطتها المركزية القابلة للفهم مع التفصيل المشترك، بينما لن يكون هناك من تمثيل في الحلم للتفاصيل الخاصة بكل واحدة من الفكرتين إلا بواسطة لواحق مبهمة. وإذا انضاف إلى عمل التكثيف هذا عمل نقل، فلن يعود ينجم عن ذلك فكرة مزيجة، وإنما **عنصر وسيط مشترك** لا أستطيع أن أشبِّهه، بدالّة الفكرتين البدائيتين، إلا بمحصلة متوازي أضلاع القوى بدالّة مركباته.



كان موضوع واحد من أحلامي، على سبيل المثال، الحقن بالبروبيلين[1]. وعند التحليل لم أجد في البداية من محرِّض على الحلم سوى ظرف تافه يلعب فيه الأميلين[2] دوراً ما. ولكن ذلك لا يفسّر كيف تحول الأميلين إلى بروبيلين. بيد أن ذكرى زيارتي الأولى لميونيخ تنتمي إلى حلقات أفكار ذلك الحلم عينه، وهي الزيارة التي شُدهت فيها بمنظر البروبيليا[3]. وتبيح لنا ظروف التحليل الأخرى أن نقبل بأن يكون تأثير هذه الحلقة الثانية على الأولى هو الذي أدى إلى تحوّل الأميلين إلى البروبيلين. وبذلك يكون البروبيلين، إذا جاز التعبير، تمثيلاً أوسط للأميلين والبروبيليا، وعبر ضرب من **التسوية** شقّ طريقه إلى الحلم بسبب بالفعل المتواقت للتكثيف والنقل.

ومن منظور مفعول النقل هذا، تكون المهمة الأعجل، على ما يخيَّل إلينا، هي أن نكتشف من أين تأتي هذه المفاعيل الملغزة لعمل الحلم.

١ ـ البروبيلين: غاز قابل عن طريق التبريد للتمييع، ويستعمل في البلدان الباردة كغاز للتدفئة. «م».

٢ ـ الأميلين: سائل كيميائي عادم اللون وسريع التبخر ويستعمل كمخدر. «م».

٣ ـ البروبيليا: اسم مدخل المعابد أو بوابتها عند الإغريق. وقد شُيّد في القرن التاسع عشر نموذج مكبَّر منه في القصر الملكي في ميونيخ. «م».



(٦)

عندما لا نجد أو لا نتعرّف أفكار الحلم في مضمون الحلم ـ وهذا بدون أن يتاح لنا أن نحزر علة مثل هذا التحريف ـ فعلينا في المقام الأول أن نعزو ذلك إلى عمل النقل. وفي وسعنا، لو أنعمنا النظر، أن نكتشف في عمل الحلم ظاهرة أخرى أقل فاعلية من ظاهرة النقل، لكنها تسهم بقسطها هي الأخرى في تحويل الأفكار الكامنة بحيث يتعذّر تعرُّفها. فحين يقودنا التحليل إلى التحقق من هوية بعض هذه الأفكار، يندر ألا نباغت بادئ الأمر بتنكّرها الغريب. فهي لا تمثُل لنا في الشكل اللفظي، البسيط إلى أبعد الحدود، الذي اعتدنا أن نلبِسه أفكارنا، بل تجد في غالب الأحيان وسيلة تعبير رمزية، وسيلة الشاعر الذي يملأ قصائده بالتشابيه والاستعارات. ولا يشقّ علينا، على كل حال، أن نفهم الدافع إلى مثل هذا المنحى شبه الإلزامي في التعبير عن أفكار الحلم؛ فنظراً إلى أن مضمون الحلم الظاهر لا يتألف إلا من مواقف بصرية، فلا مفرّ من أن تتعرض الأفكار الكامنة حتى تأخذ مكانها فيه لعملية تنكير تجعلها قابلة للاستعمال في مثل هذا النمط من التمثيل. لنتخيَّل مثلاً أنه قد طُلب منا أن نستبدل عبارات مقال صحفي أو جمل مرافعة في محكمة التمييز بسلسلة من الرسوم، فعندئذ نفهم بلا مشقة طبيعة التعديلات التي ينبغي على العمل الحلمي أن يخضِع لها الأفكار الكامنة **حتى تصبح قابلة لعرض بصري.**

وغالباً ما نعثر في المعين النفسي الذي يغذي أفكار الحلم على ذكريات أحداث معاشة، ذات وقع في النفس، يعود أصلها في غالب من الأحيان إلى الطفولة الأولى. وهذه الأشياء تزوِّد الحلم بموقف يتجلى على الدوام في شكل بصري، وهي تؤلف عنصراً بالغ الأهمية، لأنها تمارس على تكوين الحلم تأثيراً فعالاً يكون بمثابة نواة للتبلور تصطفّ وتتجمَّع حولها بقية المادة الحلمية.



وبذلك يسعنا أن نقول إن جميع المواقف تقريباً التي تعرضها علينا أحلامنا ليست شيئاً آخر سوى نسخ، مزيدة ومعاد فيها النظر على نطاق واسع، عن بعض من تلك الذكريات الفاعلة في النفس. ومن النادر، على العكس من ذلك، أن يقدم لنا الحلم صورة صادقة وطبق الأصل عن مشهد من مشاهد حياة اليقظة.

بيد أن مضمون الحلم الظاهر ينطوي أيضاً على شيء آخر غير المواقف. إذ تنضاف إليها فيه صور بصرية مجزَّأة ومفكَّكة وغير متلاحمة، وشذرات من كلام وأحاديث، وأحياناً جزء من جملة مبتسرة. ولا شك في أن الأمر لن يخلو من فائدة لو استعرضنا بسرعة جميع هذه الوسائل التعبيرية التي هي الوسائل المستخدمة من قبل العمل الحلمي لإرجاع مجموعة الأفكار الكامنة إلى الشكل الوحيد المطابق للحلم والموائم له.

إن الأفكار الكامنة التي يزيح التحليل النقاب عنها تبدو لنا أشبه بمجمَّع نفسي هندستُه متداخلة إلى غير ما حدود، وعناصره تقيم فيما بينها علاقات هي من أشدّ العلاقات تبايناً؛ فتارة تحتل مكانة الصدارة وطوراً تتراجع إلى المؤخرة، وهي تشكل شروطاً واستطرادات وتفسيرات وتبريرات ومتطلبات. وهناك على الدوام تقريباً إلى جانب كل مجموعة أفكار متداعية مجموعة أفكار متداعية أخرى تناقضها؛ وهذه المادة تتَّسم في خاتمة المطاف بنفس السمات التي يتَّسم بها فكرنا في حالة اليقظة. وحتى يتحول هذا كله إلى حلم، فلا بدّ أولاً أن تخضع المادة الحلمية لضغط تكون نتيجته الأولى تكثيف هذه المادة، ونتيجته الثانية تفتيت عناصرها الداخلية. وهذه العناصر، المجزأة على هذا النحو إلى ما لا نهاية، ستعيد بناء نفسها على أصعدة جديدة. وفي نهاية المطاف يأتي عمل الفرز والانتخاب ليقصي كل ما لا يتفق من هذه المادة الحلمية الجديدة مع التمثيل العيني وكل ما لا يصلح له. ونظراً إلى أصول هذه المادة، يمكننا أن نرى إلى كل السيرورة التي أتينا بوصفها على أنها سيرورة **نكوص**. فالروابط المنطقية التي كانت تربط الأفكار الكامنة فيما بينها تضمحل تماماً حالما يتكون الحلم الظاهر، إذ لا يعود العمل الحلمي يمارس تأثيره إلا على المضمون القابل للاستعمال من الأفكار

الكامنة. وإنما على عاتق التحليل تقع مهمة إعادة بناء التسلسلات والعلاقات المنطقية فيما بين هذه الأفكار.

لنلاحظ هنا كم هي محدودة الوسائل التعبيرية المتاحة للحلم بالمقارنة مع وسائل لغة فكرنا في حالة اليقظة. بيد أن الحلم لا ينكص بوجه عام عن إعادة إنتاج العلاقات المنطقية الرابطة بين المواد الحلمية؛ بل هو يفلح على العكس في غالب الأحيان في استبدال هذه العلاقات بقسمات صورية من نسيجه الذاتي.

بيد أنه لا غنى له، قبل ذلك، عن أن يتوافق مع طبيعة الترابطات القائمة بين مختلف أجزاء الأفكار الحلمية، وذلك بقدر ما أن الحلم يربط كل هذه المادة بموقف بعينه. فهو يعيد على هذا النحو إنتاج **رابطة منطقية** على سبيل **التقريب في الزمان والمكان**، مثله في ذلك تقريباً مثل الرسام الذي يصور مجموعة من الشعراء الملتئم شملهم فوق جبل البارناس[1]، مع علمه الأكيد أن نماذجه لم تجتمع قط في قمة جبل وأنها لا تشكّل جماعة إلا بالفكر. وهذا الأسلوب في التصوير هو ما يتقيَّد به الحلم في تفاصيله. فحين يقرِّب الحلم بين عنصرين في مضمونه، فهذا معناه أن هناك صلة حميمة بين الأفكار الكامنة التي يمثِّلها هذان العنصران. والجدير بالملاحظة هنا أن جميع الأحلام المحلوم بها في ليلة واحدة تتكشَّف، عند التحليل، عن أنها تنتمي إلى حلقة واحدة من الأفكار.

إن **الرابطة السببية** بين فكرتين يمكن أن تكون مغيَّبة كما يمكن أن تكون مستبدلة **بتعاقب** شذرتين حلميتين غير متعادلتين في طولهما. وكثيراً ما تكون هاتان الشذرتان معكوستين، فتمثِّل الأولى النتيجة والثانية المقدمة. واعتقادنا أن كل **تحول** مباشر من شيء إلى آخر يمثِّل في الحلم علاقة **علة بمعلول**.

إن الحلم لا يقبل التخيير بين «إما» أو«إما»، ولكنه يجمع بين هذين الحدَّين كليهما في حلقة واحدة. وكما سبق لي القول، فإن «إما» أو «إما» في مضمون الحلم الكامن تستبدل في المضمون الظاهر بحرف العطف «و».

وتعبِّر التصورات المتناقضة عن نفسها في الحلم في صورة عنصر واحد أوحد

١ ـ البارناس: جبل في اليونان تعتبره الميتولوجيا المقرّ التقليدي لربات الفن التسع. «م».



بصورة دائمة تقريباً[٢]. ويبدو أن الـ «لا» فيه مجهولة. فالتعارض بين فكرتين، **تعاكسهما**، يجد في الحلم تعبيراً مميَّزاً للغاية عنه: إذ تتحول فيه شذرة أخرى من المضمون، كما لو بعد فوات الأوان، إلى نقيضها. وسوف نرى فيما بعد ما الطريقة الأخرى التي يمكن بها للحلم أن يعبِّر عن **التناقض**. ولنقل أيضاً إن الإحساس في الحلم **باستحالة التحرك** هو إحساس متواتر، يدلّ على أن النائم واقع تحت وطأة دافعين متعاكسي الاتجاه ينجم عنهما اصطراع في الإرادة.

ويبدو أن علاقة واحدة من العلاقات المنطقية ـ وهي علاقة **التماثل والتوافق في السمات المشتركة** ـ تحظى بالتفضيل إلى أعلى درجة من قبل آلية تكوين الحلم. وعمل الحلم يستخدم هذه الطرائق كنقطة ارتكاز ليدعم بها عمله التكثيفي، وذلك بجمعه شمل جميع العناصر المتوافقة بقدر أو بآخر في **وحدة واحدة جديدة**.

وغني عن البيان أن هذا التعداد البالغ الإيجاز لبعض الملاحظات الأولية لا يكفي لإعطاء فكرة عن العدد اللامتناهي من الوسائل التشكيلية المتاحة للحلم كي يمثِّل العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم. فالأحلام المختلفة تصاغ من هذا المنظور بقدر يكبر أو يصغر من التدقيق أو التهاون، وتتقيَّد بقدر يكبر أو يصغر أيضاً بالنص المتاح لها، وتستخدم بقدر يكبر أو يصغر كذلك الطرائق التي يعتمدها عمل الحلم. أما في الحالة الثانية فإن الأحلام تتبدى لنا على أشدّ ما تكون من الغموض والإبهام وعدم الترابط. لكن الجدير بالملاحظة هو أن المضمون الظاهر حين يشطّ في عبثيته ولامعقوليته، وحين ينطوي على تناقض فاضح صارخ، يكون على الدوام وراء ذلك نية خفية، وغالباً ما نكتشف تحت ستار هذه الازدراء الظاهر لقواعد المنطق إشارة إلى المضمون العقلي لأفكار الحلم. فالعبث في مضمون الحلم الظاهر يعني، في مضمونه الكامن، **مشاكسة أو هزءاً أو ازدراء**. ولما كان هذا التفسير يمثِّل أقوى حجة ضد التصور الذي يبغي أن يعزو

٢ ـ هامش أضيف سنة ١٩١١: أكد علماء لغة بارزون أن المفاهيم المتناقضة مثل (القوي ـ الضعيف) و«الداخل ـ الخارج) لا تملك في أقدم اللغات الإنسانية سوى كلمة واحدة للتعبير عنها. فالكلمات البدائية مزدوجة المعاني.



تكوين الحلم إلى نشاط ذهني مبتسر ومفكك وعادم المنطق، فمن الواجب أن ندعمه هنا بمثال:

حلمت بأن رجلاً من معارفي، م. هـ، تعرض أثناء مجادلة لانتقاد عنيف من قبل خصم هو غوته[3] العظيم بعينه. وكان ذلك التهجم، في رأينا جميعاً، ظالماً بقدر ما هو عنيف. وقد شعر م. هـ على إثر ذلك بسمعته تتضاءل شأناً. وقد اشتكى من ذلك بمرارة على مائدة الضيافة. بيد أن هذا الحادث لم يؤثر البتة على حماسته لغوته. وقد سعيت من جانبي إلى تسليط الضوء على بعض نقاط تتصل بالتسلسل التاريخي، بدت لي بعيدة عن الحقيقة. فقد توفي غوته في عام ١٨٣٢. ولا بدّ بالتالي أن تكون مجادلته مع م. هـ قد دارت في زمن سابق... لكن م. هـ كان في ذلك الوقت فتى يافعاً. وبعد إمعان التفكير، يبدو لي أنه من المعقول التسليم بأنه كان في الثامنة عشرة من العمر. لكنني لا أعرف على وجه التحديد في أي عام نحن. وعليه، إن حسابي كله يكتنفه الظلام. أضف إلى ذلك أن كل تلك المجادلة متضمنة في مقالة غوته الشهيرة: «الطبيعة»![4].

إن لامعقولية هذا الحلم تتضح بمزيد من الجلاء أيضاً إذا علمنا أن م. هـ رجل أعمال صغير السن ولا يكترث بتاتاً بالشعر والأدب. وسوف نحاول الآن أن نعرض مضمون الحلم ونشرحه عن طريق التحليل، وأن نميط اللثام عن كل المنطق الذي يختبئ وراء تلك اللامعقولية.

إن هذا الحلم يستمدّ مادته من ثلاثة مصادر:

١ ـ رجاني ذات يوم م. هـ، الذي تعرفت إليه على مائدة ضيافة، أن أفحص أخاه الأكبر الذي تصدر عنه علائم اختلال عقلي. وفيما كنت أتحدث مع المريض فوجئت به يلمِح، بلا أي استثارة من جانبي، إلى **طيشنات أخيه في فتوّته**. وكنت قد سألته عن تاريخ ميلاده (تاريخ الموت في الحلم)، وحرَّضته على

٣ ـ يوهان غوته: كبير الكتاب والشعراء الألمان (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢). «م».

٤ ـ **الطبيعة**: مقالة منشورة لغوته كتبها سنة ١٧٨٣ ونشرها في كتابه **تحولات النباتات**. «م».



إجراء بعض الحسابات أمامي حتى آخذ فكرة عن بعض مظاهر الخلل في الذاكرة.

٢ ـ كانت مجلة طبية، كنت عضواً فيها، قد نشرت، تحت اسم محرر صغير السن للغاية، نقداً عنيفاً لكتاب واحد من أصدقائي، ف، من برلين[٥]. وقد سألت رئيس التحرير أن يتدارك الأمر ويردّ الاعتبار لصديقي. بيد أنه رفض، مع إعرابه عن شديد أسفه، القيام بأي شكل من أشكال التصويب. وفي أعقاب ذلك قطعت صلاتي بالمجلة، لكني عبرت عن الأمل، في رسالة الوداع، **بألا تتأثر علاقاتنا الشخصية بسبب ذلك الحادث**. هنا يكمن المنبع الحقيقي للحلم. فقد حزّ في نفسي الاستقبال السيِّئ الذي قوبل به كتاب صديقي، ولا سيما أن هذا الكتاب اشتمل على اكتشاف بيولوجي أعتبره أساسياً ولم يشرع الخبراء ـ بعد العديد من الأعوام ـ بتقديره إلا اليوم فقط.

٣ ـ كانت واحدة من مريضاتي قد روت لي قبيل ذلك الزمن بقليل قصة مرض شقيقها الذي ألمَّت به نوبة هذيان حادّ بدأت بصرخة: «**طبيعة، طبيعة!**». وقد ارتأى الأطباء أن هذه الصرخة مستوحاة من مطالعة مقالة غوته الجميلة وأنها تقدِّم برهاناً قاطعاً على أن المريض أرهق قواه في أثناء دراسته. **أما أنا فقد بدا لي أنه من المعقول** أن تؤخذ صرخة الـ «طبيعة» تلك بالمعنى الجنسي الذي يعرفه جميع الناس عندنا، جاهلُهم وعالمُهم على حدّ سواء[٦]. ولم يخطِّئني مجرى الأحداث، لأن ذلك التعيس بتر أعضاءه التناسلية فيما بعد. وكان في الثامنة عشرة حين حدثت النوبة.

وإن ما يختبئ تحت «الأنا»، في المضمون الظاهر لهذا الحلم، هو شخص ذلك الصديق الذي أساء النقد معاملته. «**وقد سعيت من جانبي إلى تسليط الضوء على بعض نقاط تتصل بالتسلسل التاريخي**». فكتاب صديقي يعالج على وجه التحديد، من وجهة نظر بيولوجية، بعض الظروف الكرونولوجية؛ ومن ذلك أنه

٥ ـ الإحالة الضمنية هنا إلى كتاب فلهلم فليس الصادر عام ١٨٩٧ تحت عنوان: **العلاقات بين الأنف والأعضاء التناسلية لدى المرأة**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٦ ـ يطلق اسم «الطبيعة» في اللغة العامية الدارجة في النمسا على الأجزاء التناسلية كما على المني. «م».



يقسّم حياة غوته إلى عدد من المراحل. والحلم يماهي هذا «الأنا» برجل مصاب بشلل عام: «**لا أعرف في أي عام نحن**». إذاً، صديقي هو من يتصرف في الحلم كمجنون. لكن أفكار الحلم الكامنة تقول بسخرية: «أهو الآن المأفون، المجنون... وأنتم الذين تنتقدونه يا أهل العبقرية! أليس **العكس** هو الصحيح بالأحرى؟». هذا **القلب** سيتبنّاه الحلم الذي سيرينا غوته وهو ينهال بالتقريع الشديد على فتى ـ وهذا موقف لامعقول ـ مع أن العكس، أي قيام مراهق بتوجيه الانتقاد إلى غوته العظيم، هو الذي يمكن أن يحصل في أيامنا.

إنني أحرص على التوكيد بأن الحلم لا يستوحي أبداً غير المشاعر الشخصية؛ وشخصيتي في الحلم الآنف الذكر هي المتمثِّلة بـ «الأنا» حتى قبل شخصية صديقي. وإذا كنت قد تقمصت شخصية هذا الصديق، فهذا لأن مصير اكتشافه يرمز في نظري إلى نجاح نظريتي الخاصة. فيوم سأعرض هذه النظرية، التي تبرز أهمية الجنس في إتيولوجيا جميع الاضطرابات النفسية العصابية (راجع تلميحي إلى المريض الذي في الثامنة عشرة: «**طبيعة، طبيعة...**»)، فلا شكّ في أنني سألاقي الانتقادات نفسها التي أقابلها من اليوم بالذات بشعور مماثل من السخرية.

إذا تابعنا تحليل هذا الحلم، لاحظنا أن **جميع ضروب العبث** التي يمكن أن نصادفها فيه تعود في أصلها إلى **شعور الهزء والازدراء**. فمعروف أن غوته ابتدع نظريته عن الفقرات القحفية في البندقية حين التقط في الليدو[٧] بقايا قحف خروف. والحال أن صديقي يتباهى بأنه نظّم، حين كان طالباً، حملة صاخبة ليحصل على معاش تقاعدي لأستاذ مسنّ كان فيما مضى نابهاً (على وجه التحديد في ذلك الفرع من التشريح المقارن)، لكنه بات عاجزاً عن التعليم بسبب **خرف الشيخوخة**. وكانت الحركة التي قام بها صديقي هي وحدها القمينة بتدارك الأمر، لأنه لم يكن هناك وجود لسقف العمر للتعليم في الجامعات الألمانية التي تتناسى أن **السن ليست ضمانة ضد البلاهة**. وكان أتيح لي، في مستشفى

٧ ـ الليدو: مجموعة جزر قرب البندقية تشكِّل ميناءها. «م».



تلك المدينة، شرف العمل طوال سنوات تحت إشراف رئيس كان **قد تحجَّر** منذ زمن طويل وصار، في رأي الجميع، **أبله الذهن**، من دون أن يفكِّر أحد بتجريده من أي من مسؤولياته. والحق أن ثمة علاقة تفرض نفسها بين هذا التفصيل وبين اكتشاف الليدو[٨]. فقد ألَّف ذات يوم زملائي الشبان في المستشفى بصدد ذلك الرئيس محاكاة ساخرة لأغنية شعبية كانت رائجة في تلك الأيام: «**ليس غوته من كتب هذا... وليست هذه الأشعار لشيلر...**»، إلخ[٩].

٨ ـ تلميح من فرويد هنا إلى الترادف في المعنى بالألمانية بين القحف (= رأس الخروف) وبين البلاهة[*]. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) في العامية المشرقية أيضاً يقال للأبله «رأس خروف». «م».

٩ ـ بيتان من زجلية شعرية لجورج فايسنبرغ (١٨٥٠ ـ ١٨٩٦). «م».

(٧)

لم ننتهِ من دراسة عمل الحلم. إذ لا بدّ أن نضيف إلى تكثيف المادة النفسية ونقلها وإخراجها البصري نشاطاً آخر أيضاً. وهذا النشاط لا يسهم بالضرورة في كل تكوين حلمي، ولنقل ـ من دون أن ندخل في مناقشة تفاصيله ـ إنه كي يسعنا أن نتصوره بشيء من الدقة فلا مناص من التسليم بفرضية ـ غير صحيحة ربما ـ تقول بأنه نشاط **لا يؤثر على مضمون الحلم إلا بعدياً**، وإلا بعد أن يكون هذا المضمون قد تكوَّن. ويكمن عمل الحلم عندئذ في التصرف بمكوِّنات الحلم وترتيبها على نحو تتحول معه إلى منظومة متلاحمة، إلى تمثيل منظَّم. هكذا يكتسب الحلم ضرباً من واجهة غير كافية، في الحقيقة، لتغطية جميع أجزائه؛ بيد أنه يتلقى، عن طريق بعض الوصلات وبعض التعديلات الطفيفة، تأويلاً أولياً وتقريبياً. وبديهي أن هذه المعالجة لمضمون الحلم لا تغدو ممكنة إلا بشرط أن تبقى سطحية، وهي لا تقدِّم على كل حال سوى تأويل خاطئ لأفكار الحلم الكامنة. وعندما نتصدى لتحليل الحلم يتوجَّب علينا أولاً أن ننعتق من تلك المحاولة التأويلية.

ما هو إذاً حافز هذا القسم الأخير من العمل، هذه المراجعة الختامية لمضمون الحلم؟ من اليسير أن نرى أن الهدف الأوحد من ذلك هو جعل الحلم **قابلاً للفهم**، ومن هنا ندرك ما طبيعة ذلك النشاط وما أصله. فهو يتعامل مع مضمون الحلم المقدَّم له بالطريقة نفسها التي يتعامل بها نشاطنا النفسي العادي مع كل ما يعرض له من مواضيع الإدراك الحسّي؛ فنشاطنا النفسي يتعقل هذه المواضيع بالاستعانة بما في حوزته من تصورات قَبْلية، وينظِّمها حسب حظِّها من القابلية للفهم، مجازفاً بالتالي بالوقوع في سوء الفهم؛ وهذا لأن موضوع الإدراك الحسي إذا يكن لم قابلاً للمماثلة مع أي موضوع آخر معروف، فإن تأويله سيكون عرضة



للوقوع في أغرب الأخطاء. وكل واحد منا يعلم أننا نعجز عن إنعام النظر في مجموعة من الإشارات الغريبة أو الكلمات المجهولة من دون أن تحملنا على التفكير للحال بالألفاظ المعروفة التي تشبهها أكثر من غيرها والتي نجد في أنفسنا ما يغرينا بمماثلتها بها.

إن الأحلام التي أعيد الشغل بها على هذا النحو من قبل نشاط نفسي مماثل تماماً لفكرنا في حالة اليقظة يمكن أن توصف بأنها أحلام **جيدة التركيب**. وهناك أحلام أخرى لا يؤثر فيها هذا النشاط ولا يترك بصماته عليها، بل لا يبذل أي محاولة لإقرار النظام فيها ولإسباغ معنىً عليها؛ وحين نستيقظ نحكم على الصور التي علقت في ذاكرتنا بأنها مفككة وغير متلاحمة بالمرة. لكن هذه الكومة من المواد المتنافرة لها، من وجهة النظر التحليلية، نفس القيمة التي لحلم سطحي الترتيب. بل لعل الحالة الأولى ستغنينا عن مشقة القيام من البداية بعملية تفكيك لترتيب مؤقت.

ولكن يخطئ مع ذلك من لا يريد أن يرى في واجهة الحلم الأولى هذه سوى غلطة أو نزوة من قبل نشاطنا النفسي الواعي. فبناء هذه الواجهة يكون قد استوجب، على العكس، عدداً معيّناً من أخاييل رغبية مشابهة لتلك التي نلقاها في أفكار الحلم الكامنة والتي هي من نفس طبيعة الأخاييل الرغبية التي نعرفها في حالة اليقظة ونسمّيها بحق «أحلام يقظة». هذه الأخاييل الرغبية، التي يكتشفها التحليل في الحلم الليلي، تتبدى لنا فيه في صورة مشاهد طفلية معاد النظر فيها ومحوّرة بقدر أو بآخر. إنها واجهة الحلم، ويسهل علينا في أغلب الحالات أن نضع أصبعنا فوراً على نواتها الرئيسية التي تشوَّهت نتيجة لاختلاطها بمواد أخرى.

إن أشكال النشاط الأربعة التي أتينا بذكرها هي وحدها التي تؤلّف عمل الحلم. وإذا تمسَّكنا بتعريفنا لهذا العمل بقولنا إنه تحويل الأفكار الكامنة للحلم إلى مضمونه الظاهر يترتب علينا أن نقول إن عمل الحلم لا يكون أبداً مبدعاً خلاقاً، وإنه لا يتخيَّل شيئاً من عندياته، ولا يصدر حكماً ولا يخلص إلى نتيجة. وقوام نشاطه محض تكثيف لمادة الحلم ونقلها وتحويرها بغرض تمثيل بصري. وفي نهاية



المطاف، ينضاف إلى ذلك كله العمل التأويلي المتمّم الذي أشرنا إليه. وصحيح أننا نصادف في مضمون الحلم عدداً لا بأس به من العناصر التي قد نجد ما يغرينا بأن نعتبرها نتيجة نشاط عقلي من نمط أعلى، لكن التحليل ماثِل بين أيدينا ليبرهن لنا على أن **هذه العمليات العقلية تمّت من قبل في أفكار الحلم الكامنة، وأن مضمون الحلم اكتفى بنسخها طبق الأصل.** فإذا ما صادفنا في الحلم استنتاجاً منطقياً، فإنه لا يعدو أن يكون استنساخاً وتكراراً لاستنتاج مستخلص من أفكار الحلم؛ وهذا الاستنساخ لا يصدمنا حين يندرج بلا تحريف في مضمون الحلم، لكنه يمسي عبثياً ومخالفاً للمعقول حين يسحبه عمل الحلم على مواد أخرى. كذلك، إن وجود عملية حسابية في مضمون الحلم يعني فقط أنه كانت هناك عملية حسابية مماثلة بين الأفكار الحلمية الكامنة، والفارق الوحيد أن العملية الحسابية الأولى كانت صحيحة، بينما نجدها تتمخض عن أغرب النتائج وأكثرها شططاً حين تتظاهر مجدداً في المضمون الظاهر عقب تكثيف عواملها وسحب عملياتها على مواد أخرى. وحتى الأقوال التي نلقاها في مضمون الحلم ليست البتة أقوالاً أصلية، وإنما هي فسيفساء نلقى فيها نُبذاً مختلفة مقتبسة من أقوال يمكن أن يكون النائم قد نطق بها أو سمعها أو قرأها؛ فاحتفظت الذاكرة بتلك النبذ، ونسخها الحلم بحذافيرها، لكنه نسي موضوعها وحوّل معناه بقدر كبير من الفظاظة.

ولعل الأمر لا يخلو من فائدة إذا دعمنا هذه التوكيدات الأخيرة ببعض أمثلة:

١ ـ إليكم حلم واحدة من مرضاي، وهو حلم حسن الترتيب، وبريء للغاية للوهلة الأولى:

ذهبت هذه السيدة إلى السوق بصحبة طاهيتها التي تحمل السلة. وتقدمت بطلبها إلى الجزار، فأجاب: «هذا ما عاد يوجد منه»، وأراد أن يعطيها قطعة أخرى قال عنها إنها من نفس النوع؛ لكنها رفضت وتحوَّلت عنه إلى بائعة الخضار. وقدّمت لها هذه المرأة خضرة غريبة المظهر، ضاربة إلى السواد، ومربوطة في شكل حزمة. فقالت: «إنني لا أعرف هذا، لن آخذ منه».

إن أصل جملة: «**هذا ما عاد يوجد منه**» مرجعه إلى عيادتي بالذات. فقد



كنت قلت بنفسي للمريضة، قبل أيام قليلة، إن ذكريات الطفولة الأولى لا تعود موجودة كما هي، لكن نظلّ نصادفها في الأحلام وقد تبدَّل موضعها. إذاً، الجزار هو الذي يمثِّلني هنا.

وتنتمي الجملة الثانية: «**إنني لا أعرف هذا**» إلى تداعي أفكار آخر. فقد كانت تلك السيدة أنَّبت البارحة طاهيتها، وهي عينها التي تلعب دوراً في الحلم، وقالت لها «**اسلكي سلوكاً لائقاً، إنني لا أعرف هذا..**»، أي لا أسمح، لا أريد أن أرى مثل هذا السلوك. وقد تعرَّض القسم المنعدم الدلالة من هذا الكلام لنقل جعله يظهر في مضمون الحلم. أما في أفكار الحلم فإن القسم الآخر هو وحده الذي لعب دوراً، وإليكم كيف حدث ما حدث: فالموقف الذي لم يكن له من وجود إلا في مخيِّلة النائمة، والذي أكون بمقتضاه قد سلكت أنا نفسي تجاه تلك السيدة مسلكاً غير لائق بنوع ما، قد حوَّله عمل الحلم على نحو بات يصعب معه تعرُّفه وأسبغ عليه مظهراً بريئاً تماماً. وما ذلك الموقف المتخيَّل بدوره إلا محاكاة لموقف وجدت فيه المريضة نفسها فعلاً في زمن سابق.

٢ ـ إليكم حلماً عديم الدلالة في الظاهر، تظهر فيه أرقام:

حلمت امرأة بأنها تريد أن تسدد دفعة ما، فأخذت ابنتها كيس النقود من يديها وأخرجت منه ٣ فلورنات و٦٥ كروزيراً. عندئذ قالت لها: «ماذا تفعلين؟ هذا لا يكلِّف سوى ٢١ كروزيراً!»[1].

كانت المرأة التي حلمت هذا الحلم أجنبية. وكانت قد وضعت ابنتها في معهد للبنات في فيينا، وعقدت العزم على الاستمرار في المعالجة عندي ما دامت طفلتها مقيمة في تلك المدينة. وفي عشية الحلم، سألتها مديرة المدرسة الداخلية هل تزمع أن تترك لها ابنتها عاماً آخر، مما يعني أن أمد معالجتها عندي سيطول لمدة عام أيضاً. وحتى نجد معنى لأرقام الحلم ينبغي أن نتذكر القول القائل إن «الوقت من فضة». والسنة تتألف من ٣٦٥ يوماً. وإذا ترجمنا ذلك إلى كروزيرات تكون النتيجة ٣٦٥ كروزيراً، أو ٣ فلورانات و٦٥ كروزيراً. أما

١ ـ الفلوران: عملة نمساوية قديمة تعادل (١٠٠) كروزيراً. «م».



الـ(**٢١ كروزيراً**) فهي تناظر الـ (**٣ أسابيع**) التي كانت لا تزال تفصل في تلك اللحظة يوم الحلم عن نهاية الدروس وعن نهاية المعالجة عندي. وظاهر للعيان أن اعتبارات مالية هي التي جعلت تلك السيدة تقرِّر رفض اقتراح المديرة، وهي التي حدَّدت أيضاً ضآلة المبلغ المعلن عنه في الحلم.

٣ ـ علمت امرأة في مقتبل العمر، مضى على زواجها عدة سنوات، أن واحدة من معارفها تضاهيها عمراً، الآنسة إليزا. ل، قد عقدت خطوبتها. وفي الليلة التالية حلمت الحلم التالي:

إنها في المسرح مع زوجها. وكان عدد لا بأس به من المقاعد في الصالة لا يزال خالياً. وقال الزوج إن إليزا. ل وخطيبها كانا يزمعان المجيء، ولكن لم يكن قد تبقى إلا مقاعد خلفية بـ ١ فلوران و٥٠ كروزيراً لكل ثلاثة، فارتأيا أنه من غير الممكن القبول بتلك المقاعد. فأجابته قائلة إن المصيبة، على كل حال، ليست كبيرة.

إن ما يستأثر باهتمامنا هنا أن نعلم كيف يعود أصل الأرقام إلى أفكار الحلم الكامنة، وما التحولات التي طرأت على هذه الأرقام. من أين جاء مبلغ الـ ١ فلورن والـ ٥٠ كروزيراً؟ جاء من حادث غير ذي شأن حدث عشية: فقد تلقت أخت زوج تلك السيدة على سبيل الهدية من زوجها مبلغاً مقداره ١٥٠ فلوراناً، **فسارعت** تنفقه بشراء حلية. ولنلاحظ أن ١٥٠ فلوراناً تعادل مئة ضعف ١ فلوران و٥٠ كروزيراً. أما بالنسبة إلى رقم **ثلاثة** المقترن بسعر تذاكر المسرح، فلا نجد سوى تداعٍ واحد: فالخطيبة، إليزا. ل، تصغر صديقتها بثلاثة شهور. وموقف الحلم يحاكي مغامرة بسيطة كانت لأكثر من مرة سبباً لمضايقات بين الزوجين: فقد كانت المرأة الصبية **تعجلت** شراء تذاكر المسرح سلفاً ودخلت إلى القاعة في وقت كان لا يزال فيه جانب بكامله من الصالة خالياً. لم تكن إذاً فائدة ترجى من التعجل. ولنلاحظ أخيراً أن هذا الحلم ينطوي على ضرب من العبث: قيام شخصين بشراء ثلاث بطاقات دخول إلى المسرح.

لا شك في أن أفكار الحلم الكامنة هي التالية: «كنت **بلهاء** إذ تزوجت مبكراً! **ما كانت حاجتي إلى هذا القدر من التعجل**؟ ومثال إليزا. ل خير دليل على أنه



كان في وسعي على الدوام في النهاية أن أجد زوجاً، وما كان عليّ إلا أن أنتظر. ولو كنت فعلت لحصلت على (زوج أو حلية) أفضل **بمئة مرة**. ومقابل ذلك المال (بائنتي) كان في وسعي أن أشتري **ثلاثة** من هذه الأنواع»[٢].

٢ ـ بالألمانية MANNER، وهي تعني أيضاً الرجال. «م».



(٨)

بعد استعراضنا لطرائق عمل الحلم، قد نجد ما يغرينا بأن نرى في هذا العمل سيرورة نفسية من نوع خاص غير قابلة للمقارنة، على حدّ علمنا، بأي شيء آخر. ولعله لن يتخلف عن أن يبعث فينا بعض الدهشة والحيرة التي طالما بعثها، على مرِّ الأزمان، نتاجه، أي الحلم نفسه.

في الواقع، ليس عمل الحلم سوى السيرورة الأولى التي حظيت بأكبر قدر من الدراسة بين سلسلة من السيرورات النفسية الأخرى، هي على وجه التحديد تلك التي يتعيَّن أن نُرجع إليها تكوين الأعراض الهستيرية وضروب الحصَر والوساوس والأفكار الهذائية، إلخ.. فجميع هذه السيرورات تتجلى فيها أيضاً خواص التكثيف والنقل، وعلى الأخص الأخير؛ فيما يبقى التحوير بغرض التمثيل البصري وقفاً على عمل الحلم.

وإذا كان هذا التفسير يضع الحلم في السلسلة عينها التي تنتمي إليها الأعراض المرَضية، فلن تكون الفائدة المجتناة من تحديد الشروط التي تتمّ فيها إلا أكبر وأعظم. ولن تكون دهشتنا قليلة إذا علمنا أنه من الممكن أن تحدث بدون وساطة الحلم وبدون وساطة المرض، وأن عدداً لا بأس به من الظاهرات الخاصة بالحياة اليومية للأفراد الأسوياء، كضروب النسيان وزلات اللسان وهفوات السلوك وما يشابهها من الأغلاط، يتكوَّن بنفس الآلية التي يتكوَّن بها الحلم وجميع الأعراض المرَضية المشار إليها.

إن عقدة المعضلة تكمن في عملية النقل، وهي العملية الأبرز والأهم ، على ما نحسب، في عمل الحلم. ولو تعمقنا في المسألة لأدركنا أن الشرط الرئيسي الذي يتحكم بالنقل هو من طبيعة سيكولوجية، وأن الدافع إليه هو على الدوام **حافز** ما. ونحن نكتشف أثره عندما نأخذ في اعتبارنا بعض التجارب التي لا مناص من أن تواجهنا عندما نتصدى لتحليل الأحلام.



حين قدَّمت، في مستهل هذا البحث[1]، واحداً من أحلامي مثالاً على التحليل، اضطررت إلى إيقاف عملية جرد أفكاري الكامنة لأن بينها أفكاراً آثرتُ أن أكتمها، وما كان في مستطاعي أن أجاهر بها من دون أن أتعدى حدود اللياقة. وقد أضفت قولي إنه لا جدوى تجتنى من استبدال ذلك التحليل بتحليل آخر، لأنني سأصطدم في نهاية المطاف، وأياً يكن الحلم الواقع عليه الاختيار، حتى ولو كان أكثر الأحلام غموضاً وتشوشاً، بأفكار كامنة لا أستطيع إفشاء سرّها من دون أن أخرج عن حدود الرصانة. بيد أنني، بعد أن نحَّيت جانباً الشهود على هذه المشاحنات الداخلية الحميمة، تابعت التحليل بيني وبين نفسي، فلقيت أفكاراً أثارت عميق دهشتي. فأنا ما كنت أعرف لي أفكاراً كتلك؛ وقد بدت لي لا **غريبة** عني فحسب، بل **كريهة** تنفر منها النفس أيضاً؛ وقد رحت أدافعها عني بكل ما أوتيت من قوة، بيد أنني شعرت أنها تفرض نفسها عليَّ فرضاً بقوة منطق الأفكار الكامنة. وأنا لا أستطيع تفسيراً لهذا الأمر إلا بطريقة واحدة، وذلك بالتسليم بأن تلك الأفكار وُجدت فعلاً فيَّ، وبأنها تحظى في داخلي بشيء من الشدة أو القوة النفسية، وإن يكن ارتباطها بموقف نفسي خاص يحول بينها وبين أن تصير واعية. هذا الموقف الخاص، أطلق عليه اسم **حالة الكبت**. وعندئذ لا أجد مناصاً من الإقرار بأن هناك علاقة علة بمعلول بين غموض الحلم الظاهر وحالة كبت الأفكار الكامنة، أي بعبارة أخرى النفور الذي يخالجني من إدراك هذه الأفكار ومن وعيها. وأخلص من ذلك كله إلى الاستنتاج بأنه إذا كان الحلم غامضاً، فهذا بداعي الضرورة **وتحاشياً للإفصاح عن بعض الأفكار الكامنة التي يستهجنها وعيي**. هكذا ينجلي سر عمل التحريف الذي هو أشبه ما يكون، بالنسبة إلى الحلم، **بتنكير** حقيقي.

ولن تكون الفائدة معدومة لو فتَّشنا، في الحلم الذي اقترحته للتحليل، عن تلك الفكرة من أفكاري التي لا تتبدى إلا متنكرة خشية أن أقابلها بشجب عنيف فيما لو تبدت بلا قناع وبلا تحريف. إنني أعلم أن الجولة التي تكلمت عنها، تلك الجولة المجانية في العربة، قد ذكَّرتني بجولات أخرى أكثر تكلفة بصحبة شخص من أسرتي، وأن دلالة الحلم تبدو كالتالي: «بودّي أن أعرف ذات

١ ـ في الفصل الثاني من هذا الكتاب. «م».



يوم حباً متجرداً لا يكلِّفني شيئاً». والحال أنني كنت قد أنفقت، قبل أن أحلم هذا الحلم بزمن قليل، مبلغاً كبيراً من المال على الشخص المذكور. وحيال هذا التداعي في الأفكار أجدني مرغماً على الإقرار بيني وبين نفسي بأنني **آسف على إنفاق ما أنفقته**. وإنما عندما أقرّ بإحساس كهذا أستطيع أن أتوصّل إلى فهم ما تعنيه، في حلمي، الرغبة في حب لا يستدعي نفقة. هذا مع أنه في وسعي أن أقول بكل صراحة إنني لم أتردد لحظة واحدة في إنفاق ذلك المبلغ؛ والأسف الذي انتابني على ذلك يؤلِّف جزءاً من تيار لم يمس وعيي، ولو مساً خفيفاً. لماذا لم يفعل ذلك؟ هذه في الحق مسألة أخرى، وقمينة بأن تتوغَّل بنا إلى أبعد مما ينبغي. والجواب الذي يسعني أن أجده لها ينتمي إلى سياق آخر.

لو حللت، بدلاً من حلمي الخاص، حلم شخص غريب، لتوصلت إلى استنتاجات مماثلة؛ ووسائلي في الفحص والتدقيق هي وحدها التي ستكون مختلفة بعض الشيء. فإذا كان الحلم المطلوب تفسيره حلم شخص سويٍّ، أمكنني أن أقود هذا الشخص، ببياني له تسلسل أفكار الحلم وترابطها، إلى تعرُّف أفكاره المكبوتة. على أنه سيبقى حراً في نفيها وإنكارها رغم كل شيء. أما إذا كان صاحب الحلم مريضاً عصبياً، يشكو من الهستيريا على سبيل المثال، فلا مناص، لحمله على تعرُّف الأفكار المكبوتة، من أن أبيِّن له العلاقة القائمة بين هذه الأفكار وبين أعراض مرضه، ومن أن ألحّ كذلك على واقع أن حالته تحسنت بمجرد أن حلّت الأفكار المكبوتة محلّ الأعراض.

لنعد إلى مثال تلك المرأة الصبية التي روت لي حلم تذاكر المسرح الثلاث بـ ١ فلوران و٥٠ كروزيراً. فقد أظهر تحليل أفكارها الكامنة أنها لا تحفل بزوجها ولا تأبه له بتاتاً، وأنها تفضل لو أنها لم تتزوجه، وأنها لن تأسف لو حلّ محلّه آخر. صحيح أنها تزعم أنها تحبه، وأن حياتها العاطفية لا تعرف شيئاً عن هذا الازدراء (زوج غيره يمكن أن «أفضل بمئة مرة»!)؛ لكن جميع أعراضها تقود إلى الاستنتاج عينه الذي يمكن استنتاجه من ذلك الحلم؛ وحسبنا أن نوقظ فيها الذكريات المكبوتة العائدة إلى عهد كانت فيه على أتمّ وعي بأنها لا تحبّ زوجها، حتى تنحلّ الأعراض وحتى تكفّ المريضة عن الاحتجاج على تأويلي لحلمها.




مكتبة
الفكر الجديد

(٩)

لقد بات في مقدورنا، بعد أن حددنا مفهوم الكبت وبيَّنا العلاقات القائمة بين تحريف الحلم وبين المادة النفسية المكبوتة، أن نوجز بصورة عامة النتيجة الرئيسية التي نخلص إليها من تحليل الأحلام.

لقد قلنا ونحن نتحدث عن الأحلام المفهومة والمعقولة إنها بمثابة تحقيق متنكر لرغبة من الرغبات، أي أن الموقف الحلمي يصوِّر فيها رغبة بعينها من الرغبات وكأنها قد تحققت، وهي رغبة يقرّ بها الوعي وجديرة بكل اهتمام، وإن تكن قد نُحِّيت جانباً في النهار السابق للحلم. ويطلعنا تحليل الأحلام المبهمة والعويصة على شيء مماثل: فالموقف الحلمي يصوِّر بدوره رغبة متحققة، وهي رغبة تكشفها لنا هنا أيضاً الأفكار الكامنة، ولكن مع الفارق التالي وهو أن تمثيل هذه الرغبة يبقى غامضاً معتماً؛ وحتى نسلِّط عليه الضوء لا بدّ من الارتداد إلى الوراء بالتحليل، وسيزيح التحليل لنا عندئذ النقاب مرة أخرى إما عن كونها هي نفسها رغبة مكبوتة وغريبة عن الوعي، وإما عن كونها رغبة وثيقة الالتحام بأفكار مكبوتة، ومحمولة من قبلها إن جاز التعبير. والصيغة المناسبة لهذا النوع من الأحلام هي إذاً التالية: إنها بمثابة **تحقيق متنكر لرغبات مكبوتة**. ولنلاحظ فضلاً عن ذلك، وهذا أمر مثير للاهتمام، أن الحكمة الشعبية تصيب حين تقول إن الأحلام تتكهن دوماً بالمستقبل. فبالفعل، إن ما يظهره لنا الحلم هو المستقبل، لكن ليس المستقبل كما سيتحقق، بل المستقبل كما نتمنى أن نراه متحققاً. والروح الشعبية تفعل هنا ما اعتادت أن تفعله في مواضع أخرى: فهي تصدِّق ما ترغب في أن تصدِّقه.

من الممكن تقسيم الأحلام، من منظور تحقيق الرغبات، إلى ثلاث فئات: فلدينا أولاً الحلم الذي يمثِّل بلا تنكر رغبة **غير مكبوتة**، وهو الحلم من النمط



الطفلي، وينزع إلى التنادر كلما تقدَّم الطفل في العمر. ولدينا ثانياً الحلم الذي يمثِّل في إهاب **تنكري رغبة مكبوتة**. وغالبية أحلامنا تنتمي إلى هذا النمط، ولهذا لا يمكن فهمها بلا تحليل. ويأتي ثالثاً وأخيراً الحلم الذي يعبِّر عن رغبة مكبوتة ولكن من دون أن ينكرها أو لا ينكرها إلا بأدنى الحدود. هذا الحلم الأخير يرافقه دوماً شعور بالحصَر يرغمه على التوقف. والحصَر هنا هو بديل عن تحريف الحلم؛ وعمل الحلم هو الذي أغنى عن تظاهره في أحلام الفئة الثانية. وفي إمكاننا أن نثبت بلا صعوبة كبيرة أن المضمون التمثيلي الذي يعفينا الآن من أن يراودنا حصَر في الحلم كان يعبِّر من قبل عن رغبة جرى كبتها منذ عهد بعيد.

وإننا لنجد بين الأحلام الواضحة المفهومة أحلاماً ذات مضمون شاقّ على النفس ولكنها لا توقظ لدى النائم مع ذلك أي شعور بالحصَر. ولا نستطيع أن نضع هذه الأحلام في مصاف أحلام الحصَر؛ ولكن كان من شأنها دوماً أن تقدِّم حجة للاستخفاف بالقيمة النفسية للأحلام أو لنفيها. والحال أن تحليل مثل من أمثلة هذا النوع من الأحلام قمين بأن يظهِر لنا أنه يمثِّل تحقيقات مقنَّعة بأرابة لرغبات مكبوتة، وبالتالي أحلاماً تنتمي إلى الفئة الثانية. كما أنه سيظهر لنا في الوقت نفسه مدى براعة عمل النقل في حجب الرغبة وإخفائها.

حلمت فتاة بأن طفل أختها الثاني قضى نحبه، وبأنها تقف أمام النعش تماماً كما كانت وقفت قبل بضعة أعوام أمام نعش الوليد الأول للأسرة ذاتها[1]. ولم يكن ذلك المشهد قد بعث في نفسها أي حزن. وقد رفضت الفتاة بالطبع أن يتمّ تأويل حلمها على أساس رغبة دفينة لديها . وليس ذلك بتأويلنا أصلاً. لكن الجدير بالملاحظة أنها كانت التقت بالرجل الذي تحبه بالقرب من نعش الطفل الأول، وقد كلمته، ثم لم ترَه ثانية قط. ونحن لا يداخلنا شكّ بأنها لن تلتقي من جديد، إذا مات الطفل الثاني، بذلك الرجل في بيت أختها. وثائرتها تثور أصلاً على هذه الفرضية، لكنها تتمنى بكل حرارة نتيجتها. وكانت قد أخذت، في

١ ـ بلدوين غرولر: الاسم المستعار للكاتب النمساوي المجري أدلبرت غولدشايدر (١٨٤٨ ـ ١٩٢٦). أصدر عدداً من المجلات والصحف وراسل عدداً من المجلات الرياضية. وفي عام ١٨٨٠ مجّر اسمه إلى غال بيلا. وله روايات ومجموعات قصصية. ومنها: **أشياء العالم**. «م».



اليوم السابق للحلم، بطاقة دخول إلى محاضرة كان الأمل راودها بأن تشاهد الرجل فيها. حلم هذه الفتاة إذاً حلم جزع ونفاد صبر ليس إلا، مثله مثل أي حلم يحدث قبل سفر أو قبل سهرة في المسرح، بانتظار متعة ما من المتع. لكن حتى تخفى على الفتاة رغبتها المضطرمة هذه كان لا بدّ أن يحدث في الموقف تحوُّل نحو حدث آخر وقع فعلاً ذات يوم، حدث غير أهل بأي صورة من الصور لأن يبعث على الفرح. ولنلاحظ أيضاً أن العنصر العاطفي في الحلم يتكيَّف، لا مع المضمون الظاهر للحلم، بل مع مضمونه الكامن، أي المضمون الذي جرى استبعاده إلى الخلف. ونظراً إلى أن هذه الفكرة الكامنة هي فكرة لقاء طالما تاقت إليه النفس، فقد كان من المتعذَّر أن يصاحبها شعور بالحزن والكرب.



(١٠)

ما دامت الفرصة لم تسنح حتى اليوم للفلاسفة كي يصبّوا اهتمامهم على علم نفس لظاهرة الكبت، فإننا نرى أنه من الضروري، في هذا الاحتكاك الأول مع معضلة تكوين الحلم الملغزة، أن نحاول عرضها بأكبر قدر مستطاع من الوضوح. ولا شك أن المخطط الذي اعتمدناه ـ ليس عن طريق دراسة الحلم وحدها ـ يمكن للوهلة الأولى أن يبدو على شيء من التعقيد، ولكن ما كان لأي مخطط مبسَّط آخر أن يسدّ مسدّه.

إننا نسلِّم بوجود وظيفتين خلاقتين للفكر في جهازنا النفسي. وتتمتع ثانية هاتين الوظيفتين بامتياز محدَّد، وهو أن جميع منتجاتها تصبح للحال جزءاً من الوعي، بينما يبقى نشاط الأولى لاشعورياً أو لا يدلف إلى الشعور إلا بواسطة الثانية.

والحال أنه عند الحدّ الفاصل بين هاتين الوظيفتين، وفي النقطة التي تلتحم فيها الأولى بالثانية، توجد رقابة لا تدع شيئاً يمرّ إلا ما كان محبَّباً إليها، وتنبذ الباقي. هذه المنتجات المنبوذة من قبل الرقابة هي التي تشقّ طريقها عندئذ، على حدّ التعبير الذي استخدمناه، إلى حالة الكبت.

لكن الأنشطة المتقابلة للوظيفتين لا تبقى على حالها في بعض الشروط، وبالتحديد أثناء الرقاد الذي ينجم عنه بعض الارتخاء في حبل الرقابة؛ وعندئذ لا يعود في الإمكان نبذ المنتجات المكبوتة بتمامها، بل تفلح في شقّ طريق لها نحو الوعي. ولكن بالنظر إلى الوهن الذي يمكن أن يكون قد طرأ على الرقابة، وبالنظر أيضاً إلى أنه من المتعذر إلغاؤها، فلا محيد، حتى تجد المواضيع المكبوتة قبولاً لها في الوعي، عن أن تتنكر على نحو تفقد معه طابعها المقيت المنفِّر؛ وعندئذ يكون ما يتسرب منها إلى الوعي بمثابة تسوية بين نوازع الوظيفة الأولى ووساوس الثانية وتشكّكاتها.



لنلاحظ هنا، بصرف النظر عن صور الحلم، أن **الكبت وارتخاء حبل الرقابة والقبول بتسوية وحلٍّ وسط** هي في أساس كل سيرورة تسهم في تكوين تشكيلات نفسية مرَضية؛ وأنه تتضافر في تكوين هذه التسوية سيرورات التكثيف والنقل، وكذلك اللجوء إلى ترابطات سطحية وعابرة كتلك التي درسناها في عمل الحلم.

نحن لا نسعى إلى أن نخفي أن عرضنا هذا مشوب بقدر غير قليل من مصطلحات عويصة. فقد بدا لنا بالفعل أن سيرورة تكوين الحلم الغامض **تشبه من وجه من الوجوه** المجهود الذي قد يبذله مرؤوس ما ليدسّ خلسة كلمة يعلم أنها لا بدّ أن تغيظ رئيسه. وقد انطلقنا من هذا التشبيه لنحدد سيرورة **تحريف الحلم** والرقابة، وبذلنا جهدنا لترجمة انطباعنا الأولي إلى نظرية سيكولوجية لا تخلو بعد من فجاجة، لكنها على أقصى درجة ممكنة من الوضوح. وإننا لنأمل أن يتيح تعميق دراسة المسألة في المستقبل التحقق من هوية الوظيفتين اللتين وصفناهما بـ «الأولى» و«الثانية»، واكتشاف ارتباطات متبادلة تؤكّد فرضيتنا عن التناحر بين الوظيفتين اللتين تحرس واحدتهما المدخل إلى الوعي وتملك القدرة على إقصاء الأخرى عنه.

وحين يتمّ التغلب على حالة النوم، تستعيد الرقابة تمام حقوقها، وتضرب صفحاً عن كل ما فرض عليها أثناء فترة عجزها وتنحّيه. ومما يؤكد فرضيتنا التي أثبتت التجربة صحّتها مرات عدة السرعة التي يتمّ بها امحاء الحلم من الذاكرة، وكذلك التجربة التالية التي كثيراً ما يتاح لي القيام بها: فحين نسرد حلماً من أحلامنا أو نخضعه للتحليل، يمكن أن ينبثق على حين غرة تفصيل كنا قد نسيناه تماماً، وهذا التفصيل المنتزع من طيات النسيان يمثّل بصورة شبه دائمة أقصر طريق وأكثرها أمناً ووثوقاً للنفاذ إلى معنى الحلم الكامن. ولهذا السبب على وجه التحديد كان يفترض به أن يغرق في لجة النسيان، أي القمع الجديد.



(١١)

إذا سلَّمنا بأن مضمون الحلم يمثِّل رغبة متحققة، وإذا كان غموض مضمونه من صنيع الرقابة التي تحوِّر وتنكِّر المواد المكبوتة، يغدو من اليسير علينا أن نحدِّد وظيفة الحلم. فبخلاف ما هو شائع لدى سواد الناس من رأي يرى في الحلم منغِّصاً للنوم، نصل إلى هذا الاستنتاج الغريب وهو أن **الحلم بمثابة حارس للنوم**. وسيقدِّم لنا الحلم الطفلي هنا خير برهان على ما نقول.

إن حالة النوم، أو التغيُّر النفسي المتحدِّد بالنوم ـ مهما تكن طبيعة هذا التغيُّر ـ تأتي الطفل عن طريق شعور بالتعب ينضمّ إليه قدرٌ من الإكراه الخارجي؛ إذ إن أهله، حرصاً منهم على تسهيل الانتقال إلى حالة النوم عليه، يبعِدون عنه جميع التنبيهات التي قد تصرف ذهنه عن فكرة النوم. ونحن نعلم كيف يتمّ إبعاد التنبيهات الخارجية، لكن كيف نستطيع أن نخرس أصوات جميع تلك الرغبات التي تشغل ذهن الطفل وتتركه متيقظاً؟ انظروا إلى أمّ تحاول أن تنيم طفلها: فهذا الأخير لا يكفّ عن المطالبة إما بقبلة وإما بلعبة، لكنها لا تلبي سوى جزء من رغباته، وترجئ بسلطانها تلبية باقيها إلى الغد. وواضح أن جميع تلك الخلجات التي تهيج الطفل هي بمثابة عقبات تعيق نومه. من منا لا يعرف القصة المرحة التي تخيَّلها بلدوين غرولر[1]، قصة الصبي الشرير الذي استيقظ ليلاً وطفق يصيح من غرفته أنه **يريد أن يأتي وحيد القرن**؟ فالصبي العاقل لا يصيح، وإنما يكتفي بأن يحلم بأنه رأى وحيد القرن وراح يلعب معه. والحلم، الذي يري الطفل رغبته متحققةً، يحظى بثقة هذا الأخير وبتصديقه أثناء نومه؛ وبذلك يستمرّ الرقاد بعد

---

٢ ـ كارل برداخ: فيزيولوجي ألماني (١٧٧٦ ـ ١٨٤٧). شارك في إنشاء معهد كونيغسبورغ التشريحي

وله عدة كشوف تشريحية. من مؤلفاته: **الفيزيولوجيا كعلم تجريبي**. وإليه الإحالة في النص. «م».



تلبية الرغبة. وغني عن البيان أنه إذا كان الطفل يصدِّق صورته الحلمية، فذلك لأن هذه الصورة تتلبس أشكالاً مشابهة للواقع، ولأن ذهن الطفل يكون مفتقراً إلى الملَكة التي لن يكتسبها إلا في وقت متأخر، ملكة التمييز بين خياله وهلوساته وبين الواقع.

أما الراشد، بالمقابل، فقد تعلَّم كيف يجري هذا التمييز. بل إنه فهم أنه لا جدوى من الإفصاح عن أمنيات، ويعرف بالتجربة أنه أجدر به أن يكتم صبواته ويلجم رغباته إلى أن تأتي الساعة التي سيباح لها فيها أن تتحقق وتلبَّى بطرق غير مباشرة متطاولة في الزمن وعن طريق تغيير العالم الخارجي. ويترتب على ذلك أنه يندر أن تمْثُل في نوم الراشد التحقيقات المباشرة للرغبات، بل إنها قد لا تمْثُل بالمرة، كما يترتب عليه أن حلم الراشد الذي يبدو لنا طفلي الطراز يتكشف عند التمحيص عن أنه في منتهى التعقيد. ولهذا يحدث لدى الراشد ـ لدى كل راشد سويّ بلا استثناء ـ تفاضل في المواد النفسية لا يعرف الطفل نظيراً له. فثمة هيئة نفسية قد تكوّنت لديه، هيئة تتغذى بتجربة الحياة وتمارس بكل حرص وغيرة على جميع ميول النفس وأهوائها تأثيراً من شأنه أن يقمع ويكفّ. وتتقلد هذه الهيئة، بحكم صلاتها بالشعور وبالنشاط الإرادي، سلطاناً كبيراً على حياة الراشد النفسية برمّتها؛ والحال أن هذه الهيئة تدين الكثير من الميول والنوازع الطفلية باعتبارها فائضة عن الحاجة وغير مفيدة للحياة، فتضع بالتالي في حالة كبت جميع المواد الفكرية المتفرعة من تلك الميول والنوازع.

لكن ما إن تطأطئ هذه الهيئة، التي نتعرَّف فيها أنانا السويّ، الرأس أمام ضرورة النوم، حتى تقسرها الظروف النفسية ـ البدنية على تخفيف قبضة رقابتها، فلا تعود تقاوم المواد المكبوتة إلا مقاومة واهية. وليس لهذا التخفيف في حدّ ذاته من أهمية تذكر، ولن يكون هناك ضرر كبير من أن تنعتق لحين من الزمن الميول والنوازع الطفلية المكبوتة من إسارها. كل ما هنالك أنه ما دام النوم مستمراً فلن تجد منفذاً لها إلى الفكر الواعي ولا إلى النشاط الحركي؛ ومن ثم، لا مفرّ من أن تغدو خطراً على النوم، وهذا الخطر هو المطلوب تلافيه ودرؤه. وينبغي هنا أن نسلِّم بأن قدراً محدوداً من الانتباه الحرّ يبقى متاحاً حتى في الساعات التي نكون

فيها غارقين بعمق في النوم. ويقوم هذا القدر المحدود من الانتباه الحرّ بدور الساهر في حال حدوث ما يستدعي إيقاف نومنا والاستيقاظ. ولولا ذلك، لتعذّر علينا أن نفسِّر ـ كما لاحظ بحقٍّ منذ أمد بعيد عالم الفيزيولوجيا بورداخ[٢] ـ بقاء كل واحد منا أثناء نومه حساساً ببعض التنبيهات الحسّية التي لها عليه تأثير خاص: حساسية الأم بصراخ طفلها، حساسية الطحان بتوقف صوت طاحونه، وحساسية بني الإنسان كافة بوجه عام بمناداة اسمهم ولو بصوت خافت. إن هذا الانتباه الدائم التيقُّظ قد ينكفئ أيضاً نحو التنبيهات الداخلية الناجمة عن الرغبات المكبوتة، فيجعل من هذه الأخيرة حلماً، أي كما ذكرنا آنفاً، تسوية ترضي ميلين اثنين. إن الحلم يخلق ضرباً من تفريغ نفسي لرغبة مقموعة أو متكوِّنة بواسطة المكبوت، وذلك بتمثيله هذه الرغبة عينها وكأنها قد تحققت؛ ولكنه يلبي في الوقت نفسه آمر الهيئة الأخرى بسماحه للنائم بالاستمرار في رقاده. و«أنا»نا يسلك هنا سلوك الأطفال، فهو يؤثر أن يصدِّق صور الحلم، ويبدو عليه وكأنه يقول: «أجل، أجل، معك حقّ، لكن دعني أنم». والحكم التحقيري الذي نصدره عندما نستيقظ على الحلم، على تفككه وعدم ترابطه وافتقاره إلى المنطق، هو في الأغلب الحكم عينه الذي يصدره «أنا»نا النائم على الحوافز الصادرة عن المكبوت؛ ومما يعزز هذا التحقير ويقدِّم له المزيد من التبرير أن منغِّصات النوم هذه لا تتوصل إلى تحريكنا وإخراجنا عن سكوننا. ونحن نبقى واعين لذلك حتى أثناء رقادنا؛ فعندما تشطّ صور الحلم وتتجاوز الحدّ في انعتاقها من قبضة الرقابة نقول في أنفسنا: «أفٍّ! هذا حلم ليس إلا!»، ونستمرّ في النوم.

قد يعترض علينا معترض بأن هناك حالات، كحالة الحلم الحَصَري على سبيل المثال، يعجز فيها الحلم عن صيانة النوم. لكن ينبغي أن نستنتج من ذلك فقط أن الحلم يؤدي وظيفتين، مهمةُ ثانيتهما قطع النوم عندما تدعو الحاجة. والحلم يشبه ذلك الحارس الليلي الحيّ الضمير المكلّف أولاً بوأد جميع الأصوات التي قد توقظ السكان، ولكن من دون أن يتردد بالمقابل في أداء الواجب المعاكس، فيوقظ

٣ ـ أي الحلم كحارس للنوم. «م».

٤ ـ العِجان: المسافة بين العضو التناسلي والشرج. «م».



جميع الناس حين تصبح الأصوات باعثة على القلق ولا يعود في مستطاعه وحده أن يتغلب عليها.

وتتجلى لنا وظيفة الحلم[٣] هذه بمزيد من الوضوح حين ندرس مفعول التنبيهات الحسّية على شخص نائم. فمعروف أن التنبيهات الآتية من الخارج تؤثّر بوجه عام على مضمون الحلم؛ وقد قام البرهان التجريبي على ذلك، ونحن ندين به لذلك العدد المحدود من الأبحاث التي أجراها الأطباء على الحلم (وإن تكن قد عزيت إليها أهمية مغالى فيها). وهنا أيضاً نجد أنفسنا في مواجهة لغز: فالشخص النائم، الذي يخضعه المجرّب لتنبيه ما، لا يتعرف في الحلم هذا التنبيه، وإنما يقوم بترجمته وتأويله... فكيف يتحدد اختياره بين العديد من أشكال التأويل الممكنة؟ الحقّ أن هذا الاختيار لا يمكن إلا أن يبدو لنا اعتباطياً وتعسفياً؛ والحال أننا نعلم، من جهة أخرى، أن العسف النفسي لا وجود له. وبالفعل، إن النائم يملك عدة وسائل للاستجابة لكل تنبيه حسّي آتٍ من الخارج. فمن الممكن أن يستيقظ، ومن الممكن أيضاً أن يتوصل إلى إطالة أمد نومه، وهو يتوصل إلى ذلك في الحالة الأخيرة بوسائل هي بدورها في غاية التباين. فإذا حلم، على سبيل المثال، بأنه موجود في موقف يتنافى والتشويش الخارجي، تمكّن من التغلّب على هذا الأخير: من قبيل ذلك موقف النائم الذي يشكو من خراج مؤلم في العجان[٤]، فيحلم بأنه يمتطي صهوة جواد، إذ تكون الكمادة المخصصة لتخفيف وجعه قد تحولت إلى سرج لمطيته، وبهذه الصورة يمكنه أن يستمر في النوم. ومن الممكن أيضاً ـ وهذه هي الحالة الغالبة ـ أن يتعرض التنبيه الخارجي لإعادة تأويل تربط بينه وبين رغبة مكبوتة تسعى إلى شقّ طريقها إلى التنفيذ، وتجرّده على هذا النحو من واقعيته وتعامله وكأنه عنصر من المادة النفسية للنائم. هكذا حدث لواحد من أصدقائي أن حلم بأنه يكتب مسرحية هزلية، وفي ذلك تحقيق لفكرة عزيزة عليه. فقد رأى نفسه في المسرح، ومشاهد الفصل الأول تتتالى بنجاح، وعاصفة من التصفيق تنفجر... وهنا لا بدّ أن يكون النائم قد نجح في إطالة أمد نومه، لأنه

---

١ ـ هذا الفصل كله قد أضيف إلى هذا الكتاب في الطبعة الثانية عام ١٩١١. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



حين استيقظ لم يسمع نامة أو حسًّاً، وافترض، وهذا ما ثبتت صحته فيما بعد، أنه قد نُفضت طنفسة في الجوار. والحال أن جميع الأحلام التي تحدث مباشرة قبيل الاستيقاظ بفعل ضوضاء ما إن هي إلا جهود لنفي الصوت المزعج، ولإعطائه تفسيراً مغايراً، ولكسب لحظات أخرى من الكرى.




مكتبة
الفكر الجديد

(١٢)[1]

إذا سلَّمنا بأن العلة الرئيسية لتحريف الحلم أو تشويهه هي الرقابة، فلن يدهشنا البتة إن وجدنا جميع أحلام الراشدين ترتدّ عند التحليل إلى رغبات إيروسية. إننا لا نتكلم هنا عن الأحلام المشار إليها عادة باسم «الأحلام الجنسية»، والمتضمِّنة صوراً إيروسية لا يحجبها أي برقع؛ فكل من حلمها يعرفها، وإن كانت مع ذلك تثير الدهشة دوماً بقدر أو بآخر، سواء أمن حيث اختيار الأشخاص الذين تتخذ منهم الرغبة موضوعاً لها، أم من حيث إلغاء جميع الحواجز التي يحرص الفرد الصاحي على نصبها أمام متطلباته الجنسية، أم أخيراً من حيث تضمُّنها بعض التفاصيل الغريبة التي توصف بأنها **شاذة**. والحال أن التحليل يبيِّن لنا أن الكثير من الأحلام الأخرى التي لا يبدو للوهلة الأولى أنها تنطوي على شواغل إيروسية ترتدّ، بفضل العمل التأويلي، إلى تحقيق للرغبة الجنسية. ثم إن عدداً كبيراً جداً من الأفكار، التي يكون النشاط الذهني لحالة اليقظة قد أهملها بوصفها «بقايا نهارية»، لا يؤذن لها بالتسرب إلى الحلم إلا بواسطة رغبات إيروسية مكبوتة.

ولنعِد إلى الأذهان، تفسيراً منا لوضع لا نتبيَّن له من ضرورة نظرية، أن الأخلاق والحضارة لم تكبت وتكافح فينا من نوازع بمثل ما فعلت بنوازعنا الجنسية. ولنعِد إلى الأذهان أيضاً أن هذه النوازع تعرف بارع المعرفة، لدى غالبية البشر، كيف تتهرب وتفلت من طغيان الهيئات النفسية الأعلى مرتبة. والدراسة التي قمنا بها في مجال آخر **للجنسية الطفلية**، ولمظاهرها الغامضة واللامفهومة بصورة عامة، تبيح لنا أن نقول إن كل إنسان متحضر قد حافظ عند نقطة محددة من تطوره على التشكيل الطفلي لديه للحياة الجنسية. ومن هنا نفهم أن

---

٢ - راجع كتاب المؤلف: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، ١٩٠٥.



الرغبات الجنسية المكبوتة لدى الطفل هي التي، تصبح في زمن لاحق، النوابض الأكثر تعداداً وقوة لتكوين أحلام الراشدين[٢].

إن تحضيراً خفياً ضروري ولا غنى عنه كيلا يتضمَّن الحلم، الذي هو تعبير عن رغبات إيروسية، أي أثر من الجنسية في مضمونه الظاهر. فمواد الصور الجنسية يجري استبدالها في مضمون الحلم، بالنظر إلى تعذر تظاهرها كما هي، بإشارات أو كتابات أو أي شكل آخر من أشكال التعبير اللامباشر. ولكن بعكس ما يُطلب عامة من هذه الصيغ، يفترض في صيغ الحلم قبل كل شيء ألا تكون قابلة للفهم بصورة مباشرة. هكذا تتفسر الواقعة المعروفة على نطاق واسع، واقعة التمثيل الرمزي لأفكار الحلم؛ وهي تستأهل منا، بالفعل، المزيد من الاهتمام ما دمنا نعرف اليوم أن جميع الحالمين من لغة واحدة يستخدمون رموزاً واحدة. بل إنني سأضيف أن وحدة الرموز تمتد في بعض الحالات إلى ما وراء وحدة الألسن. ولما كان الحالم نفسه يجهل معنى الرموز التي يستعملها، فإن مسألة أصل هذه الرموز وطبيعة العلاقات التي يمكن أن تقوم بينها وبين موضوعها تظل مسألة يحيط بها كامل الغموض. لكن الواقعة أكيدة في حدّ ذاتها، ولها بكل تأكيد أهميتها القصوى في تقنية تأويل الحلم. فمن المتعارف عليه أنه ليس أسهل على من تتوافر لديه معرفة عميقة بعلم الرموز ذاك من أن يفهم معنى الحلم، معنى جميع تفاصيله ومعنى بعض من أقسامه، من دون أن يحتاج إلى استجواب النائم بصدد أفكاره الحلمية. ونحن نقترب هنا من المثل الأعلى الشعبي من جهة أولى، ومن الجهة الثانية من الطريقة الأثيرة لدى الشعوب القديمة التي لا تفسير عندها لصور الحلم بغير الرموز.

وبالرغم من أن الاختصاصيين في علم رموز الحلم لم يخلصوا إلى نتيجة نهائية بعد، فإن في وسعنا من الآن أن ندرج في عداد المكاسب بعض المعطيات العامة وعدداً معيَّناً من الملاحظات الخاصة.

هناك رموز ليس لها سوى تأويل واحد: من قبيل ذلك الإمبراطور والإمبراطورة (أو

٣ ـ جناس بالألمانية غير قابل للترجمة إلى العربية. «م».



الملك والملكة)، وهما يعنيان الأب والأم. كما أن الغرفة تعني المرأة(٣). وأبواب الدخول والخروج تمثِّل الفتحات الطبيعية في الجسم. والرموز التي يستخدمها الحلم غالباً ما تفيد في تمويه أشخاص أو أجزاء من الجسم أو أفعال ذات صلة بالجنس. وتُستخدم في تمثيل الأعضاء التناسلية بوجه خاص مجموعة كبيرة من الرموز الغريبة، وتدخل في تركيب هذه الرموز الأشياء الأكثر تبايناً وتنوعاً. والحال أننا نسلِّم بأن الأسلحة المديَّبة، والأدوات الطويلة والصلبة، وجذوع الأشجار والقصب، تمثِّل العضو المذكر، بينما تحتل الخزائن والعلب والعربات والمدافئ محلّ العضو المؤنث في الحلم. ودافع هذا الاستبدال يسهل فهمه. لكن الرموز الحلمية لا تنطوي جميعها على مثل هذه الكنايات الشفافة؛ فحين يقال لنا إن ربطة العنق هي العضو المذكر، وإن الغابة هي الجسم المؤنث، وإن الحركة الصاعدة، الدرج، تمثل العلاقات الجنسية، فإننا نطلب وقتاً للتفكير ما دام البرهان على صدق هذه الرموز لما يقم بعد. ولنضف هنا أن سلسلة بكاملها من الرموز الحلمية ثنائية الجنس، ويمكن عزوها بحسب الظروف إلى العضو المذكر أو العضو المؤنث.

وبعض الرموز عامة الاستخدام، وهي تلاحظ لدى جميع الحالمين الذين يجمع بينهم لسان واحد وتكوين فكري واحد. وبالمقابل، ثمة رموز أخرى محددة الاستخدام، يبتكرها الفرد بحسب حاجاته. وينبغي أن نميِّز في المجموعة الأولى الرموز المدعوة منها، بحكم استعمالها في اللغة الدارجة، إلى تمثيل الأشياء الجنسية. ومن قبيل ذلك الرموز التي لها صلة بالفلاحة: البذار، الإخصاب، إلخ. وينبغي في المقام الثاني أن نميِّز الرموز التي يبدو أن صلتها بالأشياء الجنسية تعود إلى الأزمنة البدائية، وهي صلة لا يمكن لها أن تولد إلا في أظلم المناطق من لاشعورنا. ومهما يكن من أمر، ومهما تكن طبيعة هذه القوة الخلاقة للرموز، فإنها لم تنطفئ حتى يومنا هذا. ومما تجدر ملاحظته أن بعض الاكتشافات القريبة العهد، كاكتشاف المنطاد، درج استخدامها للحال من وجهة النظر هذه كرموز جنسية.

بيد أننا نخطئ مع ذلك إذا تصورنا أننا نستطيع ذات يوم، إذا تعمقت معرفتنا

٤ ـ من الممكن الرجوع، فيما يتعلق بعلم رموز الحلم، علاوة على المؤلفات القديمة في تفسير المنامات



بعلم رموز الحلم (لغة الحلم)، أن نستغني عن استجواب النائم عن أفكاره في حالة اليقظة، وأن نعود إلى الطرائق القديمة في التـأويل. فعلاوة على أن هناك رموزاً فردية، وعلى أن هناك تقلبات لا تقع تحت حصر في استخدام الرموز العامة، يتعذر علينا أن نعرف مسبقاً هل ينبغي أن يؤخذ مضمون الحلم الظاهر بالمعنى الرمزي أم بالمعنى الحقيقي. وما نعرفه بثقة ويقين هو أن المواد ليست جميعها رموزاً. فمعرفة الرموز تستطيع أن تهدينا إلى سواء السبيل، إلى حدّ كبير، عبر ما يبقى غامضاً في مضمون الحلم الظاهر، لكنها لا تغني عن استخدام القواعد التقنية التي تكلمنا عنها أعلاه. وفي أحسن الأحوال، يمكن أن تفيدنا كوسيلة للتنقيب في حال انعدام التداعيات لدى الحالم أو عدم كفايتها.

وعلم رموز الحلم يبدو لنا أيضاً ضرورياً لا غناء عنه سواء أفي تحليل الأحلام المسماة بـ «النمطية» والمشتركة بين جميع بني البشر، أم في تحليل الأحلام الفردية «المتكررة». ولئن يكن عرضنا المقتضب هذا لم يفلح إلا في إعطاء فكرة ناقصة للغاية عن نمط التعبير الرمزي للحلم، فإننا نبرر هذا العيب بلفت الانتباه إلى اكتشاف هو من أهمّ ما توصلنا إليه في هذا المضمار. فرمزية الحلم تقودنا إلى أبعد بكثير من الحلم؛ فهي لا تقتصر على الحلم، بل تتحكّم أيضاً بإنتاج الحكايا والأساطير والخرافات، كما بالنكات والفولكلور. وهي تتيح لنا أن نتتبع الصلات الحميمة التي يعقدها الحلم مع هذه المنتجات؛ بيد أنه يتوجّب علينا أن نعلم أن ليس عمل الحلم هو الذي ابتكر الرمز، وأن هذا الأخير لا يعدو أن يكون شكلاً خاصاً من أشكال التعبير ـ ربما عن فكرنا اللاشعوري ـ من شأنه أن يقدِّم لعمل الحلم المواد التي يستخدمها بهدف التكثيف والنقل والإخراج الدرامي(٤).

(أرتيميدورس الأفسسي)(*)، وبالإضافة إلى شرنر: **حياة الحلم** ١٨٦١، إلى كتاب المؤلف **تأويل الحلم**، وكذلك إلى الأبحاث الميتولوجية للمدرسة التحليلية النفسية وبحث ف. شتيكل(**): **لغة الحلم**.

(*) أرتيميدورس أو أرطاميدورس الأفسسي: كاتب باللغة اليونانية من آسيا الصغرى من القرن الثاني الميلادي. اشتهر بكتابه **تفسير الأحلام** الذي نقله إلى العربية حنين بن إسحق بعنوان **تعبير الرؤيا**. «م».

(**) فلهلم شتيكل: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٠). تولى فرويد نفسه تحليله. من مؤلفاته: **الاستمناء والجنسية المثلية، الرجل العنين، المرأة الباردة، لغة الحلم**. «م».



(١٣)

من المحقق أننا لا نزعم أننا تطرَّقنا إلى جميع المشكلات التي تطرح نفسها في موضوع الحلم، بل لا نزعم أننا وجدنا حلاً كاملاً للمشكلات التي أثرناها هنا. والقراء الذين تثير المسألة اهتمامهم بصورة عامة يستطيعون الرجوع إلى كتاب سانكته دي سانكتيس[1]: «**الأحلام**»، تورينو ١٨٩٩. أما أولئك الذين يبحثون عن عرض أكمل لنظريتي الشخصية في الحلم، ففي مستطاعهم أن يجدوه في مؤلفي: «**تأويل الحلم**»، لايبزغ وفيينا ١٩٠٠. ولا يبقى عليّ إلا أن أحدِّد ما الاتجاه الذي أتمنى لو يسلكه الراغبون في متابعة دراسة الحلم.

فبياني في الصفحات السابقة أن تأويل حلم من الأحلام يقتضي استبدال مضمونه الظاهر بأفكاره الكامنة، وبعبارة أخرى، تفكيك الحبكة التي حاكها عمل الحلم، أكون قد طرحت من جهة أولى مجموعة من المشكلات السيكولوجية الجديدة المتعلقة بآلية عمل الحلم هذا، والمتعلقة أيضاً بطبيعة ما أطلقت عليه اسم الكبت؛ وأكون قد أكدت من جهة ثانية وجود أفكار كامنة للحلم، أي وجود مواد وفيرة يمكن أن تتولد عنها تشكيلات نفسية رفيعة المرتبة، تتّسم بكل مزايا العمليات العقلية السوية، وإن كانت لا تستطيع أن تتجلى للشعور إلا في الثياب التنكرية لمضمون الحلم. ولست أملك إلا أن أفترض أن هذه الأفكار الكامنة موجودة لدى جميع الناس ما داموا كلهم، وحتى الأسوياء الذين لا تشوبهم شائبة منهم، عرضة لأن يحلموا. وإنما بالسمة اللاشعورية لأفكار الحلم وبعلاقتها بالوعي والكبت ترتبط مشكلات لها أهميتها بالنسبة إلى

---

١ ـ سانته دي سانكتيس: طبيب وعالم نفسي إيطالي (١٨٦٢ ـ ١٩٣٥). أنشا معهد علم النفس التابع لجامعة روما. أقرّ فرويد في أكثر من نص له بمديونته لكتابه عن **الأحلام**. «م».



علم النفس، وإن يكن ثمة ما يدعو إلى إرجاء الإجابة عنها إلى حين التوصل، عن طريق التحليل، إلى توضيح أصل بعض التشكيلات النفسية المرَضية الأخرى كالأعراض الهستيرية والأفكار الوسواسية.

الهذيان والأحلام في الفن



تقديم

كتب فرويد هذا النص سنة ١٩٠٦ ليكون بمثابة قراءة تحليلية نفسية هي الأولى من نوعها لعمل روائي هو **غراديفا** للكاتب الألماني فلهلم ينسن (١٨٣٧ - ١٩١١).

وقد كانت هذه الرواية صدرت عام ١٩٠٣، وكان أول من لفت انتباه فرويد إليها هو تلميذه الطبيب النمساوي فلهلم شتيكل (١٨٦٨ - ١٩٤٠) الذي كان كتب بنفسه إلى الروائي ينسن، في مارس/ آذار ١٩٠٣، رسالة يقول فيها: «إن قصتك الرائعة قد سحرت ألبابنا جميعاً... حتى من وجهة نظر طبية وسيكولوجية». وقد سأله لاحقاً عما إذا كان، قبل أن يكتب قصته، قد قرأ كتاب **تأويل الحلم** لفرويد المنشور في نهاية عام ١٨٩٩، فجاءته منه رسالة جوابية «لطيفة جداً»، كما يقول في سيرته الذاتية، يؤكد فيها ينسن أنه «لا علم له إطلاقاً بفن تأويل الأحلام»، وأنه «ابتكر القصة من بنات أفكاره».

وبعد شتيكل بادر كارل غوستاف يونغ بدوره إلى تنبيه فرويد إلى أهمية رواية **غراديفا** من وجهة نظر تحليلية نفسية وألحّ عليه بأن يخصّها بدراسة. وهذا ما فعله فرويد أخيراً في النص الذي بين يدي القارئ، والذي كتبه أثناء إجازته الصيفية عام ١٩٠٦، في مدينة تورنتو الإيطالية. وقبل أن ينشر النص قدَّم خلاصة عنه أمام **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي** التي كان وراء تأسيسها عام ١٩٠٢ فرويد نفسه وألفريد آدلر وفلهلم شتيكل.

وقد عاد فرويد، في هامش أضافه إلى طبعة جديدة من كتابه **تأويل الحلم** صدرت عام ١٩٠٩، إلى الكلام عن **غراديفا** فقال: «في القصة للشاعر ف. ينسن بعنوان **غراديفا** اكتشفت بالمصادفة عدة أحلام اصطناعية جرى تأليفها على نحو صحيح كل الصحة، وهي قابلة للتأويل كما لو أنها لم تُختلق اختلاقاً، وكما لو أنها حُلمت من قبل أشخاص واقعيين».



وفي **حياتي والتحليل النفسي** (١٩٢٥) عاد فرويد مرة أخرى إلى موضوع **غراديفا** ليؤكد أنه استطاع، بالاعتماد على قصة ينسن، أن يثبت «أن الأحلام التي اختلقها الكاتب اختلاقاً قابلة للتأويل بمثل ما تُؤوَّل به الأحلام الفعلية، ومن ثم أن النشاط الإبداعي لدى الشاعر تتحكم به الآليات اللاشعورية عينها التي تعرفناها من خلال عمل الحلم».

وقد كنا في حينه (١٩٧٨) ترجمنا هذا النص عن «**الهذيان والأحلام في غراديفا ينسن**» عن الترجمة الفرنسية التي كانت قامت بها ماري بونابرت والتي صدرت عن منشورات غاليمار سنة ١٩٣١. ثم أدخلنا عليها ما بدا ضرورياً لنا من التعديلات على ضوء الترجمة الجديدة التي صدرت عام ١٩٨٦ عن الدار نفسها والتي قام بها بول آربكس وروز ماري زايتلن، وكذلك على الترجمة الأحدث عهداً التي اضطلع بها فريق عمل رباعي مؤلف من جانين ألتونيان وباسكال هالر ودانييل هارتمان وكرستوف جوانلان، وصدرت عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ٢٠٠٧ في المجلد الثامن من أعمال فرويد الكاملة.

ج. ط



الهذيان والأحلام في غراديفا ف. ينسن

(١)

في حلقة كان يسود فيها الاعتقاد بأن كاتب هذه السطور قد حلّ، في أبحاثه، ألغاز الحلم الرئيسية[1]، ثار الفضول ذات يوم بصدد الأحلام التي لم تحلم قط حقاً، أي تلك التي يعزوها الروائيون إلى أبطالهم الخياليين. وقد تبدو فكرة إخضاع هذه الفئة من الأحلام للتمحيص والدراسة فكرة باعثة على الدهشة وغير ذات جدوى، ولكنها لن تبدو بلا مسوغ إذا ما نظرنا إليها من زاوية معيَّنة. فالافتراض بأن للحلم معنى وبأنه قابل بالتالي للتأويل لم يدخل بعد في عداد المعتقدات العامة الشائعة. فرجال العلم، ومعهم غالبية أهل الأدب، تفترّ ثغورهم عن ابتسامة ساخرة إذا ما عرض عليهم أحدهم تأويل حلم من الأحلام. وبالمقابل، إن الخرافة الشعبية، غير المبتوتة الصلة بمأثور العصور القديمة، هي وحدها التي تأبى أن تكفّ عن الإيمان بقابلية الأحلام للتأويل. وقد واتت مؤلف **تأويل الحلم** الجرأة لينحاز إلى صف العصور القديمة والخرافة الشعبية ولو على كره من أهل العلم الوضعي. لكن هذا لا يعني بحال من الأحوال أنه يقرّ للحلم بالقدرة على التكهن بالمستقبل وسبق العلم به. والحال أن إماطة اللثام عن المستقبل كانت في كل آن وزمان الهدف الذي يصبو إليه بنو الإنسان ويركبون إليه ـ عبثاً ـ كل وسيلة ومطية. ومع ذلك ما كان يسع المؤلف أن يقطع الجسور بين الحلم والمستقبل، لأن اجتهاده وجدّه في التأويل كانا قد أظهرا له أن الحلم يمثل **أمنية متحققة** للنائم، والحال أنه لا يسع أحداً أيضاً أن ينكر أن غالبية الأماني تشرئب بالنظر نحو المستقبل.

لقد قلت إن الحلم أمنية متحققة. ومن لا يخشى أن يتبحر في كتاب عويص،

---

١ ـ فرويد: **تأويل الحلم** TRAUMDEUTUNG، ١٩٠٠ .



ومن لا يسأل المؤلف أن يبسّط أو يخفّف مسألة معقدة مراعاة لكسل في نفسه وعلى حساب الحقيقة والدقة، فما عليه إلا أن يرجع إلى كتابي **تأويل الحلم** ليقبس منه أدلة كثيرة على الفرض الذي افترضته، ومن المحقق في هذه الحال أن الاعتراضات التي كانت قائمة لديه بكل تأكيد ستسقط وتتهاوى من تلقاء نفسها.

لكن لعلنا استبقنا الأمور بعض الشيء. فلم يئن الأوان بعد لنقرر إن يكن معنى جميع الأحلام هو تحقيق أمنية، أم أنه أيضاً، وفي أكثر الأحيان، إرهاص، قلق، مشروع، تفكير وتأمل، إلخ. ولنتساءل بالأحرى عما إذا كان للحلم من معنى، وعما إذا كان في وسعنا أن نعزو إليه قيمة سيرورة نفسية ما. العلم الوضعي يجيب قائلاً: «كلا»، ويعلن أن الحلم محض سيرورة فيزيولوجية لا تستوجب أن نبحث فيما وراءها عن معنى أو عن مدلول أو عن نية. فالأمر لا يعدو أن يكون أمر تنبيهات بدنية تهزّ، أثناء النوم، حبال الآلة النفسية، فتدفع نحو سطح الوعي تارة بهذه الصورة، وطوراً بتلك، مجردتين من كل تلاحم نفسي. وعليه، ما الأحلام إلا اختلاجات، وليست بحال من الأحوال خلجات معبّرة عن الحياة النفسية.

والحال أنه، في هذه المساجلة حول تقييم الحلم، يقف الشعراء والروائيون على ما يبدو في صف العصور القديمة والخرافة الشعبية ومؤلف **تأويل الحلم**. فهم حين يجعلون الأبطال الذين أبدعتهم مخيّلتهم يحلمون، يتقيدون بالتجربة اليومية التي تدلّ على أن تفكير الناس وانفعاليتهم يستمران في الأحلام، ولا يكون لهم من هدف غير أن يصوروا، من خلال أحلام أبطالهم، حالاتهم النفسية. والشعراء والروائيون حلفاء كرام على كل حال، ومن الواجب تقدير شهادتهم حقَّ قدرها، لأنهم يعرفون، فيما بين السماء والأرض، بأشياء كثيرة لا تجرؤ حكمتنا المدرسية على أن تحلم بها بعد[٢]. وهم، في معرفة النفس البشرية، معلّمونا وأساتذتنا، نحن معشر العامة، لأنهم ينهلون من موارد لم نفلح بعد في شقّ طريق العلم إليها. ولكن ليت الكتّاب أفصحوا بمزيد من الجلاء عن إيمانهم بطبيعة الحلم

٢ ـ إحالة ضمنية هنا إلى مسرحية **هملت**: «إن لفي السماء والأرض، يا هوراسيو، أشياء أكثر بكثير مما تحلم به حكمتك المدرسية». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة. «م».



الحبلى بالمعاني! وبالفعل، لن يعجز النقد، فيما لو لزم جانب الصرامة، عن الاعتراض بأن الروائيين والشعراء لم ينتهوا إلى قرار قاطع في تأييد الدلالة النفسية للحلم أو في إنكارها، بل اكتفوا بأن أبانوا لنا كيف تختلج النفس النائمة استجابة للانفعالات التي تلبث فيها فعالة كاستطالات من حياة النهار.

إن هذه التحفظات لن تنال بتاتاً من الاهتمام الذي نوليه للكيفية التي استخدم بها الروائيون والشعراء الحلم. وحتى لو لم يزوّدنا هذا البحث بأي عنصر جديد بخصوص ماهية الحلم، فحسبه أن يسلّط لنا، من وجهة النظر هذه، قليلاً من الضوء على طبيعة الإنتاج الأدبي. بيد أنه من المسلَّم به عموماً أن الأحلام الفعلية لا تعرف من كابح أو قانون، فكيف هو، والحال هذه، شأن المحاكاة الحرة لهذه الأحلام في القصص الخيالية! إلا أن الحياة النفسية لا تتسم، خلافاً لما هو شائع، بذلك القدر الكبير من الحرية والنزوة، بل لعلها لا تتمتع بقلامة ظفر منهما: فما نسمّيه في العالم الخارجي بالمصادفة يتحول في نهاية الأمر، كما نعلم، إلى قوانين، وما نسمّيه في الحياة النفسية بالنزوة يرتكز بدوره إلى قوانين ـ وإن كنا لا نحدس بها بعد إلا على نحو غامض. فلنمعن النظر في الأمور إذاً عن كثب.

أمام تنقيبنا ينفتح طريقان. أولهما أن نتوسع ونتبحر في حالة خاصة: الأحلام التي يتخيّلها روائي من الروائيين في عمل من أعماله، وثانيهما أن نجمع ونقارن جميع الأمثلة التي يمكننا العثور عليها في مؤلفات شعراء أو روائيين شتى استخدموا، في ما استخدموا، الأحلام. وهذا الطريق الثاني يبدو متفوقاً بكثير على الأول، بل لعله الطريق الوحيد الجدير بأن يُسلك، لأنه يجنبّنا للحال الأذى الذي يعرّضنا له التصور الأحادي الذي ندرج فيه كل من يحمل لقب «شاعر» أو «روائي». ووجهة النظر الأحادية هذه تتلاشى وتزول متى ما شملت أبحاثنا مجموعة من الفرديات المتمايزة واحدتها عن الأخرى، ولكن المندرجة جميعها في فئة أولئك العارفين الضليعين بالنفس الإنسانية الذين اعتدنا على تكريمهم باسم الروائيين والشعراء. ومع ذلك، إن الصفحات التاليات ستعتمد الخط الأول من التنقيب. ففي تلك الحلقة التي تحدثت عنها، والتي منها جاء الحافز على هذا



النوع من البحث، تذكَّر واحد من أعضائها[٣] أنه كان قرأ مؤخراً رواية حازت على إعجابه، وتضمنت عدداً من الأحلام التي بدت له في أكثر من وجه مألوفة وحافزة على تطبيق مناهج «**تأويل الحلم**» عليها. وقد باح للحاضرين بأن فكرة تلك الرواية الصغيرة وإطارها كان لهما بكل تأكيد قسط كبير من المتعة التي تأتت له من مطالعتها، بالنظر إلى أن أحداثها تجري في بومباي وإلى أنها تصوِّر عالم آثار في ريعان الشباب انصرف اهتمامه عن الحياة الواقعية كيما يهيم بمخلفات الماضي الكلاسيكي، ولكنه ما لبث أن ارتدّ إلى الحياة الواقعية نتيجة تطور، فيه ما فيه من الغرابة لكنه معهود ومتواتر. وقد شعر ذلك القارئ، وهو يطالع تلك القصة المسرودة أحداثها بأسلوب لامتناهي الشاعرية، بأن جميع أوتار نفسه تهتز وتختلج في تساوق أخاذ. والرواية المذكورة هي قصة **فلهلم ينسن** المعنونة باسم **غراديفا**، والتي يصفها مؤلفها نفسه بأنها «فانتازيا بومبية».

والآن أرجو قرائي أن يضعوا كتابي هذا من أيديهم وأن يتناولوا بدلاً منه، ولساعة من الزمن، طبعة «**غراديفا**» الصادرة عام ١٩٠٣، كيما أتمكن من الرجوع لاحقاً إلى ما لهم به معرفة. أما أولئك الذين سبقت لهم مطالعة «**غراديفا**»، فسأحاول إنعاش ذاكرتهم بتلخيص موضوع الرواية باقتضاب، ورجائي معقود على ذكرياتهم الخاصة لإحاطة تلخيصي هذا بما يفتقر إليه، بطبيعة الحال، من فتنة وجاذبية.

اكتشف عالم آثار شاب، يدعى نوربرت هانولد، في مجموعة من العاديات في روما، تمثالاً صغيراً حاز على إعجابه الشديد، فبادر إلى صبِّه في قالب ليحصل على نسخة طبق الأصل منه وليكون في مستطاعه تعليقها في مكتبه في مدينة جامعية ألمانية صغيرة ودراستها بتأنٍّ. وكانت المنحوتة تمثِّل فتاة في مقتبل العمر المتألق تمشي وقد رفعت قليلاً ذيل ردائها الكثير الثنايا، فظهرت قدماها في الخفين اللذين تنتعلان. إحدى القدمين مبسوطة أرضاً، والثانية على وشك الانطلاق فلا تمسّ الأرض إلا بطرف إبهام الرجل، بينما ترتفع النعل والكعب عن

٣ ـ هو فلهلم شتيكل كما تقدم البيان في التقديم. «م».



الأرض على نحو يكاد أن يكون عمودياً. وأرجح الظن أن هذه المشية غير المألوفة، التي هي في غاية من الرشاقة، هي التي كانت قد استرعت انتباه الفنان النحات، وهي التي تأسر الآن، وبعد تصرم أجيال وقرون، أنظار عالِمنا الأثري الشاب.

إن اهتمام بطل القصة التي بين أيدينا بهذه المنحوتة يشكِّل الواقعة السيكولوجية الرئيسية في هذا النص الأدبي، وهي واقعة لا يمكن فهمها بدون مزيد من الإيضاحات. فـ «الأستاذ الجامعي الدكتور نوربرت هانولد، الحاصل على لقبه هذا في علم الآثار، لم يجد في الحقيقة، ومن وجهة نظر العلم الذي يقوم بتدريسه، ما يسترعي الانتباه في تلك المنحوتة خصيصاً» (**«غراديفا»**، ص١١). و«ما كان يجد تفسيراً لما استوقف اهتمامه على ذلك النحو، لكن ثمة شيئاً قد جذبه، فلبث من الوهلة الأولى أسير هذا الانطباع». غير أن مخيِّلته لم تتوقف عن الانشغال بالمنحوتة، فكأن فيها شيئاً من الزمن الحاضر، وكأن الفنان التقط نموذجه من الشارع ورسمه من «الواقع الحيّ». وقد أطلق على هذه الصبية المصوَّرة في مشيتها اسم غراديفا، أي تلك «**التي تتقدم**»، وتصوَّر أنها تنتمي إلى أسرة نبيلة، ولعلها «ابنة ناظر من الأشراف كان يؤدي وظيفته تحت رعاية الإلهة كيريس»[٤]، ولعلها كانت تهمّ بدخول معبدها. وللحال نفر من فكرة أن تكون قد عاشت بمظهرها الهادئ والوديع في زحمة مدينة كبيرة كروما، بل داخله الاقتناع بأنه لا بدّ من نقلها إلى بومباي. فهناك كانت تتقدم فوق تلك البلاطات الفريدة من نوعها التي نبشت من باطن الأرض مؤخراً[٥] والتي كانت تتيح للمشاة، في أيام هطول المطر، السير في الشارع من دون أن تتبلّل أقدامهم، وتترك في الوقت نفسه ممراً لعجلات المركبات. وقد بدت له تقاطيع وجهها إغريقية، ولم يخالجه شكّ في أصلها الهلّيني. وشيئاً فشيئاً طفق كل العلم الذي اختزنه عالم الآثار الشاب في معرفة تاريخ العصور القديمة يعمل في خدمة الأخاييل التي راحت تراوده بصدد النموذج الأصلي للمنحوتة.

٤ ـ كيريس: إلهة الزراعة والحصاد والخصوبة في الميتولوجيا الرومانية. «م».

٥ ـ لا ننسَ أن بومباي، المدينة الرومانية التي دمَّرها البركان، قد أعيد نبشها من تحت الأنقاض. «م».



عندئذ تسلطت على فتاتنا مشكلة علمية مزعومة، مشكلة تتطلب بإلحاح إيجاد حلٍّ لها. كان المطلوب منه إصدار حكم نقدي: «هل كانت مشية غراديفا، كما صوَّرها النحات، مطابقة للمشية في الحياة؟». إنه لا يستطيع هو نفسه أن يمشي مثل تلك المشية. وفي مسعاه إلى التحقق مما إذا كانت تلك المشية واقعية، قرّ قراره على أن «يقوم بنفسه بإجراء تجارب على نموذج حيّ، كيما يحلّ لغز تلك القضية» («**غراديفا**»، ص ١٥). لكن كان في ذلك إكراه له على سلوك مسلك معاكس تماماً لأسلوبه السابق. «لم يكن للجنس المؤنث وجود في نظره حتى ذلك اليوم إلا في أشكال برونزية أو رخامية، ولم يكن قد أولى ممثلاته المعاصرات أدنى اهتمام قط». وما كانت العلاقات الاجتماعية بالنسبة إليه سوى سخرة لا مهرب منها، والنساء اللائي كان يلتقيهن في المجتمع ما كان يراهنّ ولا يعيرهنّ سمعاً، حتى إذا ما التقاهن ثانية ما وجد داعياً لتحيّتهنّ، الشيء الذي جعل سمعته عندهن تسوء بطبيعة الحال. غير أن المعضلة العلمية الجديدة التي طرحها على نفسه باتت ترغمه الآن على أن يدقق النظر وهو في الشارع، في ساعات الصحو وعلى الأخص في ساعات المطر، في أقدام السيدات والفتيات، مما كان يدفع بصاحباتها إلى رميه بنظرات غاضبة تارة، ومغرية طوراً، ولكنه «ما كان يفهم لهذه النظرات أو تلك من معنى» («**غراديفا**»، ص ١٦). وقادته هذه المراقبة المتأنية إلى الاستنتاج بأن مشية غراديفا لا نظير لها في الواقع، فامتلأت نفسه حسرة وغيظاً.

بعد ذلك بقليل حلم حلماً مخيفاً، مقلقاً، انتقل فيه إلى بومباي القديمة، في زمن ثوَران بركان الفيزوف، وشهد بأمّ عينه تواري المدينة من الوجود. «وجد نفسه واقفاً عند تخوم الساحة العامة، على مقربة من معبد جوبيتر، وعلى حين فجأة لمح غراديفا أمامه، على مسافة قصيرة منه. لم تكن فكرة احتمال وجودها قد راودته قطّ حتى تلك اللحظة، وها هي ذي الفكرة تداهمه وتبدو له طبيعية تماماً! فغراديفا بومبية، وهي تعيش في المدينة التي رأى فيها النور، **وتعيش وإياه في مسقط رأسه في زمن واحد من دون أن يدري بها البتة**[٦] («**غراديفا**»، ص

---

٦ ـ التسويد من قبل فرويد. «م».



١٧). وأخذته الرعدة حين فكّر بالمصير الذي ينتظر هذه المرأة، فأطلق صيحة تحذير، مما جعل الطيف اللامكترث يلتفت نحوه وهو يوالي تقدّمه. ولم يبدُ على الطيف أنه مبالٍ بشيء، بل تابعت المرأة طريقها إلى بوابة المعبد، وجلست هناك عند إحدى الدرجات، وأسندت إليها رأسها بوداعة، فيما راح وجهها يشحب أكثر فأكثر، وكأنه استحال رخاماً أبيض. واقترب منها، وتملّى صفحة وجهها الساكنة. كان يبدو عليها الاستغراق في النوم، متمددة على البلاطة العريضة، إلى أن طمرها وواراها عن ناظريه وابل من الرماد.

عند استيقاظه كان لا يزال يتراءى له أنه يسمع صراخ سكان بومباي، وهم يستغيثون ويستنجدون، فيما يتعالى من البحر الهائج هدير أصمّ. لكنه حتى بعد أن استردّ وعيه وتعرَّف في تلك الأصوات الاستيقاظ الصاخب للمدينة الكبيرة، ظلّ يساوره الاعتقاد لوهلة من الزمن بواقعية ما حلم به. وحتى بعد أن نفض عنه فكرة أنه شهد بنفسه دمار بومباي، قبل زهاء ألفي عام، لبث يقينه راسخاً بأن غراديفا قد عاشت حقاً في بومباي. وكان لهذا الحلم عليه من الوقع والأثر ما جعله يتشبّث بتصورات مخيّلته عن غراديفا، فطفق يبكيها وكأنه فقد فيها صديقة.

استند إلى النافذة بمرفقه، ورأسه تعجّ بتلك الأفكار، واسترعى انتباهه كناري كان يغرّد في قفص معلّق في نافذة مفتوحة في المنزل المواجه لغرفته. ومن دون أن يكون، على ما يبدو، قد أفاق تماماً من حلمه، انتابه فجأة ما يشبه الصدمة. فقد خيّل إليه أنه لمح في الشارع شكلاً يشابه شكل غراديفا، بل خيّل إليه أنه تعرَّف مشيتها المميّزة، فاندفع بلا تروٍّ في الشارع يريد الإمساك بها. وما كان لغير قهقهات المارة وتعليقاتهم الساخرة، وقد أخذهم الجذل لمرآه وهو في ثياب النوم، أن تردّه على عجل إلى شقّته. وفي غرفته استرعى تغريد الكناري من جديد انتباهه، وحثّه على المقارنة بينه وبين نفسه. أفليس هو الآخر حبيس قفص، وإن يكن إفلاته من قفصه أيسر عليه منه! ومنذ تلك الساعة، ارتسم في قرارة نفسه، ترجيعاً لصدى الحلم وربما أيضاً تحت تأثير نسائم الربيع العليلة، تصميم على القيام برحلة ربيعية إلى إيطاليا. وسرعان ما وجد ذريعة علمية لذلك، و«إن يكن



دافعَه إلى تلك الرحلة شعورٌ لا يقع تحت تحديد» («**غراديفا**»، ص ٢٧).

قبل أن نروي تفاصيل هذه الرحلة، التي كانت مبرراتها مبهمة بقدر ما هي مثيرة للفضول، لنتوقف هنيهة ولنرصد عن كثب شخصية بطلنا ومسلكه. فهو لا يزال يبدو لنا عصياً على الفهم، وإلى حدّ ما مأفوناً. ولا ندري ما صلة الوصل التي يمكن أن تقوم بين أفنه وبين الشرط الإنساني، حتى يحظى منا بالاهتمام. وللروائي مطلق الحقّ في أن يتركنا على هذه الحيرة. والثقة التي نمحضه إياها والتعاطف المسبق الذي نكنّه لبطله لهما ما يبررهما في روعة بيانه وسطوة خيالاته علينا. ثم إنه يضيف إلى علمنا أن التقاليد العائلية هي التي أوجبت سلفاً على بطله أن ينذر نفسه لعلم الآثار وأن يغرق فيه ويدير ظهره للحياة ومباهجها. ففي نظره ما كان يحيا سوى الرخام والبرونز، وما كان لسواهما أن يعبِّر عن هدف الوجود الإنساني وقيمته. بيد أن الطبيعة وضعت في دمه، عن حسن نية في أرجح الظن، مادة ملطِّفة غير ذات صلة بالعلم: أعني خياله الجامح الذي لا ينشط في المنام فحسب، بل أثناء اليقظة أيضاً في كثرة من الأحيان. وكان انفصال الخيال هذا عن الفكر المنطقي يرشِّحه لأن يصبح شاعراً أو مريضاً عصابياً: فقد كان من تلك الكائنات التي ليس ملكوتها من هذا العالم. وبالفعل، لم يكن غريباً عليه أن يقع أسير منحوتة تمثِّل صبية تمشي بطريقة خاصة، وأن يحيطها بهالة من أخاييله واستيهاماته FANTASMES، وأن يعزو إليها اسماً وأصلاً خياليين، وأن ينقل هذه الشخصية التي من خلقه وإبداعه ثمانية عشر قرناً ونيفاً في الزمن إلى الوراء متصوراً أنها عاشت أثناء دمار بومباي، ثم أن يحوِّل، على إثر كابوس غريب، وهم وجود الصبية التي سمَّاها غراديفا وانطمارها إلى هذيان كان له تأثير على سلوكه بالذات. ومفاعيل الخيال هذه كانت ستبدو لنا عجيبة، عصية على الفهم، فيما لو كنا التقيناها لدى مخلوق حيّ فعلاً. أما وأن بطلنا، نوربرت هانولد، من نتاج مخيِّلة الروائي، فبودِّنا أن نطرح على هذا الأخير السؤال الوجل: هل خضع خياله لقوى أخرى غير هوى هذا الخيال عينه؟

لقد تركنا بطلنا لحظةَ حمَلَه تغريدُ الكناري، في ظاهر الأمر، على عقد العزم على السفر إلى إيطاليا، من دون أن يتبيَّن بينه وبين نفسه دافعاً واضحاً إلى ذلك.



وسوف نرى في الصفحات التالية أنه لم يكن قد وصل بعد إلى نتيجة محددة بصدد غرض تلك الرحلة وهدفها. فقد استبدّ به ضرب من القلق النفسي ومن الضيق الداخلي ودفعه باتجاه روما ونابولي، ومنهما إلى ما هو أبعد منهما. وقد شاء له الحظ أن يسافر مع جماعة من العرائس الجدد. فكان طوال الطريق تطرق أذنيه عبارات الودّ والتحابّ المتبادلة بين أقران قيس وليلى. ودارت في رأسه الفكرة التالية: «إذا كانت المرتبة الأولى بين جميع ضروب الجنون الإنساني تعود بلا جدال إلى الزواج، بوصفه الجنون الأعظم والأعجب، فإن رحلات شهر العسل هذه في إيطاليا ينبغي أن تُخصَّ وحدها دون سواها بصولجان الجنون» (**«غراديفا»**، ص ٢٩). وفي روما أقضَّت مضجعه ليلاً مجاورة عروسين له، فلاذ بالفرار إلى نابولي، ليقع هناك أيضاً على أقران لهما من أتراب قيس وليلى. وحينما فهم من أطراف أحاديثهم، على ما خيّل إليه، أن غالبية أولئك العشاق اليافعين لا ينوون أن يحطّوا الرحال بين خرائب بومباي، وأن كابري هي طَلِبتهم، قرّر أن يفعل ما لن يفعلوه؛ وهكذا وجد نفسه، «خلافاً لكل توقع وكل قصد»، في بومباي بعد بضعة أيام من رحيله ليس إلا.

ولكن لم يقيَّض له أن يلقى فيها الراحة المنشودة. فالدور الذي كان يقوم به حتى الآن العُرسان اليافعون في إثارة غيظه وإهاجة حواسه انتقل من تلك الساعة إلى الذباب المحلي الذي أضحى ينزع إلى أن يرى فيه تجسيداً لكل ما ينطوي عليه العالم من رداءة وكدر. وتماهت هاتان الفئتان من الأرواح الشريرة في بعضها بعضاً، وذكّره العديد من أزواج الذباب بأزواج العرسان، ولا ريب في أنها كانت تتبادل بلغتها معسول الكلام: حبيبي قيس! حبيبتي ليلى! وما وسعه في خاتمة المطاف إلا أن يقرّ بينه وبين نفسه بأن «استياءه غير ناجم عما يحيط به فحسب، بل نابع كذلك، وإلى حدّ ما، من قرارة ذاته» (**«غراديفا»**، ص٤١). وشعر بأنه «متكدر في المزاج، لأن ثمة شيئاً ينقصه، من دون أن يكون قادراً على تحديد كنهه».

في صبيحة اليوم التالي دخل بومباي من الأنغريسو[٧]، وصرف دليله، وهام

٧ ـ الأنغريسو: هو المعبر الإلزامي للسواح للدخول إلى بومباي. «م».



على وجهه في طرقات المدينة، من دون أن يتذكر ـ ويا للعجب! ـ أنه كان قد شهد في المنام قبل أيام نكبة بومباي وانطمارها. وفي ساعة الظهيرة، **الحارة والمقدسة**، التي كانت ساعة الأشباح والأطياف عند القدامى، كان سائر الزوار قد تبعثروا وتفرقوا، وراحت أكداس الأنقاض والخرائب الموحشة والمعفَّرة تتوهج تحت الشمس اللاظية، واستيقظت من جديد في نوربرت هانولد ملكة الغوص في أغوار تلك الحياة المطمورة، ولكن بغير وساطة العلم. «فالنظرة التي كان العلم يجاهر بها كانت نظرة أثرية لا حياة فيها، واللغة التي كان ينطق بها كانت لغة ميتة لا يتقنها غير فقهاء اللغات. العلم ما كان قادراً على إدراك الروح، الشعور، القلب، فلا أهمية للاسم هنا. لكن من كان يصبو إلى مثل هذا الفهم كان عليه، وهو الكائن الحيّ الوحيد في صمت الظهيرة اللاهب، أن يبقى هنا بين أنقاض الماضي، حتى لا يعود يرى بالعينين الجسديتين، ولا يعود يسمع بالأذنين الجسمانيتين. وعندئذ كان الموتى يستيقظون، والحياة تدبّ من جديد في أوصال بومباي» («**غراديفا**»، ص ٥١).

هكذا اندفعت مخيِّلته تبعث الحياة في الماضي حين لمح فجأة، من غير أن يستطيع تكذيب عينيه، غراديفا المنحوتة تخرج من أحد المنازل وتجتاز برشاقة الشارع فوق البلاطات الطفحية، وكانت صورة طبق الأصل عن تلك التي رآها في الحلم، ساعة تمددت على درجات معبد أبولون وكأن في نيتها النوم عليها. «ومع هذه الذكرى انبثقت في ذهنه، وللمرة الأولى، فكرة أخرى: لقد قدم إلى إيطاليا، وقطعها من أقصاها إلى أقصاها، ماراً بسرعة بروما ونابولي، قاصداً بومباي، ليرى إن كان في وسعه أن يعثر فيها على أثر لغراديفا، وعلى وجه التحديد ـ وهذا بحرف معنى الكلمة ـ على أثر لخطواتها الخاصة الفريدة التي تركت في الرماد، ولا بدّ، بصمة متميزة عن بصمات جميع الخطى الأخرى، بحيث يمكنه أن يقرأ فيها طبعة إبهام قدمها» («**غراديفا**»، ص ٥٣).

إن التوتر، الذي حبسنا فيه الروائي حتى الآن، ينقلب هنا، ولهنيهة من الزمن، حيرة وبلبلة شاقة على النفس. وليس مردّ ذلك إلى أن البطل أضاع علانية وجهاراً توازنه فحسب، بل ها نحنذا أيضاً وجهاً لوجه مع طيف غراديفا، يهصرنا



شعور بالضيق، إذ رأيناها أولاً في قسمات تمثال، ثم في قسمات تخييل استيهامي. أهي هلوسة من جانب بطلنا الذي أضلّه الهذيان عن رشده؟ أهي شبح «حقيقي» أم شخص حيّ فعلاً وحقاً؟ لا حاجة بنا إلى الاعتقاد بوجود الأشباح لنشيد هذه السلسلة من الفرضيات. والروائي، الذي عنْوَن قصته بأنها **فانتازيا**، لم يجد بعد الفرصة المناسبة ليعلمنا هل في نيته أن يدعنا في عالمنا المذموم المحقَّر على نثريته وتفاهته، أم أن غايته أن يقودنا إلى عالم خيالي آخر تتلبس فيه الأرواح والأشباح قيمة الوقائع والحقائق. وإننا لعلى أتمّ الاستعداد، كما يثبت ذلك مثالا هملت ومكبث، لأن نتبعه بلا تردد في طريق كهذا. ولكن سيكون لزاماً علينا، في هذه الحال، أن نقيس هذيان عالم الآثار الواسع الخيال بمقياس آخر. بل أكثر من ذلك: فلو أخذنا بعين الاعتبار عدم احتمال وجود شخص يتطابق طيفه في جميع قسماته مع الصورة الحجرية القديمة، لتقلصت سلسلة فرضياتنا إلى خيار بين أحد اثنين: إما هلوسة وإما شبح ظهيرة. وسرعان ما يلغي تفصيل من تفاصيل الوصف الاحتمال الأول. وبالفعل، كانت عظاية ضخمة متمددة بلا حراك تتشمس في كسل، لكن لما اقتربت رِجْل غراديفا منها لاذت بالفرار وانسابت بين بلاطات الشارع الطفحية. لا هلوسة إذاً، فثمة شيء ما يجري حقاً وفعلاً خارج حواس بطلنا الحالم. ولكن هل كان لشبح امرأة، على افتراض وجوده، أن يبثّ الذعر، على نحو ما بثّه، في عظاية؟

تختفي غراديفا أمام منزل ميلياغروس[٨]. ولا يأخذنا العجب حين ينقاد نوربرت هانولد بفعل هذيانه إلى الاعتقاد بما يلي: في ساعة الهاجرة هذه، **ساعة الأشباح**، دبّت الحياة في أوصال بومباي من جديد، وبعثت غراديفا نفسها من الموت، ودلفت إلى المنزل الذي كانت تقطنه قبل اليوم المشؤوم من آب/أوغسطس عام ٧٩. وتتوالى في رأس هانولد فرضيات حاذقة أريبة بصدد شخصية مالك المنزل، الذي سمّي باسمه[٩]، وبصدد علاقاته بغراديفا، لتقدّم

---

٨ ـ من أبطال الأساطير الإغريقية، وكذلك اسم لشاعر عاش في القرن الأول ق.م. وكذلك أيضاً اسم قائد من قادة الإسكندر المقدوني. «م».

٩ ـ هو المنزل الأثري المعروف بالإيطالية باسم: CASA DI MELEAGRO. «م».



الدليل على أن كل علمه قد طفق يعمل الآن في خدمة استيهامه. ودلف بدوره إلى المنزل ليفاجأ من جديد بالطيف جالساً على درجات واطئة بين عمودين من الأعمدة الصفر. «كان على ركبتيها شيء أبيض عجز عن تمييزه، لكنه بدا له وكأنه ورقة من البَرْديّ». وطبقاً لمسلَّمات الفرضية الأخيرة المتعلقة بأصلها، وجَّه إليها خطابه باليونانية ليتبيّن، وكله انفعال، إن كان الطيف الشبحي قد احتفظ بعطيَّة النطق. ولكن لما لم يأتِه جواب، غيَّر اللغة وتكلم باللاتينية. وعندئذ افترّت شفتا غراديفا الباسمتين عن هذه الكلمات: «إذا كنت تريد مخاطبتي، فعليك أن تتكلم بالألمانية».

يا لخجلتنا نحن القراء! لقد هزأ المؤلف واستخفّ بنا نحن أيضاً، وجعلنا نسقط في شِباك هذيان بسيط كما لو تحت انعكاس شمس بومباي، ليحملنا من ثَمّ على أن نعامل بمزيد من الرأفة والإشفاق ذلك الشقيّ الذي تسوطه شمس الحقيقة بلاسع سياطها. ولكننا بتنا نعرف الآن، وقد إبنا من تيهنا العارض، أن غراديفا فتاة ألمانية، من لحم وعظم، وهذه هي بالضبط الفرضية التي كنا نريد أن ننحِّيَها جانباً بصفتها أبعد الفرضيات احتمالاً. وفي وسعنا الآن أن ننتظر، بهدوء وترفع، اللحظة التي ستطلِّع فيها الفتاة على طبيعة العلاقة القائمة بينها وبين صورتها الحجرية، وعلى الكيفية التي وجد بها عالمنا الأُثري الشاب نفسه منقاداً إلى الاستغراق في تلك الأخاييل التي مدارها على شخصيتها الحقيقية.

ولسوف يصحو بطلنا بدوره من هذيانه، وإن متأخراً عنا، لأنه، كما يقول الروائي: «حينما يؤتي الإيمانُ الإنسانَ بالسعادة، فإنه يجعله يقبل بأشياء كثيرة لا تصدَّق» (**«غراديفا»**، ص ١١٤). ناهيك عن أن الهذيان له، في أرجح الظن، جذوره المتأصلة في قرارة نفس نوربرت هانولد، جذور لا نعرف عنها شيئاً ولا وجود لها لدينا. ولا شك أن هانولد بحاجة إلى علاج قوي كيما يؤوب إلى الواقع. وبانتظار ذلك، ليس أمامه من خيار غير أن يسعى إلى تكييف هذيانه مع الحادث الخارق الذي عاشه للتو. فغراديفا التي لاقت مصرعها يوم طُمرت بومباي تحت الحمم لا يمكن على هذا الأساس أن تكون سوى شبح من أشباح الظهيرة، شبح عاد إلى الحياة ساعة الأشباح الوجيزة. ولكن كيف نفسِّر في هذه الحال



الهتاف الذي صدر عنه لما ردّت عليه غراديفا بالألمانية: «كنت أعلم أن هكذا هي رنة صوتها!»؟ ولسنا نحن وحدنا مَن يطرح السؤال؛ ومن المؤكد أن الفتاة أيضاً مكرهة على طرحه، وسيجد هانولد نفسه مكرهاً على الاعتراف بأنه لم يسمع قط صوتها، وإن كان توقع أن يسمعه في أثناء ذلك الحلم الذي ناداها فيه، فيما كانت ممدَّدة على درج المعبد قصد النوم. وما لبث أن رجاها أن تعيد اتخاذ الوضعية نفسها، كما في الحلم. لحظتئذ هبَّت واقفة، وحدجته بنظرة باردة، وتقدمت بضع خطوات، وتوارت عن ناظريه بين أعمدة الباحة. وكانت فراشة جميلة قد رفرفت حولها قبل ذلك عدة مرات، فتوهَّمها بطلنا رسولاً بعث به هادس[10] ليحثّ المتوفاة على الرجوع، ما دامت ساعة أشباح الظهيرة قد تصرمت. ولكن أمكن لهانولد على كل حال أن يهتف بتلك التي كانت على وشك التواري عن ناظريه: «أتعودين إلى هنا غداً ساعة الظهيرة؟». ويخيَّل إلينا، نحن الذين بتنا نملك للأمور تفسيراً أكثر واقعية، أن الفتاة وجدت دعوة هانولد لها لا تخلو من صفاقة، لذا غادرته مستاءة لأنها ما كانت تعلم شيئاً، بطبيعة الحال، عن حلمه. ترى ألم تدرك، بما أوتيت من رهافة حسّ، الطبيعة الإيروسية لرغبة هانولد التي لم يكن لها من حافز في نظره سوى حلمه؟

بعد اختفاء غراديفا، يتفرس بطلنا في وجوه جميع النزلاء الجالسين إلى مائدة الطعام في فندق ديوميدس[11]، ثم كذلك في الفندق السويسري، ويقول بينه وبين نفسه إنه لا وجود في الفندقين الذين يعرفهما في بومباي لأي شخص يشبه غراديفا من قريب أو بعيد. ومن المؤكد أنه كان سيعتبر نفسه مأفوناً فيما لو توقع حقاً أن يلتقي غراديفا في أحد هذين الفندقين. وتأتي عندئذ الخمر التي تخمرت فوق أرض الفيزوف المحرقة لتزيده بلبالاً على بلباله الذي عاشه طوال نهاره.

في اليوم التالي كان ثمة شيء واحد فقط بحكم الأكيد: إن على هانولد أن يذهب ظهراً إلى منزل ميلياغروس. وبانتظار أزوف هذه الساعة قصد بومباي سالكاً إليها طريقاً غير مطروق يمرّ بالأسوار القديمة. وتراءى له غصن صغير من

١٠ ـ هادس: إله العالم السفلي في الميتولوجيا اليونانية. «م».

١١ ـ ديوميدس: ملك آرغوس في الميتولوجيا اليونانية وأحد أبطال حرب طروادة. «م».



نبات البرْوَق، ترصِّعه زهيراته البيض، فرأى فيه بما يشبه اليقين رسولاً من عالم الغيب، فقطعه وحمله معه. على أنه، وفيما كان يتقلب على جمر الانتظار، تجلى له كل بطلان علم العاديات وعدم جدواه، إذ كان يتسلط عليه هاجس آخر، هاجس المعضلة التالية: « من أي مادة هو الطيف الجسماني لغراديفا التي هي في آن معاً ميتة وحية، وإن تكن الحياة لا تدبّ فيها إلا ظهراً، ساعة الأشباح؟» («**غراديفا**»، ص٧٠). وتملَّكه الخوف كذلك من ألا يقع نظره مرة ثانية على تلك التي يجدّ في إثرها، إذ قد لا تكون عودتها مأذوناً لها بها إلا بفاصل فترات زمنية مديدة. وحين لمحها من جديد بين الأعمدة، حسبها خدعة من خدع مخيِّلته، فزفر زفرة ملؤها الكرب والأسى: «أواه! ليتك موجودة وليتك حية بين الأحياء!». غير أنه كان مغالياً هذه المرة، ولا بدّ في نزعته النقدية، إذ إن للطيف صوتاً، وهذا الصوت هو الذي بادر يسأله إن كان له أتى بتلك الزهرة البيضاء، مما اضطر أرنولد إلى أن يخوض والطيف في حديث ذي شجون. وهنا ينبغي أن نقول إن غراديفا ككائن حيّ قد أفلحت في إثارة اهتمامنا، نحن أيضاً معشر القراء، وها هو الروائي يضيف إلى معلوماتنا أن الاستياء والفتور اللذين تجليا بالأمس في نظرتها قد ناب منابهما تعبير فيه ما فيه من الفضول والاستغراب والرغبة في المعرفة. تفرست في هانولد ملياً، وسألته تعليلاً للملاحظة التي أبداها بالأمس، وأن يفسِّر لها كيف تواجد إلى جانبها حين تمددت لتنام؟ وهكذا علمت بوجود ذلك الحلم الذي اختفت فيه مع المدينة التي كانت مسقط رأسها، ثم بوجود المنحوتة ووضعية القدم التي أسرت لبَّ عالم الآثار. وعلى الأثر أفصحت عن استعدادها لأن تدعه يدرس مشيتها المطابقة في كل شيء لمشية صاحبة التمثال خلا اختلافٍ هيِّن في أحد التفاصيل: فهي تنتعل الآن، بدلاً من الخفَّين، زوج حذاء بلون أصفر رملي، من جلد في منتهى النعومة، قالت عنه إنه أصلح وأوفق للأزمنة الحاضرة. وبدا عليها وكأنها تطاوع صديقها في هذيانه، وجعلته يقصّ عليها تفاصيله كاملة، متحاشية مناقضته. ولكنها لمرة واحدة فقط نسيت دورها وخانها انفعالها، وذلك حينما أكد لها أنه تعرَّفها من النظرة الأولى لحظة كان انتباهه كله مركَّزاً على الصورة المنحوتة. ولما كانت لا تعرف شيئاً



بعد، في تلك المرحلة من محاورتهما، عن التمثال، فقد عسر عليها فهم كلمات هانولد؛ لكنها سرعان ما سيطرت على نفسها، وبتنا نحن وحدنا الذين نشعر بالتباس بعض عباراتها وبتضمُّنها، خارج سياق المعنى المرتبط بالهذيان، إيماءات إلى الواقع والحاضر، ومن قبيل ذلك إعرابها عن أسفها لأنه، وهو الاختصاصي بعلم الآثار، لم يتمكن يومئذ من تعرُّف مشية غراديفا في الشارع، إذ قالت:

ـ يا للخسارة، فلعلك كنت وفَّرت على نفسك هذه الرحلة الطويلة إلى هنا («**غراديفا**»، ص ٧٦).

وعلمت منه كذلك أنه أطلق على المنحوتة التي تمثِّلها اسم غراديفا، وأخبرته بأن اسمها الحقيقي هو زويه.

ـ هذا الاسم يوائمك تماماً لكن له في أذني وقعاً ساخراً مرّاً، فمعنى زويه هو الحياة[١٢].

فأجابته:

ـ لا مفرّ للمرء من التسليم بأن لا حيلة له في مواجهة ما هو غير قابل للتغيُّر، وهأنذا قد اعتدت منذ زمن بعيد على أن أكون ميتة.

وانصرفت واعدة إياه بلقائه في الغداة، ظهراً، في المكان نفسه، بعد أن طالبته ثانية بغصن البروق. «لغيري، ممن واتاهنّ الحظّ، ورد الربيع، أما أنا فليس لي من يدك إلا زهرة النسيان» («**غراديفا**»، ص ٧٧). حقاً، إن الكآبة تليق بامرأة ميتة منذ أحيال عديدة ولا تبعث إلى الحياة إلا لسويعات معدودات.

ها نحنذا بدأنا نفهم وبدأ يساورنا أمل. فلئن تبنت الفتاة، التي في إهابها عادت غراديفا إلى الحياة، هذيان هانولد بلا تحفظ، فإنما بنيَّة تحريره منه في أرجح الظن. فليس إلى ذلك من سبيل آخر، ولو كانت ناقضته لقطعت على نفسها كل طريق. وهذا بالضبط ما يحدث في العلاج الفعلي لهذيان حقيقي، إذ لا يمكن للطبيب المعالج في البدء إلا أن يسلِّم بحقيقة الهذيان ويقف على أرضه، ومن ثم يتعمق في دراسته ما وسعه. وإن تكن زويه أهلاً لمثل هذه المهمة، فسنعاين عما

١٢ ـ زويه: الحياة باليونانية. «م».



قليل كيف يشفى هذيان من نوع هذيان بطلنا. وبودِّنا علاوة على ذلك لو نفهم نشوءه وتكوّنه. وقد نستغرب ـ ولكن الأمثلة والنظائر لا تنعدم هنا ـ أن يتزامن علاج الهذيان وتقصِّيه، وأن يأتي تفسير نشوئه وتكوُّنه طرداً مع انحلاله واستكشافه. وقد يسعنا أن نتكهن من الآن بأن هذه الحالة المَرَضية قد لا تتمخض إلا عن قصة حب «عادية»، ولكن لا يجوز لنا أن نستهين بالقوة العلاجية الشافية للحب في الهذيان. ثم ألم يكن تسلط صورة غراديفا على بطلنا عشقاً حقيقياً، وإن يكن متجهاً صوب الماضي وصوب موضوع هامد الحياة؟

مع تواري غراديفا، ساد صمت لم يقطعه، من بعيد، إلا ما بدا وكأنه زقزقة ساخرة لطائر يحلق فوق المدينة الخربة. والتقط بطلنا، وقد بقي بمفرده، شيئاً أبيض كانت غراديفا قد تركته: لم يكن ورق بَرديٍّ، بل دفتر رسم يحتوي على رسوم بالقلم الرصاص لمشاهد شتى من بومباي. وسنبيح لأنفسنا أن نقول إن غراديفا نسيت هنا دفترها عربوناً على عودتها التالية: فنحن من أنصار الرأي الذي يقول إن المرء لا ينسى شيئاً بلا حافز سري أو دافع خفي.

وتحمل البقية الباقية من النهار لصاحبنا هانولد جملة من اكتشافات مدهشة وفرص لقطع دابر كل شك، ولكنه يأبى أن يرى فيها كلاً واحداً متناسقاً. ففي سور الرواق الذي منه اختفت غراديفا يكتشف شقّاً ضيقاً، ولكنه كافٍ لمرور شخص أهيف لامتناهي الرشاقة. ويقرّ بينه وبين نفسه بأن غراديفا / زويه لا تحتاج إلى اختراق الأرض اختراقاً (وهذا أمر غير معقول يخجله الآن أن يكون قد توهّمه ولو لهنيهة من الزمن)، بل حسْبها أن تلج من ذلك الشقّ لتصل إلى قبرها. ويتراءى له أنه لمح طيفاً هفهافاً يتوارى عن الأنظار في آخر شارع الأضرحة، أمام الفيلا المعروفة باسم فيلا ديوميدس. ويهيم على وجهه في أرباض بومباي وقد أخذه دوار الأمس نفسه واستغرقته المعضلات ذاتها. ما جوهر غراديفا / زويه الجسماني، وهل يحسّ المرء بشيء لو لمس يدها؟ كان هاجس غريب يحثّه على القيام بتلك التجربة، ولكن خجله الذي لم يكن أقل شأناً كان ينهاه عن محاولة ذلك ولو في الخيال. وكان قد التقى على منحدر، تحت أوار الشمس، برجل تقدم به العمر قليلاً، تنمّ الأدوات التي يحملها معه عن عالم حيوان أو عالم



نبات، وقد انصرف اهتمامه كله إلى أسر حيوان والفوز بصيد ما. وقد التفت الرجل نحوه وسأله: «أتهتم أنت أيضاً **بالفاراليونسيس**[١٣]؟ ما كنت لأصدق ذلك، ولكن يبدو لي محتملاً أنها غير موجودة فقط في فاراليوني[١٤]، قرب كابري، بل هنا أيضاً، على اليابسة، إذا ما أوتي المرء صبراً للبحث عنها. إن الطريقة التي أشار عليّ بها زميلي آيمر[١٥] لممتازة حقاً، ولقد جرَّبتها عدة مرات بنجاح تام» («**غراديفا**» ص ٨١ ـ ٨٢). بعد ذلك سكت الخطيب ومدّ أمام فلق في الصخرة أنشوطة جُدلت من خيط طويل من العشب، وظهرت في الفلق رأس لعظاية ذات بريق ضارب إلى الزرقة. وترك هانولد صياد العظائيات وهو يدير في رأسه هذا الانتقاد: إنه لمما لا يكاد يصدَّق أن يوجد أمثال هؤلاء المجانين الذين لا يحجمون عن القيام بأسفار بعيدة سعياً وراء أشباه هذه الترهات. وبديهي أنه استثنى من انتقاده نفسه، هو الذي ينقِّب في رماد بومباي عن بصمة قدم غراديفا. وعلى كل، لم يبدُ له وجه ذلك الرجل غريباً، فكأنه لمحه أثناء مروره بأحد الفندقين، بل حتى كلمات الشيخ بدت له، وهو يخاطبه، وكأنها موجَّهة إلى واحد من معارفه.

أثناء تجواله قادته عطفة الطريق إلى قبالة دار لم يكن قد وقع نظره عليها بعد، وسرعان ما تبيَّن له أنها فندق ثالث يعرف باسم **ألبرجو دل سول**. واغتنم صاحب النزل الفرصة للإشادة بنزله وبما يضمّه بين جنباته من كنوز أثرية. وأكَّد أنه شاهد بأمّ عينه في مكان قريب من الساحة العامة عملية نبش رفات العاشقين اللذين شعرا بوشكان الكارثة فلبثا على عناقهما بانتظار الموت. وكان هانولد يعرف منذ زمن بعيد بهذه القصة الطريفة، وكان يعدّها من اختراع حكواتي واسع الخيال، ولا ينزلها من نفسه منزلة ذات شأن. بيد أنه صدَّق في ذلك اليوم كلام صاحب النزل، بل صدّقه حتى عندما قدَّم له مشبكاً من المعدن علاه زنجار أخضر ادعى أنه نُبش، على مرأى منه ومشهد، من الرماد بجانب رفات المرأة

١٣ ـ دودة بحرية مسطحة. «م».

١٤ ـ فاراليوني: ثلاث صخور تنتصب في قبالة جزيرة كابري. «م».

١٥ ـ غوستاف آيمر: عالم حيوانات سويسري (١٨٤٣ ـ ١٨٩٨). «م».



الصبية. وبدون أي تروٍّ نقدي، ابتاع هانولد ذلك المشبك؛ وحين وقع نظره، وهو يغادر النزل، على عثكول من نبات البروق بأزاهيره البيض يتدلى من نافذة مفتوحة، استوقف انتباهه فجأة المظهر الرمسي[١٦] لتلك الزهور التي بدا وكأنها تؤكد أصالة مشتراه وصحّة أصله.

وحرّك فيه المشبك هذياناً جديداً، أو أضاف بالأحرى إلى هذيانه القديم وزاد عليه، وهذا ما لا نرى فيه بشارة خير من منظور استباق الحكم على المعالجة التي شرع بها. لقد تمّ إذاً، على مقربة من الساحة العامة، نبش رفات عاشقين يافعين متعانقين بحنوّ وحبّ، ولقد كان رأى في المنام في هذه الأنحاء على وجه التحديد، وعلى مقربة من معبد أبولون، غراديفا تتمدد لتستسلم للرقاد. أفمن المستبعد، والحالة هذه، أن تكون قد اجتازت الساحة العامة لتلاقي شخصاً اتحدت وإياه في الموت؟ وأيقظت فيه هذه الفرضية إحساساً مرهقاً قد يجوز لنا وصفه بأنه ضرب من الغيرة. وما عتم أن وأده حينما طفق يفكر ببطلان هذا الرجم بالغيب، وعاد إلى تمالك روعه بحيث أمكنه تناول عشائه في فندق ديوميدس. وهنا استرعى انتباهه ضيفان جديدان (هو وهي)، على قدر من الشبه فيما بينهما أباح له أن يفترض أنهما أخ وأخت، رغم فارق اللون بين شعريهما. كانا أول شخصين يقعان من نفسه موقعاً حسناً أثناء رحلته. وكانت الفتاة تتزين بوردة حمراء من ورود سورنتو[١٧]. وأيقظت فيه هذه الوردة ذكرى من الذكريات، ولكن من دون أن يملك لها تعييناً. وفي النهاية آب إلى فراشه وطفق يحلم حلماً لامعقولاً إلى حدّ عجيب، ولكنه مركّب بطبيعة الحال من جميع عناصر الأحداث التي عاشها في النهار وقد خلطت ومزجت معاً:

«في مكان ما، تحت الشمس، تجلس غراديفا وتجدل من خيوط العشب أنشوطة لتأسر بها عظاية وتقول: «أرجوك، لا تتحرك، زميلتي على حق، الطريقة ممتازة حقاً، وقد طبَّقتها بنجاح تام».

---

١٦ ـ الرمس: القبر. «م».

١٧ ـ سورنتو: مقاطعة إيطالية فيها تقع نابولي وكابري وبومباي. «م».



وقاوم هذا الحلم، وهو مستغرق في النوم، بذلك النقد الذي بدا معه وكأن الأمر كله ضرب من الجنون، وتوصل إلى التخلص من الحلم بفضل طائر غير منظور أطلق زقزقة قصيرة شبيهة بالقهقهة وحمل العظاية بمنقاره.

وعلى الرغم من هذه الرؤى جميعاً، استيقظ وذهنه أكثر صحواً وثباتاً. وذكّرته شجيرة ورد، حاملة لأزهار شبيهة بتلك التي لاحظها بالأمس على صدر السيدة الشابة، ذكّرته بأن أحدهم قد قال، ليلاً، بأنه في فصل الربيع تُقدَّم الورود. وما درى إلا وهو يقطف بغير إرادته بعضاً من تلك الورود، ولا بدّ أن هذه الأزهار كانت ترتبط في ذهنه بشيء ما له عليه مفعول تحريري، فأمسك عن عمله الهمجي، وقصد بومباي من الطريق المعتاد، محمَّلاً بالوردات وبالمشبك المعدني ودفتر الرسم، مقلِّباً في دماغه المعضلات المتعلقة بغراديفا على جميع وجوهها. وطفق الهذيان القديم يتفتت: فهانولد قد بات يشتبه بأن غراديفا لا تعود إلى الحياة في بومباي في ساعة الهاجرة وحدها، بل في ساعات أخرى من النهار أيضاً. وفي مقابل ذلك انتقل تركيزه باتجاه الحلقة الأخيرة من السلسلة، وراح يتقلب على جمر الغيرة في كل الأشكال التنكرية الممكنة. فقد تمنى أو كاد لو أن الطيف لا يظهر إلا لعينيه ولو أنه يخفى على إدراك الآخرين، فعلى هذا النحو سيكون في مستطاعه أن يعدَّه ملكه الموقوف عليه حصراً. وفيما هو يهيم على وجهه بانتظار ساعة الظهر، استوقفه مشهد يبعث على الدهشة: فقد التقى بشخصين يحسبان نفسيهما ولا بدّ في منجى عن الأنظار في ركنهما، وكانا يقفان بالفعل متعانقين، والشفاه على الشفاه. وتعرَّف فيهما، على عجب منه، الضيفين الجديدين اللذين كانا عشية قد وقعا من نفسه موقعاً حسناً، لكن هذا الوضع وهذا العناق وهذه القبلة بدت له أطول زمناً مما ينبغي بالنسبة إلى أخ وأخت شقيقين. هما إذاً زوج من العشاق، وفي أرجح الظن عروسان جديدان، قيس وليلى آخران. والعجيب الغريب أن هذا المشهد لم يوقظ فيه سوى إحساس مستحبّ؛ فانسحب على وجل، كما لو أنه رنَّق سراً مقدساً، من غير أن يبصر به أحد منهما. واعتمرت نفسه بشعور من الاحترام طالما كان افتقر إليه.

أمام دار ميلياغروس استحوذ عليه من جديد الخوف من أن يجد غراديفا في



صحبة رجل آخر. وقد استبدّ به هذا الخوف استبداداً شديداً، فما أمكنه أن يحيِّي الطيف إلا بهذا السؤال: **أأنت وحدك؟** وبصعوبة أفهمته أنه إنما من أجلها قطف الوردات. واعترف لها بهذيانه الأخير الذي توهَّمها فيه تلك الفتاة التي عُثر على رفاتها قرب الساحة العامة وهي تعانق حبيبها والتي إليها يعود، على ما يفترض، المشبك الأخضر. فسألته، بشيء من السخرية، إن لم يكن قد وجد ذلك المشبك في الشمس. فما يسمى في هذا البلد بـ«**السول**» يتسبَّب في أشياء مشابهة كثيرة. وتدعوه، لتشفيه من الدوار الذي باح لها بأنه يشكو منه، إلى مشاطرتها غداءها البسيط، وتقدِّم له نصف رغيف صغير أبيض مصرور في ورق حرير، وتقضم بنفسها النصف الآخر بشهية ملحوظة. وتفترّ شفتاها عن أسنان سليمة منتظمة تحدِث، أثناء قضم الرغيف، طقطقة خفيفة. وتقول له: «يخيَّل إليَّ أننا تقاسمنا على هذا النحو خبزنا منذ نحو ألفي سنة. أفلا تذكر ذلك؟» («**غراديفا**»، ص ١٩٧). وما حرى بما يجيب، لكن الطعام أعاد إلى رأسه صحوه، وما كان مفرّ من أن تؤتي جميع شهادات الواقعية التي قدَّمتها له غراديفا مفعولها. فثاب إلى رشده، وخامره الشكّ في كل ذلك الهذيان الذي كان صوَّر له أن غراديفا هي محض شبح من أشباح الظهيرة. ولكنها، نفسها، بالمقابل التي قالت له للتو إنها شاطرته الطعام قبل زهاء ألفي سنة. وإزاء هذه الحيرة المبلبلة، كان لا بدّ له من أن يقوم بتجربة تقطع دابر الشك وتقدِّم له مفتاح السرّ. ولما سنحت له الفرصة اهتبلها بذكاء وبشجاعة. فقد كانت يد غراديفا اليسرى المشيقة مرخيَّة بطمأنينة على ركبتيها، فحطَّت على هذه اليد ذبابة من ذلك الذباب المحلي الذي كان بإلحافه وسفهه قد أثار سخط هانولد وحنقه. فرفع هانولد يده في الهواء وهوى بها بقوة على الذبابة وعلى يد غراديفا أيضاً.

وعادت عليه جرأته بنجاح مزدوج: فقد داخله أولاً يقين مستحبّ بأنه لمس يداً حارة، حيّة، لا مراء في واقعيتها، وجاءه ثانياً توبيخ جعله يقفز مذعوراً عن الدرج الذي كان يجلس عليه. وبالفعل، ما إن أفاقت غراديفا من اندهاشها حتى أفلتت من شفتيها هذه الكلمات: «لا شكّ في أنك مجنون، يا نوربرت هانولد». إن مناداة النائم أو الماشي في نومه باسمه هي أفضل وسيلة، كما هو معلوم،

لإيقاظه. ومن سوء حظنا أننا لا نستطيع أن نرصد هنا نتائج مناداة غراديفا لنوربرت هانولد باسمه الشخصي الذي لم يكن قد باح به لأحد في بومباي. إذ في تلك اللحظة الحرجة برز عاشقا كازا دل فونو[١٨] اللطيفان، وهتفت السيدة الشابة بلهجة من بوغت مباغتة مفرحة: «زويه، أنت هنا أيضاً! وفي رحلة شهر العسل كذلك! لكنك لم تكتبي لي عن ذلك حرفاً!». وأمام هذه الشهادة الجديدة على واقعية غراديفا الحية، ولى هانولد الأدبار.

لم تكن مستحبة بالنسبة إلى غراديفا/ زويه مفاجأة هذا اللقاء اللامتوقع الذي قطعها عن عمل هام على ما يبدو. لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، وردّت على أسئلة صديقتها بذرابة لسان، وقدَّمت إليها، وإلينا على الأخصّ، إيضاحات عن وضعها، وبذلك تملصت من العروسين اليافعين. لقد هنَّأتها، ولكنها هي نفسها لم تكن في رحلة شهر عسل: «إن الفتى الذي انصرف للتوّ ينسج هو الآخر في دماغه لوحة غريبة، ويخيَّل إليَّ أنه يتصوَّر أن ثمة ذبابة تطنّ في رأسه. ثم أليس لكل منا، بصورة أو بأخرى، عنكبوته الخاصة به في سقفه؟ المفروض فيّ أني أحوز بعض المعارف في علم الحشرات، أنا إذاً في مثل هذه الأحوال ذات نفع. إننا ننزل أنا وأبي في **السول**، فقد أخذت أبي هو الآخر نوبة مباغتة. وفضلاً عن ذلك فقد عنَّ له لحسن حظي أن يأخذني معه شريطة أن أتدبَّر أمري لتسلية نفسي بنفسي في بومباي وألا أزعجه أو أضايقه. وكنت أقول بيني وبين نفسي إنني سأتمكن بمفردي من نبش شيء مثير للاهتمام هنا. ولكني ما كنت لآمل قط في لقيا سعيدة كهذه، أعني فرصة الالتقاء بك هنا، يا جيزا»[١٩] (**غراديفا**، ص ١٠٢ ـ ١٠٣). ولكن عليها الآن أن تفارقها بسرعة لكي تكون بصحبة أبيها على مائدة الغداء في فندق «**السول**». وما عتمت أن ابتعدت، بعد أن أعلمتنا على هذا النحو بأنها ابنة عالم الحيوان وصياد العظايا، وبعد أن باحت، بكلمات مزدوجة المعاني، بنيَّتها في المعالجة، ولمحت إلى نيّات

١٨ ـ كازا دل فونو: أشهر وأعظم الفيلات المكتشفة في بومباي. وعند أعمدتها كان نوربرت هانولد قد التقى العاشقين متعانقين. «م».

١٩ ـ جيزا: اسم صديقة غراديفا/ زويه. واسمها الكامل جيزا هارتلوبن. «م».



أخرى أكثر خفاء. بيد أن الوجهة التي سارت فيها لم تكن وجهة فندق «الشمس» حيث ينتظرها والدها، بل خيّل إليها هي نفسها أن ثمة شبحاً يحوم حول فيلا ديوميدس بحثاً عن قبره ويتوارى تحت أحد الأضرحة، ولذلك سددت خطاها نحو طريق القبور، وقدمها ترتفع عن الأرض مع كل خطوة في شبه زاوية قائمة. ولقد كان هانولد التجأ إلى هذه البقعة حين اختلط عليه الأمر واستولت عليه البلبلة، وراح يذرع المكان طولاً وعرضاً بين أروقة الحدائق، مستغرقاً في التفكير ليجد حلاًّ لبقية معضلته. إن ثمة شيئاً واحداً قد بات الآن واضحاً أكيداً، وهو أنه كان فاقد الرشد والصواب حين داخله الاعتقاد بأنه تبادل أطراف الحديث مع صبية بومبية تجسدت وبعثت إلى الحياة ثانية بطريقة أو بأخرى. وكان هذا الفهم النيّر لجنونه الذاتي يشكّل بلا مراء خطوة فاصلة في التقدم على طريق العودة إلى صحة العقل. لكن تلك الحية، التي يقيم معها غيره علاقات حيّ بحيّ، هي بالمقابل غراديفا. وهي تعرف اسمه، وهذا لغز يتجاوز حلَّه طاقةَ عقل هانولد الذي أفاق للتو من سباته. زد على ذلك أن مشاعره لم تكن قد هدأت بعد الهدوء الكافي لتشعره بأنه أهل لمشروع كذاك، إذ إنه كان يفضل لو أنه طُمر هو الآخر، قبل ألفي سنة، في فيلا ديوميدس، لا لشيء إلا ليكون على يقين من أنه لن يلتقي غراديفا/زويه ثانية.

بيد أن توقاً ممضاً إلى رؤيتها ثانية كان يعترض رغبته في أن يولي الأدبار. صحيح أنها كانت رغبة فاترة ذاوية، لكنها مقيمة فيه لا تبارحه.

وفيما كان يلفّ حول إحدى الزوايا الأربع لممر القوس، توقف وتراجع القهقرى على حين بغتة. فعلى جزء من السور كانت تجلس واحدة من الصبايا اللائي لقين مصرعهن هنا، في فيلا ديوميدس. ولكن تلك كانت آخر محاولة للهرب إلى مملكة الجنون، وقد قمع إغراءها بسرعة. كلا، فالحقيقة أنها غراديفا بعينها، وقد رجعت بلا مراء لتعرض على هانولد المساعدة الضرورية لإكمال علاجه وشفائه. وبالفعل، أوّلت أول حركة غريزية صدرت عن هانولد على أنها محاولة للهرب، وأوضحت له أنه ما عاد يستطيع الإفلات، لأن السماء راحت تمطر بغزارة في الخارج. وبغير ما إشفاق راحت تستجوبه عن الهدف الذي كان

يبغي الوصول إليه مع ذبابته التي كانت قد حطَّت على يدها. ولم تؤاتِهِ الجرأة لاستخدام ضمير معيَّن[٢٠]، لكن واتته الجرأة بالمقابل ليطرح السؤال الهام، الحاسم، التالي:

«كان دماغي مشوَّشاً بعض الشيء، كما يقال؛ وإني لأسأل العفو على أنني فعلت هكذا... تلك اليد.. والحق أنني لا أستطيع أن أجد تعليلاً لمسلكي الأخرق ذاك؛ لكنني لا أجد في نفسي القدرة أيضاً على أن أفهم كيف أمكن لصاحبة تلك اليد أن تلومني على جنوني منتقدة إياي باسمي» («**غراديفا**». ص ١٠٩ - ١١٠).

- فهمك لم يتقدم بما فيه الكفاية بعد، يا نوربرت هانولد! وهذا لا يدهشني أصلاً؛ فقد عوَّدتني على ذلك منذ أمد طويل. وما كنت لأحتاج إلى المجيء إلى بومباي لتكرار هذه التجربة، ولقد كان يسعك بكل تأكيد أن تقنعني بذلك على بعد مئة فرسخ من هنا...

- مئة فرسخ من هنا...

فقالت تشرح له ولكن من دون أن يفهم عليها بعد:

- قبالة منزلك، في المنزل الذي في الزاوية، يتدلى من نافذتي قفص فيه كناري...

هذه الكلمات الأخيرة مسّت سامعها كنفحة من ذكرى نائية. والواقع أن المقصود كان عين ذلك الطائر الذي من تغريده استلهم قرار السفر إلى إيطاليا.

- في ذلك المسكن يقطن والدي؛ ريشارد برتغانغ، أستاذ علم الحيوان.

إذاً هي تعرف شخصه واسمه باعتبارها جارة له. وها نحنذا نشعر بأننا مهددون بما يشبه خيبة الأمل، وبأننا لن نؤوب من كل القصة إلا بتفسير تبسيطي، بينه وبين ما كنا نتوقعه بون شاسع.

ولا يبدو أن نوربرت هانولد استعاد ملء السيطرة على فكره، فقد أضاف

٢٠ - في القصة، يتحيَّر هانولد في استخدام صيغة ضمير المخاطب المفرد أو المخاطب الجمع في مخاطبة غراديفا، ثم يقرر ألا يستخدم أي ضمير. «م».



قوله:

ـ إذاً أنتم ... إذاً أنتم الآنسة زويه برتغانغ؟[٢١] لكن المذكورة كانت تبدو لي مغايرة...

ويأتي هنا جواب الآنسة برتغانغ لينمّ عن أن العلاقات بين الشاب والشابة كانت تتجاوز علاقات الجوار الصرف. وتعرب عن تحبيذها لرفع الكلفة في التخاطب بينهما، ملاحظة أنه كان استخدم ضمير المخاطب المفرد في مخاطبته شبح الظهيرة، ثم امتنع عن استخدامه حينما أدرك أنه يخاطب امرأة حية، مع أن لها فيه حقوقاً قديمة توضحها على النحو التالي:

ـ إذا كنت تجد ضمير المخاطب الجمع أنسب في تحادثنا، ففي وسعي أنا أيضاً استخدامه، لكن ضمير المخاطب المفرد يرد إلى شفتي بصورة أكثر تلقائية. لا أدري إن كنت بدوت لك مغايرة في الماضي، يوم كنا نلعب معاً ودياً في كل آن وحين، ونتبادل عند الاقتضاء الضربات واللطمات. لكن لو كنتَ حمَّلت نفسك، في هذه السنوات الأخيرة، مشقة إلقاء النظر عليّ، فلربما كانت الغشاوة سقطت عن عينيك ورأيتني كما أنا منذ بعض الزمن.

لقد كانت تجمع بينهما إذاً صداقة، وربما حبّ طفولة، وهذا ما يبرّر رفع الكلفة في التخاطب بينهما واستخدام ضمير المخاطب المفرد. لكن أليس هذا الحلّ بمثل وهن ذاك الذي افترضناه أولاً؟ لكن ها نحننذا ندرك فجأة أن علاقات الطفولة تلك تفسّر، على غير ما توقُّع، الكثير من تفاصيل اللقاء الراهن. فتلك الضربة على يد غراديفا/ زويه، التي يعللها نوربرت هانولد على نحو جدير بكل تصديق بالحاجة إلى حلّ معضلة ماهية الطيف تجريبياً، أقول: ألا تشبه تلك الضربة شبهاً غريباً انبعاث الحياة في نزوتهما ـ التي كانت آسرة في طفولتهما ـ إلى «تبادل الضربات واللطمات»، على حدّ ما روت زويه؟ وحين تسأل غراديفا عالم الآثار عما إذا كان لا يتراءى له أنه شاطرها قبل نحو

٢١ ـ يستخدم هانولد هنا ضمير المخاطب الجمع، لا المفرد، وقد اضطرنا سياق النص، كما سيتبيَّن القارئ، إل الترجمة الحرفية، وإن بدت ناشزة الوقع بالعربية. «م».



ألفي سنة الطعام كما يفعل الآن، أفلا ينجلي فجأة معنى هذا السؤال غير المفهوم، حينما نستبدل الماضي التاريخي بالماضي الشخصي، أي بالزمن الطفولي الذي لبثت ذكرياته حية لدى الفتاة، بينما آلت إلى نسيان لدى الفتى؟ أفلا نحسّ فجأة بانبثاق فكرة مؤداها أن استيهامات عالم الآثار الشاب، المتمحورة حول غراديفا، قد لا تعدو أن تكون أصداء لذكريات طفولته المنسية؟ وفي هذه الحال لن تكون شطحات جزافية من ابتكار مخيِّلته، بل استيهامات متحدِّدة، عن غير وعي منه، بانطباعات طفولته، تلك الانطباعات المنسية لكن التي ما زالت محافظة فيه على ملء حيويتها. ويفترض بنا على هذا الأساس أن نكون قادرين على إيضاح منشأ تلك الاستيهامات الواحد تلو الآخر، ولو بواسطة افتراضات. فإذا صحّ، مثلاً، أن غراديفا هي من أصل **يوناني**، وابنة رجل مرموق، كاهن من كهنة كيريس ربما، فإن ذلك يتفق والحالة هذه مع ردّ الفعل الذي أحدثه لدى بطلنا ذكر اسمها اليوناني (زويه) وحتى اسم عائلتها الذي هو اسم أستاذ في علم الحيوان(وكلها أمور كان يعرفها). ولكن إذا كانت استيهامات هانولد لا تمثِّل، بالمقابل، سوى ذكريات محوَّلة، فمن حقنا أن نتوقع العثور في اعترافات زويه برتغانغ على إشارات إلى مصادر تلك الاستيهامات. فلنصغ إليها إذاً تقصّ علينا الرفقة الحميمة التي جمعت بينهما في الطفولة، وسنتبيَّن ما التطور الذي طرأ لاحقاً على علاقات الطفولة هذه لدى كل منهما:

ـ في ذلك الزمن، أي وصولاً إلى السنّ التي نعامَل فيها، لست أدري لماذا، وكأننا «سمك للقلي»[٢٢]، أولعت بك ولعاً غريباً حقاً، وحسبت أنني لن أحظى أبداً في الدنيا بصديق ألطف منك. لم يكن لي أم، ولا أخ، ولا أخت، أما أبي فكان اهتمامه منصرفاً عني إلى كل عظاية يصطادها ويصبِّرها في الكحول. والحال أن كل إنسان، ولو كان فتاة صغيرة، لا بدّ له من شيء يشغل به أفكاره وكل ما يستتبع ذلك. هذا الشيء كان يومئذ أنت، ولكن حين طغى عندك حب علم العاديات على كل ما عداه، اكتشفت أنك ـ اعذرني، إذ إن بدعتك

٢٢ - BACKFISCH: كناية عن الفتاة الصغيرة في مقتبل مراهقتها. «م».



البروتوكولية[٢٣] تبدو لي غير ذات معنى وغير مناسبة لما بودِّي الإفصاح عنه ـ إذاً كنت أقول: عندئذ اكتشفت أنك غدوت إنساناً لا يطاق، إنساناً أضحى، في نظري على الأقل، بلا عينين في الوجه، وبلا لسان في الفم، وبلا ذكريات في ذلك الموضع الذي أحتفظ فيه بكل صداقة طفولتنا كاملة سليمة. وربما كان هذا هو السبب في تغيُّر هيئتي عما كانت عليه في الماضي، إذ حين كانت تشاء الصدف أن نلتقي هنا وهناك بين الفينة والأخرى، وهذا حتى في الشتاء الفائت، كنت أنت لا تراني، وكنت أنا لا أسمع جِرس صوتك، وما كنت لأعجب لذلك أصلاً، إذ كذلك كان شأنك مع سائر الفتيات. لم أكن في نظرك شيئاً، وبالمقابل صرت في نظري، بخصلة شعرك الشقراء التي كثيراً ما كنت شعَّثتُها لك في الماضي، إنساناً مملاً، جافاً، شحيحاً بالكلمات، شبيهاً ببغاء كبير محنَّط، ناهيك عن أنه منفوخ غروراً كالمجنَّح المتحجِّر ARCHEOPTERYX، أجل، إني أعتقد أن هذا هو بالفعل اسم طائر زحاف هائل الحجم من مستحاثات عصر ما قبل الطوفان. أما أن يشطح خيالك هذه الشطحة الهائلة، فتتوهمني أنا نفسي شبحاً نُبش وبعث إلى الحياة في بومباي، فهذا ما لم أكن أنتظره منك. وحين برزتَ لي على حين غرة هنا في بومباي وجدتُ صعوبة بالغة في البداية كي أفهم ما يكمن خلف اللوحة التي لا تصدَّق التي نسجتها مخيِّلتك في دماغك. ثم وجدت الأمر يبعث على التسلية، فطاب لي مذاقه، رغم رائحة مستشفى المجانين التي كانت تفوح منه. ذلك أنني، كما قلت لك، ما كنت لأتوقع ذلك من قِبَلك» («**غراديفا**»، ص ١١٢ ـ ١١٤).

إن هذا الكلام يلخِّص بوضوح كافٍ ما فعلته السنون بصداقتهما أيام الطفولة. فقد ارتقت هذه الصداقة لديها حتى صارت عاطفة حبِّية حقيقية، إذ لا مناص من أن يتعلق قلب الفتاة بشيء ما. والآنسة زويه، التي هي تجسيد لصحو العقل وللحسّ السليم، تكشف لنا النقاب بشفافية عن حياتها النفسية. ولئن يكن من الطبيعي الشائع أن تصبّ الفتاة السوية عاطفتها في البدء على أبيها، فكم

٢٣ ـ الإشارة هنا إلى لجوء هانولد إلى ضمير الجمع في مخاطبتها. والحال أن زويه تنتقل، عند هذه الجملة من اعترافاتها، من استعمال ضمير المخاطب الجمع إلى ضمير المخاطب المفرد. «م».



بالأحرى بالنسبة إلى فتاةٍ أبوها هو كل أسرتها. غير أن هذا الأب ما كان يخصّ زويه بمكان شاغر: فقد استأثر علمه منه بكل الاهتمام الذي هو في مكنته. ومن ثم لم يكن لها بدّ من البحث عن أشخاص آخرين فيما حولها، فتولَّعت بوجه خاص برفيق طفولتها. وحين أبدى هذا الأخير بدوره عن عدم اكتراث بها، لبث حبّها كما هو، بل لعل عليَّ أن أقول إنه اضطرم وتأجّج، إذ أمسى هانولد شبيه أبيها، مستغرقاً مثله في علمه، مبتوت الصلة بالحياة وبزويه. على هذا النحو أمكنها أن تقيم على إخلاصها رغم عدم إخلاصه وأن تستعيد أباها في شخص من تحبّ، وأن تشملهما كليهما بعاطفة واحدة أو ـ كما نستطيع أن نقول ـ أن تماهي بينهما في وجدانها. أين نعثر على مبرر لهذا التحليل السيكولوجي السريع الذي قد يبدو بسهولة عسفياً؟ لقد قدَّم لنا الروائي هذا المبرِّر من خلال تفصيل واحد، ولكنه تفصيل بليغ الدلالة. فحين أرادت زويه أن تصف التغيير الذي طرأ، على كرب شديد منها، لدى رفيق طفولتها، وبخَّته مشبهة إياه بالمجنّح المتحجّر، ذلك الطائر المسخ الهائل الحجم الذي يدخل ضمن اختصاص علم آثار الحيوان. وهكذا تكون قد وجدت لفظة عينية واحدة للتعبير عن تماهي الشخصين، وبهذه الكلمة شملت بضغينتها أباها وصديقها معاً. ولعلنا نستطيع القول إن المجنّح المتحجّر هو رمز للتسوية، أو تصور وسيط تنصهر فيه فكرة جنون الحبيب مع فكرة جنون الأب.

أما لدى فتانا فقد سلكت الأمور مسلكاً مغايراً. فعلم العاديات قد استحوذ على نفسه كلها، فما عاد يستأثر باهتمامه سوى النساء اللائي من حجر أو برونز. واضمحلت صداقة الطفولة بدل أن تتحول إلى هوى وعاطفة جامحة، وغرقت الذكريات في لجّة نسيان عميق حتى ما عاد يتعرف صديقة طفولته ولا يعيرها أي اهتمام حين يلتقيها في المجتمع. ولكن إذا أخذنا بالاعتبار التطورات اللاحقة، جاز لنا أن نشكّ في أن يكون لفظ «النسيان» هو التعبير السيكولوجي المطابق عن مصير تلك الذكريات لدى فتانا عالم الآثار. فهو ضرب من النسيان يتميَّز عن ضروبه الأخرى بصعوبة استحضار الذكرى، ولو بتحريضات خارجية في غاية من القوة والإلحاح، كما لو أن ثمة مقاومة داخلية تعترض سبيل ذلك



الإحياء أو الاستيقاظ. وقد أطلق علم النفس المَرَضي على نظير هذا النسيان اسم **الكبت**، والحالة التي قدَّمها لنا روائيّنا تبدو مثالاً نموذجياً على هذا الكبت. نحن نجهل إن يكن نسيان انطباع من الانطباعات بوجه عام رهناً بامّحاء أثره في داخل ذاكرتنا النفسية. لكن يسعنا أن نؤكد بيقين تام عن الكبت أنه لا يعني امّحاء الذكرى وانطفاءها. وبوجه عام، لا يستطيع المكبوت أن يعاود الصعود من تلقاء نفسه إلى السطح في شكل ذكرى، لكنه يبقى قادراً على الفعل والتأثير، ولا بدّ أن يأتي يوم تظهر فيه، بفعل ظرف خارجي، عقابيل نفسية يباح لنا اعتبارها من نتاج تحولات الذكرى المنسية ومن فسيلتها، عقابيل تبقى عصيّة على الفهم ما لم تدرَك على أنها كذلك. وقد سبق أن خيِّل إلينا أننا تعَّرفنا في استيهامات نوربرت هانولد المتمحورة حول غراديفا فسائل من ذكريات مكبوتة ذات صلة بصداقته مع زويه برتغانغ في أيام الطفولة. وبوسعنا أن نتوقع عودة هجومية لمثل هذه المكبوتات بإيقاع نظامي، إذا ما بقيت الأحاسيس الإيروسية لدى الفرد المعني مرتبطة بالانطباعات المكبوتة، وإذا ما ضرب طوق الكبت على حياته الغرامية. وهنا ينطبق تمام الانطباق المثل السائر اللاتيني القديم الذي كان يشير، في الأصل في أرجح الظن، إلى التعزيم وطرد الأرواح الشريرة بواسطة مؤثرات خارجية، وليس إلى نزاعات داخلية: NATURAM FURCA EXPELLAS SEMPER REDIBIT[٢٤]. ولكن هذا القول المأثور لا ينطق بكل شيء؛ فهو يفصح فقط عن واقعة عودة المكبوت، ولا يصف الآلية المدهشة حقاً التي تتمّ بها هذه العودة، كما لو بواسطة حيلة هي من أمكر الحيل وأدهاها. فما كان وسيلة للكبت ـ المذراة في المثل السائر ـ يغدو هو عودة المكبوت. ففي السلطة الكابتة، ومن خلفها، يتمكن المكبوت في نهاية المطاف من فرض نفسه بظفر. وثمة رسم معروف لفيليسيان روبس[٢٥] يفصح على

٢٤ ـ مثل لاتيني سائر يمكن أن يترجم على طريقة المثل السائر العامي: اطرد الطبيعة من الباب، ترجع من النافذة، أو بالقول المأثور الفصيح: الطبع أغلب. وترجمته الحرفية: الطبيعة، وإن طردت بمذراة، ترجع على الدوام. «م».

٢٥ ـ رسام بلجيكي (١٨٣٣ ـ ١٨٩٨). والإحالة هنا إلى لوحة مشهورة له بعنوان: **«تجربة القديس أنطونيوس»**. «م».



نحو تعبيري موحٍ، لا يجاريه فيه أي شرح وتفسير، عن تلك الحقيقة التي نادراً ما تسترعي الانتباه مع أنها جديرة بأن تأسره: فقد صوَّر الفنان حالة الكبت النموذجية لدى القديسين والزهاد. راهب متنسك هرب ـ من إغراءات الدنيا وتجاربها بدون أدنى شكّ ـ إلى جذع الصليب الذي عُلِّق عليه يسوع المخلِّص. فإذا بالصليب ينخسف وكأنه طيف، وتنتصب مكانه، وكأنها لسان حاله وترجمانه، صورة باهرة لامرأة عارية رائعة الجمال أخذت وضع المصلوب عينه. ولما أراد رسامون آخرون، ما أوتوا مثل هذا الحسّ السيكولوجي المرهف، أن يشخِّصوا إغراءات التجربة، صوَّروا الخطيئة في وضع تحدٍّ وانتصار، إلى جانب المخلِّص المصلوب. أما فناننا فقد أدرك وحده، على ما يبدو، أن المكبوت ينبجس، لدى عودته، من داخل السلطة الكابتة نفسها.

ومهما يكن من أمر، فلنكلِّف أنفسنا عناء دراسة حالات مرَضية لنقبس منها الدليل المقنع المباشر على فرط حساسية الحياة النفسية ـ متى ما وجدت هذه الحياة النفسية في حالة كبت ـ وعلى قابليتها الشديدة للإثارة لدى الاقتراب من المكبوت؛ إذ يكفي أن تتواجد تشابهات بسيطة، طفيفة، حتى تتحرك هذه الحياة النفسية وتنشط من خلال السلطة الكابتة وبأمرها. لقد سنحت لي الفرصة يوماً للاعتناء بصفتي طبيباً بفتى ـ بل لن أحجم أن أقول: بطفل ـ واجه اندفاعة شهواته المتصاعدة بالهرب عندما انكشفت له لأول مرة، وعلى غير ما كان يتمنى، الأمور الجنسية. وقد اعتمد في هربه هذا على وسائل كبت شتى. فقد أكبّ على دروسه بحماسة، وراح يغلو في تعلقه الطفولي بأمه، ويتبنى بوجه عام موقفاً صبيانياً. ولا أريد أن أطيل هنا في شرح الكيفية التي عاودت بها الطاقة الجنسية المكبوتة ظهورها من خلال علاقاته بأمه على وجه التحديد، بل أبغي أن أصف كيف انهار ـ وهذه ظاهرة أندر وأغرب ـ أحد المتاريس التي كان قد نصبها في مواجهة تلك الجنسية المكبوتة، وكيف حدث انهياره في مناسبة ما كانت توحي بأنها تكفي لتهيره. فمعلوم أن الرياضيات ذائعة الصيت كأُلْهية عن النوازع الجنسية، ولقد كان ج.ج. روسو قد تلقى من امرأة، موغرة الصدر عليه، النصيحة التالية: LASCIA LE DONNE E STUDIA LE



MATEMATICHE[٢٦]. وعلى هذا النحو اندفع صاحبنا الهارب يدرس الرياضيات والهندسة طبقاً للبرنامج المدرسي، إلى أن أعجزه الفهم حين واجهته بعض المعادلات غير المتميزة مع ذلك بصعوبتها. وقد كانت صيغة بعضها كالتالي: اصطدم جسمان، الواحد بسرعة كذا...، إلخ، أو: لنضع في أسطوانة معلومة المقطع مخروطاً...، إلخ. ومن المؤكد أن هذه التلميحات إلى الحياة الجنسية ما كانت لتسترعي انتباه شخص آخر، ولكنها كانت كافية بالنسبة إلى صاحبنا لتشعره بأن الرياضيات أيضاً قد فضحت أمره ولتحمله على الهرب منها بدورها.

لو كان نوربرت هانولد شخصاً مأخوذاً من الحياة فعلاً، شخصاً طرد عنه، من خلال تعلُّقه بعالم العاديات، حبَّ صديقة طفولته وذكراها، لكان من الطبيعي والقياسي أن توقظ فيه منحوتة قديمة الذكرى الغافية، ذكرى تلك التي أحبَّها بكل حنوٍّ طفولته، ولكان استحقّ بحقٍّ قَدَرَه الذي قضى بأن يتولَّه بحب صورة غراديفا الحجرية، ومن ورائها ـ بحكم تشابه غامض ـ زويه العاشقة المهجورة التي تستعيد على هذا النحو سلطانها.

إن الآنسة زويه تشاطرنا هي نفسها على ما يبدو تصورنا بصدد هذيان عالم الآثار الشاب، إذ لا سبيل إلى أن نجد تعليلاً لما عبَّرت عنه من اغتباط ـ بعدما انتهت من «تقريعها الصارم، الصريح، المدقِّق في التفاصيل» ـ إلا بالإحالة إلى ما أبداه نوربرت من مسارعة إلى الربط من بداية البداية بين اهتمامه بغراديفا واهتمامه بزويه. وهذا بالفعل ما لم تكن لتتوقعه منه في البدء وما تعرفته للحال رغم كل تنكرات الهذيان. غير أن المعالجة النفسية التي كانت شرعت بتطبيقها عليه آتت سريعاً مفعولها الناجع: فقد بات نوربرت يشعر بأنه يمسك بخشبة الخلاص وبأنه أمسى حراً بعد أن ناب مناب الهذيان ذلك الشيء الذي لا يمكن للهذيان في الواقع أن يكون سوى نسخة بديلة عنه، ناقصة ومشوهة. زد على ذلك أنه بات لا يتردد الآن في أن يتذكر من جديد وأن يتعرف في غراديفا

٢٦ ـ «دع النساء وادرس الرياضيات». والإحالة هنا إلى مشهد في **الاعترافات** يروي فيه ج. ج. روسو قصة له مع غانية تدعى زولييتا. «م».



رفيقته الطيبة، المرحة، النبيهة، التي لم تتغير البتة في الحقيقة. ولكن ثمة شيئاً آخر بدا له مستغرباً. فقد قالت له الفتاة:

ـ غريب أن يكون على الإنسان أن يموت أولاً حتى يجد من ثم الحياة... لكن أليس ذلك ضرورياً بالنسبة إلى علماء الآثار؟ («**غراديفا**»، ص١١٥).

إنها لم تغفر له إذاً بعد سلوكه طريق العلوم والعاديات الملتوي ليعرّج منه على صداقة طفولتهما، ومنها على العلاقة التي أخذت أواصرها تنعقد بينهما من جديد. ولكنه قال:

ـ كلا، أريد أن أتكلم عن اسمك.. فبرتغانغ وغراديفا لهما معنى واحد، وكلاهما يعني تلك التي تتألق في مشيتها[٢٧]. («**غراديفا**»، ص١١٥).

نحن بدورنا ما كنا مهيئين لهذه المفاجأة... فقد أخذ بطلنا ينفض عن كاهله غبار تواضعه ورضوخه ويلعب دوراً إيجابياً. ومن الواضح أنه قد برئ تمام البرء من هذيانه وبات يسيطر عليه، وهذا ما يقيم عليه البرهان بتمزيقه بنفسه آخر خيوط شبكته الهذائية. وكذلك يكون مسلك المرضى حين تتراخى قبضة الإكراه الذي كانت تفرضه عليهم أفكارهم الهذائية حينما نكشف لهم عن المكبوت الذي يختفي وراء هذه الأفكار. فما إن يفهموا حتى يأتوا من تلقاء أنفسهم، من خلال خواطرهم العارضة، بحلول للألغاز الأخيرة والرئيسية لحالتهم الغريبة، ولا تلبث أن تسطع الحقيقة كاملة كما لو في أعقاب انفجار مباغت. وقد كنا افترضنا أن الأصل الإغريقي لغراديفا الأسطورية هو محض صدى مبهم لاسم «زويه» اليوناني، لكننا لم نجرؤ على التطرق إلى اسم غراديفا نفسه، بل تركناه جانباً على اعتبار أنه من ابتكار خيال نوربرت هانولد الطليق. ولكن هانحنذا نكتشف أن الاسم مشتق، وأنه ترجمة لاسم الطفلة المنسية زعماً، هذا الاسم الذي كان هانولد قد كبت لفظه!

لقد اكتمل الآن تخريج ذلك الهذيان وحلّه. والتطورات التالية في الرواية لن

---

٢٧ ـ بالفعل، إن اسم العلم برتغانغ يعني في الألمانية القديمة كاسم جنس «المشية المتألقة». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



يكون لها من دور سوى الوصول بالقصة إلى خاتمة متساوقة. ولسنا نملك، من منظور تشخيص المرض، إلا أن نغتبط ونحن نرى هذا الرجل يبلّ من عثرته وينهض تدريجياً من كبوته، بعد أن لعب، بصفته مريضاً، دوراً يبعث على الأسى والشفقة. فها هو ذا يفلح في أن يوقظ لدى زويه بعضاً من تلك المشاعر والعواطف التي كان هو نفسه قد عانى منها ما عانى حتى تلك الساعة. فنراه يضرب فيها على وتر الغيرة ذاكراً أمامها المرأة الصبية الجذابة التي عكَّرت عليهما صفو لقائهما المنفرد في دار ميلياغروس، ومعترفاً لها بأن تلك السيدة هي أول امرأة لاقت من نفسه مثل ذلك القبول. وتحرص زويه بدورها على وداعه وداعاً فاتراً، فتلفت انتباهه إلى أن كل شيء قد عاد إلى جادة الصواب الآن، ولا سيما بالنسبة إليها، وأن بوسعه أن يذهب للقاء جيزا هارتلوبن ـ أو كائناً ما كان اسمها الآن ـ وأن يقدِّم لها مساعدته العلمية ما دام قد جاء إلى بومباي. أما هي نفسها، أي زويه، فستفارقه إلى **ألبرجو دل سول** حيث ينتظرها والدها لتناول الغداء، وأنهما قد يلتقيان ثانية ذات يوم في حفلٍ ما، في ألمانيا أو في القمر. ولم يعد أمام نوربرت عندئذ سوى اللجوء من جديد إلى ذريعة الذبابة اللحوح كي يقبِّل وجنة زويه أولاً، ثم شفتيها، مقترفاً على هذا النحو العدوان الذي هو دور الرجل في لعبة الحب. ولمرة واحدة أخيرة يبدو وكأن ظلاً قاتماً لا يزال يخيِّم على سعادته، وذلك حين تصارحه زويه بأنه لا بدّ لها فعلاً من الأوبة إلى والدها، وإلا لمات جوعاً في النزل. و«لكن والدك، ماذا سيقول؟...» («**غراديفا**»، ص ١١٩). غير أن الفتاة اللبقة تعرف كيف تخرس هذا الهاجس: «أواه! لن يقول شيئاً في أرجح الظن. أنا لست قطعة لا غنى عنها في مجموعته الحيوانية. ولو كنت كذلك، لما كان قلبي تعلَّق بك بمثل هذا الغباء». ولكن لو كان رأي والدها بالمصادفة مغايراً لرأيها، لما عدم هانولد وسيلة مضمونة النجاح. فما عليه إلا أن يعبر إلى كابري ويصطاد فيها عظاية من جنس LACERTA FARAGLIONENSIS ـ ولا ريب في أن زويه هي التي ستمدّ إليه خنصرها ليتدرب على عملية الاصطياد. وبعدئذ يؤوب بالعظاية إلى هنا ويدعها تجري ثم يمسك بها على مرأى من عالم الحيوان تاركاً له الخيار



بين العظاية البرّية وبين ابنته. وهذا الاقتراح، كما نستطيع أن نلاحظ، تتداخل فيه السخرية والمرارة، علاوة على تحذير للخطيب بألا ينسخ بأمانة مجاوزة للحدّ النموذج الذي بموجبه اختارته الخطيبة. ويطمئننا هانولد نوربرت بدوره حول هذه النقطة، لأن التحول العظيم الذي طرأ عليه يتجلى للعيان من خلال مؤشرات شتى غير ذات شأن في الظاهر. فهو يقترح على زويه قضاء شهر عسلهما في إيطاليا وفي بومباي، كما لو أنه لم يسبق له أن استنزل اللعنات على كل أتراب قيس وليلى. والحق أنه نسي كل غيظه من أزواج العشاق السعداء أولئك ممن اختاروا، بلا سبب ظاهر، أن يبتعدوا أكثر من مئة فرسخ عن مسقط رأسهم في ألمانيا. والروائي محقّ تماماً في استخدام خوَر الذاكرة هذا كعلامة بليغة الدلالة على التغيير الفكري الطارئ عليه. وإزاء هذه الرغبة في السفر التي يبديها «صديق طفولتها الذي يبدو وكأنه هو نفسه قد نُبش من انطمار طال أمده» (**«غراديفا»**، ص١٢١)، تردّ زويه بأنها لا تشعر بأنها قد استعادت ملء الحياة لتتخذ مثل ذلك القرار الجغرافي.

لقد غلب الواقع الجميل الآن الهذيان، ولكن لا يزال على العاشقين، قبل أن يغادرا بومباي، أن يؤديا له تحية وداع أخيرة. فحين يصلان إلى باب هرقل، حيث تسدّ البلاطات القديمة مدخل الـ STRADA CONSOLARE[٢٨]، يتوقف هانولد ويرجو فتاته أن تتقدمه. فتفهم «غراديفا المبعوثة إلى الحياة باسم زويه برتغانغ قصده، وتحسر قليلاً طرف ثوبها بيدها اليسرى، وتعبُر إلى الطرف الآخر من الشارع، تطوّقها نظرات هانولد الحالمة، بمشيتها اللدنة الهادئة فوق بلاط الشارع، تحت الشمس». ومن خلال انتصار إيروس هذا[٢٩]، يتجلى الآن للعيان ما كان الهذيان ينطوي عليه من نفاسة وجمال أيضاً.

غير أن الروائي، بذلك التشبيه الأخير بصدد «صديق الطفولة الذي نبش من انطمار طال أمده»، قدَّم لنا مفتاح مجموعة الرموز التي يحركها الهذيان لدى

٢٨ ـ أي الطريق الرئيسي الذي كان من عادة الرومان أن يبنوه تخصيصاً لقوافل التجارة والعساكر. «م».

٢٩ ـ إيروس: إله الحب في الميتولوجيا اليونانية. واشتقاقه في اليونانية كما في اللغات السامية واحد على الأرجح، وبالمعنى نفسه. «م».



بطلنا لتنكير الذكرى المكبوتة. وبالفعل، إن الكبت، الذي يجعل الحياة النفسية عصية المنال ويحفظها بلا مساس في آن معاً، أصلح ما يصلح للتشبيه بالانطمار، ذلك المصير الذي كتب لبومباي، والذي أمكن للمدينة أن تبعث منه إلى الحياة بقوة المعول والرفش. ولذا كان لزاماً على عالم الآثار الشاب أن ينقل على جناح خياله أصل المنحوتة التي ذكّرته بصديقة طفولته المنسية إلى بومباي. ولقد كان الروائي من جهته على حقّ تامّ بإلحاحه على التشابه النفيس ـ الذي حدس به حسّه المرهف ـ بين طور بعينه من السيرورة النفسية لدى فرد من الأفراد وبين حدث تاريخي منفرد في تاريخ البشرية.

(٢)

كانت نيتنا الأولية أن نسبر، بمساعدة بعض الطرائق التحليلية، الحلمين أو الأحلام الثلاثة التي تطالعنا هنا وهناك في قصة «**غراديفا**»، فكيف انسقنا إلى تفكيك القصة بتمامها وتقطيع أوصالها، وإلى رصد التطورات النفسية لبطليها الاثنين؟ الحق أن فعلتنا هذه لم تكن جهداً باطلاً، وإنما هي مقدمة ضرورية لم يكن لنا بدّ من المرور بها. أفلسنا ملزمين، حين نتطلع إلى فهم الأحلام الحقيقية لشخص من لحم ودم، بأن نسبر غور طبعه وحياته معاً، وأن ننقِّب في ماضيه النائي القصيّ غير مكتفين بالأحداث التي سبقت الحلم بأجل قصير؟ بل إنني أعتقد أننا لم نصل بعد إلى موقع العمل، ولم نصبح بعد في حالة تؤهِّلنا للشروع بعملنا بحصر المعنى، ولا بدّ لنا من الرجوع إلى الرواية ثانية لنوالي عملنا التمهيدي.

لقد أخذت قراءنا الدهشة، ولا بدّ، حين رأونا نعامل نوربرت هانولد وزويه برتغانغ، في جميع تعابير نفسيتهما، وفي أفعالهما وأقوالهما، وكأنهما شخصان واقعيان، وليسا من ابتكار مخيِّلة كاتب أديب، وكما لو أن فكر هذا الأخير سطح شفاف كل الشفافية، سطح قابل مطلق القابلية لأن يخترقه الشعاع من غير أن يكسره أو يكدِّره. ومما قد يزيد في غرابة موقفنا هذا أن الكاتب، بإطلاقه على قصته اسم «فانتازيا»، قد نكص جهاراً عن كل محاولة لتشخيص مطابق للواقع. والحال أننا نجد تصاويره مشاكِلةٌ للواقع إلى حدّ ما كنا معه لنعترض عليه فيما لو جعل عنوان **غراديفا** دراسة سيكولوجية، وليس قصة خيالية. في نقطتين فقط أباح المؤلف لنفسه حرية التصرف على نحو مكنه من تقرير فرضين مسبقين لا يبدو أنهما يضربان جذورهما في تربة قوانين الواقع. فأولاً، جعل عالم الآثار الشاب يكتشف منحوتة لا مراء في قِدمها، لكنها تشبه، بجميع تقاطيع وجهها



ولباسها، وليس فقط بخصائص وضعية القدم أثناء السير، امرأة من عصر تالٍ، تشبهها إلى حدٍّ تراءى معه له أن شبح تلك المرأة الخلاب هو المنحوتة الحجرية وقد دبّت فيها الحياة. ثانياً، جعل الروائي بطله يلتقي في بومباي تحديداً بالمرأة الحية، وذلك في عين المكان الذي كانت مخيّلته ، ومخيّلته وحدها ـ قد نقلت إليه المتوفاة، مع أنه بسفره إلى بومباي على وجه التحديد نأى عن المرأة الحية التي كان قد لمحها في الشارع. بيد أن هذا المفترض الثاني الذي اعتمده المؤلف ليس مما لا يقبل التصديق أو مما يتعارض مع احتمالات الحياة الواقعية، وكل ما هنالك أنه يرتكز إلى تلك المصادفة التي تلعب دورها الأكيد في صنع مصائر العديد من الكائنات الإنسانية، علاوة على أنه يسبغ عليها معنى عميقاً إذ يجعلها مرآة عاكسة للقدر الذي يلقي بنا، من خلال الواسطة عينها التي اعتمدناها للهرب، بين براثن ما أردنا الهرب منه. ويبدو لنا المفترض الأول أكثر إمعاناً في الخيال، فكأنه صادر بتمامه عن عسف الروائي: نعني ذلك التماثل، ذلك التطابق شبه المطلق في الهوية بين المنحوتة وبين الصورة الحية للفتاة الذي على أساسه انبنت جميع تطورات القصة اللاحقة، والذي شاءت ملاحظة متعمدة أن تقصر وجه الشبه فيه على سمة واحدة: وضعية القدم أثناء المشي. ولا ننكر أنه قد تراودنا هنا الرغبة في أن نطلق الحرية لخيالنا ليتدخل في الواقع. فلعل اسم برتغانغ يستتبع أن نساء هذه الأسرة تميّزن، منذ أجيال وأجيال، بمشيتهن الرشيقة الخاصة تلك، وأن آل برتغانغ الجرمانيين كانوا على صلة سلالية ما بأولئك الإغريقيين الذي من أرومتهم وجدت امرأة أغرت النحات القديم بأن يثبّت في الحجر تلك المشية المتميّزة. ولكن بما أن التحولات الجزئية للنمط البشري ليست مستقلة بعضها عن بعض، وبما أن الأنماط القديمة التي نشاهدها في المتاحف تعاود ظهورها على الدوام فيما بيننا، فليس من رابع المستحيلات أن توجد امرأة معاصرة من آل برتغانغ تكرر بصورة شبه حرفية، في جميع سمات جسمها وخصائصه، صورة جدتها السالفة. ولكن أليس من الأنسب أن ندع هذه التأملات والتخمينات جانباً، ونتوجه بالسؤال مباشرة إلى الروائي عن المصادر التي قبس منها ذلك الجزء من قصته؟ لو فعلنا لأتيحت لنا الإمكانية في أرجح الظن لنردّ من جديد تصوراً

ظاهر العسف والاعتباط إلى قانون طبيعي. ولكن بما أن مصادر حياة الروائي النفسية ليست في متناولنا، ترانا نسلّم له بالحقّ في بناء أخيولة مطابقة تماماً للحياة على فرضية غير محتملة التصديق. أفليس هذا ما فعله شكسبير، على سبيل المثال، في «**الملك لير**»!

بعد هذه التحفظات، نكرر القول بأن الروائي قام بدراسة طبنفسانية لا غبار عليها، ومطابقة لتصوّرنا عن الحياة النفسية. فقد روى لنا تاريخ مرض نفسي وشفائه، كما لو أنه يريدنا أن نفهم بعض المبادئ الأساسية لعلم النفس الطبي. وإنه لأمر يبعث على الدهشة أن يتمكن روائي من إنجاز مثل هذه المهمة. وماذا سيكون رأينا فيما لو استنطقناه بصدد هذه النقطة فنفى عنه بإصرار مثل هذه النية؟ إنه لمن السهولة بمكان عقد مشابهات ومقارنات، وعزو نيات ومقاصد إلى إنسان من الناس. وبالفعل، ألسنا نحن بالأحرى الذين أدخلنا، على تلك القصة الشعرية الجميلة، معنى نائياً غاية النأي عن تصورات الروائي؟ هذا ممكن، ولنا لاحقاً عودة إلى هذه النقطة. غير أننا حاولنا أن نردّ عن أنفسنا سلفاً تهمة التأويل المغرض، فاستخدمنا باستمرار في سردنا للقصة نفس تعابير الروائي، وتركناه يقدّم لنا النص وشرحه. وحسب القارئ أن يقارن، إذا شاء، نصَّنا بالنصّ الحرفي لـ«**غراديفا**».

لعلنا نسدي إلى الروائي خدمة غير حميدة، في نظر أكثرية القراء، حين نرى في عمله دراسة طبنفسانية. فعلى الروائي، على ما يقال، أن يتحاشى الطب النفسي، وأن يدع للأطباء وصف الحالات النفسية المرَضية. وفي الواقع، لم يتقيَّد أي روائي حقيقي بهذه القاعدة قط. ذلك أن تمثيل الحياة النفسية الإنسانية هو ميدان اختصاصه، ولقد كان في كل آن وزمان رائداً للعلم، وبالتالي أيضاً لعلم النفس العلمي. غير أن الحدّ الفاصل بين الحالات النفسية السوية والمرَضية هو، من جهة أولى، اصطلاحي، ومن الجهة الثانية متنقِّل وغير ثابت، مما يجعل كل واحد منا يخرق حرمته بلا ريب مرات ومرات في اليوم الواحد. ثم إن الطب النفسي يقع في خطأ فادح فيما لو قصر اهتمامه بصفة دائمة على تلك الأشكال الخطيرة والمؤسية الناجمة عن الجروح البليغة التي يصاب بها الجهاز النفسي المرهف.



فليست أقل جدارة منها باهتمام الطبيب النفسي تلك الانحرافات الطفيفة والقابلة للشفاء عن النمط السوي ـ وإن كنا لا نستطيع اليوم أن نتتبع الانحرافات إلى ما وراء التشويش الذي تحدثه في اشتغال القوى النفسية. بل لن نحجم عن القول إن هذه الانحرافات هي التي تتيح له أن يفهم الصحة والظاهرات المرَضية الخطيرة سواء بسواء. وليس على الروائي أن يسير في ركاب الطبيب النفسي، ولا على الطبيب النفسي أن يسير في ركاب الروائي؛ وفي مستطاع الروائي أن يعالج موضوعاً طبنفسانياً بصوابية تامة، من دون أن يفقده شيئاً من جماليته.

والحال أن هذا التصوير الأدبي لقصة مرض ومعالجته صحيح كل الصحة. وبانتهاء القصة وتلاشي توترنا، تكون رؤيتنا الإجمالية لها قد باتت أفضل، وسيكون في مستطاعنا الآن أن نستعيد تفاصيلها لنطبّق عليها المصطلحات التقنية لعلمنا. ولئن ألجأتنا الضرورة إلى تكرار بعض ما قلناه، فلن يكون لنا في ذلك مصدر حرج.

يطلق الروائي في أكثر من مرة على حالة نوربرت هانولد اسم الهذيان، وبدورنا لا نملك من مسوِّغ لردّ هذه التسمية. وبوسعنا أن نعيِّن لهذا «الهذيان» سمتين رئيسيتين، سمتين لا تستوعبان كامل وصفه، ولكنهما تتيحان لنا أن نميِّزه بوضوح ودقة عن سائر الاضطرابات. فالهذيان ينتمي، أولاً، إلى تلك الفئة من الأمراض التي لا تأثير مباشر لها على البدن، والتي لا تتظاهر إلا بأعراض نفسية. والهذيان يتسم، ثانياً، بكون الاستيهامات والأخاييل قد استقلت بنفسها وصارت صاحبة الأمر والنهي، وبعبارة أخرى صار لها رصيد ومصداقية وباتت توجِّه بحكم ذلك سلوك الفرد. وتلك الرحلة إلى بومباي، بحثاً عن البصمات المتميِّزة التي خلَّفتها في الرماد قدما غراديفا، تشكِّل نموذجاً أمثل للفعل الذي ينجزه الإنسان وهو تحت سطوة هذيان ما. ولعل الطبيب النفسي سيصنِّف هذيان نوربرت هانولد في فئة الأمراض البارانوئية ـ وهي فئة واسعة ـ وقد ينعته بأنه مسّ شبقيّ تميميّ EROTOMANIE FETICHISTE على اعتبار أن أبرز ما فيه هو التولُّه بمنحوتة من الحجر، ولأن اهتمام عالم الآثار الشاب بقدمي الفتاة وبوضعيتهما لا بدّ أن يبدو للطبيب النفسي، طبقاً لتصوره التبسيطي النزعة،



حاملاً لشبهة التميمية[1]. لكن جميع هذه التسميات والتصنيفات لشتى صنوف الهذيان تبعاً لمضمونها يشوبها في الحقيقة عيب ما وتنطوي على وجه من العقم[2].

بل إن الطبيب النفسي المتزمّت لن يتردد في أن يصم بطلنا ـ بالنظر إلى أنه استطاع أن يبني هذياناً على أساس مثل ذلك الاختيار المسبق الفريد في نوعه ـ بأنه **منحطّ عقلياً** وفي أن يبحث عن عامل الوراثة الذي رمى به بلا رحمة بين براثن هذا المصير. لكن الروائي لا يقفو أثره في هذا الطريق، وهو في ذلك محقّ. فغايته، بالفعل، أن يجعلنا نشعر بأن بطله قريب منا، وأن يسهِّل علينا التواصل الوجداني معه. ولو شخَّصنا مرض عالم الآثار الشاب بأنه **انحطاط عقلي** ـ سواء أكان لهذا التشخيص مبرره العلمي أم لم يكن ـ لنأت الشقة بيننا وبينه، على اعتبار أننا، نحن القراء، أناس أسوياء، وفينا يتمثل معيار الإنسانية. كذلك لا يلقي الروائي بالاً للعومل الوراثية والتكوينية التي تشرط هذه الحالة؛ لكنه ينقِّب بالمقابل في الاستعداد النفسي الشخصي المهيأ لأن يتولد عنه هذيان كذاك.

يتصرف نوربرت هانولد بصدد نقطة بالغة الأهمية على نحو مغاير جداً لتصرف سائر بني البشر. فالمرأة الحية لا تثير اهتمامه، والعلم الذي يقوم على خدمته كالسادن قد صرفه عنها إلى النساء اللائي من حجر وبرونز. وليس لأحد أن يزعم أن هذه السمة الخاصة غير ذات شأن، فهي على العكس حجر الزاوية في الحادثة المسرودة، إذ ما إن وقع نظره ذات يوم على واحدة من تلك الصور الحجرية حتى استأثرت منه بكل الاهتمام الذي ينصبّ عادة على المرأة الحية، وإذا بالهذيان قد تأسس. وعندئذ نشهد بأم عيننا كيف يتقدم الهذيان نحو الشفاء بفضل مصادفة سعيدة، وكيف يرتدّ الاهتمام من الحجر إلى المرأة الحية. لكن ما

---

١ ـ التميمية: FETICHISME. وقد شاعت ترجمتها بالعربية بـ «الصنمية». ولكن الكلمة برتغالية الأصل ومشتقة من FEITIO، وهو الاسم الذي أطلقه المستعمرون البرتغاليون على موضوع العبادة لدى بعض الأقوام الأفريقية التي استعمروها. وقد كان ألفريد بينيه هو أول من نحت كلمة التميمية. «م».

٢ ـ حالة ن. هـ يجب أن توصف في الواقع بأنها هذيان هستيري، لا هذيان بارانوئي. فأعراض البارانويا لا وجود لها هنا.



الدروب التي سلكها بطلنا حتى انتهى به المطاف إلى الإشاحة عن المرأة؟ هذا ما لا ينبئنا به الروائي، والشيء الوحيد الذي يعلمنا به هو أن هذا الموقف لا يمكن أن يعلل بجِبلَّة نوربرت التي تنطوي بالأحرى على عنصر آسر من الخيال، بل - سنضيف - من الإيروسية. ويعلمنا كذلك، وإن في طور لاحق من القصة، أن نوربرت هانولد ما كان يختلف في طفولته عن سائر الأطفال، وأن ثمة صداقة حميمة كانت تربطه بفتاة صغيرة، فما كان يفارقها، بل كان يشاطرها طعامها، ويتبادل وإياها خفيف الضربات واللطمات ويدعها تشدّ شعره. وفي مثل هذا النوع من الارتباط، في مثل هذا المزيج من الحنوّ والعدوانية، تتجلى الإيروسية اللامكتملة للحياة الطفلية، تلك الإيروسية التي لن تتظاهر آثارها إلا في زمن متأخر، وعلى نحو غير قابل للمقاومة عندذاك. أما في طور الطفولة بالذات فليس لغير الطبيب والروائي أن يتعرَّفاها كإيروسية. ثم إن روائينا يثبت لنا أنه هو نفسه يفهم الأمور هذا الفهم، وذلك عندما يوقظ لدى بطله على نحو مباغت، وفي سانحة مؤاتية، اهتماماً شديداً بمشية النساء وبوضعية أقدامهن. واهتمام كهذا قد يعود عليه، في نظر العلم ونظر نساء مدينته، بلقب المولَّه التميمي FETICHISTE بالقدم، ولكن هذا الاهتمام ينبع بالضرورة، في نظرنا نحن، من ذكرى رفيقة الطفولة تلك. فهذه الفتاة الصغيرة قد تميَّزت، ولا بدّ، منذ أيام الطفولة برشاقة مشيتها وبتساوقها حين كانت ترفع رأس قدمها مع كل خطوة بصورة شبه عمودية؛ والمنحوتة القديمة ما أخذت في نظر نوربرت هانولد ذلك المغزى الكبير إلا لأنها تصوِّر تلك المشية بالذات. ولنبادر إلى الإضافة هنا بأن الروائي يتفق مع العلماء بشأن إتيولوجيا هذه الظاهرة الغريبة المعروفة باسم التميمية. فمع أ. بينيه A. BINET[٣] بتنا نحرص فعلاً على إرجاع التميمية إلى انطباعات إيروسية من عهد الطفولة.

إن حالة التنائي الدائم عن المرأة هي التي تخلق القابلية الشخصية، أو الاستعداد كما درجت بنا العادة على القول، لظهور الهذيان. وتطور الاضطراب

٣ ـ ألفريد بينيه: عالم نفساني فرنسي ١٨٥٧ ـ ١٩١١. درس السيكولوجيا الفيزيولوجية والسيكولوجيا التجريبية. «م».



النفسي يبدأ في عين اللحظة التي يوقظ فيها انطباع عارض انطباعات الطفولة المنسية، وهي انطباعات متّشحة بالإيروسية ولو في شكل آثار وبقايا. لكن «الإيقاظ» ليس قطعاً اللفظة الصحيحة، إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يحدث بعد ذلك. والحقّ أن من واجبنا أن نؤدي فحوى تصوير الروائي الصحيح جداً للأحداث بالمصطلحات التقنية لعلم النفس. فنوربرت هانولد لا يتذكر، وهو أمام المنحوتة، أنه سبق له أن رأى وضعية القدم تلك لدى صديقة طفولته؛ بل إنه لا يتذكر شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك إن كل المفعول الذي أحدثته المنحوتة فيه يتأتى من نظير تلك الصلة بانطباع تلقاه في طفولته. فهذا الانطباع تدبّ فيه الحياة، ويغدو نشِطاً فعالاً، وتأخذ مفاعيله بالظهور. لكنه لا يرقى إلى مستوى الوعي، بل يبقى **لاشعورياً** كما نقول اليوم، بموجب المصطلح الذي ما عاد من تداوله بدّ في علم الأمراض النفسية. وإن يكن لنا من أمنية فهي أن ننأى بمصطلح اللاشعور عن جميع مناقشات الفلاسفة، وكذلك الفلاسفة من علماء الطبيعيات، تلك المناقشات التي لا تفلح في كثير من الأحيان في تجاوز مضمار علم الاشتقاق. والحق أنه ليس في متناولنا لحدّ الآن لفظ أفضل نسمي به تلك السيرورات النفسية التي تبقى ناشطة فعالة من دون أن ترقى مع ذلك إلى مستوى الوعي لدى الإنسان المعني، وهذا كل ما نقصده بكلمة **اللاشعور**. وإذا ما دخل معنا بعض المفكرين في مماحكة حول وجود مثل هذا اللاشعور، مصادرةً منهم على منافاته للعقل، فمردّ ذلك على ما نعتقد إلى أنهم لم يهتموا قط بالظاهرات النفسية المواتمة وبقوا تحت نير التجربة الدارجة التي تجزم بأن كل ظاهرة نفسية ناشطة وفعالة لا بدّ أن تكون، بحكم ذلك على وجه التحديد، واعية. والحق أنه لا يزال على هؤلاء أن يتعلموا ـ وهذا ما يعلمه روائيُّنا حقَّ العلم ـ أن ثمة سيرورات نفسية تبقى، رغم شدتها وقوة مفاعيلها، بعيدة عن الوعي.

لقد تقدم بنا القول إن ذكريات الطفولة المتعلقة بزويه كانت في حالة «كبت» لدى نوربرت هانولد، ولقد وصفناها آنذاك بأنها ذكريات **لاشعورية**. ومن ثم يتوجب علينا الآن أن نركّز اهتمامنا على العلاقة القائمة بين هذين المصطلحين التقنيين اللذين لهما، على ما يبدو، معنى متطابق. ولا يعسر علينا أن نوضح



أفكارنا بصدد هذه النقطة. **فاللاشعوري** هو المفهوم الأعمّ، **والمكبوت** هو المفهوم الأخصّ. فكل مكبوت لاشعوري، لكن لا يسعنا الجزم بأن كل لاشعوري مكبوت. وإن تكن رؤية المنحوتة قد استحضرت لدى هانولد ذكرى مشية صديقته زويه، فهذا لأن ثمة ذكرى كانت فيما سبق لاشعورية قد أضحت لديه فعالة وواعية في آن معاً، مدللة بذلك على أنه لم يسبق لها أن كبتت. إن «**اللاشعوري**» مصطلح وصفي محض وغير محدد من أكثر زاوية، مصطلح **سكوني** إن جاز التعبير. أما «**المكبوت**» فمصطلح **دينامي** يشفّ عن صراع القوى النفسية ويعبِّر عن ميل المفاعيل النفسية إلى التظاهر، بما فيها مفاعيل **الصيرورة الواعية**. لكن هذا المصطلح يستتبع أيضاً وجود قوة مناوئة، وجود مقاومة تتصدى لجزء من ردود الفعل النفسية تلك ـ ومن ضمنها مرة أخرى **الصيرورة الواعية** ـ وتحوز القوة اللازمة لكبحها ولجمها. وبالفعل، إن السمة المميزة للمكبوت هي عجزه عن بلوغ مستوى الوعي رغم شدته وقوته. وفي حالة هانولد نستطيع أن نتحدث، من لحظة اكتشاف المنحوتة، عن لاشعور مكبوت، أي باقتضاب عن **مكبوت**.

إن ذكريات نوربرت هانولد عن علاقاته في عهد الطفولة بالفتاة ذات المشية الرشيقة مكبوتة، ولكن ذلك لا يزوِّدنا بعد برؤية صحيحة لحقيقة الأشياء من وجهة النظر السيكولوجية. والواقع أننا سنبقى على السطح ما دمنا لا نتكلم إلا عن ذكريات وتصورات. ذلك أن العناصر الوحيدة التي يُعتدّ بها في الحياة النفسية هي بالأحرى المشاعر والعواطف؛ وجميع القوى النفسية لا تقاس إلا بقدرتها على إيقاظ المشاعر والعواطف. والتصورات لا تكبت إلا لارتباطها بتصريفات وتفريغات عاطفية يفترض فيها ألا تتمّ. والأصح أن نقول إن الكبت يطال المشاعر والعواطف، لكن لا سبيل إلى إدراك هذه المشاعر والعواطف إلا من خلال ارتباطها بتصورات. إذاً، فالعواطف والمشاعر الإيروسية هي المكبوتة لدى نوربرت هانولد، وبما أن إيروسيته لا تعرف لها من موضوع آخر أو لم تعرف قط من موضوع آخر، في طفولته، سوى زويه برتغانغ، فإن الذكريات المرتبطة بهذه الأخيرة هي التي تطويها يد النسيان. وقد جاء اكتشاف المنحوتة القديمة ليوقظ



فيه الإيروسية الغافية وليعيد إلى ذكريات الطفولة نشاطها وفاعليتها. بيد أن المقاومة الدائبة التي تعترض سبيل الإيروسية تجعل هذه الذكريات غير قادرة على الفعل إلا إذا لبثت لاشعورية. وما يحدث فيه بعد ذلك هو صراع وعراك بين اندفاعة الإيروسية وبين القوى التي تكبتها، وما يتبدى للخارج من هذه المعركة هو الهذيان.

لقد سها روائينا عن إطلاعنا على السبب الذي جعل بطله يكبت حياته الغرامية. وبالفعل، لم تكن شواغله العلمية سوى الوسيلة المألوفة التي يلجأ إليها الكبت، ومن واجب الطبيب هنا أن يتبحر في البحث، من دون أن يكون في مستطاعه الجزم بأنه واصل، لا محالة، إلى لبّ المشكلة. لكن لم يغب عن الروائي ـ وقد كنا أشرنا إلى ذلك وأعربنا عن إعجابنا به ـ أن يبيِّن لنا كيف استيقظت الإيروسية المكبوتة بفعل أسباب ذات صلة بمضمار وسائل الكبت بالذات. فليس من قبيل الصدفة أن يكون أثر فني قديم ـ تمثال امرأة حجري ـ هو ما انتشل بطلنا عالم الآثار من وهدة نفوره من الحب، وذكَّره بأنه حقيق بالإنسان أن يردّ إلى الحياة الدين الذي تغلّ عنقه به منذ ولادته.

إن التظاهرات الأولى للسيرورة التي بدأت تعتمل لدى هانولد حالما وقع نظره على المنحوتة قد أخذت شكل أخاييل واستيهامات، بطلتها هي المرأة المصوَّرة في المنحوتة. فالنموذج بدا له راهناً، بأحسن معاني الكلمة، كما لو أن الفنان رسم «من الواقع الحيّ» تلك المرأة السائرة في الشارع. وقد أطلق على تلك الفتاة المنتمية إلى الماضي اسم **غراديفا**، وهو اسم مشتقّ من نعت إله الحرب السائر إلى المعركة، **مارس غراديفوس**. ثم لا يلبث أن يضفي المزيد من الإيضاحات حول شخصيتها. فهي، ولا بدّ، ابنة رجل مرموق، ولعله من الأعيان القائمين على عبادة إلهة من الإلهات في معبدها، وقسمات وجهها تبدو له إغريقية، ثم تخامره الحاجة إلى الانتقال بها بعيداً عن صخب المدن الكبيرة، إلى بومباي، ذلك الموقع الهادئ، حيث يجعلها تسير فوق البلاطات الحجرية الطفحية لتعبر الشارع. إن شطحات خياله لا تخلو في الحقيقة من قدر من العسف، ولكنها تبقى في الوقت نفسه بريئة وبعيدة إلى حدّ ما عن الشبهات. وحتى عندما تنزع هواجسه النابعة



من هذه الأفكار إلى أن تأخذ لأول مرة شكل نشاط عملي، وحتى حينما تتسلط على عالم الآثار الشاب مشكلة معرفة ما إذا كانت وضعية القدم تلك مطابقة للواقع، فيطفق يلاحظ على الطبيعة أقدام المعاصرات له من سيدات أو فتيات، حتى في هذه الحال يبقى لأفعاله وتصرفاته ما يبررها في نظره، على اعتبار أن دوافعه الواعية إليها ذات صفة علمية، فكأن كل اهتمامه بصورة غراديفا الحجرية ينبع من نشاطه المهني كعالم آثار. ولا شك في أن السيدات والآنسات اللائي يتخذهن موضوعاً للرصد والملاحظة في الشارع يعزون إلى سلوكه هذا دوافع مغايرة تماماً، دوافع إيروسية فجة، ونحن لا خيار لنا إلا في أن نوافقهن على رأيهن هذا. فنحن لا يخامرنا شكّ في أن هانولد لا يعي دوافع تحرياته مثلما لا يعي أصل استيهاماته حول غراديفا. فهذه الاستيهامات، كما سنعلم ذلك لاحقاً، هي أصداء لذكرياته عن صديقة طفولته، فسائل من هذه الذكريات، تحويرات لها، بل تشويهات ما أمكنها أن ترقى، في شكلها الأصلي، إلى مستوى الوعي. أما الحكم الجمالي المزعوم على الصورة الحجرية بأنها تمثّل شيئاً ما راهناً فهو مجرد بديل عن علم عالِم العاديات بأن تلك المشية مشية فتاة من معارفه، فتاة تعبر الشارع في **العصر الذي يعيش فيه هو نفسه**، لا في عصر غابر. أما الشعور بأن المنحوتة نُحتت «من الواقع الحي» والاستيهام بصدد أصولها الإغريقية فإنما يخفيان ذكرى اسمها زويه الذي يعني في اليونانية **الحياة**. ثم إن اسم غراديفا، كما يوضح لنا ذلك المريض نفسه بعد انتهاء هذيانه، ترجمة ممتازة لكنية آل برتغانغ، ومعناها «التـألق في المشي». أما المعطيات المتعلقة بالأب فتعيد إلى أذهاننا أن زويه برتغانغ ابنة أستاذ جامعي مرموق؛ ومركز كهذا ليس بكل تأكيد مبتوت الصلة بالمركز الذي كان لكهنة المعابد في الماضي. وأخيراً، لئن يكن خيال هانولد قد جعل بومباي موطناً لغراديفا، فما ذلك «بسبب مظهرها الهادئ والوديع»، وإنما لأنه لا يمكن أن يقوم، من منظور تخصُّصه في علم الآثار، تشابه آخر أو أفضل مع الحالة الغريبة التي يحدس حدساً مبهماً بأن ذكرياته عن صديقة طفولته قد آلت إليها. فإن يكن قد ماثل ـ وطبيعي أن يكون نزوع كهذا قد وجد لديه ـ الماضي الكلاسيكي بطفولته بالذات، فإن انطمار بومباي، أي ذلك الاندثار الذي

حافظ على الماضي، يفسح في المجال واسعاً للمشابهة مع **الكبت** الذي يشعر به نوربرت شعوراً نفسياً باطنياً ENDOPSYCHIQUE إن جاز التعبير. ومنظومة الرموز التي تشتغل لديه هي، في هذه الحال، عينها التي يعزوها الروائي، في ختام القصة، إلى الفتاة. لكن هذه الأخيرة تتلاعب بها عن وعي تام:

«كنت أقول بيني وبين نفسي إنني سأتمكن بمفردي من نبش شيء مثير للاهتمام هنا. ولكن ما كنت لآمل قط في لقيا كهذه» (**«غراديفا»**، ص ١٠٢ - ١٠٣). وفي النهاية (ص ١٢١)، تستجيب الفتاة لمشروع هانولد بالسفر إلى بومباي لقضاء شهر العسل مع «صديق طفولتها الذي يبدو هو نفسه وكأنه قد نبش من انطمار طال أمده».

هكذا نعثر في التظاهرات الأولى لاستيهامات هانولد الهاذية على تعيين مزدوج، وفي أفعاله الأولى على تفريعين من مصدرين مختلفين. الأول يطابق ذاك الذي يتبدى لعيني هانولد بالذات، والثاني هو ذاك الذي يتكشف لنا بعد التنقيب والتحري الدقيق في سيروراته النفسية. وبالقياس إلى هانولد، فإن الأول واعٍ، والثاني غير واعٍ بالمرة. الأول يتفرع بتمامه من دائرة تصورات علم الآثار، والثاني من ذكريات الطفولة التي طفقت تقضّ مضجعه بعد أن كانت إلى تلك الساعة مكبوتة، ومن الاندفاعات العاطفية المرتبطة بتلك الذكريات. الأول سطحي إن جاز القول، وحاجب للثاني المتواري - إن جاز القول أيضاً - وراءه. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن حافزه العلمي هو مجرد ستار للحافز الإيروسي اللاشعوري، وإن العلم بتمامه قد وضع نفسه في خدمة الهذيان. لكن لا يجوز أيضاً أن ننسى أن التعيين اللاشعوري لا يستطيع أن يحقق شيئاً إلا إذا كان يرضي في الوقت نفسه التعيين العلمي الشعوري. على هذا النحو تنجم أعراض الهذيان - الاستيهامات والأفعال - عن تسوية بين التيارين النفسيين الاثنين؛ والحال أنه لا بدّ في كل تسوية من أن تؤخذ بعين الاعتبار مطالب الطرفين المتواجهين، ولكن بشرط أن يتخلى كل طرف عن بعض من امتيازاته أيضاً. وحين تتمّ التسوية، فهذا معناه أن صراعاً قد سبقها: وهو هنا الصراع الذي نسلّم بوجوده بين الإيروسية المقموعة وبين القوى النفسية التي تبقي عليها في



حالة كبت. وحين يتكون الهذيان لا يمكن، والحق يقال، أن يعرف هذا الصراع من نهاية. فالهجوم والمقاومة يتكرران مع كل تسوية جديدة، على اعتبار أنه لا يمكن لأية تسوية أن تفي كل الوفاء بالمطلوب. وهذا ما يدركه روائينا جيداً، ولهذا يجعل شعوراً بالضيق والقلق يتسلط على بطله طوال طور هذيانه، كمؤشِّر وكضمانة لتطورات لاحقة.

إن هذه الخصائص ـ التعيين المزدوج للاستيهامات وللقرارات وبناء الذرائع الواعية برسم أفعال يكون فيها للمكبوت النصيب الأكبر ـ ستتجلى لنا في مجرى القصة اللاحق مراراً وتكراراً، وربما بمزيد من الوضوح والجلاء. وهذا أمر يكاد أن يكون محتوماً، بالنظر إلى أن الروائي استطاع عن طريق ذلك أن يفهم ويبرز للعيان هذا الطابع الرئيسي الذي لا يغيب أبداً عن السيرورات النفسية المرَضية.

يتعرض مسار الهذيان لدى نوربرت هانولد لتطور جديد بفعل حلم حلمه. وبما أن الباعث على هذا الحلم لم يكن حدثاً جديداً ما، فإنه يبدو لنا وكأنه منبجس بتمامه من حياته النفسية الخاصة المأخوذة في دوامة من الصراع. ولكن لنتوقف ملياً قبل أن نتحقق مما إذا كان الروائي، في بنائه لأحلامه، قد دلّل كذلك ـ كما نأمل ـ على تفهم عميق لآليتها. ولنتساءل أولاً عن الموقف الذي يمكن أن يقفه العلم التحليلي النفسي من مقدمات الروائي المتعلقة بأسباب نشوء الهذيان، وكذلك عن موقفه من الكبت واللاشعور والصراع وتكوين التسوية. وبكلمة واحدة، هل يصمد تكوُّن الهذيان كما يصادر عليه الروائي أمام حكم العلم؟

لعل جوابنا سيخيِّب كل توقع، إذ لا مفرّ لنا في الحقيقة ـ ويا للأسف ـ من أن نعكس الأدوار: ذلك أن العلم هو الذي لا يصمد أمام عمل الروائي. فالعلم يترك بين الاستعدادات الجِبِلّية الوراثية وبين مبتكرات الهذيان ثغرة لا يتنطع لردمها سوى الروائي. العلم لا يدرك بعد، ولو بالشبهة، أهمية الكبت، ولا يعترف بأنه بمسيس الحاجة إلى اللاشعور لتفسير عالم التظاهرات النفسية المرَضية، ولا يبحث عن الهذيان في صراع نفسي، ولا يتصور أعراضه على أنها محصِّلةُ تسويةٍ.



أيقف الروائي إذاً بمفرده ضد العلم كله؟ قطعاً لا.. إذا كان في مستطاع كاتب هذه السطور نفسه أن يصف مباحثه بأنها علمية. وبالفعل، لقد كان شرح وطوَّر منذ سنوات عدة ـ وحتى الآونة الأخيرة بمفرده تقريباً[٤] ـ جميع التأملات التي استقاها من **غراديفا** لمؤلفها ف. ينسن، وعرضها بمصطلحات تقنية اختصاصية. ولقد كانت الحالات الموصوفة بالهستيرية والوسواسية دافعه الأول إلى إزاحة الستار عن قمع شطر من الحياة الغريزية وعن كبت التصورات الممثِّلة للدافع الغريزي المكبوت، وإلى التوكيد على أن هذا القمع وهذا الكبت هما من المحدِّدات الفردية للاضطرابات النفسية. ثم ما لبث أن شمل بعلم الأمراض هذا أشكالاً شتى من الهذيان[٥].

فهل الدوافع الغريزية موضوع البحث هي على الدوام من مقوِّمات الدافع الغريزي الجنسي، أم يمكن أن تكون أيضاً من نوع آخر؟ إن السؤال غير ذي أهمية فيما يتعلق بتحليل «**غراديفا**» بالذات؛ إذ لا مجال في الحالة التي وقع اختيار الروائي عليها لقمع أي مشاعر غير المشاعر الإيروسية. وقد سبق لمؤلف هذه الدراسة أن سلّط الضوء على مفهوم الصراع النفسي وانشراط الأعراض المرَضية بالتسويات بين التيارين النفسيين الباطنيين المتناحرين، وذلك من خلال حالات مرَضية درسها فعلاً وعالجها طبياً بنفسه بطرائق مشابهة لتلك التي أمكن له أن يطبِّقها هنا على شخصية نوربرت هانولد التي هي من اختراع الروائي[٦]. والحق أن أول من حاول إرجاع الأمراض العصبية، وبخاصة الظاهرات الهستيرية، إلى

٤ ـ انظر مبحث ي. بلولر الهام: AFFEKTIVITAT, SUGGESTEBILITAT. PARANOIA,

وكذلك: DIAGNOSTISCHE ASSOZIATIONSSTUSIE (**دراسات عن التداعيات برسم التشخيص**) بقلم ك.غ. يونغ، وقد نشر هذان الكتابان في زوريخ عام ١٩٠٦.

[حاشية أضيفت سنة ١٩١٢]: يرى المؤلف لزاماً عليه، اليوم في سنة ١٩١٢، أن يصحح ما قاله أعلاه، على اعتبار أنه ما عاد مطابقاً للواقع. وبالفعل، إن الحركة التحليلية النفسية التي كان هو مؤسسها قد اتسعت منذ ذلك الحين اتساعاً عظيماً، وهي لا تني تنتشر وتمتد.

٥ ـ انظر فرويد: **مجموعة كتابات موجزة في نظرية العصاب**، ١٨٩٣ ـ ١٩٠٦.

٦ ـ فرويد: **نبذة من تحليل حالة هستيريا**، ١٩٠٥.



قوة أفكار لاشعورية، كان بيير جانيه[٧]، تلميذ شاركو[٨] الكبير، وجوزيف بروير[٩]، من فيينا، بالتعاون مع المؤلف[١٠].

لقد كان المؤلِّف عكف، منذ عام ١٨٩٣، على دراسة تكوُّن الاضطرابات النفسية، وما كان ليخطر له ببال أن يطلب توكيد النتائج التي خلص إليها لدى الروائيين والشعراء. لذا كانت مفاجأته كبيرة عندما اتضح له، مع ظهور «**غراديفا**» في عام ١٩٠٣، أن الروائي جعل أساس عمله ذلك الجديد الذي كان المؤلف قد خيِّل إليه أنه اكتشفه من مصادر الملاحظة الطبية. فكيف توصل الروائي إلى العلم الذي كان قد وصل إليه الطبيب، أو كيف توصل على أي حال إلى أن يسلك مسلك من يعرف الأشياء ذاتها؟

قلنا إن هذيان نوربرت هانولد طرأ عليه تطور جديد بفعل حلم حلمه أثناء محاولته اكتشاف مشية مشابهة لمشية غراديفا في شوارع البلدة التي فيها رأى النور. ويسير علينا أن نلخِّص في بضع كلمات مضمون هذا الحلم. فقد وجد الحالم نفسه في بومباي، في اليوم عينه الذي طمرت فيه المدينة التعيسة، فأصابه

---

٧ ـ بيير جانيه: من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧). كانت أطروحته للدكتوراه بإشراف شاركو عن الاضطرابات العصبية للهستيريين. وشغل منصب مدير المختبر في مستشفى السالبتريير بباريس، واتجهت به أبحاثه الأخيرة نحو توكيد أهمية اللاشعور في الحياة النفسية. وقد تحدث فرويد مطولاً عن علاقته به في كتابه: **حياتي والتحليل النفسي**. «م».

٨ ـ جان مارتن شاركو CHARCOT: طبيب فرنسي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٣). اشتهر بدراساته في الأمراض العصبية، وبخاصة الهستيريا، وكان يعمل ويحاضر في مستشفى السالبتريير بباريس. وقد تحدث فرويد مطولاً عن علاقته به هو الآخر في كتابه: **حياتي والتحليل النفسي**. «م».

٩ ـ جوزبيف بروير: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥). عمل معه فرويد في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور بيركه واشترك معه في عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان **دراسات في الهستيريا**. وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاماً، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسانيين، ثم ما لبث أن استعاض عنه بمنهج التطهير (كاثارسيس) الذي يقوم على انتزاع الأسرار التي ترهق المريض من أفكار وعواطف مكبوتة. ولكن فرويد لم يقف عند الحدّ الذي كان وصل إليه بروير، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيداً. وقد كتب عن بروير في **حياتي والتحليل النفسي** يقول: «لقد كلّفني نمو التحليل النفسي صداقته. لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن، لكن لم يكن في مقدوري أن أتفادى ما كان».«م».

١٠ ـ انظر بروير وفرويد: **دراسات في الهستيريا**.



ذعر عظيم ولكن من دون أن يتعرض للخطر. وعلى حين بغتة رأى غراديفا تتقدم نحوه، ولم يستغرب سكناها ـ وهي البومبية ـ في مسقط رأسه «في زمن واحد وإياه من دون أن يدري بها البتة». واستبدّ به الخوف عليها، فناداها، فأدارت نحوه وجهها بلفتة خاطفة، ولكنها لم تتوقف، بل تابعت طريقها، وتمددت على درجات معبد أبولون، وانطمرت تحت وابل من الرماد، بعد أن شحب وجهها وبهت لونه وكأنه يوشك أن يتحول إلى رخام أبيض ويصير مشابهاً تماماً لصورة من حجر. وحتى عند استيقاظه تراءى له أن ضوضاء المدينة الكبيرة التي تناهت إلى مسمعه، وهو لا يزال في فراشه، هي صراخ استغاثة سكان بومباي وهدير الأمواج الهائجة. ولبث الشعور بأن ما حلمه في الحلم قد وقع له حقاً وفعلاً متسلّطاً عليه لأمد طويل من الزمن بعد استيقاظه، كما لبث اليقين بأن غراديفا عاشت في بومباي وقضت نحبها في ذلك اليوم المشؤوم ـ وهو اليقين المتخلف عن الحلم ـ بمثابة مرتكز جديد للهذيان.

وعسير علينا بالمقابل أن نحدد ما يعنيه هذا الحلم بالنسبة إلى الروائي، وما الذي حفزه على أن يربط تطور الهذيان بهذا الحلم تحديداً. ومن الثابت على كل حال أن الاختصاصيين في تأويل الأحلام قد أفلحوا، مدفوعين بحماستهم لعلمهم، في جمع عدد لا يستهان به من الأمثلة التي ترتبط فيها الاضطرابات العقلية بأحلام أو تتفرع منها[11]. كذلك تدلّ سيرة حياة بعض عظماء الرجال على أن أحلاماً بعينها قد تكون حافزاً لاتخاذ قرارات ولإتيان أفعال مهمة. لكن هذه المشابهات لا تغني فهمنا إغناء كبيراً، فلنكتفِ إذاً بالحالة التي بين أيدينا، حالة عالم الآثار الشاب نوربرت هانولد، كما تخيّلها الروائي. فمن أي نقطة ينبغي أن نتناول ذلك الحلم لندمجه بالمجموع، إذا كنا لا نريد له أن يبقى مجرد زخرف لا طائل فيه من زخارف القصة؟

قد يهتف القارئ هنا: سهل إذاً تفسير هذا الحلم! مجرد حلم من أحلام

١١ ـ سانتي دي سانكتيس(*): **الأحلام**، ١٩٠١.

(*) سانتي دي سانكتيس: طبيب نفسي إيطالي (١٨٦٢ ت ١٩٣٥). مؤسس أول معهد لطب الأطفال النفسي في إيطاليا. من مؤلفاته: **الاهتداء الديني**. «م».



الحصَر النفسي نجم عن ضوضاء المدينة الكبيرة، تلك الضوضاء التني أوَّلها عالم الآثار، المأخوذ بفتاته البومبية، على أنها جلبة سقوط بومباي. وبالنظر إلى الازدراء العام الذي تقابل به التظاهرات الحلمية، فإن المتطلبات المتعلقة بتفسير الحلم تقتصر على ما يلي: إن جزءاً من مضمون الحلم يمكن أن يتطابق مع تنبيه خارجي ينبغي السعي إلى تحديده. وهذا التنبيه الخارجي يتطابق مع الضجة القمينة بأن توقظ النائم، وعند هذا الحدّ تقف كل فائدة الحلم. ونحن على أتمّ الاستعداد للتسليم بذلك فيما لو كان لدينا مبرر للاعتقاد بأن المدينة الكبيرة كانت في صبيحة ذلك اليوم أشدَّ ضوضاء من المعتاد، وفيما لو أن الروائي أعلمنا، على سبيل المثال، أن هانولد نام ـ خلافاً لعادته ـ والنافذة مفتوحة. غير أن المؤلف، لسوء الحظ، لم يكلِّف نفسه هذا العناء! وليت أحلام الحصَر النفسي بمثل هذه البساطة! لكن ليس لاهتمامنا بالأحلام أن يقف بمثل هذا اليسر عند هذه الحدود.

إن الصلة بتنبيه حسّي خارجي ليست أساسية في تكوين الحلم. ففي وسع النائم أن يهمل هذا التنبيه الآتي من العالم، وقد يوقظه من دون أن يكوّن حلماً. وفي مستطاعه أيضاً، كما في الحالة التي بين أيدينا، أن يدمج التنبيه بحلمه، ولكن بشرط أن تكون هناك أسباب أخرى لدمجه به. وثمة عدد كبير من الأحلام التي لا يمكن، فيما يتعلق بمضمونها، الاهتداء إلى تعيينها من خلال التنبيه الحسّي للنائم أثناء النوم. فلنبحث إذاً عن طريق آخر.

لعلنا نستطيع أن نبدأ بالرسابة التي يتركها الحلم في حياة هانولد بعد استيقاظه. فحتى الآن كان الأصل البومبي لغراديفا بالنسبة إليه محض استيهام. ولكن هذه الفرضية تنقلب إلى يقين، وإلى هذا اليقين ينضاف يقين ثانٍ: لقد طمرت غراديفا سنة ٧٩ (**«غراديفا»**، ص ١٧). ويترافق تقدم الهذيان هذا بمشاعر مؤلمة هي أشبه ما تكون بصدى للحصَر النفسي الذي يجلِّل الحلم من البدء. هذا الألم الجديد، المرتبط بغراديفا، لا يبدو لنا ميسور الفهم، إذ إن غراديفا ـ على فرض أنها نجت من نكبة ٧٩ ـ هي الآن، ومنذ قرون عديدة من الزمن، في عداد الأموات. أم ترى أنه لا يخلق بنا أن نحاكم الأمور على هذا النحو، لا مع نوربرت هانولد ولا مع الروائي؟ هنا أيضاً لا تلوح لنا أية وسيلة قمينة بأن

تسهِّل علينا الفهم. لكن لنلاحظ مع ذلك أن القسط الذي يسهم به هذا الحلم في الهذيان يتَّسم بطابع شديد من الإيلام.

فيما خلا ذلك، تبقى حيرتنا كاملة. فهذا الحلم لا يتفسر من تلقاء نفسه، ولا مفرّ لنا من الاستنجاد بـكتابنا «**تأويل الحلم**» ومن تطبيق بعض القواعد المشروحة فيه بخصوص فكّ لغز الأحلام.

تنصّ إحدى هذه القواعد على أن الحلم يرتبط ارتباطاً مباشراً بنشاط اليوم السابق له. ويظهر أن الروائي أراد التقيُّد بهذه القاعدة ما دام ربط الحلم ربطاً مباشراً بأبحاث هانولد **القَدَمية**. غير أن هذه الأبحاث ما هي في الواقع إلا ملاحقة لغراديفا التي يحاول هانولد أن يتعرفها من خلال مشيتها الخاصة. المفروض إذاً بالحلم أنه ينطوي على إشارة إلى الموضع الذي يمكن العثور فيه على غراديفا. والحال أنه يحتوي على مثل هذه الإشارة، ما دام يرينا أن غراديفا تعيش في بومباي، ولكن لا جديد في هذا بالنسبة إلينا.

هاكم قاعدة ثانية: حين يترك الحلم وراءه، لزمن أطول من المعتاد، اعتقاداً راسخاً بواقعية الصور الحلمية، بحيث يتعذر على صاحب الحلم أن يفلت من إسارها، فإننا لا نستطيع أن نتحدث هنا عن وهم وقعت فيه ملكة الحكم بفعل حيوية الصور الحلمية، وإنما المسألة مسألة فعل نفسي قائم بذاته، مسألة وثوق بمضمون الحلم، وثوق بوجود واقع مطابق للحلم، ووثوق بأن الحالم محقٌّ في وثوقه هذا. وإذا ما اكتفينا بهاتين القاعدتين، فلا مناص لنا من الاستنتاج بأن هذا الحلم ينطوي على معلومة بخصوص المكان الذي توجد فيه غراديفا المنشودة، وهذه المعلومة مطابقة للواقع. ونحن بالفعل، نعرف الآن حلم هانولد، فهل يقودنا تطبيق هاتين القاعدتين على هذا الحلم إلى أن نجد له معنى معقولاً؟

الجواب أن بلى، على ما في ذلك من غرابة. وكل ما هنالك أن هذا المعنى منكَّر على نحو بالغ الخصوصية بحيث لا يسمح لنا بالنفاذ إلى كنهه دفعة واحدة. فهانولد يعلمنا في الحلم أن تلك التي يبحث عنها تقطن في نفس المدينة التي يقطن فيها، وأنها معاصرة له. وهذا صحيح بالنسبة إلى زويه برتغانغ، مع فارق واحد وهو أن هذه المدينة ليست، في الحلم، المدينة الجامعية الألمانية، وإنما



بومباي، وأن الزمن ليس هو الزمن الحاضر، وإنما سنة ٧٩ ميلادية. وهذا ضرب من التحوير عن طريق تغيير المكان، ولكن ليست غراديفا هي المنقولة إلى عصرنا، وإنما الحالم هو المنقول إلى الماضي. غير أن النقطة الأساسية والجديدة ـ **كونه يشاطر تلك التي يبحث عنها المكان والزمان** ـ معبَّر عنها بدورها بحكم ذلك. فما الداعي إذاً إلى ذلك التحوير، إلى ذلك التنكير الذي من شأنه أن يخدعنا، وأن يخدع النائم نفسه، بصدد معنى حلمه الحقيقي ومضمونه؟ إننا نملك، على كل حال، الوسائل لإعطاء هذا السؤال جواباً مُرضياً.

لنستذكر كل ما قلناه عن طبيعة الاستيهامات، طلائع الهذيان تلك، وعن أصلها. فهي بدائل، مشتقات من الذكريات المكبوتة التي تتصدى لها مقاومة تحول دون مثولها للوعي في قسماتها الحقيقية، فلا تفلح في بلوغ هدفها هذا إلا مقابل تغيرات وتشوهات تمليها عليها مقاومة الرقابة. وما إن يتم الوصول إلى هذه التسوية، حتى تتحول هذه الذكريات إلى استيهامات يسهل على الوعي ألا يتعرفها، إذ لا سبيل لأن تفهم إلا على ضوء التيار النفسي الغالب. لنسلِّم بأن صور الحلم هي من مبتكرات الإنسان الهاذية، الفيزيولوجية إن جاز القول، ولنسلِّم بأنها حصيلة التسوية للصراع بين المكبوت وبين التيار النفسي الغالب، وهو الصراع الذي تدور رحاه على الأرجح لدى كل إنسان سليم العقل في حالة اليقظة. عندئذ ندرك أن علينا أن نرى في الصور الحلمية نتاجاً مشوهاً، نتاجاً ينبغي أن نبحث فيما وراءه عن شيء آخر، شيء لم يتعرض للتشويه، ولكنه بمعنى من المعاني جارح مزعج، نظير ذكريات هانولد المكبوتة خلف استيهاماته. في هذه الحال، يسعنا أن نعبِّر على النحو التالي عن التعارض الذي يعلن عن ظهوره: فما تبقى ذكراه بعد الاستيقاظ، أي **المضمون الظاهر للحلم**، ينبغي أن يميَّز عما كان يشكِّل أساسه قبل تشويهات الرقابة، أعني **أفكار الحلم الكامنة**. وتأويل الحلم يعني عندئذ، بصورة أساسية، ترجمة مضمونه الظاهر إلى أفكاره الكامنة، وتجريده من الثوب التنكري الذي اضطر إلى ارتدائه مراعاة لمقاومة الرقابة. والآن لنطبِّق هذه المفاهيم على الحلم الذي نحن بصدد تحليله. فالأفكار الكامنة لا يمكن التعبير عنها إلا عن النحو الآتي: «إن الفتاة المحبوّة بتلك المشية الرشيقة التي تبحث



عنها تقطن فعلاً في المدينة التي تقطن فيها أنت». ولكن ما كان للفكرة، في هذا الشكل، أن تغدو واعية؛ فطريقها إلى ذلك يسدّه عليها كون الاستيهام، المتأتي عن تسوية مسبقة، قد حكم بأن غراديفا هي من سكان بومباي؛ ومن هنا لم يبقَ غير سبيل واحد لصون الحقيقة الواقعة، حقيقة أن غراديفا تقطن وإياه في مدينة واحدة، وتعيش وإياه في عصر واحد، وهذا السبيل هو اللجوء إلى تنكير جديد: «أنت تعيش في بومباي في زمن غراديفا». وهذه هي، بالفعل، الفكرة التي يحققها المضمون الظاهر للحلم، والتي تتجلى في شكل واقع حاضر يعيش فيه صاحب الحلم.

من النادر أن يكون الحلم تمثيلاً لفكرة واحدة، بل هو بوجه العموم تمثيل، بل قل إخراج مسرحي لجملة أو لسلسلة من الأفكار. وحلم هانولد ينطوي أيضاً، في مضمونه، على عنصر آخر يسهل إيضاحه، كما يسهل تحريره من التشويه وكشف فكرته الكامنة. ونحن نتحدث هنا عن جزء آخر من الحلم يمكن أن يطاله بدوره ذلك الإحساس بالواقعية الذي انتهى به الحلم. الحلم يرينا كيف تحولت غراديفا الماشية إلى صورة من حجر. وهذا مجرد تعبير مجازي شعري، زاخر بالمعاني، عن الكيفية الفعلية التي حدثت بها الأشياء. فهانولد كان قد حوَّل اهتمامه فعلاً من المرأة الحية إلى الصورة الحجرية، فاستحالت المعشوقة في نظره إلى منحوتة. وأفكار الحلم الكامنة، التي يفترض فيها أن تبقى لاشعورية، تبغي أن تحوِّل من جديد هذه الصورة إلى امرأة حية. فهي تقول له، انسجاماً مع ما تقدم، ما يلي تقريباً: «أنت لا تهتم بمنحوتة غراديفا إلا لأنها تذكِّرك بزويه الحية والمعاصرة التي تقطن هنا». لكن هذه الفطنة، لو قيِّض لها أن تصبح واعية، لكانت عنت نهاية الهذيان.

أنحن مجبرون إذاً على أن نستبدل على هذا النحو كل عنصر من عناصر المضمون الظاهر للحلم بأفكار لاشعورية؟ بلى بكل تأكيد، فلو كنا نبغي تأويل منام حلم به أحدهم فعلاً، لما كان لنا مهرب من هذه المهمة. وفي هذه الحال كنا سنطالب الحالم بأن يروي لنا تفاصيل حلمه بأكبر قدر ممكن من الوضوح. وبديهي أننا لا نستطيع أن نطلب مثل هذا الطلب من أخاييل الروائي. نقول ذلك



من دون أن نزعم أننا أخضعنا لعمل تأويل وترجمة الجزء الرئيسي من مضمون ذلك الحلم.

وبالفعل، إن حلم هانولد هو من أحلام الحصَر النفسي، ومضمونه يبعث على الفزع. فالحالم يساوره الحصَر أثناء نومه ويعاني، حتى بعد اليقظة، من مشاعر مؤلمة. وهذا ما يبلبلنا في محاولاتنا التفسيربة. لذا نجد لزاماً علينا أن نحتكم من جديد إلى نظرية تأويل الأحلام . فهذه النظرية تعلِّمنا كيف نتجنَّب الخطأ، فلا نشتقّ من مضمون الحلم الحصَر الناجم عنه، كما تعلِّمنا ألا نعامل مضمون الحلم كما نعامل ما تنطوي عليه تصورات حالة اليقظة. إنها تلفت انتباهنا إلى أننا كثيراً ما نحلم بأشياء فظيعة، لكن من دون أن يساورنا أي حصَر. بل أكثر من ذلك، فهي تفيدنا بأن الوضع الحقيقي مغاير تماماً؛ وبالرغم من أنه من الصعب علينا التكهن به، فعلينا على كل حال أن نوضحه. فحصَر الكابوس يتطابق في اعتقادنا مع انفعال جنسي، مع إحساس ليبيدوي، شأنه شأن كل حصَر عصبي بوجه العموم. وهو يتولّد من الليبيدو من جراء سيرورة الكبت[١٢]. لا بدّ إذاً، عند تأويلنا الأحلام، من أن نستبدل الحصَر بتهيُّج جنسي. فالحصَر الناشئ عن هذا التهيُّج يمارس ـ ليس دائماً ولكن في كثرة من الأحيان ـ تأثيراً انتقائياً على مضمون الحلم ويدخِل على هذا الأخير عناصر تمثيلية توافق في الظاهر، حسب التصور الواعي والمغلوط للحلم، الانفعال الحصَري. نقول: ليس بصورة دائمة، إذ إن العديد من الكوابيس لا تنطوي، في مضمونها، على شيء مفزع قمين بأن يبرِّر بالنسبة إلى الشعور الحصَر المعانى منه فعلاً.

أعلم أن هذا التفسير للحصَر في الحلم يبعث على الدهشة، ولا يبدو قابلاً للتصديق بسهولة، لكني لا أملك إلا أن أنصح بالتآلف معه والاعتياد عليه: فإنه لما يدعو إلى الاستغراب بالفعل أن يكون حلم نوربرت هانولد مطابقاً لهذا التصور عن الحصَر وقابلاً للتفسير به. وعلى هذا الأساس سنقول إن حنين الحب استيقظ ليلاً لدى النائم، وأخذ استيقاظه شكل اندفاعة قوية ترمي إلى بعث ذكرى الحبيبة

١٢ ـ فرويد: **أسباب موجبة للتمييز بين النوراستينيا وبين كتلة محددة من الأعراض باسم عصاب الحصر**، ١٨٩٥.



على مستوى الوعي، وإلى انتشال النائم من هذيانه؛ غير أن هذا الحنين حُرف من جديد عن وجهته وتحوَّل إلى حصَر أدخل بدوره على مضمون الحلم صوراً مرعبة مستمدة من ذكريات النائم المدرسية. وعلى هذا النحو ينقلب جوهر الحلم اللاشعوري، أي حنين الحب إلى زويه التي عرفها هانولد فيما غبر من الأيام، إلى المضمون الظاهر التالي: انطمار بومباي وهلاك غراديفا.

هذا كله يبدو لي حتى هذا الحدّ محتمل التصديق جداً. ومن حق المرء على هذا الأساس أن يتوقع منا، ما دمنا نسلِّم بأن المضمون غير المحرَّف لهذا الحلم يتألف من رغبات إيروسية، أن نعثر على بعض من بقاياها الممكن تعرُّفها رغم تخفِّيها واستتارها بين ثنايا الحلم. وقد يكون ذلك ممكناً بفضل إشارة تطالعنا بها تتمة القصة. فعندما يلتقي هانولد لأول مرة بتلك التي يفترض أنها غراديفا، يتذكر حلمه، ويتوسل إلى الطيف بأن يتمدد ويأخذ الوضعية التي رآه فيها سابقاً[١٣]. وإذ ذاك تهبّ السيدة الشابة غاضبة وتفارق شريكها الغريب الأطوار الذي استشفَّت من كلماته الهاذية الرغبة الإيروسية غير اللائقة تجاهها. وأعتقد أنه في مقدورنا هنا أن نأخذ بتفسير غراديفا: فنحن لا نستطيع أن نطالب حتى الحلم الواقعي بمثل هذا الوضوح في التلميح إلى رغبة إيروسية.

هكذا يكون تطبيق بعض قواعد تأويل الحلم على حلم هانولد الأول قد أتاح لنا أن نفهم سماته الرئيسية واندراجه في لحمة القصة. فهل ينبغي أن يكون الروائي قد تقيَّد بالفعل في تأليفه روايته بهذه القواعد؟ كما يمكننا أن نطرح أيضاً السؤال التالي: لماذا استخدم الروائي حلماً في بنائه لتمخُّض الهذيان؟ وما أرتئيه أنا أن تصميم القصة في هذه النقطة متماسك للغاية، ومتجاوب هنا أيضاً مع الواقع. فقد تقدَّم بنا العلم أن كل ابتكار هذياني جديد أثناء المرض الفعلي يرتبط في غالب من الأحيان بحلم، ولكننا لسنا بحاجة، بعد شرحنا لطبيعة الحلم، إلى أن نرى في ذلك لغزاً جديداً. فالحلم والهذيان ينبعان من مصدر واحد: من

١٣ ـ **غراديفا**، ص ٦٢: «كلا، لم نتبادل الكلام، لكني ناديتك حينما تمددت لتنامي، ومكثت بجانبك. كان وجهك هادئاً وجميلاً وكأنه من رخام. أواه! أرجوك، ضعيه من جديد على الدرج كما في تلك الساعة».



المكبوت؛ بل ربما يجوز لنا القول إن الحلم هو الهذيان الفيزيولوجي، إن جاز التعبير، للإنسان السويّ. وقبل أن يحوز المكبوت القوة اللازمة ليفرض نفسه على الإنسان اليقظ في شكل هذيان، يمكنه بيسر وسهولة أن يحرز نجاحه الأول من خلال الشروط المواتية التي يوفِّرها له النوم، فيتجلى في شكل حلم دائم المفعول. فأثناء النوم، وبفضل تقلص النشاط النفسي بوجه عام، يحدث ارتخاء أيضاً في تشدد المقاومة التي تجابه بها المكبوتَ القوى النفسيةُ الغالبةُ. وهذا الارتخاء هو الذي يسمح بتكوين الحلم، ولهذا نجد في الحلم على وجه التحديد أفضل سبيل موصل إلى معرفة اللاشعور النفسي. غير أن الحلم يتلاشى عادة مع عودة التركيز النفسي أثناء اليقظة، فيخسر اللاشعور من جديد الأرض التي تمكن من كسبها أثناء النوم.

(٣)

تتضمن تتمة القصة حلماً آخر من شأنه أن يحضّنا ـ ربما أكثر من الأول ـ على تأويله ودمجه في سياق ما يجري داخل نفسية البطل. لكننا لو أردنا أن ندع جانباً قصة الروائي لنتناول مباشرة هذا الحلم الثاني، لا نكون قد جنينا نفعاً يذكر من توفيرنا عبء هذا المجهود على أنفسنا، إذ إن من يبغي تأويل حلم شخص آخر لا يملك أن يوفِّر على نفسه مثل هذا المجهود، فهو ملزم إلزاماً بأن يطلب أكبر قدر ممكن من التفاصيل عن حياة الحالم الخارجية والداخلية. ولعل خير ما يمكن أن نفعله هو أن نسير مع تسلسل القصة، قاطعين إياه بين الفينة والفينة بتعليقاتنا الشخصية.

ليس الابتكار الهذياني الجديد المتعلق بموت غراديفا في نكبة بومباي سنة ٧٩ الصدى الوحيد للحلم الأول الذي قمنا بتحليله. فعلى إثر هذا الحلم يعقد هانولد النية للحال على السفر إلى إيطاليا، وينتهي به المطاف في بومباي. ولكن قبل أن يضع مشروعه موضع التنفيذ، يحدث له شيء آخر: فحينما أطلّ من نافذته تراءى له أنه لمح في الشارع شبح إنسان يشبه في سيمائه ومشيته سيماء غراديفا ومشيتها، فجرى يلاحقه وهو في ثياب النوم، فما أدركه، واضطر إلى الانكفاء إلى مسكنه مصحوباً بهزء المارة. ولدى عودته إلى غرفته، أيقظ فيه تغريد طائر من نوع الكناري، عُلِّق قفصه في المنزل المقابل، الرغبة في خلع نير أسره هو أيضاً وفي الإفلات من قفصه والطيران. وللحال وضع موضع تنفيذ عزمه على القيام برحلة ربيعية.

لقد سلَّط الروائي على رحلة هانولد هذه ضوءاً باهراً، وجعل هانولد نفسه يسلِّط بعض الأضواء على سيروراته النفسية الداخلية التي دفعت به إلى عقد النية على السفر. وطبيعي أن هانولد أعطى رحلته هذه ذريعة علمية، لكن هذه الذريعة



واهية: فهانولد هو خير من يعلم أن «دافعه إلى تلك الرحلة شعور لا يقع تحت تحديد». ويستبدّ به قلق غريب، فيثور سخطه على كل ما يصادفه، ويفرّ من روما إلى نابولي، ومنها إلى بومباي، من دون أن يمكنه أن يستعيد شيئاً من الطمأنينة والهناء حتى في هذه المدينة الأخيرة. ويتميَّز غيظاً من جنون العرسان اليافعين الآتين إليها في رحلة شهر العسل، وتثور ثائرته من صفاقة الذباب الذي تعجّ به فنادق بومباي، لكنه يدلِّل في نهاية المطاف على شيء من بعد النظر حين يفهم أن «استياءه غير ناجم عما يحيط به فحسب، بل نابع كذلك، وإلى حدّ ما، من قرارة نفسه». ويستبدّ به الاغتياظ، ويشعر بأنه «متكدر في المزاج، لأن ثمة شيئاً ما ينقصه، من دون أن يكون قادراً على تحديد كنهه. وهذا الكدر في المزاج بات يحمله معه في حِلّه وترحاله».

وفيما هو في هذه الحالة النفسية، تثور ثائرته حتى على مليكه، العلم. فحين يتسكع لأول مرة في أرجاء بومباي، تحت شمس الظهيرة، يدرك أن «ليس علمه هو وحده الذي هجره، بل هجرته معه كل رغبة في استرداده؛ فذكراه في نفسه باتت أشبه بذكرى شيء قصيّ ناء، وصورته في شعوره أمست أشبه بصورة خالة طاعنة في السن، شمطاء مضجرة، وباختصار، مخلوقة هي من بين سائر مخلوقات الأرض أكثرها جدباً وأشدّها جفافاً» («**غراديفا**»، ص ٥٠ - ٥١).

في هذه الحالة النفسية الخائرة والمشوَّشة، يتوضح على ما يبدو سرّ أحد الألغاز التي على صلة بتلك الرحلة، وذلك عندما يرى هانولد غراديفا تتقدم، لأول مرة، عبر بومباي: «انبثقت في ذهنه للمرة الأولى فكرة أخرى: لقد قدم إلى إيطاليا، وقطعها من أقصاها إلى أقصاها، ماراً بسرعة بروما ونابولي، قاصداً بومباي، ليرى إن كان في وسعه أن يعثر فيها على أثر لغراديفا، وهذا بحرف معنى الكلمة، لأنه لا بدّ أن تكون، بخطوتها الخاصة الفريدة، قد تركت في الرماد بصمة متميِّزة عن بصمات جميع الخطى الأخرى، بصمة يمكنه أن يقرأ فيها طبعة إبهام قدمها» («**غراديفا**»، ص ٥٣).

ما دام الروائي يصف لنا بمثل هذا التدقيق تلك الرحلة، فهي تستأهل، والحالة



هذه، أن نتجشم بدورنا عناء توضيح صلاتها بهذيان هانولد وبيان مكانها في مجمل الأحداث. ترتبط الرحلة بدوافع يبدو على بطلنا في البداية وكأنه يجهلها، ولا يجاهر بها نفسه إلا في وقت لاحق، وهي دوافع يصفها الروائي مباشرة بأنها لاواعية. وهذه لقطةٌ مشاكِلة للواقع فعلاً، إذ ليس من الضروري أن يهذي الإنسان حتى يتصرف ذلك التصرف، بل هذا ما يحدث يومياً حتى للمعافين والأسوياء من الناس، فتراهم يغلطون بصدد دوافع أفعالهم، ولا يعون هذه الدوافع إلا بعدياً، وهذا في كل مرة يتيح لهم فيها الصراع بين التيارات العاطفية فرصة مثل هذه البلبلة. لقد كان هدف رحلة هانولد، من البداية، مؤازرة هذيانه وسوقه إلى بومباي ليتابع فيها أبحاثه بخصوص غراديفا. وإننا لنتذكر، ولا بدّ، أن هاجس هذا البحث كان يتسلط عليه قبل الحلم وبعده مباشرة، وأن الحلم لم يكن سوى جواب، خنقه وعيه، عن السؤال المتعلق بمعرفة مكان وجود غراديفا. بيد أن قوة ليس في مكنتنا تحديد هويتها تعيق في البدء وعي القرار الهذياني إلى حدّ لا يبقى معه، لتبرير تلك الرحلة على مستوى الوعي، سوى ذرائع غير كافية وواجبة التحديد باستمرار مرحلةً بعد مرحلة. ويذلِّل لنا الروائي لغزاً آخر أيضاً حين يجعل الحلم، واكتشاف غراديفا المزعومة في الشارع، وإبرام قرار السفر تحت تأثير تغريد الكناري، يعقب كل واحد منها الآخر وكأنها مصادفات لا صلة وثيقة فيما بينها.

وبفضل الإيضاحات التي تزوِّدنا بها لاحقاً كلمات زويه برتغانغ، يصبح هذا الجزء الغامض من القصة قابلاً للفهم. فالآنسة زويه بعينها ـ النموذج الأصلي لغراديفا ـ هي التي لمحها هانولد من نافذته تعبر الشارع (**«غراديفا»**، ص ٧٦) وهمّ بأن يلحق بها. وبذلك يكون الكشف الذي جاء به الحلم: «إنها تقطن إذاً في الوقت الحاضر نفس المدينة التي تقطنها أنت» قد تلقى، بضرب من مصادفة سعيدة، توكيداً جازماً قاطعاً لا تملك مقاومات هانولد الداخلية إلا أن تتهاوى أمامه. زد على ذلك أن الكناري، الذي حفزه تغريده على الرحيل، كان يخصّ زويه، وكان قفصه معلقاً في شباك زويه، في الزاوية المواجهة لبيته (**«غراديفا»**، ص ١١٠). وهانولد الذي يملك ـ كما نستنتج من تأنيبات الفتاة له ـ هبة

الهلوسة السلبية والقدرة على عدم رؤية حتى الأشخاص الحاضرين وعدم تعرفهم، قد عرف من البداية، ولا بدّ، وبصورة لاشعورية، ما لن نعرفه نحن إلا لاحقاً. ويقوى مفعول الحلم بفعل الدلائل التي تنمّ عن مجاورة زويه له: كظهورها في الشارع، وتغريد كناريها على مقربة من نافذة هانولد. فلما شعر هذا الأخير بأن مقاومته للإيروسية على وشك الانهيار لاذ بالفرار. وهكذا يأتي السفر نتيجة لاستنفاره قوى المقاومة لديه ضد هجمة شهوة الحب كما تجلت في الحلم، ويقوم هذا السفر شاهداً على محاولة هرب إزاء حضور الحبيبة التي من لحم ودم. ويعني هذا السفر عملياً انتصاراً للكبت الذي ينتزع الغلبة هذه المرة من خلال الهذيان، بينما جاءت **التحريات القَدَمية** لبطلنا في الطور السابق من سلوكه ومراقبته لأقدام السيدات والفتيات دليلاً، على العكس، على غلبة الإيروسية. غير أن طابع التسوية، المميّز لجميع تقلبات الصراع، يبقى ملازماً لقراراته. فالرحلة إلى بومباي إن تكن أبعدته عن زويه الحية فقد قرَّبته على كل حال من ممثلتها، أي غراديفا. والرحلة، التي كان يفترض بها أن تتحدى وتضلّل أفكار الحلم الكامنة، تأتمر، مع الانتقال إلى بومباي، بإمرة مضمون الحلم الظاهر. وهكذا يسجل الهذيان نجاحاً جديداً في كل مرة تدخل فيها الإيروسية من جديد في صراع مع مقاومات الشخص المعني.

هذا التصور للسفر بوصفه وسيلة للهرب، على إثر استيقاظ شهوة الحب لدى هانولد إلى معشوقته التي على قرب قريب منه، هو وحده الذي يتفق مع الأحوال النفسية التي تعتري هانولد أثناء إقامته في إيطاليا. فإنكار الإيروسية، وهو الإنكار الذي يقضّ مضجعه، يعبِّر عن نفسه هناك في نفوره من شهر العسل. ويأتي الحلم الصغير الذي يحلمه في نزل روما، بفعل مجاورته لعاشقين جرمانيين على شاكلة قيس وليلى واستماعه القسري إلى مناجاتهما الليلية من خلال الحاجز الرقيق بين الغرفتين، يأتي ليسلِّط الضوء، كما لو بعدياً، على المنازع الإيروسية لحلمه الكبير الأول. فهذا الحلم الجديد ينقله مرة أخرى إلى بومباي لحظة ثوران الفيزوف، فيرتبط على هذا النحو بالحلم الأول الذي يستمر مفعوله ناشطاً وظاهر التأثير خلال السفر. لكنه هذه المرة لا يرى بين

المنكوبين كما في المرة السابقة غراديفا وشخصه بالذات، بل يرى أبولون البلفيدير[1] وفينوس الكابيتول[2]، كرمز ساحر لعاشقي الغرفة المجاورة. فأبولون يرفع إليه فينوس، يخطفها، يمضي بها إلى جرم يغلّفه بالظلام، ولعله عربة أو مركبة رومانية، إذ إن الصوت الذي يصدر عنها هو «صوت صرير». وفيما خلال ذلك، لا يتطلب الحلم مهارة وحذقاً لتأويله («**غراديفا**»، ص ٣٢).

إن روائينا لا يدرج في سرده، كما بتنا نعلم، أي تفصيل عديم الأهمية أو لا يخدم غرضاً ما، وقد قدَّم لنا شاهداً آخر على نوازع النفور من كل ما هو جنسي التي تسلطت على هانولد أثناء رحلته. فأثناء تجواله في أرجاء بومباي على مدى ساعات كاملة في كل يوم، «ما عنّ له ببال ولو لمرة واحدة ـ وهذا أمر يدعو إلى العجب ـ الحلم الذي كان قد حلمه قبل وقت وجيز والذي شهد أثناءه انطمار بومباي في ثوران البركان سنة ٧٩» («**غراديفا**»، ص ٤٤). وإنما عندما يلمح غراديفا، يتذكر على حين بغتة ذلك الحلم، ويعي في الوقت نفسه العلة الهذيانية لرحلته المحفوفة بالغموض. فأي معنى يمكن أن يكون لهذا النسيان للحلم، لهذا الحاجز الكبتي بين الحلم والحالة النفسية أثناء السفر، إن لم يكن المعنى التالي: إن الرحلة لم تكن نتيجة مباشرة للحلم، بل تمرداً عليه، تمرداً متولداً عن قوة نفسية لا تريد أن تعلم شيئاً عن المعنى الخفي للحلم؟

هذا من جهة. أما من الجهة الثانية، فإن انتصار هانولد هذا على إيروسيته لا يرضيه. فالانفعال النفسي المقموع يلبث على درجة كافية من القوة لينتقم من القوة التي تقمعه بكدر المزاج وبالكفّ INHIBITION. هكذا تنقلب شهوة هانولد إلى قلق وإلى تبرم يتراءى له معهما أن رحلته عديمة المعنى، ويقف عاجزاً عن فهم علة هذه الرحلة التي قام بها خدمة للهذيان، وتضطرب علاقاته بعِلْمه

---

١ ـ البلفيدير أو أبولون المطلّ: نسخة رومانية من المرمر عن تمثال يوناني أصلي من البرونز، وهو منسوب إلى النحات ليوخاريس من النصف الثاني من القرن الرابع ق.م. ويمثّل التمثال الإله أبولون وهو يمشي حاملاً بيده ما كان قوساً في أرجح الظن. وهذا التمثال موجود اليوم في متحف الفاتيكان. «م».

٢ ـ فينوس الكابيتول: من أشهر تماثيل متحف الكابيتول في روما، وهو منحوت من المرمر ويمثّل الإلهة أفروديت/فينوس وهي خارجة من الحمام عارية. ولهذا التمثال، المنسوب إلى النحات اليوناني براكسيتالس من القرن الرابع ق. م، نحو من مائة نسخة في متاحف شتى. «م».



الذي كان يفترض فيه أن يستأثر باهتمامه كله في موضع كذلك الموضع. ويصوِّر لنا الروائي البطل، بعد هربه من حبه، وهو فريسة ضرب من الأزمة: فقد وجد نفسه في حالة من الارتباك والحيرة الكاملين، يعصف به اضطراب شديد لا يساور نظيره المرء إلا في أوج تلك الحالات المَرَضية التي لا تكون فيها أية قوة من القوى المتطاحنة على قدر كافٍ من البأس والعنفوان لتفرض على القوى الأخرى هيمنة تسمح بالوصول إلى تسوية مقبولة وقابلة للصمود. هنا يتدخل الروائي كمنقذ وكمصلح لذات البين. ففي هذه اللحظة المحددة يُدْخِل إلى خشبة الأحداث غراديفا التي تشرع على الفور بعلاج الهذيان. وبالقدرة المتاحة لكل روائي على التحكم بمصائر الأشخاص الذين خلقهم بنفسه، ينقل روائينا تلك الفتاة التي هرب هانولد منها وصولاً إلى بومباي، ينقلها إلى بومباي بالذات. وعلى هذا النحو يصحِّح الخطوة الجنونية التي أقدم عليها الفتى تحت سطوة الهذيان، حينما غادر مدينة تلك التي كانت حية ترزق، والتي هو بها مغرم، إلى مدينة الأموات التي ترقد فيها تلك التي احتلت في وهمه وخياله مكان الأولى.

إن ظهور زويه برتغانغ في قسمات غراديفا ـ وهذه أروع لحظات القصة وأشدّها تأثيراً ـ يحدِث انعطافاً في وجهة فضولنا. فقد شهدنا حتى الآن تطور هذيان وتقدّمه، وسنقف من الآن فصاعداً شهوداً على شفائه. وبوسعنا أن نتساءل عما إذا كان الروائي سيختلق كيفما اتفق طريقة للشفاء أم أنه سيسندها إلى إمكانيات واقعية. وطبقاً للكلمات التي تفوه بها زويه نفسها، أثناء تحادثها مع صديقتها، فإن من حقنا بلا مراء أن نعزو إليها مثل تلك المرامي العلاجية («**غراديفا**»، ص ١٠٢). لكن ما السبيل الذي ستسلكه لوضع نيّتها موضع تنفيذ في تلك الظروف المحددة؟ إنها تخرس سورة الغضب التي أثارها فيها طلبه إليها بأن تتمدد **كما في السابق** لتنام، ثم تؤوب إلى المكان نفسه في ظهيرة اليوم التالي، لترغم هانولد على أن يبوح لها بجميع الأسرار التي أعوزتها بالأمس لتفهم سلوكه. على هذا النحو يسازرها بحلمه، وبتمثال غراديفا، وبخصوصية تلك المشية المشتركة بينها وبين غراديفا. وترتضي هي بأن تؤدي دور الشبح الذي بُعث إلى الحياة لساعة من الزمن، مدركة أن هذا الدور قد وقع عليها بحكم هذيان

هانولد، وتقترح على هذا الأخير، بعبارات مبهمة ومتعددة الدلالات، اتخاذ موقف جديد، بقبولها منه زهرة الموت التي حملها معه بلا قصد واعٍ، وتعرب عن الأسف لأنه لم يقدِّم لها ورداً («**غراديفا**»، ص ٧٧).

لكن اهتمامنا بجزئيات سلوك الفتاة، المتفوقة نباهة وفطنة، العاقدة العزم على استرداد صديق الطفولة ليكون زوجاً لها، بعد أن أدركت أن الحب الذي يكنّه لها هو محرك هذيانه، إن اهتمامنا هذا يتراجع في أغلب الظن في تلك اللحظة ليتقدم عليه الذهول الذي يحدثه هذا الهذيان حتى فينا نحن أنفسنا. فالتطور الأخير للهذيان، الذي يصوِّر لهانولد أن غراديفا، المطمورة سنة ٧٩، قد تحولّت إلى طيف من أطياف الظهيرة، طيف يستطيع أن يتبادل وإياه أطراف الحديث لساعة من الزمن قبل أن يتوارى من جديد أو يلوذ بقبره، هذه الأخاييل الاستيهامية التي يبقى هانولد أسير خداعها رغم الحذاء العصري الذي استوقف انتباهه، ورغم جهل غراديفا باللغات القديمة ومعرفتها المتقنة باللغة الألمانية التي لم تكن قد ظهرت إلى حيِّز الوجود بعد في ذلك الزمن، جميع هذه الظروف تبدو موافقة لتسمية الرواية: **فانتازيا بومبية**، لكنها تستبعد أيضاً في الظاهر كل إحالة إلى واقعة سريرية فعلية. ومع ذلك، لو أمعنا النظر عن كثب في استيهامات هذا الهذيان، لتبدّد شطر كبير من عدم مشاكلتها للواقع. وقد أخذ المؤلف بنفسه قسماً من مسؤولية ذلك على عاتقه، وأوضح لنا ذلك في مقدمة القصة من خلال المسلَّمة التي تفترض أن زويه تشبه منحوتة غراديفا قسَمة قسَمة. ينبغي أن نحاذر إذاً من سحب عدم مشاكلة هذه المسلمة للواقع على نتائجها، أي الاقتناع الذي داخل هانولد بأن الفتاة هي غراديفا وقد بُعثت حية. فالتفسير الهذياني يأخذ هنا المزيد من القيمة، وهذا على وجه التحديد لأن الروائي لم يقدِّم لنا تفسيراً آخر عقلانياً. بل إن الروائي صوَّر لنا أوار شمس كامبانيا[٣] والتأثير السحري والمهيِّج للخمر الذي ينبت عنبه على سفوح الفيزوف على أنهما عاملان مساعدان، أو بالأحرى ظرفان تخفيفيان لزيغان البطل عن رشده. لكن أهم العوامل التي تفسر وتبرر سلوك بطلنا تبقى تلك الخفة التي يصمِّم بها عقلنا على أن يقبل باللامعقول إذا كان في ذلك إشباع لحاثات مشحونة بانفعالات قوية. إن الخفة والتواتر اللذين

٣ ـ كامبانيا: منطقة من إيطاليا تقع فيها نابولي وبومباي. «م».



يتصرف بهما أذكى الناس في مثل هذه الأحوال النفسية، وكأنما أصابه عته جزئي، ليبعثان حقاً على الدهشة؛ ومن ليس مغروراً بنفسه إلى حدّ غير معقول يستطيع أن يلاحظ ذلك في شخصه بالذات وفي أكثر من مناسبة. وما القول في هذه الحال عندما يكون جزء من السيرورات التفكيرية موضع البحث منوطاً بدوافع لاشعورية أو مكبوتة؟ يسرني هنا ان أنقل هذا المقطع من رسالة بعث بها إليّ فيلسوف[٤]: «لقد عقدت العزم أيضاً على تسجيل أمثلة شخصية عن الأخطاء الدامغة والأفعال المتهورة التي لا يفسرها الواحد منا لنفسه إلا بعد وقوعها (وكثيراً ما يكون هذا التفسير غير معقول). إنه لشيء مخيف، ولكن نمطي، أن يلحظ الواحد منا مقدار حمقه الذي يتجلى له على هذا النحو». ولنضف إلى ذلك أن الاعتقاد بالأرواح والأشباح، الذي يجد كثيراً من نقاط الارتكاز في الأديان والذي ساورنا جميعاً في طفولتنا على الأقل، أقول: إن هذا الاعتقاد لم تنطفئ شعلته حتى لدى المثقفين من الناس، وكثيرون هم الأشخاص من ذوي الحصافة الذين يعتبرون استحضار الأرواح ممارسة موافقة كل الموافقة للعقل. بل حتى ذوو الأفكار النيِّرة والناكرون للإيمان الديني لا يندر أن يلاحظوا، بخجل وارتباك، السهولة التي يرتدُّون بها إلى الاعتقاد بالأرواح حينما يقعون في شدة وتبلبلهم الحيرة. أعرف طبيباً فقد واحدة من مرضاه كان يعالجها من داء بزدوف، فبات لا يستطيع أن يطرد عنه الشك بأنه قد يكون عجَّل بالخاتمة المشؤومة بوصفه لها علاجاً خطراً. وبعد انقضاء عدة سنوات، دخلت عليه في عيادته فتاة لم يجد مناصاً، رغم ثورته على نفسه، من أن يتعرف فيها المتوفاة. وكانت الفكرة الوحيدة التي خطرت في ذهنه هي التالية: «أصحيح إذاً أن للأموات عودة؟». ولم يتبدد هلعه إلا لتستولي عليه الحيرة حين قدَّمت الزائرة نفسها على أنها شقيقة المتوفاة التي قضت نحبها بنفس الداء الذي تشكو هي منه. والجدير بالذكر هنا أن داء بزدوف[٥] يعطي المصابين به سيماء بارزة من التشابه ـ وهذا ما نوَّه به كثرة من المؤلفين ـ ومما عزز هذا التشابه في مثالنا الخاص وجود صلة قرابة عائلية مباشرة.

---

٤ ـ يقال إنه هنريخ غومبرز، وهو فيلسوف نمساوي (١٨٧٣ ـ ١٩٤٢)، وكان ممن تولى فرويد تحليلهم. «م».

٥ ـ داء بزدوف: مرض يتأتى عن تزايد في نشاط الغدة الدرقية. وقد سُمّي باسم مكتشفه كارل بزدوف (١٧٩٩ ـ ١٨٥٤). «م».



والحال أن الطبيب المذكور لم يكن إلاي، وأنا في وضع يؤهلني لأن أقرّ لنوربرت هانولد من المنظور السريري بإمكانية هذيان عرَضي بصدد بعث غراديفا إلى الحياة. أخيراً، يعلم الأطباء النفسانيون كافة أن المرضى المعانين من حالات خطيرة من الهذيان المزمن (البارانويا) يحرزون أرقاماً قياسية في فن نسج حبكة متلاحمة من الإحالات الممكنة التصديق.

بعد اللقاء الأول مع غراديفا، احتسى نوربرت هانولد خمراً في أول نزل، ثم في ثاني نزل من النُزُل التي يعرفها في بومباي، بينما كان سائر النزلاء مشغولين بتناول وجبة الطعام الرئيسية. و«بديهي أنه لم تخطر له ببال الفكرة اللامعقولة»، فكرة أنه ما فعل ذلك إلا ليعرف الفندق الذي فيه تنزل غراديفا وفيه تتناول طعامها، ولكن يعسر على غير هذا النحو تفسير تحركاته. ففي اليوم التالي، وعلى إثر المقابلة الثانية في دار ميلياغروس، واجهته جملة من الوقائع والأحداث الغريبة التي لا صلة ظاهرة فيما بينها. فقد اكتشف شقّاً ضيِّقاً في سور الرواق، حيث كانت غراديفا قد اختفت، والتقى بصياد غريب الأطوار للعظايا كلّمه وكأنه يعرفه، واكتشف فندقاً ثالثاً منفرداً يعرف باسم «البرجو دل سول» باعه صاحبه مشبكاً معدنياً مطلياً بصدأ أخضر، زاعماً له أن المشبك نبش من رفات صبية بومبية. وأخيراً، ولدى عودته إلى فندقه، استرعى انتباهه وجود فتى وفتاة نزلا فيه حديثاً، وحسبهما أخاً وأختاً، وخامره إليهما ودّ. وما لبثت جميع هذه الانطباعات أن تداخلت وتشابكت في منام **لامعقول إلى حدّ عجيب**، هاكم موضوعه:

«في مكان ما، تحت الشمس، تجلس غراديفا وتجدل من خيوط العشب أنشوطة لتأسر بها عظاية وتقول: «أرجوك لا تتحرك، زميلتي على حقّ، الطريقة ممتازة حقاً، وقد طبّقتها بنجاح تامّ».

إن ملَكة النقد عند نوربرت هانولد، التي كانت لا تزال نائمة، تتمرد على هذا الحلم الذي تبدى لها في الحقيقة جنونياً، فراح هو يتخبط ويضرب أخماساً بأسداس كي يفلت من إساره. ويحالفه التوفيق في ذلك بفضل مساعدة طائر غير منظور، له زقزقة قصيرة شبيهة بالقهقهة، حمل العظاية بمنقاره وطار بها.



لنحاول هذه المرة أيضاً تأويل هذا الحلم، بأن نستبدله بالأفكار الكامنة التي من تحريفها ينبغي علينا أن نشتقّه. إنه حلم لامعقول إلى الحدّ الذي لا يمكن توقعه إلا من حلم، ولامعقولية الأحلام هذه هي الحجة الأثيرة لدى النقاد المشنِّعين الذين ينكرون على الحلم صفة الفعل النفسي المشروع، ويشتقونه بالأحرى من إثارة، لا اتجاه لها ولا هدف، للعناصر النفسية.

بوسعنا أن نطبّق على هذا الحلم تقنية يصحّ وصفها بأنها الطريقة النظامية لتأويل الأحلام. وتقوم هذه التقنية على غضّ النظر عن التلاحم الخارجي للحلم الظاهر، وعلى تناول كل جزء من مضمونه على حدة، وعلى طلب اشتقاقه من انطباعات الحالم وذكرياته وتداعياته الحرة. ولكن بما أنه ليس في مستطاعنا القيام بفحص هانولد نفسه، فلا مناص لنا من الاكتفاء بالرجوع إلى انطباعاته. وحين يئين الأوان لاستبدال ترابط أفكاره بترابط أفكارنا، فعلينا أن نفعل ذلك بحذر شديد.

«في مكان ما تحت الشمس، تجلس غراديفا، تأسر عظايا، وتقول...». أي انطباع من انطباعات النهار يذكِّرنا بهذا الجزء من الحلم؟ بلا أدنى جدال، باللقاء مع السيد الطاعن في السنّ، صياد العظايا، الذي أخذت محلَّه في الحلم غراديفا نفسها. كان جالساً أو متمدداً على سفح تل، تحت أوار الشمس، وكان يخاطب أيضاً هانولد. كذلك، إن كلمات ذلك الرجل: «إن الطريقة التي أشار عليّ بها زميلي آيمر لممتازة حقاً، ولقد جرّبتها عدة مرات بنجاح تامّ. أرجوك، لا تتحرك». إنها بعينها نفس الكلمات التي نطقت بها غراديفا في الحلم، مع فارق وحيد وهو أن الزميل آيمر قد حلّت محلّه في الحلم **زميلة** مجهولة الاسم. كذلك اختفت من الحلم عبارة عالم الحيوان: «عدة مرات»، كما طرأ بعض التعديل على تسلسل الجمل. يبدو إذاً أن حادثة النهار قد انتقلت إلى الحلم مع بعض تبديلات وتحريفات. فلمَ هذه الحادثة على وجه التحديد، وما تعني هذه التغييرات، أي حلول غراديفا محل السيد الطاعن في السن، وظهور «الزميلة» الغامضة الشخصية؟

ثمة قاعدة من قواعد تأويل الحلم تنصّ على ما يلي: إن الكلمات التي يسمعها



الحالم في حلمه هي في أصلها، وبصورة دائمة، كلمات سمعها أو نطق بها في حالة اليقظة. وظاهر أن هذه القاعدة تنطبق على هذه الحالة الخاصة: فما كلام غراديفا إلا رواية للكلمات التي سمعها بالأمس من فم عالم الحيوان الطاعن في السن. ومن القواعد الأخرى لتأويل الحلم القاعدة التالية: إن حلول شخص محلّ آخر أو اندماج شخصين في شخص واحد، مع تمثيل أحدهما في وضع مميِّز بالأصل للآخر، يعكس تكافؤاً بين الشخصين أو حتى توافقاً بينهما. لنطبِّق هذه القاعدة على حلمنا، يكن تأويله كالتالي: غراديفا تأسر عظايا صنيعَ السيد الطاعن في السن، وتبدي مهارة مثله في هذا الصيد. وقد لا يبدو هذا مفهوماً بعد، لكن ثمة لغز آخر. فإلى أي انطباع من انطباعات النهار يحسن بنا أن نعزو **الزميلة** التي تنوب في الحلم مناب عالم الحيوان المشهور آيمر؟ من حسن الحظ أن لا خيار لنا، فثمة شخص واحد يمكن أن يمثِّل **الزميلة**: إنها السيدة الشابة اللطيفة التي حسبها هانولد شقيقة مسافرة مع شقيقتها. «كانت تحمل في صدارها وردة حمراء من سورنتو ذكَّر مرآها من كان يرقبها من إحدى زوايا القاعة بشيء ما من دون أن يستطيع أن يحدِّد ما هو». وملاحظة الروائي هذه تسمح لنا بالمماهاة بين هذه المرأة وبين **الزميلة** في الحلم. أما ما لم يستطع هانولد تذكّره فلا يمكن أن يكون سوى تلك العبارة التي فاهت بها الظنينة غراديفا حين سألته أن يقدِّم إليها زهرة الموت البيضاء: «لغيري، ممن واتاهنّ الحظ، ورد الربيع». لقد كان هذا الكلام يخفي إذاً بين طياته دعوة إلى الحب. لكن ماذا عن صيد العظايا الذي أصابت فيه تلك الزميلة الأسعد حظاً فلاحاً كبيراً؟

في اليوم التالي يباغت هانولد ذلك الأخ وتلك الأخت الظنينين وهما في عناق غرامي، فيمكنه على هذا النحو أن يصحِّح الخطأ الذي وقع فيه بالأمس. فهما في الواقع زوج من العشاق في رحلة شهر العسل، كما سنعلم ذلك حين سيعكِّران على غير ما توقع على هانولد وغراديفا صفو خلوتهما الثالثة. وإذا شئنا أن نسلِّم بأن هانولد الذي حسبهما، في وعيه، أخاً وأختاً، قد أدرك في لاشعوره الطبيعة الحقيقية لعلاقتهما ـ التي سرعان ما انفضح أمرها في اليوم التالي على نحو يقطع دابر كل شك ـ فإن كلام غراديفا في الحلم يأخذ في هذه الحال معنى

معقولاً. فالوردة الحمراء تغدو عندئذ رمز الحب، ويفهم هانولد أن هذين العاشقين يجسّدان ما ينبغي أن يؤول إليه الأمر بينه وبين غراديفا؛ ويأخذ أسر العظاية معنى أسر الرجل، ويمكن تأويل كلام غراديفا بصورة تقريبية كالآتي: دعني أفعل، فأنا لا أقُلُّ مهارة عن تلك الفتاة الأخرى في الفوز بزوج.

لكن ما الذي أوجب أن تأخذ هذه الرؤية لنيات زويه في الحلم شكل كلام عالم الحيوان العجوز؟ وما الذي يوجب أن تتمثل مهارة زويه في اصطياد رجل في شكل مهارة السيد الطاعن في السن في اصطياد العظايا؟ من السهل الإجابة عن ذلك: فقد حزرنا منذ زمن أن صياد العظايا ليس أحداً آخر سوى أستاذ علم الحيوان برتغانغ، والد زويه، الذي يعرف بدوره ولا بدّ هانولد؛ وهذا ما يفسرٌ حديثه إليه وكأنه من معارفه.

ولنسلِّم من جديد بأن هانولد تعرَّف هو الآخر في لاشعوره هوية الأستاذ: «ساوره شعور مبهم بأنه سبق له أن شاهد وجه صياد العظايا، وفي أغلب الظن في أحد الفندقين». على هذا النحو يتوضح سر التنكير الغريب للنية المعزوَّة إلى زويه. فهي ابنة صياد العظايا، وعنه أخذت تلك الحذاقة.

إن حلول غراديفا محلَّ هذا الأخير في الحلم يرمز إذاً إلى العلاقة بين هذين الشخصين. أما إحلال **الزميلة** محلّ الزميل آيمر فيتيح للحلم أن يعبِّر عن اعتراف الفتاة بحقيقة مشاعرها للفتى الذي تهواه. لقد صهر الحلم حتى الآن، كثَّفَ ـ كما نؤثر أن نقول ـ حادثين من أحداث النهار في موقف واحد، وذلك كيما يضفي على تصورين ما كان يفترض فيهما أن يغدوا واعيين تعبيراً لا يمكن فكّ رموزه بسهولة. على أننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنحصر فرادة الحلم ضمن حدود أضيق ونظهِر تأثير أحداث النهار الأخرى على تشكيل الحلم الظاهر.

وبوسعنا ـ إذا شئنا ـ ألا نكتفي بالمعلومات التي توفرت لنا حتى الآن، فنتساءل لماذا شكّل مشهد أسر العظاية نواة الحلم المركزية، كما بوسعنا أن نفترض أن عناصر أخرى قد تدخلت في أفكار الحلم وأسهمت بما لها من تأثير في إبراز دور العظاية في الحلم الظاهر. ومن الممكن في هذه الحال، بالفعل، أن تكون الأمور



قد جرت على النحو التالي: فلنتذكر أن هانولد اكتشف شقاً في السور الذي منه اختفت غراديفا، وكان هذا الشقّ «واسعاً بما فيه الكفاية ليسمح بمرور جسم أهيف لامتناهي الرشاقة». ولقد كان هذا الاكتشاف قد حدَّد أثناء النهار صيغة أخرى من صيغ الهذيان: فقد تصور هانولد أن غراديفا لا تغوص في الأرض في كل مرة تتوارى فيها عن ناظريه، بل تستخدم هذا الشقّ كي تؤوب إلى قبرها. ولقد كان في مستطاع هانولد أن يقول بينه وبين نفسه، في فكره اللاشعوري، إنه استطاع على هذا النحو أن يصل إلى تفسير طبيعي لاختفاء الفتاة المدهش. المرور بين شقوق ضيقة: ألا يذكرنا ذلك بمسلك العظايا؟ ألا تتصرف غراديفا نفسها وكأنها عظاية صغيرة رشيقة؟ من هنا كان اعتقادنا بأن اكتشاف ذلك الشقّ في السور قد أسهم في وقوع الاختيار على عنصر **العظاية** في المضمون الظاهر، وبأن الموقف الذي تظهر فيه عظاية في الحلم يمثّل هذا الانطباع المحدَّد من انطباعات النهار، كما يمثِّل اللقاءَ بعالم الحيوان، والدِ زويه.

ترى هل سنبحث، وقد ضاعفت نجاحاتنا من جرأتنا، في مضمون الحلم عن حدث من أحداث النهار لم يتمّ بعد استغلاله: اكتشاف الفندق الثالث، **البرجو دل سول**؟ لقد حشد المؤلف حول هذه الواقعة تفاصيل وفيرة، وربط بها أحداثاً كثيرة، بحيث لا يمكننا إلا أن نستغرب أن تكون هذه الواقعة وحدها دون سواها هي التي لم تؤدِّ قسطاً في تشكيل الحلم. يدخل هانولد إلى ذلك الفندق، الذي أسهاه انعزاله ونأيه عن المحطة عن وجوده، يدخل إليه وفي نيته أن يبتاع منه زجاجة مياه غازية ليعالج بها حالته الاحتقانية. فيغتنم صاحب النزل الفرصة ليشيد بما لديه من عاديات، ويريه مشبكاً يزعم أنه كان لتلك البومبية الشابة التي نُبش رفاتها بالقرب من الساحة العامة وهي في وضع عناق متلاحم مع حبيبها. ومع أن هانولد لم يكن قد صدَّق إلى تلك اللحظة هذه القصة الكلاسيكية القديمة، فقد وجد نفسه مكرهاً، بدفع من قوة مجهولة، على الإيمان بصحة هذه القصة المؤثِّرة وعلى عدم الشكّ بوجه من الوجوه في الأصل القديم للقية المكتشفة. لذا يبادر إلى شراء المشبك ويبارح الفندق حاملاً معه شرواه. ولكنه لا يكاد يغادره حتى يلمح غصن بروق متدلياً نحوه، وقد نوَّرت أزاهيره، من أصيص



مليء بالماء في إحدى النوافذ. وبدت له هذه الرؤية أشبه بدليل على أصالة قِنوته الجديدة، ويداخله منذ تلك اللحظة اقتناع صميم بأن المشبك كان ملكاً لغراديفا، وبأن غراديفا هي هي تلك الصبية اتي ٍماتت وهي في عناق حميم مع حبيبها. وعندما تفترسه هواجس الغيرة، يسكّن من غلوائها بعقده النية على أن يُري غراديفا المشبك في اليوم التالي حتى يقطع باليقين دابر كل شكّ. وهذا، والحقّ يقال، حجر مثير من أحجار البناء الهذياني الجديد. فتُرى ألا وجود لأثر يدلّ عليه في حلم الليلة التالية؟

لدينا أكثر من داعٍ لنحاول فهم أصل هذا الهذيان الإضافي، ولنسعى إلى معرفة ما الجانب الجديد من اللاشعور الذي ينجلي للعيان، عن طريق الاستبدال، في هذا الجزء الجديد من الهذيان. لقد نشأ الهذيان تحت تأثير صاحب فندق **البرجو دل سول** الذي قابل هانولد مزاعمه بسرعة تصديق كبيرة حتى لبدا لنا وكأنه موجَّه تنويمياً من قبله. فقد أراه الفندقي مشبكاً معدنياً، وزعم له أنه حقيقي الأصل وأنه كان بالفعل من مقتنيات تلك الصبية التي نبشت من مطمرها وهي بين ذراعي حبيبها. والمفروض بهانولد أنه يتمتع بحسّ نقدي مرهف بما فيه الكفاية ليجعله يشكّ في صحة القصة وفي أصالة المشبك على حدّ سواء. لكنه لم يبدِ مقاومة واشترى هذه القطعة الأثرية المشكوك فيها. وقد يبدو لنا هذا الموقف غير مفهوم بالمرة، وليس ثمة ما يدلّ على أن شخصية صاحب الفندق كافية بحدّ ذاتها لفكّ هذا اللغز. بيد أن هذا الحادث ينطوي أيضاً على لغز آخر، وهذان اللغزان يفكّ كل واحد منهما بسهولة إلى حدّ ما سرّ الآخر. فعند خروجه من النزل، يقع بصره على أصيص من الزجاج في نافذة، وفيه غصن بروق، وهذا ما يعزِّز إيمانه بأصالة المشبك المعدني. فما تفسير ذلك؟ إن هذا التفصيل الأخير قابل بسهولة للتعليل لحسن الحظ. فالزهرة البيضاء هي عينها التي قدَّمها لغراديفا عصر ذلك اليوم، ولا مجال للشك في أن مرآها على نافذة ذلك الفندق قد أكد صحة شيء ما. ليس بالضرورة أصالة المشبك، وإنما شيء آخر، شيء أخذ يتضح للعيان منذ اكتشاف ذلك النزل الذي ما كان يشتبه إلى تلك الساعة في وجوده. وقد كان هانولد، في اليوم السابق، قد سلك سلوك من يبحث، في فندقيْ

بومباي الآخرين، عن مقام ذلك الشخص الذي بدا له أنه هو غراديفا. أما وقد شاءت له المصادفة الآن، وعلى نحو غير متوقع، أن يعثر على فندق ثالث، فلا بدّ أن يكون قال لنفسه في لاشعوره: إنها تقيم هنا، وأن يكون أضاف في لحظة انصرافه: هذا صحيح، فهوذا غصن البروق الذي قدَّمته لها، وهذه إذاً نافذتها. ذلك هو الفهم الجديد الذي يحلّ محلّ الهذيان والذي لا يمكن أن يصبح واعياً لأن الفرضية التي يفرضها: غراديفا حية وهي شخص من معارفي، ما كان يمكن أن تصبح واعية.

لكن كيف أمكن أن يحلّ الهذيان محل هذا الفهم الجديد وأن يعبِّر عنه؟ بالكيفية التالية، على ما يتراءى لي: لقد كان من الممكن أن يتثبَّت وأن يدوم الشعور بالاقتناع الملازم لذلك الفهم، بينما كان من المحتم أن يحلّ محلّ الفهم نفسه، العاجز عن أن يصبح واعياً، مضمون تمثيلي ولكنه مرتبط به برابط فكروي. على هذا النحو يكون ما راوده من شعور بالاقتناع قد دخل في علاقة مع مضمون غريب عنه كل الغربة، ولاقى هذا المضمون، في شكل هذيان، قبولاً وتصديقاً ما كان يستأهلهما. ولا يلبث هانولد أن يحوِّل اقتناعه بأن غراديفا تقيم في تلك الدار إلى انطباعات أخرى يتلقاها من هذه الدار: وعلى هذا النحو يقبل، وهو مغمض العينين، بصدق كلام صاحب الفندق، وبأصالة المشبك المعدني، وبصحة قصة عناق رفات العاشقين المنبوش، ولكن هذا كله بقدر ما أن ما طرق مسمعيه له علاقة، في تصوره، بغراديفا. ولا تعتم الغيرة الكامنة فيه أن تستولي على هذه المواد كافة؛ وبالتناقض مع حلمه الأول بالذات تنبثق الفكرة الهاذية الزاعمة أن غراديفا كانت هي هي تلك الفتاة التي لقيت الموت بين ذراعي حبيبها، وأن المشبك الذي ابتاعه كان مشبكها.

إن ما يلفت انتباهنا هنا أن المحادثة مع غراديفا وبوحها له بالحبّ من طرف خفيّ **بواسطة الأزهار** (SUB ROSA) قد أحدثا لدى هانولد انقلاباً مباغتاً جذرياً. فقد استيقظت لديه مشاعر من الشهوة والغلمة الذكورية ـ وهي جزء مكوِّن من الليبيدو ـ ولكن من دون أن تتمكّن من شقّ طريقها إلى شاشة الوعي. غير أن معضلة الماهية الجسمانية لغراديفا ـ وهي المعضلة التي تسلطت عليه طوال

ذلك اليوم ـ تندرج بلا مراء ضمن نطاق الفضول الإيروسي من جانب الفتى تجاه جسم المرأة، وإن كانت تدخل في ظاهر الحال في مدار الفضول العلمي بحكم التركيز الواعي على تأرجح غراديفا الغريب بين الحياة والموت. والغيرة مؤشِّر إضافي على النشاط الحبِّي الوليد لهانولد، وقد عبَّر عن ذلك منذ بداية المقابلة في اليوم التالي، واستطاع، متذرعاً بذريعة جديدة، أن يلمس جسم الفتاة وأن يضربها كما كان يفعل في غابر الأيام.

لقد آن الأوان لنتساءل هل الطريق الذي يسلكه تطور الهذيان ـ وهو الطريق الذي استنتجناه من سرد الروائي لقصته ـ يطابق ما هو معروف لدينا أو ما هو محتمل الحدوث على الأقل؟ إن خبرتنا الطبية تعلمنا أنه موافق للحقيقة، وأنه قد يكون الطريق الوحيد الذي يفضي إلى الاقتناع الراسخ الذي لا يتزعزع، وهو الاقتناع الملازم لكل هذيان والمعبِّر عن أبرز علائمه السريرية. فأن يؤمن المريض راسخ الإيمان بهذيانه، فليس مردّ ذلك إلى انقلاب في ملَكة الحكم لديه ولا يتأتى مما هو مغلوط في هذيانه. فكل هذيان ينطوي أيضاً على قدر، ولو زهيد من الحقيقة، ويتضمن شيئاً ما يستأهل التصديق فعلاً، وهنا تحديداً يكمن منبع الاعتقاد لدى المريض، وهو اعتقاد مبرر ضمن هذه الحدود. غير أن حبة الحقيقة هذه تكون قد تعرضت للكبت لأمد طويل من الزمن، وحين تفلح في نهاية الأمر في شقّ طريقها إلى الوعي، ولو في شكل محرَّف، فإن الشعور بالاقتناع الملازم لها يصبح، كما لو على سبيل التعويض، فائق القوة، فيلتحم بالبديل المحرَّف لتلك الحبة المكبوتة من الحقيقة، ويوفِّر له الحماية من كل تطاول للنقد عليه. ولا يلبث الاقتناع أن ينتقل، إذا جاز القول، من الحقيقة اللاشعورية إلى الخطأ الشعوري المرتبط بها، ويلازمه ولا يقبل عنه فراقاً، وهذا بفعل ذلك الانتقال على وجه التحديد. وما حالة هانولد وتكوين هذيانه ابتداء من حلمه الأول سوى مثال مشابه، إن لم يكن مطابقاً، لمثل ذلك الانتقال. وبالفعل، لا يختلف تكون الاقتناع في الهذيان، على نحو ما وصفناه به حتى الآن، اختلافاً جوهرياً في الكيفية التي يتكون بها الاقتناع في الحالات السوية التي لا دور للكبت فيها. وبالفعل، إننا نربط جميعنا اقتناعنا كله بمضامين فكرية يتَّحد فيها الحقّ والباطل،

ونسحب هذا الاقتناع من الأول على الثاني. وبعبارة أخرى، إنه يبثّ شيئاً من الحقّ في الباطل المرتبط به، ويوفِّر الحماية لهذا الأخير من النقد الذي يستأهله، وإن لم يكن بنفس الدرجة من الثبات مما في الهذيان. إذاً في علم النفس السوي أيضاً يمكن للعلاقات، ولضروب الحماية إن جاز التعبير، أن تنوب مناب القيمة الفعلية للأشياء.

أعود أدراجي الآن إلى الحلم لأتوقف عند نقطة تفصيلية زهيدة فيه، ولكن لها أهميتها مع ذلك، على اعتبار أنها هي التي تقيم صلة وصل بين الحدثين اللذين كانا السبب في تكوين الحلم. فقد كانت غراديفا أقامت نوعاً من المقابلة بين البروق الأبيض والوردة الحمراء. واكتشاف غصن البروق في نافذة **البرجو دل سول** يصبح دليلاً فاصلاً لفهم اكتشاف هانولد اللاشعوري الذي يعبِّر عن نفسه في الهذيان الجديد. كما أن الوردة الحمراء في صدار الفتاة اللطيفة تساعد بدورها لاشعور هانولد على إصدار حكم صحيح على الطبيعة الفعلية للعلاقات بين هذه الفتاة ورفيقتها، مما يؤهِّل هذه الأخيرة لأن تقوم في الحلم بدور **الزميلة**.

لكن أين يكمن في هذه الحال في مضمون الحلم الظاهر أثر اكتشاف هانولد أو ممثِّله الذي رأينا أنه قد ناب منابه الهذيان الجديد: اكتشافه بأن غراديفا تقيم مع والدها في الفندق الثالث، الفندق الأكثر انعزالاً في بومباي، **البرجو دل سول**؟ الجواب مكتوب بالنص الكامل، وحتى دونما تحريف كبير، في الحلم، وأنا لا أتردد في الكلام عن ذلك إلا لأنني أدرك أنه حتى القراء الذين أوتوا الصبر لمتابعتي إلى هذا الحدّ ستثور ثائرتهم الآن، وبقوة، على محاولاتي التأويلية. إن اكتشاف هانولد منقوش بالنص الكامل في مضمون الحلم، أكرر ذلك، لكنه مموَّه ببراعة بحيث يسهى عنه الإدراك حتماً. إنه يختفي وراء تلاعب مزدوج المعنى بالألفاظ: «في مكان ما في الشمس تجلس غراديفا»، وقد كنا حدّدنا هذا المكان، بحق، بأنه المكان الذي التقى فيه هانولد بعالِم الحيوان، والد غراديفا. ولكن ألا يمكن أن يعني هذا الكلام أيضاً: في **الشمس**، أي في **البرجو دل سول**، في **فندق الشمس** تقيم غراديفا؟ وعبارة «في مكان ما»، التي لا صلة لها باللقاء بالأب، ألم يكن إبهامها مقصوداً بمكر لأنها تعيِّن بدقة مكان إقامة غراديفا؟ إن



خبرتي المعتادة في تأويل الحلام الحقيقية تأذن لي بتوكيد هذا الفهم للبس، لكنني ما كنت لأجازف بتحميل قرائي مشقة هذا المجهود التأويلي اليسير لو لم يمدَّني المؤلف هنا بمؤازرة قوية. فهو يضع في اليوم التالي، على لسان الفتاة، عند مرآها المشبك، نفس التلاعب اللفظي الذي افترضنا بأنه تأويل للمكان في مضمون الحلم: «أوجدت هذا في **الشمس**، حيث لا يحجمون عن مثل هذه الحيل؟».

وبما أن هانولد لا يزال يعييه الفهم، فإنها تشرح له أنها تقصد بقولها هذا فندق **الشمس**، المسمى هنا بـ «السول» دونما زيادة، وحيث سبق لها أن رأت اللقية الأثرية المزعومة.

بودّنا الآن أن نحاول استبدال حلم هانولد **اللامعقول إلى حدّ عجيب** بالأفكار اللاشعورية التي تختفي وراءه والتي تباينه إلى أقصى حدّ. فإذا أجرينا هذا الاستبدال وجدنا أنفسنا أمام ما يلي على وجه التقريب: «إنها تقيم في **الشمس** مع والدها، فلماذا تلعب معي هذه اللعبة؟ أتريد ان تهزأ بي؟ أم أنه من الممكن أنها تحبني وأنها تنشدني زوجاً لها؟». وهذا الفرض الأخير يلقى، في الحلم أيضاً، الجواب النابذ له: هذا جنون مطبق، وهو جواب يناقض في ظاهر الأمر الحلم الظاهر برمته.

من حقّ القراء ذوي الفكر النقدي أن يسألونا من أين جئنا بهذا التخريج ـ الذي يبدو لحدّ الآن وكأنه بلا أساس ـ لسخرية غراديفا من هانولد. هنا أيضاً يتكفل كتاب «**تأويل الحلم**» بإجابتهم: فحين تنطوي أفكار الحلم على هزء وازدراء ومناقضة مُرَّة، يتترجم هذا كله في تشكل عجيب غريب للحلم الظاهر، أي في لامعقولية الحلم. وهذه اللامعقولية لا تعني شللاً في النشاط النفسي، وإنما هي وسيلة تمثيلية يجري اعتمادها من قبل الحلم في تكوينه لنفسه. وعلى كل، وكما في كل مرة تواجهنا فيها عقبة خاصة، يهبّ الروائي هنا أيضاً لمساعدتنا. فهذا الحلم العجيب الغريب يتضمن بالفعل خاتمة وجيزة: الزقزقة الشبيهة بالقهقهة التي تصدر عن الطائر الذي حمل العظاية بمنقاره وطار بها. وقد كان هانولد سمع قهقهة مماثلة بعد تواري غراديفا. وكانت هذه القهقهة صادرة حقاً عن زويه التي أعتقت نفسها، بضحكتها هذه، من الجدية التي لعبت بها دورها

كشبح من عالم الغيب. لقد سخرت غراديفا حقاً وفعلاً منه. والصورة الحلمية للطائر الذي حمل العظاية يمكن أن تذكّرنا أيضاً بحلم سابق قام فيه أبولون البلفيدير باختطاف فينوس الكابيتول.

ربما قام لدى بعض القراء انطباع بأن ترجمة مشهد صيد العظاية بفكرة البحث والتحري الغرامي لا تستند إلى أسس أكيدة. فلنستذكر أن زويه ـ وهذا ما يعزّز رؤيتنا للأمور ـ في حديثها مع **زميلتها** تعترف بالفكرة عينها التي راودت هانولد بصددها شخصياً، وذلك عندما تجاهرها بأنها كانت راسخة الاقتناع بأنها تنبش في بومباي شيئاً مثيراً للاهتمام فعلاً. فهي تقتبس هنا من معين علم الآثار، مثلما كان هو قد اقتبس من معين علم الحيوان تشبيهه لصيد العظاية، فكأن كل واحد منهما يريد أن يلبس لباس الآخر وأن يتبنى نهجه في الحياة.

هكذا نكون قد توصّلنا إلى فكّ معنى الحلم الثاني أيضاً. فالحلمان كلاهما باتا في متناول فهمنا، شرط التسليم بالمبدئين التاليين: إن النائم يعرف في فكره اللاواعي كل ما نسيه في فكره الواعي، وإن اللاشعور يقيّم بسداد ما يتنكّر له الشعور في هذيانه. وقد كان علينا، بهذا الخصوص، أن نتقدم ببعض توكيدات، ولا بدّ أن هذه التوكيدات، المجهولة من قبل القارئ، قد بدت له غريبة وجعلته يشكّ بأننا نعرض وجهة نظرنا الخاصة بنا بدلاً من وجهة نظر الروائي. ونحن نحرص على تبديد هذا الشكّ، ولهذا سنعكف الآن على تمحيص النقطة الأشدّ تعقيداً، أي استخدام كلمات وعبارات ذات وجهين كالعبارة التالية: «في مكان ما تحت الشمس، تجلس غراديفا».

إن كل من قرأ «**غراديفا**» قد استرعت انتباهه، ولا بدّ، كثرة الأقوال المزدوجة المعنى التي يضعها الروائي على لسان بطليه. فأقوال هانولد ليس لها بالنسبة إليه سوى معنى واحد، بينما شريكته غراديفا هي وحدها التي تلتقط معناها الثاني. ومن هذا القبيل أن زويه، غير المتنبهة بعد بما فيه الكفاية لحقيقة الأمر، تسأله عندما أجابها للمرة الأولى بقوله: «كنت أعرف أن هكذا هو جِرْس صوتك»، تسأله كيف أمكن له ذلك ما دام لم يسمعها بعد تنبس ببنت شفة. أما في المحادثة الثانية، فإن الفتاة يرتج عليها لهنيهة من الزمن إزاء هذيانه، عندما يساررها



بأنه قد عرفها من فوره. وعندئذ لا تجد مفراً من أن تفهم هذه الكلمات بحسب منطوقها في لاشعور هانولد، أي على ضوء صداقتهما التي يرجع تاريخها إلى عهد الطفولة. لكن هانولد لا يشتبه من قريب أو بعيد في مدلول كلامه، بل يؤوله من منظور الهذيان المستحوذ عليه. وبالمقابل، إن كلام الفتاة، التي تدلل على رشاد أكيد بمواجهة هذيان هانولد، محاط باللبس عن قصد وعمد. فالمعنى الأول يتكيَّف مع هذيان هانولد، وذلك بغية النفاذ إلى فكره اللاشعوري، بينما يتجاوز المعنى الثاني الهذيان ويقدِّم لنا على الأرجح ترجمة لهذا الهذيان بلغة الحقيقة اللاشعورية التي يمثِّلها. وإنه لظفر للفكر أن يستطيع الإبانة عن الهذيان والحقيقة في صيغة واحدة.

اللبس هو ما يسم كلام زويه حينما تشرح الوضع لصديقتها متخلصة في الوقت نفسه من حضورها المزعج، ذلك الكلام الذي يتدفق من الكاتب باتجاه القارئ أكثر مما يتوجه إلى الزميلة السعيدة. أما في الأحاديث مع هانولد، فإن ازدواجية المعنى تتجلى في استخدام زويه للرمزية التي كانت قد استخدمت في حلم هانولد الأول كما رأينا: فهي تشبه الانطمار بالكبت، وبومباي بالطفولة. وهكذا تتيح لها أحاديثها أن تؤدي، من جهة أولى، الدور الذي قلَّدها إياه هذيان هانولد، وأن تشير من الجهة الثانية إلى العلاقات الحقيقية وأن تهيِّئ لاشعور هانولد لفهمها.

«لقد اعتدت منذ زمن بعيد على أن أكون ميتة» («**غراديفا**»، ص ٧٧). «أما أنا فليس لي من يدك إلا زهرة النسيان» («**غراديفا**»، ص ٧٧). إن هذه الكلمات تفصح من طرف خفيّ عن التـأنيب الذي سينطق به بوضوح المشهد التقريعي الأخير حين تشبِّه زويه هانولد بالمجنَّح المتحجِّر. كذلك، إنها لا تملك إلا أن تهتف، بعد أن حلّت لغز الهذيان، وكأنها تريد بذلك أن تقدِّم لنا مفتاح عباراتها المزدوجة المعنى: «أن يكون على الإنسان أن يموت أولاً حتى يجد من ثمّ الحياة... لكن أليس ذلك ضرورياً في علم الآثار؟» («**غراديفا**»، ص ١١٥). بيد أنها تدرك ذروة الرمزية حين تسأل: «يخيِّل إليَّ أننا تقاسمنا على هذا النحو خبزنا منذ نحو ألفي سنة. أفلا تذكر ذلك؟» («**غراديفا**»، ص ٩٧). ولا يملك المرء ألا يتعرف

في هذا الكلام استبدالاً للطفولة بالماضي التاريخي، كما لا يملك ألا يتعرف الجهود الرامية إلى إحياء هذه الطفولة في ذاكرة فتانا.

لمَ هذا الإيثار الملفت للنظر للأقوال الملتبسة في «**غراديفا**»؟ ليس مردّه إلى الصدفة على ما يخيّل إلينا، بل ينجم بالضرورة عما هو في أساس القصة. فهو مجرد استطالة للتعيين المزدوج للأعراض، وذلك من حيث أن الأقوال نفسها تشكل أعراضاً، ومن حيث أن جميع هذه الأعراض تنشأ عن تسوية بين الشعور واللاشعور. وهذا على أن نأخذ في اعتبارنا أن الأقوال تنمّ أكثر من الأفعال عن ذلك الأصل المزدوج، وأنه عندما تفلح تجميعة واحدة من الألفاظ في التعبير عن كلا القصدين اللذين يرمي إليهما الكلام ـ وهذا ما تسمح به في كثير من الأحوال مطاوعة المادة اللفظية ـ يقوم عندئذ ما نسميه **باللبس**.

كثيراً ما نعمد، في المعالجة الطبية النفسانية لهذيان ما أو لآفة مشابهة، إلى حمل المريض على تفريخ أقوال ملتبسة مماثلة، تكون بمثابة أعراض جديدة عابرة، وقد نضطر نحن أنفسنا إلى استخدامها، وهذا ما يوقظ في كثير من الأحيان تفهُّم المريض. وقد دلتني التجربة على أن دور اللبس هذا يصدم إلى أقصى حدّ غير أهل المهنة، ويتسبَّب في ضروب بالغة العمق من سوء التفاهم، ومع ذلك كان الروائي على حقّ إذ مثَّل في روايته أيضاً هذه السمة المميِّزة للسيرورات الفاعلة في تكوين الحلم والهذيان.



(٤)

قلنا آنفاً إن تدخل زويه في ثياب الطبيب يوقظ لدينا اهتماماً جديداً. ونحن نتحرق لمعرفة ما إذا كان شفاء من النوع الذي تحقّقه لدى هانولد قابلاً للفهم، أو على الأقل ممكناً، وما إذا كان الروائي قد فهم شروط الهذيان مثلما فهم شروط تكوينه.

أرجح الظن أنه ستنتصب هنا وجهة نظر معاكسة لوجهة نظرنا، مؤداها أن الحالة التي يصفها الروائي لا تستأهل في ذاتها هذا الاهتمام، وأنه لا وجود لمعضلة تحتاج إلى إيضاح. وفي هذه الحال لا يبقى على هانولد من مهمة غير أن يصفّي هذيانه حين تبرهن له بطلة هذا الهذيان، غراديفا المزعومة بشخصها، على بطلان كل ذلك البنيان وتقدّم له تفسيرات طبيعية تماماً لكل ما بدا له ملغزاً، وعلى سبيل المثال للكيفية التي عرفت بها اسمه. وعلى هذا النحو يكون المنطق قد وجد سبيلاً إلى تصفية القضية. ولكن نظراً إلى أن الفتاة خلطت ذلك كله ببوحها له بالحبّ، فقد ختم الروائي هذه القصة بالنهاية السعيدة المعهودة، الزواج، استرضاء لقارئاته بلا أدنى ريب. ولقد كان من الممكن تصوُّر خاتمة أخرى، خاتمة متوقعة أكثر من الأولى وقابلة للتصديق مثلها: فالعالم الشاب، بعد أن يصحو من غيّه وضلاله ويشكر الفتاة بكل أدب وتهذيب، يمضي في حال سبيله مكرراً لها اعتذاره، رادّاً حبها، شارحاً لها أنه يهتم عظيم الاهتمام بالنساء القديمات اللائي من برونز أو حجر ـ وبنماذجهن إذا ما توفرت له ـ ولكنه عديم الاكتراث بامرأة معاصرة من لحم ودم. وعل هذا النحو تكون الرواية الأثرية المتخيَّلة قد حيكت من قبل الروائي، وبقدر غير قليل من الاعتباط، حول قصة حب بهدف التشويق لا أكثر.

إننا إذ نرفض هذا التصور باعتباره مستحيلاً من المستحيلات، نجد أن ما



يسترعي انتباهنا هو أن تحول هانولد لا يمكن أن يعزى إلى النكوص عن الهذيان وحده. ففي آن واحد وانحلال الهذيان، بل حتى قبله، لا يمكن للمرء أن يتغافل عن يقظة الميول الحبيّة لدى هانولد، هذه الميول التي تدفع بهذا الأخير بطبيعة الحال إلى أن يطلب زوجة له تلك التي حرَّرته من هذيانه. وقد كنا أوضحنا ما الذرائع والتنكرات التي يتظاهر بها لدى الشاب، وهو في ذروة الهذيان، الفضول إلى معرفة الكنه الجسماني لغراديفا، والغيرة، وحتى الغريزة العدوانية الذكورية الوحشية، وذلك منذ أن أوحت إليه الشهية الحبّية المكبوتة بالحلم الأول. وهاكم دليلاً آخر على صحة أطروحتنا: ففي العشية التالية لمحادثته الثانية مع غراديفا، توقظ امرأة حية لأول مرة لديه شعوراً بالودّ. صحيح أنه يقدِّم لنفوره السابق من رحلات شهر العسل تنازلاً، فلا يتعرف فيها عروساً، بيد أن المصادفة تنصبه شاهداً في صبيحة اليوم التالي على المداعبات المتبادلة بين هذه الفتاة وأخيها المزعوم، فيتراجع عندئذ بخجل ووجل وكأنه رنَّق صفو سرّ مقدس. وينسى سخريته من أضراب قيس وليلى، ويستقرّ في داخله من جديد احترام الحياة الحبّية.

هكذا يكون الروائي قد قرن قرناً صميماً انحلال الهذيان بتفتُّح الصبوات الحبّية، وجعل من الخاتمة الغرامية ضرورة لا غنى عنها. وبالفعل، إنه يعرف طبيعة الهذيان خيراً من منتقديه، ويعلم أن عنصراً من التوق إلى الحب وعنصراً آخر من رفض الحب قد تضافرا في تكوين الهذيان، ويدع الفتاة التي أخذت على عاتقها القيام بعملية الشفاء ترهص، من خلال هذيان هانولد، بالعنصر الذي ليس أحلى على قلبها منه. هذا الفهم هو وحده الذي كان له أن يجعلها تعقد العزم على تكريس نفسها لعملية المعالجة، واليقين بأنها محبوبة هو وحده الذي كان له أن يحملها على البوح بحبِّها هي. وقوام العلاج هنا أن تعاد إلى هانولد من الخارج الذكريات المكبوتة التي لا يسعه أن يطلق لها من الداخل الحرية. لكن جميع الجهود كانت ستذهب أدراج الرياح لو أن فن العلاج لم يأخذ بعين الاعتبار عواطف هانولد، ولو أن ترجمة الهذيان لم تكن في خاتمة المطاف كالآتي: انظر، هذا كله يعني بمنتهى البساطة أنك تحبُّني.



إن الطريقة التي يدفع الروائي ببطلته زويه إلى استخدامها لشفاء هذيان صديق طفولتها تشبه غاية الشبه، بل لن أحجم عن أن أقول إنها تطابق تمام المطابقة منهجاً علاجياً أدخله كاتب هذه السطور، مع الدكتور ج. بروير، إلى الطب سنة ١٨٩٥، ثم ما عتم أن وقف حياته على تحسينه وتجويده مذ ذاك فصاعداً. هذا المنهج، الذي سمّاه بروير في البدء **تطهيرياً**، والذي آثر المؤلف من بعده أن يسمّيه **تحليلياً نفسياً**، يقوم، لدى المرضى الذين يشابه داؤهم هذيان هانولد، على إرجاع اللاشعور الذي ينشأ المرض عن كبته إلى الوعي بالقوة إن جاز القول، وهذا بالضبط ما تفعله غراديفا بالنسبة إلى الذكريات المكبوتة من طفولة هانولد. ومن المؤكد أن هذه المهمة أسهل على غراديفا منها على الطبيب، لأن الوضع الذي هي فيه هو من أكثر من زاوية وضع مثالي. فالطبيب، الذي لا يستطيع أن ينفذ من البدء إلى داخل نفس المريض ولا يحمل في داخل نفسه هو، في حالة ذكرى واعية، ما يفعل فعله في لاشعور المريض، لا غنى له عن اللجوء إلى تقنية معقَّدة للتعويض عن هذا النقص. فعليه أن يتعلم كيف يستنتج، بثقة كبيرة، من الخواطر العارضة التي تساور المريض ومن الوقائع التي يفشيها، المكبوت الذي يضمره هذا الأخير في داخل نفسه. وعليه في هذه الحال أن يتعلم كيف يحزر اللاشعور حيثما يفضح نفسه في أقوال المريض وأفعاله الواعية. عندئذ يحقق شيئاً يضارع الشيء الذي فهمه نوربرت هانولد بنفسه في نهاية القصة حين أعاد ترجمة اسم **غراديفا** إلى اسم **برتغانغ**. وعندئذ أيضاً يزول الاضطراب، أي عندما يُردّ إلى أصله. فالتحليل يأتي في الوقت نفسه بالشفاء.

بيد أن التشابه بين الطريقة التي اتَّبعتها غراديفا وبين النهج العلاجي النفساني للتحليل النفسي لا يقتصر على هاتين النقطتين: إرجاع المكبوت إلى الوعي، وتزامن التفسير والشفاء، بل يطال أيضاً ما يبدو أنه هو الشيء الأساسي في كل عملية التحول الطارئ، أي يقظة العواطف. فجميع الاضطرابات المشابهة لهذيان هانولد والتي اعتدنا في العلم على تسميتها بالأعصبة النفسية، مشروطة بكبت عنصر من الحياة الغريزية، ولنقل بمزيد من الجرأة من الدافع الغريزي الجنسي. وعند كل محاولة لإرجاع علة المرض اللاشعورية والمكبوتة إلى الوعي، يجدد

المقوِّم الغريزي المعنيّ بالضرورة الصراعَ مع القوى التي تكبته كيما يتوصَّل، عن طريق أعراض ارتكاسية عنيفة في كثير من الأحيان، إلى حالة من التوازن. وعن طريق الارتداد إلى الحب يتمّ الشفاء، بشرط أن تُشمل باسم الحب شتى مقومات الدافع الغريزي الجنسي على بالغ تنوعِّها. وهذا الارتداد لا مناص منه، لأن الأعراض التي تباشَر المعالجة ضدها ما هي إلا رسابات من معارك سابقة ضد الكبت أو ضد عودة المكبوت، ولا سبيل إلى حلّ هذه الأعراض وكسحها إلا عن طريق مدّ صاعد جديد للهوى عينه. وكل استطباب تحليلي نفسي هو محاولة لتحرير الحب المكبوت الذي كان وجد نوعاً من التسوية في عرَض من الأعراض كمخرج هزيل. ولعلنا سنفهم على وجه أفضل أيضاً التوافق التام مع سيرورات الشفاء التي وصفها الروائي في قصته «**غراديفا**» لو أضفنا القول بأن الهوى المستيقظ من جديد، سواء أكان حباً أم حقداً، يتخذ أثناء العلاج النفسي التحليلي شخص الطبيب موضوعاً له في كل مرة[١].

وهنا تبدأ الفروق التي تجعل من حالة غراديفا حالة مثالية لا يمكن للتقنية الطبية أن تصل إلى مثلها. فغراديفا تستطيع الاستجابة للحب الذي ينبجس من اللاشعور باتجاه الشعور، بينما لا يستطيع الطبيب ذلك. ولقد كانت غراديفا ذاتها موضوع هذا الحب القديم المكبوت، لذا يقدِّم شخصها للصبوة الحبِّية المحرَّرة هدفاً شهياً. أما الطبيب فإنسان غريب، وعليه أن يضع نصب عينيه أن يعود من جديد إنساناً غريباً متى ما تمّ الشفاء، وهو لا يعرف على الدوام كيف يسدي إلى مرضاه المتعافين نصائح بصدد حسن الاستخدام لقدراتهم المستعادة على الحب في الحياة. فما الوسائل وما البدائل التي سيلجأ إليها الطبيب ليقترب بقدر آو بآخر من النجاح من المثل الأعلى للاستطباب بالحبّ الذي أحسن الروائي رسمه؟ الحق أن مناقشة هذه المشكلة من شأنها أن تنأى بنا بعيداً عن المهمة التي حددناها لأنفسنا هنا.

لكن لنتوقف، ونحن على وشك الختام، عند سؤال كنا تحاشينا غير مرة

---

١ ـ هذه الظاهرة المتمثلة بإسقاط المريض لمشاعره الحبِّية (أو العدائية) على الطبيب الذي يعالجه هي ما يطلق عليه فرويد اسم «التحويل». «م».



الإجابة عنه. فتصوراتنا بصدد الكبت وتكوين الهذيان أو الاضطرابات المشابهة له، وتشكيل الأحلام وتفسيرها، ودور الحياة الجنسية، والكيفية التي تبرأ بها هذه الاضطرابات، لا تندرج في إرث العلم، وكم بالأحرى في إرث المتعلمين من الناس. ولو كان الذكاء الذي أتاح للروائي أن يبدع روايته المتخيَّلة على نحو يمكن معه التصدي لتحليلها كما في المعاينة الطبية الحقيقية، أقول: لو كان هذا الذكاء حصيلة معرفة لثار فضولنا إلى معرفة مصادره. وقد بادر أحد أفراد تلك المجموعة التي كانت مهتمة كما ذكرنا في البداية بأحلام «**غراديفا**» وبتأويلها الممكن[٢]، بادر إلى توجيه سؤال إلى الروائي ليعرف منه إن كان له بعض اطلاع على تلك النظريات العلمية القريبة غاية القرب من نظرياته هو بالذات. وقد أجابه الروائي، كما هو متوقع، بالسلب، بل بشيء من الامتعاض. فمخيِّلته هي التي أبدعت «**غراديفا**»، وقد وجد في إبداعها متعة، ومن لم تنل إعجابه فما عليه إلا أن يدعها وشأنها. والحق أنه ما كان يشتبه، ولو مجرد اشتباه، بمدى الإعجاب الذي انتزعته من القراء.

من المحتمل جداً ألا يقف إنكار الروائي عند هذا الحدّ. فلعله سينفي بكل بساطة المعرفة بالقواعد التي أحسن في رأينا اتِّباعها، ولعله سينفي أيضاً أن تكون قد راودته جميع المقاصد التي اكتشفناها في كتابه. وفي هذه الحال، فإن الأمر لا يمكن أن يكون إلا واحداً من اثنين: أما أن تأويلنا كان تأويلاً كاريكاتورياً بكل ما في الكلمة من معنى إذ عزونا إلى عمل فني بريء مقاصد ما دارت في خلد مؤلفه من قريب أو بعيد، وفي هذه الحال نكون قد بيَّنا مرة أخرى كم هو سهل أن يجد المرء ما يبحث عنه وما هو مقتنع به بينه وبين نفسه، وهذا احتمال يقدِّم تاريخ الأدب أغرب الأمثلة عليه. وليقرر الآن كل قارئ بينه وبين نفسه إن كان في وسعه أن يأخذ بوجهة النظر هذه أو لا: أما نحن فنتمسك بطبيعة الحال بوجهة النظر الأخرى التي لا يزال علينا أن نعرضها. فنحن نرتئي أن الروائي ليس بحاجة إلى أن تكون له معرفة: فالروائي يمكن أن يجهل تلك المقاصد والقواعد، وأن ينفي بالتالي عن حسن نية أن تكون له بها معرفة، ومع ذلك لا نجد في عمله

---

٢ ـ هو فلهلم شتيكل. «م».



شيئاً لا يتقيَّد بها. وأغلب الظن أننا نمتح من معين واحد، ونجبُل من طينة واحدة، كل بوسائله الخاصة، ثم يأتي تطابق النتائج شاهداً على أننا كلينا قد أحسنّا العمل على ما يبدو. وقوام منهجنا نحن أن نخضِع للملاحظة الواعية السيرورات النفسية التي تخرج عن معايير السواء لدى الغير ليمكن لنا أن نحزر ونصوغ قوانينها. ومن المؤكد أن الروائي يسلك غير مسلكنا: فهو يركِّز انتباهه على لاشعوره هو نفسه بالذات، ويصيخ السمع لكل قواه المضمرة، ويمنحها التعبير الفني، بدل أن يكبتها بالنقد الواعي. وهو يعلم من داخل نفسه ما نعلمه نحن من الآخرين: أي ما هي القوانين التي تحكم حياة اللاشعور. لكن لا حاجة به البتة إلى صوغ هذه القوانين، ولا حتى إلى إدراكها بوضوح، بل هي تندمج، بفضل نفاذ ذكائه، في إبداعاته. أما نحن فنستخلص هذه القوانين من تحليل أعماله مثلما نستشفّها من حالات مرَضية فعلية؛ وعليه نحن أسرى الإحراج التالي: إما أن الروائي والطبيب قد أساءا كلاهما فهم اللاشعور، وإما أننا كلينا أحسنًّا فهمه. هذا الاستنتاج ثمين للغاية في نظرنا: فهو يبرر المشقة التي تجشمناها لكي ندرس، بمناهج التحليل النفسي الطبي، تكوين الهذيان وشفاءه، وكذلك الأحلام، في «**غراديفا**» ينسن.

ها نحنذا قد أدركنا ختام دراستنا. ومن الممكن لقارئ يقِظ أن يلومنا على تسليمنا من البداية بأن الأحلام تمثل تحقيقاً لرغبات، من دون أن نقدِّم على ذلك البرهان الذي لا يزال بحاجة إلى أن يقام. ولسوف نجيبه بأن عرضنا المتقدِّم قد يكون بذاته دليلاً على مدى هشاشة محاولة التركيب بين جميع التفسيرات المتعلقة بالأحلام في مثل هذه الصيغة البسيطة القائلة بأن «الحلم يمثِّل تحقيقاً لرغبة». بيد أن هذا التوكيد يحتفظ بقيمته كاملة، ومن اليسير أن نبيِّن أنه ينطبق كذلك على الأحلام في «**غراديفا**». فأفكار الحلم الكامنة (نحن نعرف الآن معنى هذا المصطلح) قد تكون من أنواع متباينة أشدَّ التباين. وفي «**غراديفا**» تتمثل هذه الأفكار في **بقايا نهارية**، في أفكار تركها النشاط النفسي لحالة اليقظة جانباً من دون أن ينتبه لها ومن دون أن يفتح لها الطريق إلى التصريف. ولكن كيما تتوصل إلى توليد حلم، فلا بدّ من أن تنضاف إليها رغبة ما، هي على الدوام

تقريباً لاشعورية. وهذه الرغبة تمثِّل القوة المحرِّكة الضرورية لتكوين الحلم، بينما تقدِّم له البقايا النهارية مادته. وفي حلم نوربرت هانولد الأول تتزاحم رغبتان على خلق الحلم: وأولى هاتين الرغبتين قادرة على بلوغ الشعور، بينما تنتمي الثانية بلا مراء إلى اللاشعور وتفعل فعلها من باطن الكبت. الأولى هي الرغبة التي يمكن أن تراود أي عالم آثار في أن يكون شهد بأمّ عينه نكبة سنة ٧٩. ولو كانت هذه الرغبة قابلة للتحقيق بأي سبيل آخر غير سبيل الحلم، لهانت أمامها أية تضحية من جانب المنقِّب في آثار العصور القديمة. أما الرغبة الثانية، المولِّدة الثانية للحلم، فهي من طبيعة إيروسية، ومن الممكن تلخيصها على نحو مجمل وغير كامل بما يلي: أن يكون بقرب الحبيبة حين تتمدد لتنام. وإنكار هذه الرغبة هو الذي يجعل من الحلم كابوساً. أما الرغبات المحرِّكة للحلم الثاني فقد تكون أقلَّ وضوحاً، لكننا لن نعود نتردد في نعتها، حالما نتذكر ترجمتها، بأنها إيروسية. فالرغبة في الوقوع في أسر الحبيبة، في مطاوعتها، في الخضوع لها ـ وهي رغبة يمكن استنتاجها من أسر العظاية ـ لها طابع سلبي، مازوخي جليّ. وفي اليوم التالي يضرب الحالم الحبيبة، وكأنه تحت سيطرة التيار الإيروسي المعاكس[٣]. لكن لنتوقف هنا وإلا لجازفنا بأن ننسى أن هانولد وغراديفا ما هما إلا من خلق الروائي.

٣ ـ يقصد: السادية. «م».



ذيل للطبعة الثانية

في غضون السنوات الخمس التي تصرمت منذ أن كتبت هذه الدراسة تعاظم البحث التحليلي النفسي جرأة وجسارة، وتصدى للإنتاج الأدبي من وجهات نظر مغايرة. فما عاد ينشد مجرد توكيد لما اكتشفه لدى عصابيين غير مبدعين، بل صار يتطلع إلى أن يعرف ما مخزون الانطباعات والذكريات الشخصية الذي استند إليه المؤلف في بناء عمله، وما الطرق وما السيرورات التي تمّ بها إدراج هذا المخزون في العمل الروائي.

لقد اتفق أن أمكن حلُّ هذه المسائل بأكبر اليسر لدى أولئك الكتاب الذين يرخون عنانهم بفرح خلاق عفوي لخيالهم الجامح، من أقران ف. ينسن (المتوفى سنة ١٩١١). وبعيد نشر دراستي التحليلية عن «**غراديفا**»، حاولت أن أثير اهتمام الكاتب الطاعن في السن بهذا الاتجاه الجديد للأبحاث التحليلية النفسية، لكنه أمسك عن بذل مساعدته.

بعدئذ لفت أحد الأصدقاء انتباهي إلى قصتين أخريين للروائي نفسه، تمتحان من معين الإلهام عينه الذي تمتح منه «**غراديفا**»، وتمثّلان محاولتين تمهيديتين وتجربتين أوليين لحلّ هذه المشكلة عينها من مشكلات الحياة الحبّية بطريقة شعرية خالصة. وأولى هاتين القصتين، وعنوانها «**المظلة الحمراء**»[١]، تشبه «**غراديفا**» بتكرارها العديد من التفاصيل: زهور الموت البيض، الغرض المنسي (دفتر غراديفا)، الحيوانات الصغيرة ذات المدلول (الفراشة والعظاية في «**غراديفا**»)، وتشبهها أيضاً وعلى الأخص بتكرار الحدث المركزي: ظهور فتاة ميتة أو يُظَنّ أنها

١ - DER ROTE SCHIRM.



ميتة في أوار الشمس في مركز جنوبي للاصطياف. أما الديكور الذي فيه يظهر الطيف فهو، في «**المظلة الحمراء**»، قصر متهدم نظير أنقاض بومباي المنبوشة في «**غراديفا**».

القصة الأخرى، وعنوانها «**في المنزل القوطي**»[٢]، لا تشابه في مضمونها الظاهر «**غراديفا**» أو «**المظلة الحمراء**». لكن صلة القربى الوثيقة بين المدلولات الكامنة لهذه القصص تتضح على نحو لا مماراة فيه من كون المؤلف قد جمع هذه القصة مع «**المظلة الحمراء**» تحت عنوان مشترك هو: «**قوى مطلقة السلطان**»[٣]. ونستطيع أن ندرك بسهولة أن هذه القصص الثلاث تعالج موضوعاً واحداً: تطور حبٍّ ونموّه (وفي «**المظلة الحمراء**»، كبتُ حبٍّ) بفعل صلة حميمة، شبه أخوية، انعقدت في سنوات الطفولة.

ونتبيَّن من خلاصة بقلم الكونتيسة إيفا بوديسان[٤] (في صحيفة **دي زايت** الفييناوية بتاريخ ١١ شباط/ فبراير ١٩١٢)، أن رواية ينسن الأخيرة «**غرباء بين البشر**»[٥]، التي تتضمن الكثير من الأشياء ذات الصلة بشباب الروائي، تصف مصير رجل «يتعرف في الحبيبة أختاً شقيقة».

أما الموضوعة الرئيسية في «**غراديفا**»، أعني تلك المشية الفريدة في رشاقتها مع القدم المرفوعة، فلا وجود من أثر لها في القصتين الآنفتي الذكر.

وفي الواقع، إن المنحوتة التي قال عنها ينسن إنها رومانية والتي تمثّل الصبية صاحبة تلك المشية التي أسماها غراديفا ترجع إلى الفن الإغريقي في أوج ازدهاره، وهي موجودة في متحف كيارامونتي التابع للفاتيكان، تحت رقم

٢ - IN GOTHISCHEN HAUSE .

٣ - UEBERMACHTE, ZWEI NOVELLEN VON WILHELM JENSEN BERLIN (EMIL FELBER, 1982).

٤ - إيفا فون بوديسان: كاتبة ألمانية (١٨٦٩ - ١٩٤٣). لها أكثر من عشرين رواية ومجموعة قصصية. كتبت أيضاً باسم مستعار : برنار فون راندنبرغ. من رواياتها: **فانوس فوق الباب**، **الموجة الكبيرة**، **ثلاث قصص مجرية**. «م».

٥ - FREMDLINGE UNTER DEN MENSCHEN.



٦٤٤، وقد قام بدراستها وتأويلها ف. هاوزر[٦](*). وقد أمكن، منْ خلال مقارنة الغراديفا بأجزاء أخرى موجودة في متحفي فلورنسا وميونيخ، الحصول على منحوتتين تضمّ كل واحدة منها ثلاثة وجوه أمكن أن يُتعرَّف منها الهورات HORES[٧]، وهنّ إلهات النبات، وكذلك إلهات الندى الذي يُخصِب، وهن يمتّنّ بصلة نسب قريبة إلى إلهات النبات.

٦ - DISIECTA MEMBRA NEUATTISCHER. RELIEFS INN JAHRES HEFTE DES OSTERR. ARCHAOL. ISNTITUTS. VOL 6 FASC1.

(*) فريدريش هاوزر: عالم آثار ومؤرخ فنون ألماني (١٨٥٨ - ١٩١٧). له دراسة مشهورة عن النقوش الأتيكية. «م».

٧ - الهورات: HORES (حرفياً الساعات): بنات كبير الآلهة اليونانيين زفس. وهن ثلاث يرمزن إلى النظام والعدل والسلام. وهن أيضاً منظِّمات الحياة البشرية بتوزيعها إلى فصول ثلاثة: الربيع والصيف والشتاء. وعندما أضافت الميتولوجيا اليونانية فصل الخريف خلقت هوراتين جديدتين، فصارت الهورات خمساً. ثم لما ضاعف اليونانيون الساعات إلى اثنتي عشرة اختلق الشعراء هورات سبعاً إضافية يعملن جميعهن في خدمة الإله جوبيتر، وأطلق عليهم اسم الشقيقات الاثنتي عشرة. «م».



ملحق



ثلاث رسائل من فلهلم ينسن إلى فرويد[1]

الرسالة الأولى

بريان (على بحيرة شيام)

١٣ أيار/ مايو ١٩٠٧

بافاريا

سيدي المبجّل،

إن مقاربتك العلمية وتقييمك الإيجابي لقصتي **غراديفا**، اللذين وصلاني إلى هنا، في منزلي الريفي، عن طريق ميونيخ، قد أثارا بالبداهة اهتمامي وكانا لي مبعث غبطة كبيرة، وهذا ما يحملني على أن أعبّر لك عن صادق شكري لإرساليتك. ولا شك أن هذه الرواية الصغيرة ما كانت «لتحلم» قط بأن تقيَّم ويكال لها الثناء من وجهة نظر الطب النفسي، ومن ثم أن تكون قد عزوتَ إليها هنا وهناك أشياء محددة ما كان لها أن تدور في ذهن المؤلف، على الأقل شعورياً. ولكن بالإجمال، ومن حيث الجوهر، يسعني أن أقول، وأنا أبدي عن ترحيبي بلا تحفظ، إن ما كتبتَه قد نفذ إلى جوهر المقاصد التي رمى إليها هذا الكتاب الصغير وأعطاها حقّها. ولعل الألفت للنظر هنا أن يكون الحدس الشعري

---

١ ـ على إثر نشر دراسة فرويد عن **غراديفا** ينسن في أيار/ مايو ١٩٠٧، بعث بنسخة عنها إلى الروائي مؤلفها، وعلى الأثر، تلقى رسالة جوابية أولى من ينسن، ثم تلتها رسالتان أخريان. وقد نشرت رسائل ينسن لأول مرة عام ١٩٢٩ في مجلة **«الحركة التحليلية النفسية»** الألمانية، العدد الأول، ص ٢٠٧ ـ ٢١١. وعلى هذا النحو أمكن حفظها. أما رسائل فرويد الثلاث أيضاً إلى ينسن فلم يقيَّض لها أن تُحفظ. وقد نشرت رسائل ينسن بالفرنسية لأول مرة عام ١٩٨٦ مع الترجمة الجديدة لنصّ فرويد عن **غراديفا**، ومرة ثانية في المجلد الثامن من **أعمال فرويد الكاملة** عام ٢٠٠٧ ، وعنهما نترجمها لأول مرة إلى العربية.(م).



قد عُزيت إليه القدرة على وصف السيرورات النفسية والأفعال الناجمة عنها، حتى وإن تكن الدراسات الطبية في مطلع حياتي قد أسهمت بقسط ما هنا. أما أن أكون رددت على طلبِ استعلامٍ وُجِّه إليَّ «بقدر من الفجاجة»[٢] فهذا ما غاب تماماً عن ذاكرتي، ولو صحّ أنّ هذا هو واقع الحال فعلاً فإني لذلك آسف وأرجوك أن تقول على لساني للشخص المعني: لقد أخطأتُ[٣].

وقد بادرت للحال بالطلب إلى دار النشر المعنية أن ترسل إليَّ بضع نسخ إضافية من الدفتر الأول من **كتابات في علم النفس التطبيقي**[٤]، ولن أتوانى عن تثقيف نفسي من خلال الدفاتر التالية.

مع صادق تحياتي، سيدي المبجّل،

ومع الاعتراف لك بالجميل وبالوفاء،

فلهلم ينسن

٢ ـ من شبه المؤكد أن ينسن يشير هنا إلى المراسلة التي دارت بينه وبين فلهلم شتيكل قبل أربع سنوات (أي في عام ١٩٠٣) والتي كان فيها هذا الأخير أعرب فيها، كما رأينا في تقديم نص فرويد عن **غراديفا**، عن الترحاب الكبير الذي حظيت به القصة في الأوساط التحليلية، سائلاً إياه في الوقت نفسه عما إذا كان اطّلع، قبل أن يكتبها، على كتاب فرويد عن **تأويل الحلم**. أما جملة «بقدر من الفجاجة» فمن المؤكد أنها وردت بقلم فرويد في رسالته إلى ينسن في معرض إشارته إلى الردّ السلبي من جانب هذا الأخير على استفهام شتيكل. «م».

٣ ـ باللاتينية في النص: PECCAVI. «م».

٤ ـ هو عنوان السلسلة التي صدر فيها نص فرويد عن **غراديفا**، وقد توالى صدورها من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩٢٥، ونشرت فيها دراسات أخرى لفرويد ولبعض رواد التحليل النفسي من أمثال كارل أبراهام وإرنست جونز وكارل يونغ وأوتو رانك. «م».



الرسالة الثانية[1]

بريان (على بحيرة شيام)

٢٥ أيار/ مايو ١٩٠٧

بافاريا

سيدي المبجّل

لقد اغتبطت كثيراً بردّك على رسالتي، ولكني ـ ويا للأسف ـ عاجز عن إمدادك بالمعلومات المطلوبة. وكل ما بوسعي أن أقوله لك يقتصر على ما يلي:

إن فكرة «الأخيولة» الصغيرة قد انبثقت عن انطباع بالغ الشاعرية خلَّفه فيَّ مرأى منحوتة قديمة. ولديّ منها عدة نماذج منسوخة بأمانة تامة من لدى ناني في ميونيخ[2]. بيد أنني كنت بحثت بلا جدوى، على مدى سنوات وسنوات، عن المنحوتة الأصلية في المتحف القومي في نابولي، ولم أوفَّق قط في العثور عليها، وكل ما تناهى إلى علمي أنها موجودة في روما ضمن مجموعة من المنحوتات[3]. وإذا شئت أن تستخدم المصطلح التالي فلربما كان في الأمر شيء قريب إلى «الفكرة الثابتة» في ما كان يساورني من اعتقاد مسبق بأن المنحوتة موجودة لا محالة في نابولي، وبأنها تمثِّل، فيما لو كُبِّرت، فتاة بومبية. فهكذا

١ ـ هي رسالة جوابية ثانية على رسالة ثانية من فرويد لم تصلنا. وقد تلا فرويد نصها في جلسة ١٥ أيار/ مايو **لجمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي**. وطبقاً لما رواه كارل يونغ، فإن فرويد طلب في رسالته الثانية إلى ينسن معلومات عما هو ذاتي محض في **قصة غردايفا**، وما المصدر الذي استقى منه مادته وصلته بشخصه. وقد ردّ ينسن فوراً وبوضوح قاطع. «م».

٢ ـ فيلكس ناني: تاجر لوحات في ميونيخ، ومخزنه لا يزال قائماً إلى اليوم في شارع توركنستراس. «م».

٣ ـ بالفعل هي موجودة، كما كان فرويد نفسه أشار في ذيل الطبعة الثانية لدراسته، في متحف كياramونتي التابع للفاتيكان في روما. «م».



كنت أراها في فكري وهي تمشي فوق بلاطات المشاة في بومباي التي لي بها معرفة دقيقة بالنظر إلى أنني غالباً ما أمضيت أياماً بكاملها وأنا أطوف بين خرائبها. وقد كنت أتعمّد أن أتأخَّر إلى ساعة الظهر الصامتة التي تطرد سائر الزوار إلى موائد المطاعم، وكنت، وأنا في تلك العزلة الحارقة تحت الشمس، أقترب أكثر فأكثر، وبثبات العزم، من ذلك الحدّ الفاصل بين ما تراه العينان في حالة السهاد وبين ما نراه في خيالنا. وإنما في هذه الحالة، التي شعرت بأنها ممكنة، تجسّد لاحقاً نوربرت هانولد.

أما باقي القصة فالحافز إليه شعريٌّ. فقد كان من الضروري التمهيد له لتتعاظم لدى هانولد أخاييله الهاذية إلى حدّ مجاوز لكل ما هو ممكن، بله إلى حدّ العبث اللامعقول. وفي الواقع، كان قد وقع أسير أخيولة خارقة في شططها وشذوذها، كما أنه لم يكن، في باطن سريرته، مفتوناً بالجمال الأنثوي، وهذا ما كان يشفّ عنه استمتاعه بالمنحوتة. ولهذا بالتحديد كان أضراب «قيس وليلى» يوحون إليه بالاشمئزاز والنفور، لأنه كان يحمل في داخل نفسه صبوة كامنة إلى «مثل أعلى» أنثوي (إن لم يكن هناك أفضل من هذه التسمية). ولكنه بالمقابل ما كان يعرف شيئاً مما كان يجري حوله، وما كان يخامره سوى شعور بغياب شيء ما وبالافتقاد إليه إلى حدّ أن «الذباب» كان يعكّر مزاجه. ولقد كان الهدف من التوصيف تقديمه للقارئ باعتباره قابلاً للتصديق كنمط لفرد غير راضٍ عن نفسه، يخدع نفسه بنفسه، وهو على الدوام أسير خياله.

إن الإبداع الشعري يقتضي بالضرورة إقامة ترابط يبرره الواقع ويفرضه التشابه الخارجي بين المنحوتة وتلك المبعوثة إلى الحياة. وبديهي أن هذا التشابه تقريبي وليس مطابقاً تمام المطابقة، لا من حيث الوجه والسيماء ولا من حيث اللباس. كذلك ما كان الثوب المفصَّل من نسيج صيفي خفيف فاتح الألوان بثناياه العديدة القديمة الطراز يتنافر وشكل المنحوتة؛ وهذا كله يعضده الهواء الساخن الراعش تحت أوار الشمس، وانبهار العينين، ولمعان الضوء. ومع ذلك كان التطابق التام بين الشخصيتين من صنعه هو، إذ ذلك ما كانت توحي به



إليه أمنيته. هل تلعب دوراً هنا أيضاً ذكرى له عن رفيقة طفولة، وهي ذكرى استيقظت لديه فيما تحت عتبة الوعي؟ لست مستطيعاً توكيد ذلك، على الأقل فيما يتعلق بالمفعول الذي تحدثه لدى هانولد مشيةُ غراديفا. والحقّ أن ذلك هو نابض البناء بجملته، إذ كان هانولد قد استضاف هذا النابض داخل نفسه، وهو طفل، من دون أن يربط به أي شعور عاطفي؛ ثم لما صار إلى الرجولة استيقظت لديه، حين عاودت ظهورها، شهوة إيروسية مبهمة ما فتئت تشتدّ وتقوى تدريجياً حتى قوّضت في رأسه ملكوت العقل وأقامت مكانه أمنية خارقة القوة ورغبة ذات طبيعة حلمية.

هذا فيما يتعلق بالفكرة المركزية للسيرورة النفسية؛ أما التشابكات العديدة التي تؤطِّر هذه الفكرة لتدفع بها إلى الأمام، وأما كذلك مسلك غراديفا الحية ـ التي أدركت حالة «الجنون» التي آل إليها نوربرت إذ وجدت تفسيرها إلى حدّ ما في ذات نفسها ـ فمن المؤكد أنه لا حاجة بي هنا إلى تمحيصها بالتفصيل. فهذه القصة الصغيرة تولَّدت من حافز قاهر مفاجئ، أزاح الستار عن أن الدافع شبه الغريزي الذي قادني إلى كتابتها لا بدّ أن يكون اعتمل فيَّ على نحو لاشعوري. وبالفعل، كنت مستغرقاً في عمل ذي شأن نحيَّته جانباً على نحو مفاجئ لأسطر على الورق بسرعة، دونما سبق تعمُّد في الظاهر، بداية القصة، ولأوصلها إلى خاتمتها في بضعة أيام لا غير. ولم أعانِ من أي تلكؤ، بل كنت أجد دوماً ما أريده، ودونما حاجة ـ أكرر ذلك ـ إلى إعمال فكري فيه، إذ كان كل شيء جاهزاً، بدون أن تكون للأمر بجملته أي صلة بتجربة معاشة ذاتية، وإنما هي محض أخيولة متخيَّلة. وكان حالي كحال من يتقدم منزلقاً فوق نتوء فاصل بين معبرين وضيِّقٍ ضيقَ ظهر السكين، على نحو ما يقدر عليه النائم في نومه. والحق أن هذا ما يفعله كل إبداع أدبي، ولكن فقط على نحو معروف بقدر أو بآخر؛ وإنما بدالة ذلك جرى الحكم أيضاً على الـ«**غراديفا**». فكثيرون من الأشخاص صرَّحوا بأنها عمل صبياني أبله، بينما ارتأى آخرون أنها من أفضل ما كتبته. ولكن ليس لأحد أن يفلت في فهمها من طوق نفسه.

إنني لست بقادر، سيدي العزيز جداً، أن أكتب أكثر من ذلك جواباً عن



سؤالك، وأضيف فقط أنني وزوجتي سنكون مسرورين للغاية لو قادك طريقك هذا الصيف إلى منطقتنا وحثَّك على التفرُّع عنه وصولاً إلى بيتنا الريفي الصغير المصوَّر أعلاه[٤]، على بعد ٢٠ دقيقة من محطة بريان[٥].

تحية ودية

المخلص لك

فلهلم ينسن

٤ ـ أعلى صفحة الرسالة. «م».

٥ ـ بريان: مصيف سياحي على ضفاف بحيرة شيام في جبال الألب البافارية. «م».



الرسالة الثالثة[1]

ميونيخ، الدوار البافاري، ١٧

١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٧

سيدي الأستاذ المبجّل

أرجوك، بسبب زحمة الوقت، وخاصة في أيام عيد الميلاد هذه، والانشغال بكثرة الأولاد والأحفاد، أن تكتفي بردّ سريع مني على رسالتك.

كلا. ليس لي أخت[2]، ولا بوجه عام أهل من قرابة عصب الأب. بيد أن «**المظلة الحمراء**» قد حُبكت بالفعل انطلاقاً من ذكريات حياتي الشخصية،

---

١ ـ لما قرأ كارل يونغ أعمالاً أدبية أخرى لينسن اكتشف فيها موازيات عديدة لـ «**غراديفا**». وقد كتب في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٧ إلى فرويد يقول: «المشكلة هي مشكلة حب بين أخ وأخت. فهل لينسن أخت؟». وبدوره قرأ فرويد عدة قصص قصيرة لينسن. وعاد إلى تحليل **غراديفا** أمام أعضاء **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي** في جلستها بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر، ثم في ١١ كانون الأول/ ديسمبر، في معرض النقاش الذي أعقب محاضرة ماكس غراف[*] عن سيكولوجية الكاتب. وفي محاولة منه لتوضيح المسائل التي بقيت بلا حلّ وجّه رسالة ثالثة إلى ينسن، لم تصلنا هي الأخرى، فأجابه عنها هذا الأخير بتاريخ ١٤ كانون الأول/ ديسمبر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

(*) ماكس غراف: صحفي وناقد موسيقي نمساوي (١٨٧٣ ـ ١٩٥٨). اهتم بالتحليل النفسي بعد أن أصيب ابنه أيضاً ـ المعروف في التحليل النفسي باسم هانز الصغير ـ برهاب وطلب من فرويد أن يحلّله. وقد ابتعد فيما بعد رويداً رويداً عن التحليل النفسي، وعلى الأخص بعد طلاقه ثم زواجه من إحدى مريضات فرويد. «م».

٢ ـ بعد أن اطلع فرويد، بعد **غراديفا**، على قصتين قصيرتين أخريين لينسن، لم يعد يساوره شكّ في أن ينسن كانت له أخت وأنه كان على علاقة وثيقة بها في طفولته. وقد افترض، كما جاء في مداخلة له أمام **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي** في ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٧، أن « هذه الأخت، التي كانت بكل تأكيد قد ماتت، كانت تعاني من تشويه بالخلقة في قدمها». ويبدو أنه كتب بذلك إلى ينسن مستفهماً. «م».



وبالتحديد انطلاقاً من حبّ أول في شبابي لصديقة قريبة لي من طفولتي، رُبِّيتْ معي في بيت واحد وماتت بالسلّ في الثامنة عشرة من العمر، وانطلاقاً أيضاً، بعد سنوات عدة، من وجود فتاة صبية انعقدت بيني وبينها صلات ودية ولكنها ما عتمت بدورها أن عصفت بها يد المنون؛ وإنما من هذه الأخيرة جاءت **المظلة الحمراء**. أما فيما يتعلق بمشاعري فقد انصهر الوجهان في وجه واحد في الإبداع الشعري. كذلك إن العنصر الروحاني، الذي وجد تعبيره بوجه خاص في القصائد، يدين بأصله للفتاة الثانية. أما قصة «**حلم من عهد الشباب**» (في مجموعتي: **أيام هادئة**، م ٢) فمبنيَّة على الأساس نفسه، ولكنها راجعة إلى الفتاة الأولى حصراً.

بالمقابل، إن قصة «**في المنزل القوطي**» هي بتمامها من اختراع الخيال.

مع تحياتي الودية،

المخلص لك

فلهلم ينسن



ما بعد علم النفس



تقديم

في آذار/ مارس ١٩١٥ شرع فرويد بكتابة سلسلة من المقالات ترمي، بحسب تعبيره، إلى «توضيح الفرضيات النظرية التي يمكن أن يقوم على أساسها مذهب تحليلي نفسي وتعميقها»[1]. وكان في تصوره أن يصدر هذه السلسلة من المقالات في كتاب بعنوان: **مقدمات لعلم ميتاسيكولوجي**، على أن تضم اثني عشر مبحثاً. وفي رسالة منه إلى كارل أبراهام بتاريخ ٤ أيار/ مايو ١٩١٥، يذكر فرويد أنه أنجز كتابة خمسة مقالات هي على التوالي: **«الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية»**، **«الكبت»**، **«اللاشعور»**، **«تكملة ميتاسيكولوجية لنظرية الحلم»** و**«الحداد والسويداء»**. وهذه المقالات الخمسة هي وحدها التي وصلت إلينا، وهي التي اشتهرت باسم **ميتاسيكولوجيا**، أي **ما بعد علم النفس**[2].

وقد أنجز فرويد في الأشهر التالية كتابة المقالات السبعة المتوقعة الباقية. وفي آب/ أغسطس ١٩١٥ كان قد انتهى من الكتاب برمته. ولكن هذه المقالات السبعة لم تنشر قط، كما أنه ما أمكن العثور على مخطوطاتها. ولكن عناوين خمسة منها معروفة، وهي: **«الشعور»**، **«الحصر»**، **«الهستيريا الاستبدالية»**، **«العصاب الوسواسي»**، **«الأعصبة التحويلية بوجه عام»**. وأرجح الظن أن عنوان

١ ـ انظر الحاشية (١) في رابع مقالات هذا الكتاب: **تكملة ميتاسيكولوجية لنظرية الحلم**.

٢ ـ بعضهم ترجم خطأً كلمة «الميتاسيكولوجيا» بـ«علم النفس الغيبي» أو «علم النفس الميتافيزيقي». وقد كنا نحن أنفسنا ترجمناها في الطبعة الأولى بـ«ما وراء علم النفس»، وهي ترجمة ملتبسة، ومردّ هذا الالتباس إلى ما كان شائعاً في الثقافة العربية الحديثة، من ترجمة **ميتافيزيقيا** أرسطو بـ**علم ما وراء الطبيعة** مع أن المقصود هو **ما بعد الطبيعة**، أي **ما بعد كتاب الطبيعة**. وبالفعل، إن ما يرمي إليه فرويد من خلال اعتماد مصطلح الميتاسيكولوجيا هو التوكيد على النقلة من علم النفس الكلاسيكي المتمحور حول الشعور إلى علم النفس الجديد كما يتمثل بالتحليل النفسي المتمحور حول اللاشعور. «م».



المبحثين المتبقيين كان «**الإسماء**» و«**الإسقاط**»، على نحو ما ينبئنا إرنست جونز، واضع سيرة فرويد.

لماذا لم ينشر فرويد تلك المقالات السبعة؟ بل لماذا أتلف مخطوطاتها، على ما تشير الدلائل؟ إجابة عن هذا السؤال، يتقدم إرنست جونز أيضاً بالفرضية التالية: «أعتقد أن تلك المقالات كانت تمثل نهاية مرحلة، خلاصة ختامية لعمل حياته. وبالنظر إلى أنها حُرِّرت في وقت ما كان يلوح فيه بعد في الأفق أي بشير بالمرحلة الثالثة الكبرى من حياته، وهي المرحلة التي ستبدأ عام ١٩١٩، فأرجح الظن أنه نحّاها جانباً بانتظار نهاية الحرب. ولكن لما تبرعمت في عقله لاحقاً أفكار ثورية أخرى، أفكار جديدة حملته ولا بدّ على إعادة النظر جذرياً في أفكاره القديمة، قرّ قراره على إتلافها».

تبقى كلمة أخيرة عن أسلوب الترجمة. وهنا نستشهد بما قاله جيمس ستراتشي في تقديمه لترجمته مقالات **الميتاسيكولوجيا** الخمسة في طبعة ستاندارد الإنكليزية لمؤلفات فرويد الكاملة: «بالنظر إلى الأهمية الفائقة لهذه السلسلة من المقالات، وإلى الطابع المتراصّ لنهجها في المحاجّة، وإلى الغموض المرتبط بطبيعة الموضوع المعالج بالذات، فقد بذلنا قصارى جهدنا لأدائها بدقة متناهية. وقد حرصنا على أن تأتي الترجمة (وبخاصة في المقاطع الملتبسة) قريبة ما أمكن من الألمانية، ولو بدت على شيء من الغلظة».

هذه الأسطر التي تبناها المترجمان الفرنسيان عن المترجم الإنكليزي نتبناها بدورنا بالنسبة إلى الترجمة العربية، مشيرين إلى أن لغة فرويد «المفهومية» في هذه المقالات الخمس لا تحتمل، عند الترجمة، أي ضرب من «الإنشائية».

يبقى أن نقول إننا كنا اعتمدنا في ترجمة **ما بعد علم النفس** على الترجمة الصادرة عن منشورات غاليمار عام ١٩٦٨، والتي كان قام بها اختصاصيان كبيران في النظرية التحليلية النفسية وفي معجمها هما جان لابلانش وجان برتران بونتاليس. بيد أن صدور ترجمة فرنسية جديدة وأكثر تقيُّداً بحرف النص الألماني بقلم جانين ألتونيان وأندريه بورغينيون عن المنشورات الجامعية الفرنسية عام ١٩٨٨ في المجلد الثالث عشر من **مؤلفات فرويد الكاملة** أتاح لنا



أن ندخِل على هذه الطبعة الجديدة تعديلات واستدراكات طفيفة ـ والحق يقال ـ ولكن قمينة بأن تقرّب أكثر بعد إلى القارئ العربي هذا النص الذي هو من أصعب نصوص فرويد ومن أشدِّها تركيزاً وأوغلها في اللغة المفهومية الخاصة بالتحليل النفسي (وهذا ما اضطرنا أصلاً، في مواجهة بعض الإشكالات، إلى الرجوع إلى الترجمة الإنكليزية للنص بقلم جون ستراتشي الذي كان له السبق بمفرده إلى ترجمة كامل مؤلفات فرويد إلى الإنكليزية).

ج . ط



الدوافع الغريزية
ومصائر الدوافع الغريزية

كثيراً ما سمعنا بعضهم يفصح عن المطلب التالي: إن العلم لا يبنى إلا على أساس مفاهيم أساسية واضحة ودقيقة التحديد. وفي الواقع، لا يبدأ العلم، حتى ولو كان من أكثر العلوم دقة، بمثل هذه التعاريف. إنما البداية الحقيقية لكل نشاط علمي تكمن بالأحرى في وصف الظاهرات، ثم في تجميعها وتصنيفها وإدراجها في علاقات. وحتى في طور الوصف لا يمكن للمرء إلا أن يطبّق على المادة التي بين يديه بعض الأفكار المجرَّدة التي يكون قد اقتبسها من هنا وهناك، وبالتأكيد ليس من التجربة الجديدة وحدها. وأشباه هذه الأفكار ـ التي ستصبح هي مفاهيم العلم الأساسية ـ أكثر لزوماً أيضاً في الطور اللاحق، طور إعداد المواد وصياغتها. وهي تنطوي في البدء، وبالضرورة، على درجة معيَّنة من اللاتعيُّن والإبهام؛ فلا مجال للإحاطة بمضمونها إحاطة شاملة. وما دامت على هذه الحال، فليس من سبيل للاتفاق على مدلولها إلا بالإحالة المتكررة إلى مادة التجربة التي تبدو هذه الأفكار وكأنها منها قُبست، مع أن المادة المذكورة خاضعة لها في الواقع. لهذه الأفكار إذاً، بكل ما في الكلمة من معنى، طابع عُرفي أو اصطلاحي، وإن يكن كل شيء رهناً بواقع أنه ما تمّ اختيارها عسفاً وجزافاً، بل كانت متحددة بعلاقتها الوثيقة بالمواد الاختبارية: وهذه العلاقات يتراءى للمرء أنه حدس بها قبل أن تتاح له القدرة على معرفتها وعلى تقديم الدليل على ذلك. وإنما بعد تمحيص أعمق لمضمار الظاهرات موضوع البحث، يمكن للمرء أن يستوعب بمزيد من الدقة المفاهيم العلمية الأساسية التي يستلزمها المضمار المذكور، وأن يعدِّلها تدريجياً ليجعلها أكثر قابلية للاستعمال ومنعتقة من كل تناقض. وعندئذ يمكن أن يكون قد آن الأوان لحبسها في تعاريف. لكن تقدم المعرفة لا يسمح أيضاً بالتصلب في



التعاريف. وكما يعلمنا مثال الفيزياء على نحو باهر، يظل يطرأ تعديل دائم حتى على مضمون «المفاهيم الأساسية» التي جرى تثبيتها في تعاريف.

ثمة مفهوم أساسي اصطلاحي من هذا القبيل، لا يزال يحوطه في الوقت الراهن قدر من الإبهام، ولا نستطيع مع ذلك الاستغناء عنه في علم النفس: إنه **مفهوم الدافع الغريزي** TRIEB[١]. فلنحاول أن نعطيه مضموناً، بتناولنا إياه من جوانب شتى.

من زاوية الفيزيولوجيا أولاً. فقد قدَّمت لنا الفيزيولوجيا مفهوم **التنبيه** ومخطّط **الفعل المنعكس**؛ ووفق هذا المخطّط فإن التنبيه الآتي من الخارج إلى النسيج الحيّ (البنية العصبية) يتمّ تصريفه **باتجاه** الخارج في صورة فعل. ويكون هذا الفعل موائماً لغاية بعينها بقدر ما يعتق المادة المنبَّهة من فاعلية التنبيه ويبعدها عن مجال تأثيره.

ما العلاقة القائمة إذاً بين «الدافع الغريزي» وبين «التنبيه»؟ لا شيء يمنعنا من إدراج مفهوم الدافع الغريزي في مفهوم التنبيه، وفي هذه الحال يكون الدافع الغريزي بمثابة تنبيه للنفسي. لكن ينبغي أيضاً أن نحاذر إقامة علاقة تساوٍ بين الدافع الغريزي والتنبيه النفسي. فواضح للعيان أنه توجد، بالنسبة إلى النفسي، تنبيهات أخرى غير التنبيهات الغريزية، أعني تلك التي هي أقرب إلى التنبيهات الفيزيولوجية. فحين يباغت العينَ نور باهر، على سبيل المثال، فالتنبيه هنا لا يكون تنبيهاً غريزياً؛ ولكنه يكون كذلك فعلاً متى ما أحسّ المرء بالجفاف في غشاء البلعوم المخاطي أو بالتهيُّج في الغشاء المخاطي المَعِدي[٢].

لقد باتت متوفرة لدينا المادة الآن لتمييز التنبيه الغريزي من ضروب التنبيه الأخرى (الفيزيولوجية) التي تفعل فعلها في النفسي. فالتنبيه الغريزي لا يأتي، أولاً، من العالم الخارجي، بل من داخل البدن بالذات. لذا يكون تأثيره على

١ - يؤثر فرويد أن يعتمد، بدلاً من مفهوم الغريزة. INSINKT، مفهوم الدافع الغريزي TRIEB، الذي يقابله بالفرنسية لفظ PULSION، وبالإنكليزية لفظ DRIVE. «م».

٢ - هذا إذا سلَّمنا، طبعاً، بأن هذه السيرورات الباطنة هي الأسس العضوية للحاجتين اللتين نسميهما بالعطش والجوع.



النفس مغايراً أيضاً، كما أن تنحيته تتطلب أفعالاً أخرى. ثانياً، إن جوهر ما يمكن أن يقال عن التنبيه يكون قد قيل متى ما سلَّمنا بأنه يفعل فعله كقوة ذات مفعول وحيد؛ وفي هذه الحال يمكن إلغاؤه أيضاً بفعل مناسب وحيد؛ ونموذج هذا الفعل نستطيع أن نلفاه في الهرب الحركي أمام مصدر التنبيهات. وطبيعي أن تلك المفاعيل يمكن أن تتكرر وتتراكم، لكن هذا لا يغيّر شيئاً في تصور السيرورة وفي شروط إلغاء التنبيه. أما الدافع الغريزي، على العكس، فلا يفعل أبداً فعله **كقوة ذات مفعول حينيّ**، بل على الدوام **كقوة مستمرة**. وبما أنه لا يهاجم من خارج الجسم، بل من داخله، فليس ثمة من مهرب ناجع أمامه. والحق أنه يوجد مصطلح أفضل من مصطلح التنبيه الغريزي: إنه مصطلح «الحاجة»؛ وما يلغي هذه الحاجة هو «**الإشباع**». ولا سبيل إلى الفوز بالإِشباع إلا عنِ طريق تعديلٍ، متوائم مع الهدف ، للمصدر الداخلي للتنبيه.

لنضع أنفسنا في وضع كائن حيّ وهو في حالة عوز شبه تام، لم يشقّ طريقه بعد في العالم، ويتلقى مع ذلك تنبيهات في بنيته العصبية. فمثل هذا الكائن سيمتلك سريعاً جداً المقدرة على القيام بتمييز أولي وعلى تحديد اتجاه بدئي لنفسه. فمن جهة أولى، سيحسّ بتنبيهات يستطيع أن يتملص منها بفعل عضلي (الهرب)، وهو يعزو هذه التنبيهات إلى العالم الخارجي؛ لكنه سيحسّ أيضاً، من الجهة الثانية، بتنبيهات لا يجدي معها فعل كهذا نفعاً، بل تحافظ، رغم هذا الفعل، على صفتها الدفعية الدائمة؛ وهذه التنبيهات هي علامة على وجود عالم داخلي، ودليل على الحاجات الغريزية. وهكذا تحصل البنية الإدراكية لدى الكائن الحيّ، من خلال فاعلية نشاطه العضلي ونجعه، على نقطة ارتكاز لتفريق «الخارج» من «الداخل».

إننا نتعرف إذاً ماهية الدافع الغريزي في صفاته الرئيسية أولاً: صدوره عن مصادر تنبيهية في داخل البدن، وتظاهره كقوة مستمرة؛ ثم نستنتج من ذلك سمة أخرى من سماته: استحالة التملص منه بأفعال هروبية. لكن لا بدّ أن شيئاً ما قد استرعى انتباهنا أثناء هذه المناقشة، وهو ما يرغمنا الآن على الإدلاء باعتراف إضافي. فنحن لا نطبّق على مادتنا الاختبارية بعض الاصطلاحات، في



شكل مفاهيم أساسية، فحسب، بل نستخدم أيضاً عدة **مفترضات** معقدة لنسترشد بها في دراسة عالم الظاهرات السيكولوجية. وقد سبق لنا أن استعنَّا بواحد من أهم هذه المفترضات؛ وما علينا الآن إلا أن نميط عنه اللثام سافراً. فهذا المفترض ذو طبيعة **بيولوجية**، وأداته في العمل مفهوم الميل (وعند الاقتضاء مفهوم الغائية)، وبيانه كالآتي: إن الجهاز العصبي جهاز مولج بوظيفة إقصاء التنبيهات في كل مرة تطاله فيها، وإرجاعها إلى مستوى متدنٍ إلى أقصى ما يمكن؛ بل بودّه، لو كان ذلك في المستطاع، أن يبقى على الدوام في حالة من عدم التنبيه. ولا داعي لأن نتوقف، الآن، عند غموض هذه الفكرة، بل لنعزُ إلى الجهاز العصبي، بمصطلحات عامة، مهمة **السيطرة على التنبيهات**. عندئذ ندرك مدى التعقيد الذي يطرأ على المخطط الفيزيولوجي البسيط للفعل المنعكس نتيجة لإقحام الدوافع الغريزية. فالتنبيهات الخارجية لا تفرض سوى مهمة واحدة: التملص منها، وهذا ما يتحقق بحركات عضلية ينتهي الأمر بواحدة منها إلى بلوغ الهدف؛ وبالنظر إلى أن هذه الحركة هي أنسب الحركات، فإنها لا تلبث أن تتحول إلى استعداد وراثي. أما التنبيهات الغريزية، التي يكمن أصلها في داخل البدن، فلا سبيل إلى تصفيتها بهذه الطريقة. إذ هي تخضع في الجهاز العصبي لمطالب أسمى بكثير، وتحضّه على أنشطة معقدة، متشابك بعضها ببعض، تحمل إلى العالم الخارجي التعديل الواجب لإشباع المصدر الداخلي للتنبيهات؛ وهي تجبره قبل كل شيء على العزوف عن نيته المثالية في تنحية التنبيه جانباً، لأنها ترعى دفقاً محتملاً ومتواصلاً من التنبيهات. بوسعنا إذاً أن نخلص إلى القول بثقة إن الدوافع الغريزية، وليس التنبيهات الخارجية، هي المحركات الحقيقية للتقدم الذي رفع الجهاز العصبي، بكل طاقاته اللامحدودة، إلى المرتبة الراهنة من نموه. وطبيعي أنه ليس ثمة ما يمنعنا من التسليم بأن الدوافع الغريزية لا تعدو هي ذاتها، وبصورة جزئية على الأقل، أن تكون ترسبات لمفاعيل التنبيه الخارجي أثَّرت في المادة الحية وعدَّلتها في مجرى تطور النوع البشري.

حين نلاحظ، بعد ذلك، أن نشاط الأجهزة النفسية الأكثر تطوراً يخضع بدوره **لمبدأ اللذة**، أي أنه معيَّر ومضبوط آلياً من قبل أحاسيس سلسلة اللذة/



الكدر، فإنه سيشقّ علينا أن نرفض الفرضية الجديدة التالية: إن هذه الأحاسيس تكرر سيرورة السيطرة على التنبيهات. وهذا، بكل تأكيد، بمعنى أن إحساس الكدر يتناسب مع تزايد في التنبيه، بينما يتناسب إحساس اللذة مع تناقص في هذا التنبيه. غير أننا نحرص على التنويه بالطابع الشديد الإبهام لهذه الفرضية، وذلك ما دمنا لما نفلح بعد في كشف طبيعة العلاقة بين اللذة/ الكدر[٣] وبين التبدلات في كميات التنبيه التي تفعل فعلها في الحياة النفسية. ولا مرية في أننا نستطيع أن نتخيل ضروباً شتى من العلاقات، وعلاقات هي على درجة لا بأس بها من التعقيد.

إذا تأملنا الآن الحياة النفسية انطلاقاً من وجهة النظر البيولوجية ، بدا لنا مفهوم «الدافع الغريزي» مفهوماً حدياً يقع عند التخوم الفاصلة بين النفسي والبدني، ممثِّلاً نفسياً للتنبيهات الآتية من داخل الجسم والواصلة إلى النفس، مقياساً لمطلب المجهود المفروض على النفسي من جراء ارتباطه بالجسمي.

بوسعنا الآن أن نناقش بعض المصطلحات المستخدمة في معرض الكلام عن مفهوم الدافع الغريزي، نظير: ضغط الدافع الغريزي، هدفه، موضوعه، مصدره.

نقصد **بضغط** الدافع الغريزي العامل المحرِّك له، مبلغ القوة أو مقدار مطلب العمل الذي يمثِّله هذا الدافع. أما النعت «ضاغط» فهو صفة عامة للدوافع الغريزية، بل جوهرها وماهيتها بالذات. فكل دافع غريزي هو بالضرورة إيجابي؛ وحينما نتحدث، ببعض التهاون، عن دوافع غريزية سلبية، لا يمكن أن نعني بكلامنا هذا سوى الدوافع الغريزية ذات الهدف السلبي.

أما **هدف** الدافع الغريزي فهو على الدوام الإشباع الذي لا سبيل إليه إلا بإلغاء الحالة التنبيهية في مصدر الدافع الغريزي. لكن بالرغم من أن هذا الهدف النهائي لا يتبدل بالنسبة إلى أي دافع من الدوافع الغريزية، فثمة طرق شتى يمكن أن تقود

---

٣ ـ يواجه المترجمَ العربي إشكالٌ في ترجمة المصطلح الطباقي الألماني (وكذلك الإنكليزي) lust/unlust كما يداوره فرويد: فهو حرفياً: اللذة/ اللالذة، وهو ما تقيَّد به المترجم الفرنسي باستعماله تعبير: plaisir/déplaisir. وقد ذهبت المدرسة المصرية إلى ترجمته بـ (اللذة/ الألم)، وهي ترجمة لا تخلو من غلوّ، إذ إن عدم اللذة ليس بالضرورة ألماً. ومن هنا آثرنا ترجمته إلى: (اللذة/ الكدر). «م».



إلى الهدف النهائي ذاته، بحيث أن أهدافاً متباينة، قريبة أكثر أو وسيطة، يمكن أن تضع نفسها في مرمى الدافع الغريزي؛ وهذه الأهداف تتراكب أو يحلّ بعضها محلّ بعضها الآخر. وتبيح لنا التجربة أن نتكلم أيضاً عن دوافع غريزية «**مكفوفة من حيث الهدف**»، وذلك في حالة السيرورات التي يباح فيها حدوث بعض التقدم في أول الأمر على طريق الإشباع الغريزي دونما اعتراض في البداية، لكن التي لا تلبث بعد ذلك أن تتعرض لكفّ أو تحويل لمجراها. ويسعنا الافتراض بأنه حتى في هذه السيرورات لا يخلو الأمر من إشباع جزئي.

أما **موضوع** الدافع الغريزي فهو ما به أو فيه يمكن للدافع الغريزي أن يصل إلى هدفه. وهو الجانب الأكثر تقلباً في الدافع الغريزي، علاوة على أنه لا يرتبط به من الأصل، بل يُستلحق به استلحاقاً، وذلك على وجه التحديد بسبب ما يتمتع به من قدرة خاصة على جعل الإشباع ـ الملحق به ـ ممكناً. وليس هو بالضرورة موضوعاً غريباً، ولكنه قد يكون كذلك جزءاً من جسم الشخص ذاته. ومن الممكن تبديله بحسب المراد، عبر جميع المصائر التي يمرّ بها الدافع الغريزي؛ وإنما إلى حراك الدافع الغريزي هذا يرجع الدور الأهمّ بإطلاق. فقد يتّفق أن يعمل موضوع واحد في إشباع عدة دوافع غريزية في آن واحد: وتلكم هي الحالة التي يسمّيها ألفريد آدلر **بتصالب الدوافع الغريزية**[٤]. وحين يكون ارتباط الدافع الغريزي بالموضوع وثيقاً للغاية، نشير إليه عندئذ باسم **التثبيت**. وغالباً ما يتحقق التثبيت في المراحل الأولى من بداية نمو الدافع الغريزي، ويضع حداً لحركية هذا الأخير بمقاومته العنيفة لكل محاولة لتذويبه.

وأما **مصدر** الدافع الغريزي فنقصد به تلك السيرورة البدنية المتموضعة في عضو أو جزء من الجسم والتي يتولى تمثيل تنبيهها في الحياة النفسية الدافع الغريزي. ونحن لا نعرف إن كانت هذه السيرورة من طبيعة كيماوية صرف أم أنها تتطابق أيضاً مع إطلاق قوى أخرى، ميكانيكية على سبيل المثال. ودراسة

٤ ـ ألفريد آدلر: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧). قاد أحد أكبر انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي، ووضع مذهب علم النفس الفردي والطبعي. والإحالة في النص إلى مقالته **الدافع الغريزي إلى العدوان في الحياة وفي العصاب**. «م».



مصادر الدوافع الغريزية تتخطى حقل علم النفس؛ فبالرغم من أن الصدور عن المصدر البدئي هو العنصر الحاسم الأهمية بالنسبة إلى الدافع الغريزي، فإننا لا نعرف هذا الأخير إلا بأهدافه. وبالنظر إلى ما يبتغي مبحث علم النفس الوصول إليه، فإن معرفةً أدقَّ بمصادر الدوافع الغريزية ليست ضرورية مطلق الضرورة. وفي بعض الأحيان، قد يكون ممكناً الرجوع بالاستنتاج من أهداف الدافع الغريزي إلى مصادره.

أيتوجب علينا أن نسلِّم بأن الدوافع الغريزية المختلفة المنبثقة عن الجسمي والفاعلة في النفسي تتميز أيضاً بسمات مختلفة، وبأنه لهذا السبب يأتي مسلكها في الحياة النفسية مختلفاً بصورة نوعية؟ هذا لا يبدو مسوَّغاً؛ بل يكفينا بالأحرى أن نسلِّم ببساطة بأن الدوافع الغريزية متشابهة جميعها كيفاً وبأنها تدين بمفعولها لمقدار حمولتها من الكميات التنبيهية التي تحملها، وربما أيضاً لبعض وظائف هذا الكمّ. وما يميِّز المفاعيل النفسية للدوافع الغريزية بعضها عن بعض يمكن إرجاعه إلى الاختلاف في مصادر هذه الدوافع. ومهما يكن من أمر، فلسنا بمستطيعين لاحقاً أن نسلط الضوء على مدلول مشكلة نوع الدوافع الغريزية إلا في سياق مغاير.

كم عدد الدوافع الغريزية التي يمكن لنا افتراض وجودها؟ وما هي؟ هنا ينفسح، بكل بداهة، المجال واسعاً أمام العسف والحكم الكيفي. فنحن لا نستطيع أن نعترض بشيء على من يستخدم مفهوم دافع غريزي إلى اللعب، أو دافع غريزي إلى التدمير، أو دافع غريزي إلى التجمع حيثما اقتضى الموضوع ذلك، وما دمنا ضمن النطاق المحدود للتحليل السيكولوجي. لكن لا يجوز أن نتقاعس عن التساؤل عما إذا لم تكن هذه الدوافع الغريزية، المتخصصة إلى درجة عالية بمعنى من المعاني، تستوجب تحليلاً أكثر عمقاً باتجاه المصادر الغريزية، بحيث لا يعود ممكناً لغير الدوافع الغريزية الأصلية وغير القابلة للتجزئة أن تزعم لنفسها أهمية ما.

لقد اقترحت تمييز مجموعتين من الدوافع الغريزية الأُصلية، مجموعة **الدوافع الأنوية** أو **دوافع المحافظة على الذات**، ومجموعة **الدوافع الجنسية**. لكن ليس لهذا التمييز أهمية الفرضية الضرورية كتلك المتعلقة بالميل البيولوجي للجهاز



النفسي (انظر أعلاه)؛ بل هو محض افتراض مساعد لا داعي للتمسك به إلا ما دام نافعاً، ومن الممكن استبداله بأي افتراض آخر من دون أن يغيِّر ذلك شيئاً يذكر في نتائج عملنا في وصف الوقائع وتصنيفها. وعلة هذا التمييز تكمن في تاريخ تطور التحليل النفسي الذي جعل موضوعه الأول الأعصبة النفسية، أو بتعبير أدقّ، ومن بين هذه الأعصبة، المجموعة التي نستطيع أن نشير إليها باسم الأعصبة التحويلية[٥] (الهستيريا والعصاب الوسواسي): فقد أفسحت هذه المجموعة في المجال لكي ندرك أنه في جذر كل إصابة من هذا النوع ينبغي أن نكتشف نزاعاً بين مطالب الجنسية ومطالب الأنا. وأياً ما يكن من أمر فإنه من المحتمل أن ترغمنا دراسة معمقة للإصابات العصابية الأخرى (وعلى الأخص الأعصبة النفسية النرجسية: أنواع الفصام) على تغيير تلك الصيغة، وفي الوقت نفسه، على تصنيف الدوافع الغريزية الأصلية تصنيفاً مغايراً. لكن لا علم لنا في الوقت الحاضر بهذه الصيغة الجديدة، بل ليس عندنا من حجة يمكن الاستناد إليها في مناقضة تمييزنا بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية.

وبعد كل حساب وتقدير، أشكّ في أن يغدو في الإمكان ذات يوم تجميع مؤشرات قاطعة للفصل بين الدوافع الغريزية ولتصنيفها بالاستناد إلى دراسة المادة النفسية. بل يبدو أنه من الضروري بالأحرى، لدراسة هذه المادة، أن نطبّق عليها بعض الفرضيات المتعلقة بالحياة الغريزية، وإن يكن ثمة ما نتمناه فهو أن تتاح لنا الإمكانية لاقتباس هذه الفرضيات من مضمار آخر بهدف تحويلها إلى علم النفس. وما يقدمه لنا علم الأحياء بهذا الصدد لا يناقض بحال من الأحوال تقسيمنا للدوافع الغريزية إلى غرائز أنوية وغرائز جنسية. فعلم الأحياء ينبئنا أن الجنسية لا يمكن أن توضع على مستوى واحد وسائر وظائف الفرد، على اعتبار أن ميولها ومنازعها تتجاوز الفرد، وغايتها إنتاج أفراد جدد، أي المحافظة على

---

٥ ـ يطلق فرويد اسم الأعصبة التحويلية Névroses de transfert على ما يكون من الأعصبة مرتبطاً عند معالجتها بإسقاط المريض لمشاعره الحبّية أو العدائية على شخص المحلّل النفسي نفسه. وترتبط الأعصبة التحويلية دوماً برضّة طفلية على عكس الأعصبة الراهنة Névroses actuelles التي ترتبط، كأعصبة الحرب، برضّة معاصرة. «م».



النوع البشري. وهو يبيِّن لنا، فضلاً عن ذلك، أن ثمة تصورين للعلاقة بين الأنا والجنسية يتحاذيان، ولكل منهما مبرراته؛ فالفرد، بموجب أحد التصورين، هو الأساس والجوهر، والجنسية تُعدّ في هذه الحال نشاطاً من أنشطته، والإشباع الجنسي حاجة من حاجاته؛ وبالمقابل، إن الفرد، بموجب التصور الثاني، استطالة مؤقتة وعابرة للأَثَلَة الرشيمية **Plasma germinatif**، شبه الخالدة، التي أورثه إياها النوع البشري. والفرضية القائلة إن الوظيفة الجنسية تختلف، بكيماويتها الخاصة، عن سائر السيرورات البدنية تشكل هي الأخرى، على حدّ علمي، مسلمة من مسلمات مبحث إرليخ[٦] البيولوجي.

بما أن دراسة الحياة الغريزية انطلاقاً من الشعور تعترضها صعوبات وعقبات لا يكاد هناك من سبيل إلى تذليلها، لذا يبقى التقصي التحليلي النفسي للاضطرابات النفسية المصدر الرئيسي لمعارفنا. لكن التحليل النفسي ما أمكنه حتى اليوم، وعلى ضوء تطوره، أن يأتينا بمعلومات مُرضية نسبياً إلا عن الدوافع الغريزية الجنسية، وهذا على وجه التحديد لأنه ما كان ممكناً له أن يرصد في الأعصبة النفسية سوى هذه الفئة من الدوافع الغريزية، بعد عزلها إن صح التعبير. ويوم يتسع نطاق التحليل النفسي ليشمل الأمراض العصابية الأخرى، فإن معرفتنا بالدوافع الغريزية الأنوية ستقوم بدورها على أساس صلب ومتين، وإن بدا أنه ضرب من المجازفة أن نتوقع من هذا المضمار الجديد للبحث شروطاً موائمة بالمقدار نفسه للملاحظة والدراسة.

فيما يخص السمات العامة للدوافع الغريزية الجنسية، نستطيع أن نقول ما يلي: إنها عديدة، متـأتية من مصادر عضوية عديدة هي الأخرى، تتظاهر للعيان في البدء مستقلة بعضها عن بعض، ولا يلتئم شملها في تركيب متفاوت الكمال إلا في زمن لاحق. والهدف الذي ينشده كل دافع منها هو الفوز **بلذة متموضعة عضوانياً**؛ وإنما عندما يتمّ التركيب، تدخل الدوافع مجتمعة في خدمة **الوظيفة التناسلية**، وبهذه الصفة يتمّ تعرفها بوجه عام كدوافع غريزية جنسية. ويكون

٦ ـ بول إرليخ: طبيب وباحث بيولوجي ألماني (١٨٥٤ ـ ١٩١٥). نال جائزة نوبل سنة ١٩٠٨. «م».



مرتكزها، عند ظهورها الأول، إلى غرائز البقاء، التي لا تنفصل عنها إلا تدريجياً، كما أنها تسلك، في اكتشافها لموضوعها، الطرق التي تدلها عليها الدوافع الغريزية الأنوية. ويبقى قسم منها مرتبطاً بالدوافع الغريزية الأنوية على مدى الحياة فيزودها بمقوّمات **ليبيدوية** قابلة بسهولة للاحتجاب عن الأنظار في الحالة السوية ولا يميط اللثام عنها سوى المرض. وما يميّزها هو قابليتها الكبيرة لأن يحلّ بعضها محل بعضها الآخر، على نحو تعاوضي، ولأن تتبادل بسهولة مواضيعها. ومن هذه الخصائص الأخيرة نستنتج أنها قادرة على تحقيق إنجازات بعيدة جداً عن الأفعال التي تفرضها الأهداف الأصلية (**الإسماء** Sublimation).

ما المصائر التي يمكن أن تؤول إليها الدوافع الغريزية في مجرى التطور والحياة؟ هنا نجد أنفسنا ملزمين بأن نحدّ هذا البحث بالدوافع الغريزية الجنسية، المعروفة لدينا أكثر من سواها. وتعلمنا الملاحظة الراصدة أن مصائر هذه الدوافع هي التالية:

- الانقلاب إلى النقيض.
- الارتداد إلى شخص الذات.
- الكبت.
- الإسماء.

وبما أنني لا أنوي أن أعالج هنا الإسماء، وبما أن الكبت يستلزم من جهة أخرى فصلاً على حدة، لا يبقى أمامنا سوى أن نصف ونناقش النقطتين الأوليين. وإذا أخذنا بعين الاعتبار البواعث التي تحول دون سلوك الدوافع الغريزية لطريقها بصورة مباشرة، يغدو في مقدورنا أيضاً أن نصوِّر مصائر الدوافع الغريزية على أنها كيفيات **دفاعية** ضد هذه الدوافع عينها.

إن **الانقلاب إلى النقيض**، إذا ما أنعمنا فيه النظر عن كثبْ، ينقسم إلى سيرورتين مختلفتين: من جهة أولى **ارتداد الدافع الغريزي من الإيجابية إلى السلبية**، ومن الجهة الثانية **انعكاس المضمون**. وبالنظر إلى الاختلاف الجوهري بين السيرورتين، فلا بدّ من معالجة كل منهما على حدة.



يقدِّم لنا طباق السادية/ المازوخية وطباق التلصصية/ الاستعرائية أمثلة على السيرورة الأولى. فالانقلاب لا يطال سوى أهداف الدافع الغريزي؛ فالهدف الموجب: أن يعذِّب، أن ينظر، يحلّ محلّه هدف سالب: أن يكون معذَّباً، منظوراً. أما انعكاس المضمون فلا يحدث إلا في حالة واحدة: تحول الحب إلى كره.

ومن الممكن أن نفهم **الارتداد إلى شخص الذات** فهماً أفضل فيما لو رأينا في المازوخية سادية مرتدة إلى الأنا، وفيما لو أدركنا أن الاستعرائية تتضمن أيضاً واقعة تفرّج الإنسان على جسمه. والملاحظة التحليلية تقطع دابر كل شك بصدد هذه النقطة: فالمازوخي يلتذّ هو الآخر بالعنف الموجَّه إلى شخصه بالذات، والاستعرائي يشاطر من يتفرج عليه وهو يتعرى متعتَه. جوهر السيرورة هنا هو إذاً تغيُّر **الموضوع**، بينما يبقى الهدف بلا تغيير.

غير أنه لا يمكن أن يغيب عن ذهننا أن الارتداد إلى شخص الذات والانقلاب من الإيجابية إلى السلبية، في الأمثلة الآنفة الذكر، يتلاقيان أو يتداخلان. ومن ثم، يتطلب توضيح هذه العلاقات المزيد من البحث والتبحر.

فيما يتعلق بطباق السادية/المازوخية، نستطيع أن نصوِّر السيرورة على النحو التالي:

أ ـ تكمن السادية في نشاط عنفي، في إظهار للقوة تجاه شخص آخر منظور إليه كموضوع.

ب ـ هذا الموضوع يُهجر ويُستبدل بذات الشخص نفسه. ومع الارتداد إلى شخص الذات، يتحول الهدف الغريزي الإيجابي إلى هدف سلبي.

ج ـ من جديد يجري البحث عن شخص غريب ليكون موضوعاً، وهذا الشخص يتوجَّب عليه، بحكم التحول الطارئ على الهدف، أن يقوم بدور الذات.

والحالة (ج) هي ما يسمى عادة بالمازوخية. والإشباع يمرّ، في هذه الحالة أيضاً، بطريق السادية الأصلية، وذلك بقدر ما يستعيد الأنا السلبي، في الخيال والتوهم،



مكانه السابق الذي تخلى عنه للذات الغريبة. ونحن ما عدنا نملك أن نماري في أنه يوجد أيضاً إشباع مازوخي أكثر اتساماً بالصفة المباشرة. ولكن يُخيَّل إلينا أنه لا وجود لمازوخية أصلية لا تنبع من السادية، على نحو ما بيَّنتُ[٧]. وفرضية الطور (ب) ليست فائضة عن الحاجة إذا ما ربطنا بينها وبين سلوك الدافع الغريزي السادي في العصاب الوسواسي. ففي هذا العصاب يوجد ارتداد نحو شخص الذات من دون أن يكون ثمة وجود لسلبية تجاه شخص آخر. والتحول لا يتعدى الطور (ب). فالحاجة إلى التعذيب تصبح عذاباً منزلاً بالذات، عقاباً ذاتياً وليس نزعة مازوخية. والتحول الذي يطرأ على صيغة الفعل ليس تحولاً من الصيغة الفاعلية Voix Active إلى الصيغة المفعولية Voix Passive، بل إلى صيغة وسطية منعكسة، الفعل فيها يفعله الفاعل ويقع عليه في آن معاً Voix Réfléchie[٨].

ويصطدم فهم السادية بدوره بالإشكال التالي: فهذا الدافع الغريزي يبدو وكأنه ينشد، إلى جانب هدفه العام (أو ربما بتعبير أصح: في داخل هذا الهدف)، عملاً يفرضه هدف خاص تماماً. فثمة حاجة إلى الإذلال، إلى السيطرة، ولكن كذلك إلى إنزال الألم. والحال أن التحليل النفسي يؤكد، على ما يبدو، أن إنزال الألم لا يضطلع بأي دور في الأهداف التي ينشدها في الأصل الدافع الغريزي. فإنزال الألم لا اعتبار له عند الطفل السادي، وليس هو طلبته. لكن ما إن يتمّ التحول إلى المازوخية، حتى تصبح الآلام مهيأة تماماً لأن تقدِّم هدفاً سلبياً مازوخياً؛ وبالفعل، تحدونا أسباب وجيهة للتسليم بأن إحساسات الألم، مثلها مثل إحساسات تنغيصية أخرى، تتصل بمضمار التنبيه الجنسي وتتسبب في إحداث حالة من اللذة؛ ولهذا يمكن للإنسان أيضاً أن يقبل بتنغيص الألم. وما إن

٧ - (إضافة في سنة ١٩٢٤) - في مباحث لاحقة (انظر: **المشكلة الاقتصادية للمازوخية**، ١٩٢٤) قلت بأطروحة معاكسة فيما يخص مشكلات الحياة الغريزية (انظر ترجمتنا للمبحث المشار إليه في: **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي**، في المجلد ٤ من **المؤلفات شبه الكاملة**). «م».

٨ - الصيغة الفاعلية، وتقابلها بالعربية صيغة التعدي للمعلوم، الفعل فيها يفعله الفاعل ويقع على المفعول. وعكسها الصيغة المفعولية، وتقابلها بالعربية صيغة التعدي للمجهول، الفعل فيها يقع على الفاعل ويقوم به نائبه، أي المفعول. أما الصيغة الضميرية فلا مقابل لها بالعربية، وهي صيغة الفعل الذي يُصرَّف مع ضمير الفاعل، والفاعل فيها هو المفعول به. «م».



تغدو معاناة الألم هدفاً مازوخياً حتى تتاح الإمكانية، ولو ارتجاعياً، لظهور الهدف السادي الذي يتمثل في إنزال الآلام. وعندئذ يلتذ الإنسان، الذي يتسبب في هذه الآلام لغيره، التذاذاً مازوخياً من خلال تماهيه مع الموضوع المكابد من الآلام. وطبيعي أن الالتذاذ في كلتا الحالتين ليس التذاذاً بالألم ذاته، بل بالتنبيه الجنسي المصاحب له، وهذا شيء مريح للغاية في وضع السادي. الالتذاذ بالألم هو إذاً هدف مازوخي في الأصل، لكن لا يمكن له أن يغدو هدفاً لدافع غريزي إلا على خلفية سادية أصلية.

وسوف أضيف، حرصاً على استكمال سائر جوانب البحث، أن **الشفقة** لا يمكن أن توصف بأنها نتيجة لتحول الدافع الغريزي في نطاق السادية، بل تتطلب الأخذ بمفهوم **التشكيل الارتجاعي** Formation ractionnelle ضد الدافع الغريزي (انظر الفرق في موضع لاحق).

وتقدِّم لنا دراسة طباق آخر نتائج مختلفة إلى حدّ ما وأكثر بساطة: طباق الدوافع الغريزية التي هدفها النظر والإراءة (المتلصص والاستعرائي في لغة الانحرافات). وهنا نستطيع أن نقرر وجود أطوار مماثلة لتلك التي مرّت بنا في الحالة السابقة.

أ ـ النظر، بوصفه **إيجابية** موجهة نحو موضوع غريب.

ب ـ العزوف عن الموضوع وارتداد دافع النظر الغريزي إلى قسم من جسم الذات؛ وفي الوقت نفسه الانقلاب إلى السلبية وتعيين هدف جديد: أن يكون الشخص منظوراً.

ج ـ إقحام شخص جديد يُري الشخص ذاته له حتى يغدو منظوراً من قبله.

ولا مرية، هنا أيضاً، في أن الهدف الإيجابي يظهر قبل الهدف السلبي، وأن الناظرية تستبق المنظورية. لكن ثمة فارقاً مهماً في حالة السادية: ففيما يتعلق بالدافع الغريزي إلى النظر نكتشف طوراً سابقاً حتى للطور الموصوف في البند (أ). وبالفعل، إن الدافع الغريزي إلى النظر هو، في بداية نشاطه، دافع إيروسي ذاتي؛ صحيح أن له موضوعاً، ولكنه واجده في جسم ذاته. وإنما في زمن لاحق



فحسب ينقاد (بطريق المقارنة) إلى مقايضة هذا الموضوع بموضوع مشابه في الجسم الغريب (الطور أ). والحال أن هذا الطور التمهيدي له أهميته من حيث أنه منه تحديداً ينبع الموقفان المتضادان المتحددان بكون التغيير قد تمّ في هذا الاتجاه أو في ذاك. ولعلنا نستطيع أن نقترح المخطط البياني التالي للدافع الغريزي إلى النظر:

أ ـ أن ينظر الشخص المعني إلى عضو جنسي:	العضو الجنسي منظوراً إليه من قبل الشخص المعني
ب ـ أن ينظر الشخص المعني إلى موضوع غريب إليه (لذة النظر الإيجابية)	ج ـ موضوع الشخص المعني منظوراً من قبل شخص غريب (لذة الإراءة، الاستعراء)

إن طوراً تمهيدياً كهذا عديم الوجود في حالة السادية التي تتجه دفعة واحدة نحو موضوع خارجي؛ ومع ذلك قد لا يكون من العبث الذي لا طائل فيه أن نبني السادية بدءاً من جهود الطفل الراغب في السيطرة على أعضاء جسمه بالذات[٩].

فيما يخص المثالين موضوع البحث هنا من أمثلة الدوافع الغريزية، نستطيع أن نلاحظ أن تحول الدافع الغريزي عن طريق الانقلاب من الإيجابية إلى السلبية والارتداد إلى شخص الذات لا يطالان أبداً، بحصر معنى الكلام، كل كمّ الحاثّة Motion الغريزية. فالتوجه الأول، الإيجابي، يظل قائماً، ضمن نسبة معينة، إلى جانب التوجه الثاني، السلبي، حتى بعد أن تكون سيرورة تحول الدافع الغريزي قد قطعت شوطاً قصياً. ولعل الشيء الوحيد الصحيح الذي يمكن أن يقال عن الدافع الغريزي إلى النظر هو ما يلي: إن جميع أطوار الدافع الغريزي، سواء الطور التمهيدي الإيروسي الذاتي منها أو التشكيلان النهائيان الإيجابي

٩ ـ انظر الهامش رقم ٧ (هامش أضيف سنة ١٩٢٤).



والسلبي، تظل قائمة بعضها بمحاذاة بعضها الآخر. وما نفترضه هنا يغدو من بديهيات الأمور إذا استندنا في حكمنا هذا، لا إلى الأعمال التي يقود إليها الدافع الغريزي، بل إلى آلية الإشباع. ولعله من المشروع، في الأحوال جميعاً، أن نتصوَّر وأن نصوِّر الأشياء بصورة أخرى بعد. ففي مستطاعنا، لو شئنا، أن نفكِّك حياة كل دافع جنسي إلى موجات منعزلة، منفصلة في الزمن، متجانسة في داخل وحدة زمنية محددة، والعلاقة القائمة فيما بينها مماثلة تقريباً للعلاقة القائمة بين الطفحات المتعاقبة للحمم البركانية. عندئذ نستطيع أن نتصور الأمور على النحو التقريبي التالي: إن الطفح الغريزي الأول، الأكثر تأصلاً، يستمرّ ويدوم بلا تغيير ولا يطرأ عليه أي تطور البتة. بيد أن الموجة التالية تخضع من البداية لتبديل، نظير الانقلاب إلى السلبية على سبيل المثال، وتلحق عندئذ، بصفتها الجديدة هذه، بالموجة السابقة، وهكذا دواليك. وإذا ما ألقينا بعدئذ نظرة إجمالية على الحاثة الغريزية، من بدايتها إلى نقطة توقف معينة، وجدنا أن تعاقب الموجات، على حدّ ما وصفناه، لا يمكن إلا أن يقدِّم لنا صورة عن تطور معيَّن للدافع الغريزي.

وأن يكون في مستطاعنا، في هذه المرحلة المتقدمة من التطور، أن نرصد إلى جانب الحاثة الغريزية نقيضها (السلبي)، فهذا ما يستأهل أن ننوِّه به مطلقين عليه المصطلح الممتاز الذي اعتمده بلولر، نعني **الازدواجية** Ambivalence[10].

إننا نخطو خطوة واسعة إلى الأمام في فهم تطور الدافع الغريزي لو رجعنا إلى تاريخ نمو هذا الدافع وإلى ديمومة الأطوار الوسيطة. وتدل التجربة أن كمية الازدواجية القابلة للكشف تتفاوت تفاوتاً واسعاً بحسب الأفراد أو الجماعات أو الأجناس. ومن الممكن أن نفترض أن وجود كمية كبيرة من الازدواجية الغريزية لدى كائن حيّ اليوم هو إرث سحيق القدم، وذلك ما دامت لدينا أسباب وجيهة تحملنا على التسليم بأن حصة الحاثات الإيجابية غير المحوَّلة في الحياة الغريزية كانت أكبر في الأزمنة البدائية مما هي عليه وسطياً اليوم.

---

١٠ - يوجين بلولر: طبيب نفساني سويسري (١٨٥٧ - ١٩٣٩). أدخل إلى المعجم النفسي مصطلحي الفصام والتوحُّد الانطوائي. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وشارك في تأسيس **الجمعية التحليلية النفسية الدولية**. من مؤلفاته: **الخبل المبكر**، **التاريخ الطبيعي للنفس**. والإحالة في النص إلى نصه: **محاضرة حول الازدواجية**. «م».



لقد درجنا على إطلاق اسم **النرجسية** على تلك المرحلة من بداية نمو الأنا التي تجد فيها دوافعه الغريزية الجنسية إشباعاً إيروسياً ذاتياً، من دون أن نناقش أولاً العلاقة بين الإيروسية الذاتية والنرجسية. ينبغي إذاً أن نقول إن الطور الأولي من الدافع الغريزي إلى النظر، وهو الطور الذي يكون فيه جسم الشخص ذاته موضوعاً للذة النظر، ينتمي إلى النرجسية، وإنه تشكيل نرجسي. وإنما بدءاً منه يتطور دافع النظر الغريزي الإيجابي فيعزف عن النرجسية؛ لكن دافع النظر الغريزي السلبي من شأنه بالمقابل أن يصون الموضوع النرجسي ويحافظ عليه. كذلك، إن التحول من السادية إلى المازوخية يعني، على أساس فرضيتنا، رجوعاً إلى الموضوع النرجسي، بينما تجري في كلتا الحالتين مقايضة للذات النرجسية من خلال التماهي مع أنا آخر، غريب. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الطور الأولي النرجسي الذي افترضنا وجوده في حالة السادية، ضاقت الشقة بيننا وبين تصور أعمّ يقول إن مصائر الدوافع الغريزية المتمثلة في الارتداد إلى الأنا المعني وفي الانقلاب من الإيجابية إلى السلبية مرهونة بالتنظيم النرجسي للأنا وموسومة بسمة هذه المرحلة. ولعلها تتطابق مع المحاولات الدفاعية التي يتمّ تحقيقها، في أطوار عليا من نموّ الأنا، بوسائل أخرى.

إننا ندرك جيداً هنا أننا لم نناقش إلى الآن سوى طباقين من طباقات الدوافع الغريزية: السادية ـ المازوخية ولذة النظر ـ لذة الإراءة. وهما، من بين سائر الدوافع الغريزية الجنسية، أكثرها إسفاراً عن ازدواجية هذه الأخيرة. أما المقوّمات الأخرى لما سيغدو هو الوظيفة الجنسية فليست بعد في متناول التحليل بالقدر الذي يبيح مناقشتها بالكيفية ذاتها. ومن منظور عام نستطيع التوكيد بأن هذه المقوّمات تؤدي وظيفتها وفق **نمط إيروسي ذاتي**، أي أن موضوعها يتوارى ويتلاشى لصالح عضو الجسم الذي هو مصدرها، وبأنه يؤلف وإياه كلاً واحداً بصورة عامة. أما موضوع الدافع الغريزي إلى النظر، فبالرغم من أنه يشكّل هو الآخر في البداية جزءاً من جسم الشخص ذاته، فإنه ليس العين ذاتها، كما أن المصدر العضوي في السادية، وهو في أرجح الظن الجهاز العضلي من حيث أنه يتمتع بقابلية العمل والفعل، يتصل مباشرة

بموضوع آخر، وإن كان هذا الموضوع يخصّ جسم الشخص ذاته. وبالمقابل، إن دور المصدر العضوي راجح وحاسم في الدوافع الغريزية الإيروسية الذاتية إلى حدّ أن شكل العضو ووظيفته هما اللذان يقرران، وفق فرضية مغرية قال بها ف. فيدرن[١١] ول. جيكلز[١٢]، إيجابية الهدف الغريزي أو سلبيته[١٣].

إن تحول الدافع من الدوافع الغريزية إلى نقيضه (المادي) لا يعايَن إلا في حالة واحدة، وهي حالة **انقلاب** الحب إلى كره. وبالنظر إلى أن الحب والكره يتوجهان في غالب الأحيان نحو موضوع واحد وفي آن واحد، فإن هذا التعايش يقدِّم لنا أهمّ مثال أيضاً على الازدواجية العاطفية.

إن ما يعطي مثال الحب والكره أهمية خاصة هو كونه لا يتفق إلا بصعوبة وعسر مع تصورنا عن الدوافع الغريزية. وبديهي أنه لا يمكن أن يخامرنا ريب في وثاقة العلاقة بين تينك العاطفتين المتعارضتين وبين الحياة الجنسية، لكننا لا نستطيع، بطبيعة الحال، إلا أن نرفض أن نتصور الحب على أنه محض دافع غريزي جزئي من دوافع الجنسية، مثله مثل سائر الدوافع الغريزية. وقد نفضِّل أن نرى في الحب تعبيراً عن الميل الجنسي الكامل، ولكننا لا نكون بذلك قد دفعنا عن أنفسنا الحرج، كما لا ندري كيف يمكن لنا أن نتصور نقيضاً مادياً لهذا الميل.

---

١١ ـ بول فيدرن: محلل نفسي نمساوي (١٨٧١ ـ ١٩٥٠). كان من أوائل المحللين النفسيين المقربين إلى فرويد وترأس **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة فراراً من الاضطهاد النازي بسبب أصوله اليهودية. مات منتحراً بسبب مرضه بالسرطان. تخصص أكثر من غيره من المحللين النفسيين بدراسة الذهان، وأولى اهتماماً أيضاً لعلم النفس الاجتماعي، وفسّر الثورات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى على أنها تعبير عن رغبة لاشعورية في قتل الأب من خلال التمرد على السلطات القائمة. من مؤلفاته: **علم نفس الأنا والأذهنة**. والإحالة في النص إلى بحثه: **مساهمات في تحليل السادية والمازوخية** (١٩١٣). «م».

١٢ ـ لودفيغ جيكلز: طبيب نمساوي من أصل بولوني (١٨٦٧ ـ ١٩٥٤). واظب على حضور أمسيات يوم الأربعاء التي كان يعقدها فرويد في فيينا ليكون على اتصال مباشر بفرويد وبالحركة التحليلية النفسية، ولكنه اضطر إلى الهجرة، فراراً من النازية، إلى السويد ثم إلى نيويورك حيث انضم إلى **الجمعية النيويوركية للتحليل النفسي**. من مؤلفاته: **علم نفس الكوميديا**. والإحالة في النص إلى بحثه المنشور عام ١٩١٣ بعنوان: **بعض ملاحظات حول نظرية الدوافع الغريزية**. «م».

١٣ ـ Internationale Zeitachrin Fur Psychoanalyse, 1913, 1.



إن الحب قابل لأن يأخذ ثلاثة أشكال من التضادّ، لا شكلاً واحداً فحسب. فإلى طباق: أن نحب/ أن نكره ينضاف الطباق التالي: أن نُحِبّ/ أن نُحَبّ؛ ثم إن كوننا نحِبّ أو كوننا نكره، منظوراً إليهما كليهما، يتعارضان مع اللامبالاة. ومن بين هذه الطباقات الثلاثة، يتوافق الثاني: أن نُحِب/ أن نُحَب أتمّ التوافق مع انقلاب الإيجابية إلى سلبية، ويقبل الإرجاع إلى موقف أساسي واحد ، تماماً كما في مثال الدافع الغريزي إلى النظر. ومؤدى هذا الموقف هو: **أن يحب المرء نفسه**، وتلك في نظرنا سمة النرجسية. وتبعاً لمقايضة الموضوع أو الذات بموضوع غريب أو ذات غريبة، يكون التوجُّه نحو هدف إيجابي: «أن نُحِب»، أو نحو هدف سلبي: «أن نُحَب»؛ ويبقى ثاني الاثنين هو الأقرب إلى النرجسية.

لعلنا سنفهم فهماً أفضل كثرة الأضداد التي يمكن أن ينطوي عليها فعل «أحَبَّ» فيما لو أخذنا في اعتبارنا أن الحياة النفسية، بما هي كذلك، تتسلط عليها ثلاثة **استقطابات**، ثلاثة تعارضات:

الذات (الأنا)/ الموضوع (العالم الخارجي).

اللذة/الكدر.

الإيجابي/ السلبي.

إن تعارض الأنا/ اللاأنا (الخارج)، (الذات/ الموضوع) يفرض نفسه في وقت مبكر جداً على الكائن الفرد، كما رأينا آنفاً، بحكم اختباره بنفسه قدرته على أن يُخرِس، بعمله العضلي، التنبيهات الخارجية، بينما يبقى عاجزاً في الوقت نفسه أمام التنبيهات الغريزية. وهذا التعارض يتجلى بكامل عنفوانه في النشاط الذهني قبل كل شيء ويخلق بالنسبة إلى بحثنا الموقف الأساسي الذي لا يمكن لأي مجهود أن يعدِّله. أما استقطاب اللذة/ الكدر فيرتبط بسُلَّم من الأحاسيس سبقت الإشارة إلى أهميته الجوهرية في تعيين أعمالنا (الإرادة). ولا يجوز لنا أن نخلط تعارض الإيجابي/ السلبي مع تعارض الأنا (الذات)/ الخارج (الموضوع). فالأنا يتصرف بسلبية تجاه العالم الخارجي، بقدر ما يتلقى منه تنبيهات، وبإيجابية حينما يردّ على هذه التنبيهات. ودوافعه الغريزية تفرض عليه إيجابية خصوصية للغاية إزاء العالم الخارجي، بحيث يمكن القول، من خلال التوكيد على ما هو أساسي، إن الأنا/الذات سلبي إزاء التنبيهات الخارجية، وإيجابي بحكم



دوافعه الغريزية. وينحلّ تعارض الإيجابي/ السلبي في زمن لاحق في تعارض المؤنث/ المذكر الذي لم تكن له، لحدّ الآن، دلالة سيكولوجية. والتحام الإيجابية مع الذكورة، والتحام السلبية مع الأنوثة ثابتان كواقعة بيولوجية، لكن هذه الواقعة ليست سارية المفعول قياسياً ولا حصرية إلى الحدّ الذي نميل إلى افتراضه.

ترتبط الاستقطابات النفسية الثلاثة بعضها ببعض ارتباطاً بليغ الدلالة. فثمة موقف نفسي أصلي يتلاقى فيه اثنان من هذه الاستقطابات الثلاثة. ففي الأصل، في بداية الحياة النفسية، يكون الأنا واقعاً تحت هيمنة الدوافع الغريزية، وقادراً بصفة جزئية على إشباع دوافعه الغريزية في ذات نفسه. ونحن نطلق على هذه الحالة اسم النرجسية، ونصف إمكانية الإشباع هذه بالإيروسية الذاتية[١٤]. وفي هذه المرحلة لا يكون العالم الخارجي موضع اهتمام، بل يكون محايداً فيما يتعلق بالإشباع. وفي هذه المرحلة يتطابق الأنا/الذات مع ما هو مستحبّ، كما يتطابق العالم الخارجي مع ما هو محايد (وربما مع ما هو مستكره كمصدر للتنبيه). وإذا عرَّفنا الحب تعريفاً أولياً بأنه علاقة الأنا بمصادر لذته، فإن الموقف الذي لا يحب فيه الأنا سوى ذاته، فلا يبالي بالعالم، يميط اللثام عن أولى تلك العلاقات المتعارضة التي وجدناها تتناوب على فعل «أحَبّ».

إن الأنا لا يحتاج إلى العالم الخارجي ما دام ذاتي الإيروسية، لكنه يتلقى من هذا العالم مواضيع على إثر الخبرات التي تمرّ بها غرائز بقاء الأنا، ولا يستطيع أن يتحاشى الاستشعار بالتنبيهات الغريزية الباطنة بصفتها، لحين من الزمن، تنبيهات مستكرهة. وعندئذ، وتحت سلطان مبدأ اللذة، يتم تطور جديد في الأنا. فهو يستبطن المواضيع التي تعرض له بصفتها مصادر لذة (بحسب تعبير فيرنزي)[١٥]،

---

١٤ ـ إن شطراً من الدوافع الغريزية الجنسية صالح، كما نعلم، لهذا الإشباع الإيروسي الذاتي، ومهيَّأ بالتالي لأن يكون حامل التطور ـ الموصوف لاحقاً ـ الذي يتمّ تحت هيمنة مبدأ اللذة. أما تلك الدوافع الغريزية الجنسية التي تتطلب للحال موضوعاً، وأما حاجات الغرائز الأنوية التي لا سبيل إلى إشباعها بكيفية إيروسية ذاتية، فمحتَّم عليها أن تعكّر صفو تلك الحالة وأن تهيِّئ الميدان للتقدم. وفي الواقع، ما كان للحالة الأصلية النرجسية أن تعرف مثل هذا النمو لو كان كل فرد لا يمرّ بمرحلة عوز وعناية يتمّ فيها إشباع حاجاته الملحة من خلال تدخل الخارج، فيحال على هذا النحو بينها وبين التطور.

١٥ ـ ساندور فيرنزي: صديق فرويد وأبرز تلاميذه المجريين (١٨٧٣ ـ ١٩٢٢). من أشهر كتبه **طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية**. والإحالة في النص إلى بحثه: **التحويل والاستدماج** المنشور عام ١٩٠٩.



ومن جهة أخرى يلفظ خارجاً عنه كل ما يسبِّب له، في داخل ذاته، كدراً (انظر لاحقاً آلية الإسقاط)[١٦].

وعلى هذا النحو يتحول هذا الأنا، بدءاً من الأنا/ الواقع البدئي الذي يكون قد ميَّز بين الداخلي والخارجي بالاعتماد على معيار موضوعي جيد، إلى **أنا/ لذة** مصفًّى يقدِّم صفة اللذة على كل ما عداها. وينقسم العالم الخارجي بالنسبة إلى هذا الأنا إلى شطر «لذة» يدمجه به، وإلى باقٍ غريب عنه. ويبادر الأنا إلى اقتطاع جزء مكوَّن منه، ويقذف به في العالم الخارجي، ويصير يشعر به معادياً له. وبعد إعادة التوزيع هذه يتطابق من جديد الاستقطابان:

الأنا/ الذات ـ مع اللذة.

العالم الخارجي ـ مع الكدر (اللامبالاة سابقاً).

وبدخول الموضوع في طور النرجسية الأولية، ينجح المعنى الثاني المناقض لفعل أحبَّ، أي كره، هو أيضاً في التكوّن وفي فرض نفسه.

وكما رأينا آنفاً، فإن الموضوع يأتي إلى الأنا من العالم الخارجي محمولاً من قبل غرائز حفظ الذات في البداية، ونحن لا نملك أن نماري في أن المعنى الأصلي للكره يشير أيضاً إلى العلاقة بالعالم الخارجي الغريب الذي منه ترد التنبيهات. واللامبالاة تحتل مكانها كحالة خاصة من حالات الكره والنفور، بعد أن تكون قد ظهرت أولاً كنذير بهما. ففي بادئ البدء يكون الخارجي والموضوع والمكروه واحد الهوية. وفيما بعد، حين يتكشف الموضوع عن أنه مصدر للذة، يصبح محبوباً، ولكنه يُدمج أيضاً بالأنا، بحيث يتطابق الموضوع من جديد مع الغريب والمكروه بالنسبة إلى الأنا/ اللذة المصفَّى.

لكننا نلاحظ هنا أنه كما يعكس طباق الحب/ اللامبالاة استقطاب الأنا/ العالم الخارجي، كذلك يكرر التعارض الثاني، الحب/ الكره، استقطاب اللذة/ الكدر المرتبط بالأول. وبعد أن يحلّ الطور الموضوعاني محلّ الطور النرجسي

١٦ ـ يحيل فرويد هنا على ما يبدو إلى مقال له عن الإسقاط لم يأخذ طريقه قط إلى النشر.هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



المحض، يصبح مؤدى اللذة والكدر هو: علاقات الأنا بالموضوع. وحين يصبح الموضوع مصدراً لأحاسيس اللذة، يظهر ميل محرِّك يبغي تقريب هذا الموضوع من الأنا ودمجه في الأنا؛ ونحن نتكلم أيضاً، في هذه الحال، عن «الجاذبية» التي يمارسها الموضوع المولِّد للذة، ونقول إننا «نحبّ» الموضوع. وعلى العكس، حين يكون الموضوع مصدراً لإحساسات الكدر، يظهر ميل يبغي توسيع الشقة بينه وبين الأنا، ويسعى إلى أن يكرر حياله محاولة الهرب الأولية أمام العالم الخارجي، مرسِل التنبيهات. وهكذا يساورنا شعور بـ «النفور» من الموضوع، فنكرهه؛ وقد يصل هذا الكره إلى حدّ الحضّ على الاعتداء على الموضوع وعقد النية على تصفيته.

قد نستطيع، عند الاقتضاء، أن نقول عن الدافع الغريزي إنه «يحبّ» الموضوع فيشرئب نحوه طلباً للإشباع. ولكن القول بأن الدافع الغريزي «يكره» الموضوع يصدمنا، ويجعلنا ندرك من هنا بالذات أن لفظي الحب والكره لا يجوز استخدامهما في وصف علاقات الدوافع الغريزية بمواضيعها، بل ينبغي أن يقتصر استعمالهما على وصف علاقات الأنا الكلي بالمواضيع. غير أن الاستعمال اللغوي، الذي لا يخلو بكل تأكيد من معنى، يدعونا إلى أن نضيِّق أكثر أيضاً مدلول «الحب» و«الكره». فالمواضيع التي تفيد في بقاء الأنا لا نقول عنها إننا نحبّها، بل نلحّ على واقع كوننا بحاجة إليها، ولا يندر أن نضيف إلى ذلك تعبيراً عن علاقة من نوع آخر باستخدامنا كلمات تشير إلى تخفيف في درجة الحب كقولنا: نحبِّذ، نقدِّر، نستلطف.

تتراجع كلمة «أحَبَّ» إذاً أكثر فأكثر إلى دائرة علاقة الأنا اللذِّية الخالصة بالموضوع، وتتثبت نهائياً على المواضيع الجنسية بحصر المعنى وعلى المواضيع التي تشبع حاجات الدوافع الغريزية الجنسية التي يكون قد جرى إسماؤها. وعليه، نستطيع أن نقول إن الفصل الذي بنينا عليه مبحثنا السيكولوجي بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية يتفق وروح لغتنا. فنحن لم نتعود على القول بأن دافعاً غريزياً جنسياً خاصاً يحبّ موضوعه؛ بل الأنسب لفعل «أحبّ» أن يُستخدم في وصف علاقة الأنا بموضوعه الجنسي؛ وهذا يجعلنا ندرك أن



استخدام هذه اللفظة لوصف مثل هذه العلاقة لا يمكن أن يبدأ إلا مع تركيب جميع الدوافع الغريزية الجزئية للجنسية تحت زعامة الأعضاء التناسلية وفي خدمة وظيفة التناسل.

الجدير بالملاحظة هنا أنه لا تظهر، في استخدام فعل «كره»، مثل تلك العلاقة الحميمة باللذة الجنسية وبالوظيفة الجنسية، بل يبدو وكأن العلاقة بالكدر هي وحدها العلاقة الحاسمة. فالأنا يكره، يبغض، يلاحق بقصد التدمير جميع المواضيع التي هي بالنسبة إليه مصادر لأحاسيس الكدر، سواء أكان مؤداها حرماناً من الإشباع الجنسي أم حرماناً من إشباع حاجات حفظ الذات. بل يسعنا التوكيد بأن النماذج الحقيقية لعلاقة الكره لا تأتي من الحياة الجنسية، بل من صراع الأنا في سبيل بقائه وتوكيد وجوده.

هكذا نتبيَّن أن الحب والكره، اللذين يتبدَّيان لنا وكأنهما يشكلان طباقاً مادياً كاملاً، لا تجمعهما في واقع الأمر علاقة بسيطة. فهما لا ينبعان من انفلاق ما في واقع أصلي مشترك، بل لكل منهما أصوله المختلفة، ولقد سلك كل منهما طريق تطوره الخاص قبل أن تقوم بينهما علاقة تضادّ تحت تأثير اللذة/الكدر. وعلينا الآن أن نعيد تجميع ما نعرفه عن أصل الحب والكره.

يتأتى الحب من الاستطاعة المتاحة للأنا لإشباع قسم من حاثاته الغريزية إشباعاً إيروسياً ذاتياً، عن طريق الحصول على لذة عضوانية[١٧]. وفي الأصل يكون الحب نرجسياً، ثم يمتد إلى المواضيع التي دمجت بالأنا الموسَّع ويعبِّر عن ميل الأنا المحرك نحو هذه المواضيع من حيث هي مصادر للذة. وارتباطه حميم بنشاط الدوافع الغريزية الجنسية اللاحقة، وما إن يتم تركيبها حتى يتطابق مع الميل الجنسي في كليته. وتتبدى أطوار الحب التمهيدية وكأنها أهداف جنسية مؤقتة بينما تنجز الدوافع الغريزية الجنسية تطورها المعقد. وأول هدف نتعرفه هو **الاستدماج** أو **الالتهام**، أي نمط من الحب يتوافق وإلغاء وجود الموضوع في فرديته، ويمكن وصفه بالتالي بالازدواجية. وفي الطور الأعلى المتمثل بالتنظيم

١٧ ـ عضوانية D'ORGANE: ولم نقل عضوية، توكيداً على وقوع اللذة في عضو واحد من أعضاء الجسم. «م».



السادي ـ الشرجي القبتناسلي، يظهر الميل إلى الموضوع في شكل اندفاع إلى الاستيلاء والسيطرة، من دون أن يدخل في حسابه إلحاق الأذى بالموضوع أو تدميره. وهذا الشكل، هذا الطور التمهيدي من الحب، يكاد لا يُميَّز عن الكره في مسلكه حيال الموضوع. وإنما مع اكتمال التنظيم التناسلي يغدو الحبّ نقيض الكره.

إن الكره، من حيث هو علاقة بالموضوع، أقدم في الزمن من الحب؛ فهو يتأتى من الرفض الأصلي الذي يقابل به الأنا النرجسي العالم الخارجي، مولِّد التنبيهات. وهو يبقى على الدوام، من حيث هو تظاهر لاستجابة الكدر المستثارة من قبل المواضيع، على صلة حميمة بغرائز بقاء الأنا، بحيث يسهل على الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية أن تدخل في تعارض يكرر تعارض الكره والحب. فحين تتسلط الدوافع الغريزية الأنوية على الوظيفة الجنسية، كما الحال في طور التنظيم السادي/ الشرجي، تضفي على الهدف الغريزي ذاته سمات الكره.

إن تاريخ الحب في ظهوره وعلاقاته يجعلنا نفهم لماذا يتلبس في غالب الأحيان شكلاً ازدواجياً، فتصحبه حاثات كره تستهدف الموضوع نفسه. فالكره المقرون إلى الحب يتأتى جزئياً من أطوار الحب التمهيدية التي ما تمّ تجاوزها تجاوزاً كاملاً، ويستند جزئياً إلى الاستجابات الرفضية من جانب الدوافع الغريزية الأنوية، وهي استجابات تعزو نفسها، في المنازعات المتواترة بين مصالح الأنا ومصالح الحب، إلى حوافز واقعية وبواعث راهنة. وهكذا يجد عنصر الكره هذا مصدره، في كلتا الحالتين، في غرائز بقاء الأنا. وحين تنفصم علاقة الحب بموضوع معيَّن، لا يندر أن يقوم الكره مقامها؛ وعندئذ يتراءى لنا أن الحب يتحول إلى كره. ولكننا نتجاوز هذا الوصف إذا ما أدركنا أن الكره الذي له تحفيزاته في الواقع، في هذه الحالة، يتعزز بالنكوص من الحب إلى الطور التمهيدي السادي، بحيث يكتسب الكره طابعاً إيروسياً ويصبح استمرار علاقة الحب مضموناً.

أما العلاقة التضادّية الثالثة في فعل «أحَبّ»، أي التحول من كون المرء محباً إلى كونه محبوباً، فتتطابق مع مفعول استقطاب الإيجابية/ السلبية، وينبغي



تقييمها على النحو نفسه الذي تُقيَّم به حالات الدافع الغريزي إلى النظر والسادية.

ختاماً، نستطيع أن نقول، باختصار، إن مصائر الدوافع الغريزية تتمثل جوهراً وأساساً في كون **الحاثات الغريزية خاضعة لتأثير ثلاثة استقطابات كبرى تهيمن على الحياة النفسية**. ومن بين هذه الاستقطابات الثلاثة قد يكون مباحاً لنا أن نصف استقطاب الإيجابية/ السلبية بأنه استقطاب **بيولوجي**، واستقطاب الأنا/ العالم الخارجي بأنه استقطاب **واقعي**، وأخيراً استقطاب اللذة/الكدر بأنه استقطاب **اقتصادي**.

أما مصير **الكبت** الذي يؤول إليه الدافع الغريزي فسندرسه في الصفحات التالية.



الكبت

من المصائر المحتملة لحاثة من الحاثات الغريزية أن تصطدم بمقاومات ترمي إلى شلِّ فاعليتها. وطبقاً لشروط سندرسها عما قليل بتدقيق أكبر، تجد الحاثة الغريزية نفسها عندئذ في وضع **كبت**. ولو كان الأمر يتعلق بمفعول تنبيه خارجي، لكان الهرب في هذه الحال هو الوسيلة المناسبة. لكن الهرب لا يمكن أن يجدي نفعاً في حالة الدافع الغريزي، إذ لا يستطيع الأنا أن يتملص من ذاته. وفي وقت لاحق، قد يتضح أن النبذ عن طريق الحكم (**حكم إدانة**) وسيلة لا بأس بها ضد الحاثة الغريزية. أما الطور الممهد للإدانة، أو الحد الوسط بين الهرب والإدانة، فذلك هو الكبت؛ وما كان لمفهومه أن يصاغ في زمن سابق للأبحاث التحليلية النفسية.

إن إمكانية الكبت ليست، نظرياً، مما يسهل استنباطه. فما الداعي لأن تعرف الحاثة الغريزية مصيراً كهذا المصير؟ لا بدّ هنا من توافر شرط صريح: أن يتأتى عن بلوغ هدف الدافع الغريزي كدر بدل اللذة. ولكن هذا لمما يصعب تصوُّره، إذ لا وجود لمثل هذه الدوافع الغريزية؛ وإشباع الدافع الغريزي، أياً كان، هو على الدوام لذة. لا مناص إذاً من التسليم هنا بوجود ظروف خاصة، بوجود سيرورة ما تنقلب عن طريقها اللذة الإشباعية إلى كدر.

حتى نعيِّن حدود الكبت تعييناً أوضح يمكننا أن نتناول بالنقاش بعض المواقف الغريزية الأخرى. فقد يتفق أن يتحول تنبيه خارجي مثلاً، بتأكُّله العضو المعني وتدميره إياه، إلى تنبيه داخلي، فيتولد على هذا النحو مصدر جديد للتنبيه الدائم ولزيادة التوتر. وهو يكتسب في هذه الحال شبَهاً كبيراً بالدافع الغريزي. ونحن نعرف أن مثل هذه الحالة نستشعرها على أنها ألم. لكن شبه الدافع الغريزي هذا لا هدف له سوى أن يضع حداً لإتلاف العضو وما يصاحبه من كدر. وليس من



ثمة من لذة مباشرة أخرى يمكن الحصول عليها عن طريق وضع حدّ للألم. وللألم، ناهيك عن ذلك، صفة آسرة؛ فهو لا يمتثل إلا لمفعول سُمّي من شأنه أن يلغيه وإلا لتأثير إلهاء نفسي.

إن حالة الألم ليست شفافة بالقدر الكافي لتمدّنا بشيء من شأنه أن يفيدنا في مبحثنا. فلنأخذ حالة تنبيه غريزي لم يأخذ طريقه إلى الإشباع، كالجوع مثلاً. فالتنبيه هنا يغدو آسراً، فلا يكون من سبيل إلى تسكينه إلا بفعل الإشباع. وإذا لم يتوفر له الإشباع نجم عنه توتر احتياجي دائم. وبديهي أننا لا نستطيع هنا أن نتحدث بحال من الأحوال عن كبت أو ما يشبه الكبت.

إن حالة الكبت لا تقوم إذاً بصورة محققة إذا ما زاد التوتر، الناجم عن عدم إشباع حاثة غريزية، إلى درجة يصبح معها لا يطاق. فما وسائل الدفاع المتاحة للجسم ضد وضع كهذا الوضع؟ إن هذه المسألة يجب أن تناقش في سياق آخر.

لنرجع بالأحرى إلى الخبرة السريرية كما تعرض لنا في الممارسة التحليلية النفسية. إنها تفيدنا بأن إشباع الدافع الغريزي الخاضع للكبت ممكن هو الآخر بكل تأكيد، وعنه تتأتى في كل مرة لذة؛ لكن إشباعاً كهذا لا يتفق عندئذ مع مطالب أخرى وغايات أخرى؛ ذلك أنه ليس من شأنه إلا أن يخلق لذة في موضع، وكدراً في موضع آخر. وينجم عن ذلك أن للكبت شرطاً، وهو أن يكتسب حافز الكدر قوة أعظم من قوة لذة الإشباع. ثم إن الخبرة التحليلية النفسية بالأعصبة التحويلية ترغمنا على الاستنتاج بأن الكبت ليس آلية دفاع موجودة من البدء، بل هو لا يتأسس قبل حدوث انفصال واضح بين نشاط نفسي شعوري ونشاط نفسي لاشعوري، كما تعلمنا أن **ماهية الكبت لا تتمثل إلا فيما يلي: الإقصاء عن الشعور والإبعاد عنه.** وقد يكون هذا التصور للكبت قابلاً لأن يُتمَّم بفرضية: فقبل أن يبلغ التنظيم النفسي طوراً كهذا، تقوم المصائر الغريزية الأخرى، كالانقلاب إلى النقيض والارتداد إلى شخص الذات، بعبء الدفاع ضد الحاثات الغريزية.

يداخلنا الاعتقاد أيضاً، في الوقت الراهن، بأن الكبت واللاشعور متلازمان



إلى حدّ كبير بحيث نجد لزاماً علينا أن نرجئ ساعة التعمق في ماهية الكبت إلى أن يتوفر لدينا المزيد من المعلومات عن بنية تسلسل الهيئات النفسية وعن التمايز بين الشعور واللاشعور. وبغير ذلك لا يسعنا أكثر من أن نجمع، على نحو وصفي خالص، بعض السمات المميِّزة التي تقدمها لنا الملاحظة السريرية، مع المجازفة بأن نكرر بلا تغيير الكثير من الأشياء التي قيلت فيما سبق في غير هذا المكان.

من المسوَّغ لنا إذاً أن نسلِّم بوجود **كبت أصلي**، طور أول من الكبت، يتمثل في أن الممثل النفسي للدافع الغريزي يواجه رفضاً بالاعتراف به من قبل الشعور. ويترافق هذا الطور من الكبت **بتثبيت**: فالممثل المعني يبقى قائماً، اعتباراً من هذه اللحظة، بصفة ثابتة لا تتبدل، ويبقى الدافع الغريزي مرتبطاً به. وهذه نتيجة من نتائج خواص السيرورات اللاشعورية التي سنتحدث عنها لاحقاً.

يتعلق الطور الثاني من الكبت، **الكبت بحصر المعنى**، بالفسائل النفسية للتمثل المكبوت، أو بهذه السلسلة أو تلك من سلاسل الأفكار التي تدخل، وإن يكن مصدرها من موضع آخر، في علاقة تداعٍ معه. وبنتيجة هذه العلاقة، تعرف هذه التمثلات مصير المكبوت الأصلي عينه. الكبت بحصر المعنى هو إذاً كبت بَعْديّ. وعلى كلٍّ، نحن نخطئ إذا لم نركِّز الأضواء إلا على الاشمئزاز الصادر عن الشعور والفاعل في ما هو مطلوب كبته. بل من الواجب أن نأخذ في اعتبارنا أيضاً الجاذبية التي يمارسها المكبوت الأصلي على كل ما يمكن أن يعقد معه أواصر وصلات. وأرجح الظن أن الميل إلى الكبت ما كان ليضع مقصده موضع تنفيذ لو كانت هذه القوى لا تعمل معاً، ولو لم يكن هناك من الأساس شيء مكبوت مؤهّل لاستقبال ما ينفر منه الشعور.

ونحن ميالون، بحكم تأثرنا بدراسة الأعصبة النفسية التي تكشف لنا عن مفاعيل الكبت العظيمة الشأن، إلى المغالاة في تقدير مضمونها السيكولوجي، وننسى بسهولة أكبر مما ينبغي أن الكبت لا يمنع ممثل الدافع الغريزي من البقاء في اللاشعور، ومن مواصلة تنظيم نفسه وتشكيل فسائل وعقد أواصر



وصلات. وفي الحقيقة، لا يُحدِث الكبتُ تشويشاً إلا في العلاقة بنسق نفسي محدد، هو النسق الشعوري.

ثمة أشياء أخرى يستطيع التحليل النفسي أن يميط لنا اللثام عنها، وهي أشياء لها أهميتها في فهم مفاعيل الكبت في الأعصبة النفسية. فهو يبيِّن لنا، على سبيل المثال، أن ممثل الدافع الغريزي يعرف تطوراً أقل تشوشاً وأكثر غنى حينما يقصيه الكبت عن التأثير الشعوري. فعندئذ يتكاثر ويتضاعف، إن جاز التعبير، في الظلام، ويجد أشكالاً تعبيرية متطرفة؛ وهذه الأشكال، ما إن تتمّ ترجمتها[1] وتقديمها للعصابي حتى تظهر له، لا غريبة بالضرورة فحسب، بل مرعبة أيضاً إذ تعرض لناظريه صورة قوة غريزية هائلة وخطرة. وقوة الدافع الغريزي الخادعة المضلِّلة هذه هي حصيلة استغراق غير مكفوف في التخييل Fantaisie ونتيجة ركود ناجم عن إشباع مضنون به. ولئن يكن هذا النجاح الأخير مرتبطاً بالكبت فهذا ما يدلنا على الاتجاه الذي ينبغي أن نبحث فيه عن مدلول هذا الكبت.

لكن لو أمعنا النظر مرة أخرى في الكبت من الناحية المقابلة، للاحظنا أننا لا نستطيع حتى أن نجزم بأنه يقصي عن الشعور جميع فسائل المكبوت الأصلي. فحين تبتعد هذه الفسائل مسافة كافية عن الممثِّل المكبوت، سواء أبحكم ما طرأ عليها من تحريف أم بحكم كثرة الوسطاء الذين تقيمهم بينها وبينه، تستطيع بملء الحرية عندئذ، ودونما أية عقبات، أن تشقّ طريقها إلى الشعور. فلكأن مقاومة الشعور لها كانت مرتبطة بتنائيها عن المكبوت الأصلي. ونحن نطلب باستمرار من المريض، في مزاولتنا للتقنية التحليلية النفسية، أن يزيح النقاب ويكشف للنور عن تلك الفسائل من المكبوت التي تستطيع، بحكم تنائيها أو تحريفها، أن تتخطى عتبة رقابة الشعور. وتلكم هي بالتحديد الخواطر العارضة التي نطالبه بأن يصارحنا بها بعزوفه عن جميع التمثلات الشعورية القصدية وباستنكافه عن كل نقد؛ وبدءاً من هذه الخواطر نعاود بناء ترجمة شعورية للممثل المكبوت. وبهذه المناسبة نلاحظ أن المريض يستطيع أن يعرض لنا على

١ ـ من قبل المحلل النفسي. «م».



هذا النحو سلسلة متصلة من الخواطر والأفكار العارضة إلى أن تأتي لحظة يصطدم فيها، أثناء هذا العرض، بتشكيلة فكرية تشفّ فيها العلاقة بالمكبوت عن نفسها بقوة بحيث يجد نفسه مضطراً إلى تكرار محاولته الكبتية. والمفروض في الأعراض العصابية هي الأخرى أن تلتزم بالشرط المشار إليه أعلاه؛ وبالفعل، إنها فسائل من المكبوت، تشكيلات تتيح له أن يشقّ طريقه أخيراً إلى الشعور الذي كان بابه موصداً دونه.

بوجه العموم لا نستطيع أن نقدِّر إلى أي حدّ يجب أن يصل التحريف والتنائي عن المكبوت كيما تلتغي مقاومة الشعور. ويقوم هنا ضرب من توازن دقيق لا تقع آليته تحت إدراكنا، لكننا نخمِّن من الكيفية التي يفعل بها فعله أن المقصود هو عدم تجاوز درجة معيَّنة من الشدة في توظيف اللاشعور، لأن تجاوز هذه الدرجة يعني فتح باب الإشباع أمام هذا اللاشعور. يعمل الكبت إذاً بطريقة **فردية للغاية**؛ فكل فسيلة من المكبوت يمكن أن تعرف مصيراً خاصاً؛ فقدر أكبر بقليل أو أصغر بقليل من التحريف كافٍ ليقلب النتيجة رأساً على عقب. وفي هذا السياق نفسه نستطيع أن نفهم أن المواضيع المحبَّذة عند البشر ، مُثُلهم العليا، تنبع من الإدراكات والخبرات عينها التي تنبع منها المواضيع الأشد تنفيراً لهم؛ والواقع أنها لا تتميَّز بعضها عن بعضها الآخر، في الأصل، إلا بتحويرات طفيفة. بل قد يحدث، كما رأينا في تكوين التميمة Fétiche[٢]، أن ينقسم ممثل الدافع الغريزي الأصلي إلى جزئين: جزء يتعرض للكبت، بينما يكون مآل الجزء الثاني الآخر، على وجه التحديد بسبب هذا الارتباط الحميم، إلى الأَمْثَلَة IDEALISATION.

إن ما قد ينجم عن قدر أكثر أو أقل من التحريف يمكن الحصول عليه أيضاً، إن جاز التعبير، في الطرف الأقصى الآخر من الجهاز النفسي عن طريق تعديل في شروط إنتاج اللذة / الكدر. فقد رأت النور أساليب وطرائق خاصة ترمي إلى تعديل صراع القوى النفسية بحيث يمكن لما يسبِّب الكدر في العادة أن يصبح

٢ ـ التميمة: شيء مادي مثل التمثال الصغير تُنسب إليه قدرة سحرية. وقد أطلق الفاتحون البرتغاليون هذا الاسم على أشياء العبادة لدى الشعوب الإفريقية التي استعمروها. «م».



أيضاً حاملاً للذَّةِ؛ وفي كل مرة تتدخل فيها مثل هذه الطرائق يلتغي الكبت، مع أنه كان قميناً، فيما لو لم يحدث هذا التدخل، بأن يقصي ممثل الدافع الغريزي. وإلى يومنا هذا لم تدرس هذه الأساليب والطرق بشيءٍ من التدقيق، خلا النكتة[3] منها. وبصورة عامة، يكون إلغاء الكبت عارضاً، عابراً، ليس إلا: إذ سرعان ما يستتبّ من جديد.

بيد أن ملاحظات من هذا النوع كافية لتلفت انتباهنا إلى خصائص أخرى للكبت. فهو ليس **فردياً** فحسب، كما تقدم بيان ذلك، بل **متحرك** أيضاً إلى أقصى الحدود. وليس لنا أن نتصور سيرورة الكبت حدثاً وحيداً أوحد، يعقبه نجاح دائم، كما عندما نصرع شيئاً ما حيّاً، فيستحيل مذ ذاك فصاعداً ميتاً. بل على العكس، فالكبت يتطلب إنفاقاً دائباً في القوة؛ فإذا ما توقف هذا الإنفاق، ارتسمت علامة استفهام حول نجاح الكبت وبات من الضروري تحقيق فعل كبت جديد. وبوسعنا أن نتصور الأشياء على النحو الآتي: يمارس المكبوت، باتجاه الشعور، ضغطاً متواصلاً، لا بدّ أن يوازنه ضغط مضاد دائم. إذاً فصون الكبت يفترض إنفاقاً مستمراً في الطاقة؛ أما إلغاؤه فيعني، من وجهة النظر الاقتصادية، توفيراً. ومن جهة أخرى تجد حركية الكبت تعبيراً عنها أيضاً في الخصائص النفسية لحالة النوم، وهي الحالة الوحيدة التي تتيح إمكانية تشكيل الحلم. أما عند اليقظة فإن التوظيفات الكابتة، التي تكون أثناء النوم قد سُحبت، يعاد إصدارها من جديد.

أخيراً، لا يجوز أن ننسى أننا لا نكون قد ذكرنا إلا أقل القليل عن حاثة غريزية ما حين نقرر أنها مكبوتة. فمن الممكن لهذه الحاثة، دونما مساس هنا بواقعة الكبت، أن تتلبس أحوالاً بالغة التنوع، كأن تكون غير فاعلة، أي لم توظف فيها إلا طاقة نفسية طفيفة للغاية، أو أن تكون موظفة بها بدرجات متفاوتة فتغدو بالتالي قادرة على النشاط. وبديهي أن نتيجة هذا التنشيط لن تكون إلغاء الكبت مباشرة، بل إطلاق جميع السيرورات التي تجد مبتغاها من

---

٣ ـ قد يكون من الضروري هنا أن نشير إلى أن فرويد حلل تقنية النكتة في دراسة مطولة له بعنوان: **«النكتة وصلاتها باللاشعور»**. (١٩٠٥). «م».



خلال الولوج إلى الشعور بطرق ملتوية. ومتى ما كان الأمر يتعلق بفسائل غير مكبوتة من اللاشعور، فدرجة التنشيط أو التوظيف هي التي تقرر في كثرة من الأحيان مصير التمثل منظوراً إليه بمعزل عما عداه. ومن الثابت بالتجربة اليومية أن فسيلة كهذه تبقى غير مكبوتة ما دامت تمثل طاقة، ولو طفيفة، وهذا بالرغم من أن مضمونها قادر على التسبب في نزاع مع ما هو سائد في الشعور. لكن العامل الكمي يبدو حاسم الأثر بالنسبة إلى الصراع؛ فما إن يتعزز التمثل الصادم في صميمه إلى ما فوق درجة معلومة، حتى يغدو الصراع راهناً، والتنشيط هو على وجه التحديد الذي يستتبع الكبت. إذاً، فسواء أتزايد توظيف الطاقة في التمثل أم اقترب هذا التمثل من اللاشعور، فإن النتيجة تبقى متكافئة فيما يخصّ الكبت؛ كذلك، إن تناقصاً ما في هذا التوظيف يكافئ ابتعاداً عن اللاشعور أو تحريفاً. ونحن ندرك أن الميول الكابتة تستطيع أن تجد في الوهن الطارئ على ما هو مستكره بديلاً عن الكبت.

لقد بحثنا حتى هذه النقطة من نقاشنا في موضوع الكبت الذي قد يتعرض له ممثل دافع من الدوافع الغريزية، وعنينا بهذا المصطلح الأخير تمثلاً أو مجموعة تمثلات موظفة بكمٍّ معلوم من الطاقة النفسية (الليبيدو، الاهتمام). وترغمنا الملاحظة السريرية الآن على تحليل ما كنا قد تصورناه لحدّ الآن كلاً واحداً؛ فهي تبيِّن لنا بالفعل أنه ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا، إلى جانب التمثل، شيئاً آخر يمثل الدافع الغريزي، وأن هذا الشيء الآخر يعرف مصيراً كبتياً قد يكون مغايراً تماماً لمصير التمثل. وللإشارة إلى هذا العنصر الآخر من الممثل النفسي، نرى أن اسم **الكمّ الانفعالي** Quantum D'Affect مقبول؛ فهو يتطابق مع الدافع الغريزي، من حيث أنه منفصل عن التمثل، ويجد تعبيراً موافقاً لكميته في سيرورات يتم الإحساس بها في شكل انفعالات. وعلينا من الآن فصاعداً، في وصفنا لحالة من حالات الكبت، أن نبحث على حدة في ما يحدث للتمثل بنتيجة الكبت، وفي ما يحدث للطاقة الغريزية المرتبطة به.

قد يكون بودّنا الآن أن ندلي ببعض العموميات حول كل واحد من هذين المصيرين. ولكن لن يكون ذلك في مستطاعنا قبل أن نرسي بعض الصوى على



سبيل التمهيد. فالمصير العام للتمثُّل الممثِّل[٤] للدافع الغريزي لا يمكن إلا بصعوبة أن يكون شيئاً آخر سوى الاختفاء من الشعور متى ما كان آنفاً شعورياً، أو الإقصاء عن الشعور متى ما كان آنفاً على وشك أن يغدو شعورياً. والفرق عديم الأهمية؛ وهو كالفرق بين أن أطرد ضيفاً غير مرغوب فيه من صالوني أو من حجرة الانتظار في بيتي وبين ألا أدعه يتخطى عتبة منزلي حال تعرفي إياه[٥]. أما مصير العامل الكمي للممثل الغريزي فيمكن أن يكون مثلثاً، كما نتبيَّن من استعراض سريع للملاحظات التي توصَّل إليها التحليل النفسي: فالدافع الجنسي قد يُقمع قمعاً تاماً شاملاً، فلا نعود نعثر له على أثر؛ أو قد يتجلى في صورة انفعال مجهَّز بتلوين كيفي ما؛ أو قد يتحول أخيراً إلى حصَر. وهذان الاحتمالان الأخيران يدعواننا إلى أن نأخذ في اعتبارنا مصيراً جديداً للدافع الغريزي: **انزياح** الطاقات النفسية للدوافع الغريزية إلى **انفعالات**، وعلى الأخص إلى **حصَر**.

ليس للكبت من حافز وغائية، كما نذكر ولا بدّ، سوى تحاشي الكدر. وينجم عن ذلك أن مصير كمّ الانفعال العائد إلى ممثل التمثل أهم بما لا يقاس من مصير التمثل نفسه: فهو الذي يقرر منطوق الحكم الذي نصدره على سيرورة الكبت. فإذا لم يفلح الكبت في الحؤول دون تمخُّض أحاسيس كدر أو حصَر، جاز لنا القول بأنه قد أخفق، حتى وإن بلغ هدفه فيما يتعلق بعنصر التمثل. وبديهي أن

٤ ـ إن واحدة من أعتى الصعوبات التي واجهها مترجمو النص الفرويدي هي إيجاد مقابل للمصطلح الألماني Vorstellung Representanz الذي نحته فرويد بنفسه بدون أن يكون له وجود قاموسي. وقد مال المترجمون الفرنسيون إلى ترجمته بـ «ممثل التمثل» أو «ممثل التمثيل»، وهي ترجمة واضحة الالتباس، وقد أثارت اعتراضات كثيرة، ولكنها هي التي فرضت نفسها في خاتمة المطاف رغم التباسها. فموضوع التمثل أو التمثيل هو الدافع الغريزي الذي لا يمكن أبداً في رأي فرويد أن يكون شعورياً. وممثل هذا التمثل، الذي قد يكون لفظياً أو شيئياً، هو وحده القابل لأن يصير شعورياً. ولنعترف للقارئ بأننا لم نجد مناصاً بدورنا من اعتماد الترجمة الفرنسية الحرفية رغم التباسها، ولا سيما أن المصطلح الإنكليزي الذي اعتمده جون ستراتشي في ترجمته لأعمال فرويد الكاملة: التمثيل الفكروي للممثل الغريزي، هو أقرب إلى أن يكون شرحاً منه إلى أن يكون مفهوماً، وهذا بدون أن يبرأ بدوره من بعض الالتباس. «م».

٥ ـ هذا التشبيه، القابل للتطبيق على سيرورة الكبت، يمكن سحبه أيضاً على خصيصة تقدم ذكرها من خصائص الكبت. وحسبي أن أضيف أنه يتوجب عليّ أن أضع على الدوام حارساً عند الباب المحظور على الضيف اجتياز عتبته: فإن لم أفعل فإن مَن نُحّي عنه سيقتحمه (انظر ما تقدم).



الكبت الفاشل هو القمين بأن يستأثر باهتمامنا، بينما يفلت الكبت الناجح في معظم الأحيان من دراستنا.

لنحاول الآن أن نسلِّط قليلاً من الضوء على آلية سيرورة الكبت، ولنسعَ على الأخص إلى معرفة ما إذا كان هناك آلية واحدة للكبت أو آليات عدة، وما إذا كان كل عصاب نفسي لا يتميَّز بآلية كبت خاصة به. لكننا نصطدم، من بداية هذا التقصي، بتعقيدات وإشكالات. فآلية الكبت لا تقع تحت إدراكنا إلا إذا رجعنا القهقرى من نتائج الكبت إلى الكبت نفسه. ولو قصرنا الملاحظة على النتائج المتعلقة بعنصر تمثيل التمثل، لاكتشفنا أن الكبت ينتِج، بصورة عامة، **تكويناً بديلاً**. فما آلية تكوين البديل هذا؟ ثم ألا يخلق بنا أن نميِّز، هنا أيضاً، عدة آليات؟ إننا نعلم كذلك أن الكبت يخلِّف وراءه أعراضاً. لكن أمباح بنا أن نطابق بين تكوين البديل وتكوين العرَض؟ وإذا كنا نستطيع، بوجه الإجمال، أن نفعل ذلك، فهل تطابق آلية تكوين العرَض في هذا الحال آلية الكبت؟ يبدو أنه من الأقرب إلى الحقيقة، حتى إشعار آخر على الأقل، أن نقول إن الآليتين منفصلتان انفصالاً واضحاً، وإن الكبت ليس هو الذي ينتج تكوين البدائل والأعراض، بل إن هذه الأخيرة، من حيث أنها مؤشرات على **عودة للمكبوت**، تدين بظهورها لسيرورات مغايرة. ويبدو أيضاً أنه من المناسب أيضاً أن نخضع للبحث والتنقيب آليات تكوين البديل والعرَض للتحليل قبل آليات الكبت.

من الواضح أن التكهن النظري لا يمكن أن يتقدم بنا هنا شوطاً آخر إلى الأمام، وأن لا مندوحة أمامنا عن الاستعاضة عنه بالتحليل المتأني لنتائج الكبت، على نحو ما نستطيع ملاحظتها في شتى ضروب العصاب. لكن لا يسعني إلا أن أقترح إرجاء هذا العمل أيضاً إلى أن تتكون لدينا تصورات موثوقة بصدد علاقة الشعور باللاشعور. ولكن كيلا أدع المناقشة الراهنة تتبدد وتتلاشى بدون أية نتيجة، سأطرح فقط من قبيل الاستباق ما يلي: ١ ـ إن آلية الكبت لا تتطابق في الواقع مع آلية أو آليات تكوين البديل؛ ٢ ـ إن آليات تكوين البديل تختلف غاية الاختلاف بعضها عن بعض؛ ٣ ـ ثمة شيء مشترك واحد على الأقل بين آليات



الكبت، وهو **سحب توظيف الطاقة** (أو **الليبيدو** إذا كان الأمر يتعلق بدوافع غريزية جنسية).

سأسعى جهدي أيضاً، بالاعتماد على بعض الأمثلة، وبالاقتصار على الأعصبة النفسية الثلاثة المعروفة لدينا أكثر من غيرها[٦]، إلى بيان كيف أن المفاهيم التي قلت بها تجد تطبيقاً لها في دراسة الكبت. فبالنسبة إلى **الهستيريا الحَصَرية**، سأختار مثال رهاب Phobie الحيوانات، وهو مثال حظي بتحليل جيد. فالحاجة الغريزية، التي تكون قد ناءت هنا تحت نير الكبت، هي موقف ليبيدوي إزاء الأب، مقرون بالحصَر الذي مدار موضوعه على هذا الأب. وبعد الكبت، تكون هذه الحاجة قد امحت من الشعور: فما عاد الأب يظهر فيه كموضوع لليبيدو. وكبديل عنه نجد، في مكان مشابه، حيواناً يصلح بقدر أو بآخر لأن يكون موضوعاً للحصَر. وبذلك يكون تكوين البديل لعنصر التمثل قد تمّ عن طريق **الإزاحة والنقل** وفق ترابطات متعينة بكيفية خاصة. والعنصر الكمّي لم يختفِ، لكنه تحوَّل إلى حصَر. والنتيجة هي حصَر حيال الذئب، بدلاً من مطلب حب موجَّه إلى الأب. وطبيعي أن المقولات المستخدمة هنا لا تكفي لتلبية مقتضيات تفسير أية حالة من حالات العصاب النفسي، حتى ولو كانت من أكثرها بساطة. بل هناك وجهات نظر أخرى ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار.

هذا النوع من الكبت الذي نلفاه في مثال رهاب الحيوانات يمكن أن يوصف بأنه كبت محبَط جوهرياً. فكل ما حققه هو تنحية التمثل وإحلال شيء آخر محلَّه، بينما لم يحرز أي نجاح على صعيد توفير الكدر. ولهذا السبب لا يتوقف عمل العصاب، بل يتواصل في مرحلة ثانية ليبلغ هدفه الأقرب والأهم. وما يتكون عندئذ هو محاولة هرب، **الرهاب** بحصر المعنى، أي عدد كبير من التحاشيات التي يفترض فيها أن تحول دون انفلات الحصَر. أما عن الآليات التي بها يبلغ الرهاب هدفه، فلا بدّ لفهمها من التبحر في البحث أكثر.

٦ ـ هي، كما سيأتي البيان، الهستيريا الحصَرية والهستيريا الاستبدالية والعصاب الوسواسي. «م».



تقودنا لوحة **الهستيريا الاستبدالية**[٧] الحقيقية إلى تقييم مغاير تماماً لسيرورة الكبت. والواقعة البارزة هنا هي أن الكبت قد يفلح في إخفاء الكم الانفعالي بصورة تامة فيدلل المريض عندئذ، حيال عرَضه، على سلوك سبق لشاركو[٨] أن وصفه بأنه «لامبالاة الهستيريين الظريفة»[٩]. وفي أحيان أخرى، لا يكون القمع كاملاً إلى هذا الحدّ، فيرتبط قسم من الأحاسيس المؤلمة بالعرَض عينه؛ أو لا يكون قد أمكن تحاشي جزء من كمّ الحصَر، علماً بأن انفلات الحصَر هذا هو الذي يحرك آلية تكوين الرهاب. ولا يكون المضمون التمثلي لممثل الدافع الغريزي بأي حال من الأحوال في متناول الشعور؛ بل نجد، كمؤشّر على تكوين البديل - وفي الوقت نفسه كعرَض - تعصيباً[١٠] بالغ القوة - بدنياً في الحالات النموذجية - من طبيعة حسية تارة، وحركية[١١] طوراً، إما في صورة تنبيه، وإما في صورة كفّ. وعند التدقيق في الفحص يتبيَّن أن الموضع المعصَّب تعصيباً مضاعفاً هو على وجه التحديد جزء من الممثل الغريزي المكبوت، جزء جذب إليه، بقوة **التكثيف**، كلية التوظيف. وطبيعي أن هذه الملاحظات لا تسلط هي الأخرى ضوءاً كافياً على مجمل آلية الهستيريا الاستبدالية، بل تترك رسابات؛ لذا لا بدّ أن نضيف إليها في المقام الأول عامل **النكوص**، وهو عامل سنوليه حقه من الاعتبار في سياق آخر.

نستطيع أن نحكم أن الكبت، في الهستيريا، قد مني بإحباط ذريع بقدر ما يكون حدوثه قد استوجب تشكيلات بديلة فائقة الأهمية؛ لكنه يعني بوجه العموم نجاحاً كاملاً من منظور تصفية كمّ الانفعال، وهي المهمة الحقيقية للكبت.

٧ - الهستيريا الاستبدالية: هي في نظر فرويد الهستيريا التي تُستبدل فيها الأعراض النفسية بأعراض بدنية. ولذا جاز لنا أن نسمّيها أيضاً بالهستيريا الاستبدانية. «م».

٨ - جان مارتان شاركو: طبيب فرنسي اشتهر بمباحثه في الأمراض العصبية. تتلمذ عليه فرويد في أول حياته (١٨٢٥ - ١٨٩٣). «م».

٩ - بالفرنسية في النص. «م».

١٠ - التعصيب INNERVATION: في الأصل ظاهرة تشريحية تشير إلى كيفية انتشار الأعصاب في الجسم. أما عند فرويد فهو ظاهرة فيزيولوجية تشير إلى نقل الطاقة عبر قناة عصبية. «م».

١١ - المحرِّكة Motrice: صفة العصب الناقل (أو العضلة الناقلة) لحركة أعضاء الجسم، وتقابلها الأعصاب الحواسية، أي الناقلة للإحساس. «م».



زد على ذلك أن سيرورة الكبت، في الهستيريا الاستبدالية، تكتمل مع تكوين العرَض ولا تحتاج، كما في الهستيريا الحصَرية، إلى أن تتواصل في مرحلة ثانية ـ أو، بحصر المعنى، إلى غير ما حدّ.

إن مظهراً مغايراً تماماً سيكشف لنا عنه الكبت أيضاً في النوع الثالث من الإصابات العصبية التي اعتمدناها للمقارنة التي نحن بصددها: **العصاب الوسواسي**. وهنا نتساءل بادئ ذي بدء عما ينبغي أن نعتبره أنه هو الممثل الرازح تحت الكبت: أميل ليبيدوي أم ميل عدواني؟ إن الشك يتأتى من كون العصاب الوسواسي يفترض مسبقاً نكوصاً يحلّ عن طريقه ميل سادي محلّ الميل الحبّي. فالحفزة العدائية ضد شخص محبوب هي التي تسقط تحت نير الكبت. ويأتي المفعول، في طور أول من عمل الكبت، مغايراً تماماً لما سيمسي عليه في زمن لاحق. فهذا العمل يحرز في البدء نجاحاً كاملاً، إذ يُنحَّى مضمون التمثل جانباً ويجبر الانفعال على الاختفاء. أما من حيث تكوين البديل، فنجد تغيُّراً في الأنا، وزيادة في وسوسة الضمير لا نستطيع أن نسمّيها، بالمعنى المضبوط للكلمة، عرَضاً. هنا يكون تكوين البديل وتكوين العرَض منفصلين. كذلك، إن معرفتنا بآلية الكبت تتقدم قليلاً. فالكبت قد حقق هنا، كما في كل مكان آخر، سحباً لليبيدو. لكنه استخدم لهذا الغرض **التشكيل الارتجاعي** Formation Ractionnelle عن طريق تعزيزِ ضدٍّ ما. إذاً، فتكوين البديل يتمّ هنا وفق آلية الكبت، ويكون مطابقاً جوهرياً له، لكنه يفترق، إن من حيث التسلسل الزمني وإن من حيث المفهوم، عن طريق تكوين العرَض. وأرجح الظن أن علاقة الازدواجية، التي تدخل فيها الحفزة السادية المطلوب كبتها، هي التي تجعل السيرورة برمتها ممكنة.

بيد أن الكبت، الذي كان قد بدأ بداية حسنة، لا يثابر على المنوال نفسه؛ وفي طور لاحق، لا يفتأ فشل الكبت يتأكد أكثر فأكثر. فالازدواجية، التي أفسحت في المجال أمام الكبت عن طريق التشكيل الارتجاعي، هي أيضاً الموضع الذي يفلح فيه المكبوت في العودة. فالانفعال يُرجع، وقد تحول إلى حصَر اجتماعي، إلى حصَر ضميري، إلى تبكيت شديد لا هوادة فيه، كما أن التمثل



المُقصى يحلّ محلّه **بديل ما عن طريق النقل**، وفي كثير من الأحيان عن طريق نقل باتجاه ما هو عديم الشأن، عديم الأهمية. وليس يسعنا أن نتجاهل، في معظم الأحايين، وجود ميل إلى إحياء التمثل المكبوت كما هو دونما مساس به: فالفشل في كبت العامل الكمي، الانفعالي، يحرك آلية الهرب عن طريق التحاشيات والنواهي والمحظورات، وهي عين الآلية التي كنا قد شرعنا بمعرفة كنهها في تكوين الرهاب الهستيري. لكن يكون هناك عناد وإصرار على إبقاء التمثل المقصى عن الشعور في هذا الوضع لأن ذلك يسمح بالبقاء في منأى عن العمل وبتقييد الحفزة من جهة القدرة على الحركة. هكذا يفضي عمل الكبت في العصاب الوسواسي إلى صراع بلا نتيجة ولا نهاية.

إن المجموعة المحدودة من المصطلحات المقارن بينها هنا تقنعنا بضرورة القيام بأبحاث أكثر تبحراً قبل أن تتاح لنا الإمكانية لفهم السيرورات المرتبطة بالكبت وبتكوين العرَض العصابي على وجهها الصحيح. والتشابك العجيب لجميع العوامل المطلوب تمحيصها لا يترك لنا غير سبيل واحد للكلام عنها. فعلينا أن نختار تارة وجهة نظر، وطوراً أخرى، وأن نتتبعها عبر المعطيات، ما دام الأخذ بها يعود علينا ببعض النتائج. وكل إنشاء من هذه الإنشاءات يمكن أن يكون ناقصاً بحدّ ذاته إذا أخذناه على حدة، كما أنه ليس من الضروري أن يضيء لنا كلَّ ما خفي وغمض حيثما طال مضماراً لم يجرِ تمهيده ودراسته بعد؛ بيد أنه يسعنا أن نأمل في الوصول إلى تفهم جيد فيما لو تأَتى لنا أن نجمع كل شيء معاً في خاتمة المطاف.



اللاشعور

أفادتنا التجربة في مضمار التحليل النفسي أن ماهية سيرورة الكبت لا تكمن في إلغاء أو في إبادة تمثُّل يمثِّل الدافع الغريزي، بل في الحؤول دون صيرورته واعياً. وعندئذ نقول عنه إنه موجود في الحالة «اللاشعورية»، ويكون في مستطاعنا أن نقدِّم أدلة قوية على أنه قادر، على كونه لاشعورياً، أن يؤتي مفاعيل، بل على أن بعض هذه المفاعيل يرقى إلى مجال الشعور في خاتمة المطاف. إن كل مكبوت يبقى بالضرورة لاشعورياً، لكننا نحرص على أن نقرر سلفاً أن المكبوت لا يغطي اللاشعور كله. فاللاشعور ذو مدى أوسع؛ والمكبوت جزء ليس إلا من اللاشعور.

كيف السبيل إلى معرفة اللاشعور؟ طبيعي أننا لا نعرفه إلا شعورياً، بعد انتقاله إلى الشعور أو ترجمته إليه. ويتيح لنا العمل التحليلي النفسي أن نختبر يومياً وتجريبياً إمكانية ترجمة كهذه. ويقتضي ذلك أن يتغلب الشخص المحلَّل على بعض المقاومات، وهي المقاومات عينها التي كانت، في حينه، قد حوَّلت تمثلاً كذاك إلى مكبوت عن طريق إقصائه عن الشعور.

١ ـ تبرير اللاشعور.

يُنكر علينا من كل حدب وصوب الحقّ في المصادرة على وجود جانب لاشعوري من النفس وفي العمل عملياً بالاستناد إلى هذه الفرضية. وبوسعنا أن نردّ على ذلك بأن فرضية اللاشعور **ضرورية ومشروعة**، وبأن في حوزتنا أدلة كثيرة على وجود اللاشعور. فهي ضرورية لأن معطيات الشعور بحدّ ذاتها ناقصة إلى أبعد حدّ؛ فغالباً ما تحدث لدى الإنسان الصحيح أو المريض أفعال نفسية لا سبيل إلى تفسيرها إلا بافتراض وجود أفعال أخرى لا تتمتع، هذه المرة، بشهادة



الشعور. هذه الأفعال ما هي فقط الهفوات والأحلام لدى الإنسان السليم، ولا كل ما نسمّيه بالأعراض النفسية والظاهرات القهرية لدى المريض؛ بل إن تجربتنا اليومية الشخصية الحميمية تضعنا وجهاً لوجه أمام أفكار ترد إلى خاطرنا من دون أن نعرف أصلها، وأمام نتائج تفكير لبث إنشاؤها خافياً علينا. جميع هذه الأفعال الشعورية تظلّ غير متماسكة منطقياً وغير قابلة للفهم إذا أصررنا على الادعاء بأن علينا أن ندرك بالوعي كل ما يحدث فينا مما له صلة بالأفعال النفسية؛ لكنها لا تلبث أن تنتظم في كل واحد، يسير علينا أن نقيم البرهان على تماسكه وتلاحمه منطقياً، فيما إذا استلحقنا بها الأفعال اللاشعورية المستنتَجة استنتاجاً. والحال أننا نجد في هذا الاكتساب للمعنى وفي هذا الترابط المنطقي حافزاً، له مبرراته الكاملة، على المضيّ قدماً إلى ما بعد التجربة المباشرة. وإذا ما اتضح، فضلاً عن ذلك، إننا نستطيع أن نشيد على أساس فرضية اللاشعور ممارسة مكللة بالنجاح، بها نؤثّر، طبقاً لهدف معلوم، على مجرى السيرورات الشعورية، نكون قد حزنا، مع هذا النجاح، على دليل غير قابل للنقض على وجود ما كنا فرضنا فرضيته. من الواجب إذاً أن نأخذ بوجهة النظر القائلة بأن من يطالب بوجوب معرفة الوعي بكل ما يحدث في المضمار النفسي إنما يستند إلى **محض افتراض واهٍ لا سند له.**

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك وأن نؤكد، دعماً للأطروحة القائلة بوجود حالة نفسية لاشعورية، أن الشعور لا يحتوي في كل لحظة وآن إلا على محتوى طفيف للغاية بحيث أننا لو نحَّينا هذا المحتوى جانباً لوجدنا الجزء الأكبر مما نسمّيه بالمعرفة الشعورية غارقاً بالضرورة، ولفترات أطول من الزمن، في حالة كمون، أي في حالة لاشعور نفسي. ولكن لو أخذنا بعين الاعتبار وجود جميع ذكرياتنا الكامنة لبات من غير المعقول بأي صورة من الصور المماراة في وجود اللاشعور. ولكن عندئذ قد نصطدم باعتراض يقول إن هذه الذكريات الكامنة لا يعود يصحّ وصفها في هذه الحال بأنها نفسية، بل هي تناظر بالأحرى بقايا سيرورات بدنية، لها وجه نفسي قابل لمعاودة الظهور. وليس من العسير الردّ بأن الذكرى الكامنة هي على العكس، وبما لا يقبل

جدالاً، بُقيا من سيرورة نفسية. لكن الأهم من ذلك أن ندرك جيدًّ الإدراك أن الاعتراض المشار إليه يرتكز إلى مماثلة غير مجهور بها، ولكنها مقررة سلفاً، بين الشعوري والنفسي. وهذه المماثلة هي إما **مصادرة على المطلوب**[1] لا تترك مجالاً للتساؤل عما إذا كان كل ما هو نفسي لا بدّ أن يكون أيضاً شعورياً، وإما مسألة توافق واصطلاح. وهي في صورتها الأخيرة هذه، مثلها مثل كل توافق متواضع عليه، غير قابلة بالطبع للدحض. ولكن يبقى الباب مفتوحاً أيضاً بطبيعة الحال للتساؤل عما إذا كانت صالحة للاستعمال إلى الحدّ الذي يكفي لحملنا على الأخذ بها. ومن حقِّنا أن نجيب بأن المماثلة المتوافق عليها بين النفسي والشعوري ليست صالحة للاستعمال على الإطلاق. فهي تبتر الاستمراريات النفسية، وتزجّ بنا في صعوبات وإشكالات مستغلقة ملازمة وجوباً للنظرية القائلة بتوازي النفسي والفيزيقي، وتعرض ذاتها بذاتها للنقد لمغالاتها، دونما أساس مقنع، في دور الشعور وتجبرنا على مبارحة مضمار البحث السيكولوجي قبل الأوان، من دون أن يكون في مستطاعها تقديم تعويضات لنا من مضامير أخرى.

مهما يكن من أمر، فمن الواضح أن المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كان من الواجب أن نعدّ الحالات الكامنة للحياة النفسية ـ وهي حالات لا مراء فيها ـ حالات نفسية لاشعورية أو حالات فيزيقية، مسألة قد لا تتمخض إلا عن خصومة كلمات وألفاظ. من المناسب إذاً أن نوضح كل ما نعرفه بيقين وثقة عن طبيعة هذه الحالات التي يثور الجدل حولها. والحال أن هذه الحالات ليست، في الساعة الراهنة، في متناول إدراكنا بصفاتها الفيزيقية؛ فليس لأي تصور فيزيولوجي ولأية سيرورة كيماوية أن يقدِّما لنا فكرة عن طبيعتها. ومن المؤكد، من جهة أخرى، أن الصلة التي تقيمها مع السيرورات النفسية الشعورية هي من أوسع ما يكون؛ فهي تتوصل، عن طريق إنجاز عمل معيَّن، إلى تحقيق إبدالها إلى سيرورات شعورية، وإلى إنابتها منابها، كما أنه يمكن أن توصف بجميع المقولات التي نصف بها الأفعال النفسية الشعورية كالتصورات والميول والقرارات وما إلى

١ ـ باللاتينية في النص: Petitio Principi. «م».



ذلك. وفي الحقيقة، لزام علينا أن نقول عن شطر لا بأس به من هذه الحالات الكامنة إنها لا تتميز عن الحالات الشعورية إلا بكونها تفتقر على وجه التحديد إلى الشعور. نحن لا نتردد إذاً في التعامل وإياها من حيث هي موضوعات للبحث السيكولوجي، وفي إقامة صلة وثيقة للغاية بينها وبين الأفعال النفسية الشعورية.

إن الإصرار العنيد على إنكار الصفة النفسية على الأفعال النفسية الكامنة مردّه إلى أن معظم الظاهرات المعنية لم تجد من يدرسها خارج نطاق التحليل النفسي. ومن ليس له دراية بالوقائع المَرَضية، ومن يكتفِ بأن يعتبر هفوات أسوياء الناس محض مصادفات، ومن يقنع بالحكمة القديمة القائلة بأن الأحلام أضغاث[٢]، فهو امرؤ لا يحتاج إلا إلى أن يضرب صفحاً أيضاً عن بعض ألغاز علم نفس الشعور كيما يوفّر على نفسه فرضية نشاط نفسي لاشعوري. وعلى كلٍ، قدَّمت تجارب التنويم المغنطيسي، وبخاصة الإيحاء بعد التنويمي، أدلة ملموسة، حتى قبل عهد التحليل النفسي، على وجود اللاشعور في النفس وعلى نمط فاعليته.

بيد أن فرضية اللاشعور هي أيضاً فرضية مشروعة تماماً، وذلك بقدر ما لا نبتعد البتة، إذ نقرّها، عن طريقة التفكير التي نعتبرها في العادة صحيحة. فالشعور لا يقدِّم لكل واحد منا سوى المعرفة بحالاته النفسية الخاصة؛ أما أن يكون لإنسان آخر شعور أيضاً، فهذا استدلال نستدلّه **بطريق المقايسة**[٣] كيما نجعل سلوك هذا الرجل الآخر مفهوماً من قبلنا، وذلك بالاستناد إلى إدراكنا لما يقوله ويفعله (من الأصح في الحقيقة، من وجهة النظر السيكولوجية، أن نصف الأمور على الوجه التالي: إننا نعير، دونما إمعان في التفكير، كل كائن آخر عدانا جِبِلّتنا، وبالتالي شعورنا أيضاً؛ وقدرتنا على الفهم هي التي تستوجب هذه المماهاة). هذا الاستدلال ـ أو هذه المماهاة ـ كان قد سُحب في الماضي

---

٢ ـ في الأصل الألماني Traume Sind Schaume، وهو جناس يعني حرفياً: الأحلام زبد هباء. وقد آثرنا ترجمتها بالتعبير القديم: أضغاث أحلام؛ والضغث هو ما اختلط من الخبر والأمر، فلا حقيقة له. «م».

٣ ـ باللاتينية في النص Per Analogiam «م».



من الأنا على سائر الناس، وعلى الحيوانات النباتات، وعلى الكائنات التي لا حياة فيها، وعلى العالم باعتباره كلاً واحداً؛ وقد اتضح أن هذا الاستدلال قابل للاستعمال ما دام التشابه مع الأنا/ الفرد شبه مطلق، ولكن الاعتماد عليه راح يتضاءل أكثر فأكثر طرداً مع ابتعاد الآخر عن الأنا. واليوم يدلل حكمنا النقدي على مزيد من الشك بصدد شعور الحيوانات، وينكر على النباتات الشعور، ويترك للصوفية مهمة التسليم بشعور لما لا حياة فيه. ولكن حتى حيثما خرج الميل الأصلي إلى المماهاة من الامتحان النقدي مكللاً بالفوز، أي على وجه التحديد في حالة ذلك الآخر الذي هو أقرب إلينا، أعني الإنسان، ظلت فرضية الشعور تستند إلى استدلال من دون أن تحيط بها هالة اليقين المباشر الذي يساورنا بصدد شعورنا الخاص.

والحال أن التحليل النفسي لا يطلب شيئاً سوى أن تطبَّق طريقة الاستدلال هذه على شخصنا بالذات، وإن لم يكن ثمة وجود لميل في جِبِلَّتنا إلى فعل ذلك. وإذا نُفِّذت هذه الخطوة، فلا بدّ من القول بأن جميع الأفعال وجميع التظاهرات التي ألاحظها فيّ والتي لا أدري كيف أربطها بباقي حياتي النفسية ينبغي وضعها على محكّ الحكم كما لو أنها تخصّ شخصاً آخر، ويتوجب تفسيرها بعزو حياة نفسية إليها. وتظهر التجربة أيضاً أننا إذا ما رفضنا في حالتنا الشخصية أن نتعرف الصفة النفسية لبعض أفعالنا، فإننا لا نجد حرجاً بالمقابل في تأويل هذه الأفعال عينها ـ أي إدراجها في السياق النفسي ـ لدى الآخرين. وظاهر للعيان أنه تنتصب هنا عقبة من نوع خاص تصرف مبحثنا عن شخصنا بالذات، وتحول بينه وبين الوصول إلى معرفة صحيحة به.

والحال أن طريقة الاستدلال هذه إذا ما طُبِّقت، رغم المقاومة الداخلية، على شخصنا بالذات، لا تفضي إلى اكتشاف لاشعور، بل تؤدي بتعبير أقرب إلى الصحة إلى فرضية شعور آخر، شعور ثانٍ، متحد في شخصي بالشعور المعروف لديّ. بيد أن النقد يجد هنا الفرصة سانحة لإبداء بعض اعتراضات. أولاً، إن الشعور الذي لا يعرف مالكه بالذات شيئاً عنه لهو شيء مغاير على كل حال لشعور أجنبي؛ ومن المباح لنا أن نتساءل إن كان شعور كهذا، يفتقر إلى الصفة الأهم على الإطلاق،



يستأهل بعد كل حساب أية مناقشة. فمن أبدى تحفظاً في التسليم بوجود جانب نفسي لاشعوري لا يمكن أن يداخله شعور بالاقتناع والرضى فيما لو اقترحنا عليه بدلاً عنه **شعوراً لاشعورياً**. ثانياً، يشير التحليل النفسي إلى أن السيرورات النفسية الكامنة الفردية، التي نستنتجها بالاستدلال، تتمتع بدرجة عالية من الاستقلال حيال بعضها بعضاً، فلكأن واحدتها لا علاقة لها بالأخرى، ولكأن واحدتها لا تعرف شيئاً عن الأخرى. ينبغي إذاً أن نكون متهيئين للتسليم لا بوجود شعور ثانٍ فينا فحسب، بل كذلك بوجود شعور ثالث ورابع، وربما سلسلة لامتناهية من حالات شعورية مجهولة جميعها من قبلنا وجاهل بعضها ببعضها الآخر. أما الحجة الثالثة التي لا مفرّ من أخذها بعين الاعتبار، وهي أكثرها وجاهة، فمؤداها أن قسماً من هذه السيرورات الكامنة يتّسم، كما يفيدنا البحث التحليلي النفسي، بصفات وخصائص تبدو لنا غريبة، بل عجيبة لا تصدق، وتتعاكس مباشرة مع خواص الشعور المعروفة لدينا. من هنا نجد مسوغاً لتعديل الاستدلال الذي طبّقناه على شخصنا بالذات: فهو يبرهن، لا على وجود شعور ثانٍ فينا، بل على وجود أفعال نفسية محرومة من الشعور. كما سيكون من حقنا أن ننحي جانباً مصطلح «ما تحت الشعور» بوصفه مصطلحاً غير صحيح ومضلّلاً. فحالات «الشعور المزدوج»[٤] المعروفة (انفلاق الشعور) لا تبرهن على شيء نقيض لتصورنا. بل من الممكن تماماً وصفها بأنها حالات انفلاق في الأنشطة النفسية إلى فئتين، على اعتبار أن الشعور الواحد ذاته ينطبق تناوباً على هذا الطرف أو على ذاك.

هكذا لا يبقى أمام التحليل النفسي من حلّ آخر سوى أن يعلن عن وجود سيرورات نفسية لاشعورية بحدّ ذاتها، وأن يشبّه إدراكها من قبل الشعور بإدراك العالم الخارجي من قبل أعضاء الحواس. بل إننا لنأمل أن تجني معرفتنا فائدة من هذا التشبيه. فالفرضية التحليلية النفسية عن النشاط النفسي اللاشعوري تبدو لنا، من جهة أولى، وكأنها استطالة بعيدة للأرواحية[٥] البدائية التي كانت ترأرئ إلينا

---

٤ ـ بالفرنسية في النص: Double Conscience. «م».

٥ ـ الأرواحية (أو الإحيائية) Animisme: مذهب يقول بحيوية المادة، وديانة قديمة تعزو إلى الظاهرات الطبيعة روحاً. «م».



من كل مكان بصور حيّة لشعورنا، ومن الجهة الثانية، تتمة للتصحيح الذي أدخله كانط على تصورنا للإدراك الخارجي. فكما حذرنا كانط من التغافل عن المشروطية الذاتية لإدراكنا ومن اعتبار إدراكنا مطابقاً في الهوية للمدْرَك غير القابل لأن يعرف[٦]، كذلك يحثّنا التحليل النفسي على ألا نحِلّ إدراك الشعور محل السيرورة النفسية اللاشعورية التي هي موضوعه. فالنفسي، نظير الفيزيقي، ليس بحاجة هو الآخر إلى أن يكون في الواقع كما يتبدى لنا. بيد أننا لن نلبث أن نعلم بحبور بعيد ذلك أن تصحيح الإدراك الداخلي لا تجابهه عقبة كأداء كتلك التي تجابه الإدراك الخارجي، وأن الموضوع الداخلي أقلّ عدمَ قابليةٍ للمعرفة من العالم الخارجي.

٢ ـ تعدد مدلولات مصطلح اللاشعور ووجهة النظر الطبوغرافية

قبل أن نتابع بحثنا ينبغي أن نتوقف عند واقعة هامة ومحرجة في آن معاً: فالكينونة اللاشعورية ما هي إلا علامة فارقة للنفسي، ولكنها لا تكفي بحال من الأحوال لتمييزه وتحديد صفاته كافة. فثمة أفعال نفسية تشترك فيما بينها بكونها لاشعورية، على الرغم من التفاوت الكبير في أهميتها. فاللاشعور يضم ، من جهة أولى، أفعالاً هي محض أفعال كامنة، لاشعورية مؤقتاً، لكنها لا تتميز في شيء، فيما عدا ذلك، عن الأفعال الشعورية، ويضم من الجهة الثانية سيرورات، نظير السيرورات المكبوتة، لو أضحت شعورية لافترقت عن باقي السيرورات الشعورية على نحو حادّ وقاطع. ولو شئنا أن نضع حداً لكل سوء تفاهم لكان يتوجّب علينا أن نترك جانباً من الآن فصاعداً، في وصفنا لشتى أنواع الأفعال النفسية، مسألة معرفة ما إذا كانت شعورية أو لاشعورية، وأن نكتفي بتصنيف هذه الأفعال وربطها بعضها ببعض وفقاً لعلاقتها بالدوافع الغريزية وبالأهداف وطبقاً لارتباطها وانتمائها إلى الأنساق النفسية

---

٦ ـ الإحالة هنا إلى نظرية الفيلسوف الألماني عمانويل كانط (١٨٢٤ ـ ١٨٠٤) في **نقد العقل الخالص**. فنظراً إلى الشروط الذاتية التي تتحكم بقدرة الإنسان على المعرفة، فإن أقصى ما يمكنه الوصول إليه هو المعرفة بـ «الظاهرات» وليس بـ «الشيء في ذاته». «م».



المتراتبة هرمياً. لكن هذا غير قابل للتحقيق لأسباب شتى، ومن ثم لا يسعنا أن نتملص من التباس معيَّن: فنحن نستخدم كلمتي الشعور واللاشعور تارة بمعنى وصفي، وطوراً بمعنى نسقي يشير إلى الانتماء إلى أنسقة معيَّنة وإلى حيازة خواص معيَّنة[7]. ومن الممكن أيضاً أن نحاول تجنُّب اللبس بإطلاقنا على الأنسقة النفسية، التي تيسَّر لنا تعرُّفها، أسماء مختارة عسفاً وكيفاً بحيث لا تتضمن أية إشارة إلى واقعة الكينونة الشعورية. لكن لا بدّ لنا في هذه الحال من أن نعلل سلفاً أساس التمييز بين الأنسقة، وهنا لن يكون في مقدورنا أن نتملص من واقعة الكينونة الشعورية، لأنها هي نقطة الانطلاق لأبحاثنا كافة. ولعلنا واجدون بعض التيسير في ما نحن بصدده لو اقترحنا أن نستبدل في الكتابة كلمة الشعور Conscient بالتسمية المختصرة Cs **شع**، وكلمة اللاشعور Inconscient بالتسمية المختصرة المقابلة Ics **لشع**، وذلك متى ما استخدمنا الكلمتين بالمعنى النسقي.

لننتقل الآن إلى عرض الأمور من وجهة نظر إيجابية ولنضع على النحو التالي إحدى النتائج التي توصَّل إليها التحليل النفسي: إن الفعل النفسي يمرّ بوجه العموم بطورين، بحالتين، يقوم بينهما ضرب من الامتحان (**رقابة**). ففي الطور الأول يكون لاشعورياً وينتمي إلى النسق **لشع**؛ وإذا ما سقط في الامتحان الذي تفرضه عليه الرقابة، سُدّ عليه المنفذ إلى الطور الثاني؛ فيقال عندئذ إنه مكبوت وينبغي بالضرورة أن يبقى لاشعورياً. لكنه إذا ما نجح في هذا الامتحان، دلف عندئذ إلى الطور الثاني وبات ينتمي إلى النسق الثاني الذي قررنا أن نسميه النسق **شع**. غير أن علاقته بالشعور لا تكون قد تحددت بعد بفعل هذا الانتماء تحدداً ذا معنى واحد لا غير. فهو ليس شعورياً، وإنما هو

---

٧ - حتى نفهم معنى اللبس الذي يشير إليه فرويد لا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار أن لفظة Conscient بالأجنبية تعني في آن معاً الواعي والشعوري، وأن لفظة Inconscient تعني في آن معاً اللاواعي واللاشعوري. وهذا اللبس غير قائم في العربية ما دام المختصون قد جعلوا للمعنى الوصفي لفظاً هو الواعي واللاواعي، وللمعنى النسقي لفظاً آخر وهو الشعوري واللاشعوري. ولكنهم خلقوا بذلك لبساً آخر إذ بتروا الصلة الاشتقاقية القائمة بالأجنبية بين المعنيين. «م».



بالأحرى قابل لأن يغدو شعورياً (بحسب تعبير ج. بروير)[8]. وبعبارة أخرى، يسعه الآن، بلا مقاومة خاصة، وبشرط توافر بعض الشروط، أن يغدو موضوعاً للشعور. ومراعاةً لهذه الإمكانية المتاحة له في أن يغدو شعورياً، نطلق على النسق **شع** اسم ما قبل الشعور Préconscient أيضاً[9]. وإذا اتضح أن أيلولة القبشعور إلى الشعور تتحدد هي الأخرى برقابة معيَّنة، فإننا سنكون على استعداد في هذه الحال للفصل بمزيد من الصرامة بين النسقين **قشع وشع** واحدهما عن الآخر. أما في الوقت الراهن فحسبنا أن نأخذ في اعتبارنا أن النسق **قشع** يشاطر النسق **شع** خواصه، وأن الرقابة الصارمة تؤدي دورها عند الانتقال من **لشع** إلى **قشع** (أو **شع**).

إن التحليل النفسي، بإقراره وجود هذين النسقين النفسيين (أو الثلاثة)، قد خطا خطوة أخرى في الاتجاه الذي يباعد الشقة بينه وبين علم نفس الشعور الوصفي، وهيَّأ لنفسه كيفية جديدة في طرح المشكلات ومضموناً جديداً. فما كان يميِّزه إلى اليوم عن علم النفس هو، بصورة رئيسية، تصوره **الدينامي** للسيرورات النفسية؛ وإلى هذا ينضاف من الآن فصاعداً قراره بأن يرجع أيضاً إلى الطبوغرافيا النفسية وبأن يعيِّن بالنسبة إلى كل فعل نفسي ما النسق الذي في داخله، أو ما الأنساق التي بينها يتمّ أداء الفعل المذكور. وبفضل هذا المشروع استحق أيضاً اسم **علم نفس الأعماق**[10]. وهو على كل حال مشروع قابل للإغناء بوجهة نظر أخرى أيضاً، كما سنرى عما قليل.

---

٨ ـ جوزيف بروير: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥). عمل معه فرويد في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور بيركه واشترك معه عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان **دراسات في الهستيريا**. وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاماً، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسانيين، ثم ما لبث أن استعاض عنه بمنهج التطهير (كاثارسيس) الذي يقوم على انتزاع الأسرار التي ترهق المريض من أفكار وعواطف مكبوتة. ولكن فرويد لم يقف عند الحدّ الذي كان وصل إليه بروير، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيداً. وقد كتب عن بروير في **حياتي والتحليل النفسي** يقول: «لقد كلّفني نمو التحليل النفسي صداقته. لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن، لكن لم يكن في مقدوري أن أتفادى ما كان». «م».

٩ ـ سنقول اختصاراً القبشعور. «م».

١٠ ـ مصطلح كان اقترحه يوجين بلولر في بحث له عام ١٩١٤ بعنوان **انتقادات الفصاميين**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



إذا شئنا أن نحمل على محمل الجدّ التوزع الطبوغرافي للأفعال النفسية، فعلينا أن نوجه اهتمامنا إلى سؤال يطرح نفسه هنا ويضعنا في موضع الحرج. فإن انتقل فعل من الأفعال النفسية (لنقتصر هنا على النظر في فعل ذي طبيعة تمثُّلية) من النسق **لشع** إلى النسق **شع** (أو **قشع**)، فهل يفترض فينا أن نسلِّم بأن هذا الانتقال يرتبط بتثبيت جديد، بتسجيل ثانٍ إن صحّ التعبير للتمثل موضوع البحث، وبأن هذا التسجيل ممكن الاحتواء في موقع نفسي جديد من دون أن يمَّحي التسجيل اللاشعوري القديم الذي إلى جانبه؟ أم يتوجب علينا بالأحرى أن نفترض أن الانتقال المشار إليه لا يعدو أن يكون تغيُّراً في الحالة يطرأ على المادة عينها ويتمّ في الموقع نفسه؟ قد يبدو هذا السؤال عويصاً؛ ولكن لا مناص مع ذلك من طرحه إذا كنا نبغي أن نكوّن فكرة أدق وأوضح عن الطبوغرافيا النفسية وعن مدى البعد العمقي لما هو نفسي. إنه سؤال صعب لأنه يتخطى علم النفس الخالص ويمسّ علاقات الجهاز النفسي بالتشريح. ونحن نعلم أن مثل هذه العلاقات، بالمعنى الفضفاض للكلمة، موجودة. فالنشاط النفسي مرتبط بوظيفة المخ أكثر من ارتباطه بأي عضو آخر ـ وهذه نتيجة راسخة من نتائج البحث العلمي. وقد تقدم البحث إلى ما أبعد من ذلك ـ ولكن لا ندري إلى أي حدّ ـ باكتشافه أن لأقسام المخ قيماً غير متعادلة، وعلاقات تفاضلية بأقسام الجسم وأنشطة ذهنية محددة. لكن جميع المحاولات التي بذلت للتكهن، انطلاقاً من ذلك، بطبوغرافيا السيرورات النفسية، وجميع الجهود التي تركزت على محاولات تصوير التمثلات وكأنها مخزونة في خلايا عصبية أو التي رمت إلى تحديد مجرى التنبيهات في الألياف العصبية، كان مآلها إلى إخفاق ذريع. والمصير نفسه ينتظر أية نظرية قد تتنطع لتعيين الموقع التشريحي للنسق **شع**، أي النشاط النفسي الشعوري، في قشرة الدماغ، ولتحديد مكان السيرورات اللاشعورية بالمناطق ما تحت القشرية من الدماغ. والحق أن الثغرة القائمة هنا لا تخفي نفسها، ولا سبيل إلى ردمها في الساعة الراهنة، ناهيك عن أن الأمر لا يدخل في نطاق مهام علم النفس. **ففي الوقت الحاضر**، لا ضلع لطبوغرافيتنا النفسية بالتشريح؛ فمرجعها إنما هو إلى مناطق



من الجهاز النفسي، أنى يكن موقعها في الجسم، وليس إلى مواضع تشريحية.

عملنا إذاً حرّ من هذه الزاوية، وبمقدوره أن يواصل تقدمه بحسب حاجاته الخاصة. وسيكون من المفيد أيضاً أن نتذكر أن فرضياتنا لا تستطيع أن تدعي لنفسها في البدء من قيمة سوى قيمة التمثيل المجازي. وأول الاحتمالين المشار إليهما ـ الطور **شع** للتمثل الدالّ على تسجيل جديد لهذا التمثل عينه، ولكن في موضع آخر ـ هو في أرجح الظن أعظمهما فجاجة، ولكنه أيضاً أنسبهما وأوفقهما. أما الفرضية الثانية القائلة بمجرد تغيُّر **وظيفي** في الحالة، فهي من البداية الأقرب احتمالاً، ولكنها أيضاً الأقل مرونة والأقل مطاوعة. وترتبط بالفرضية الأولى، الطبوغرافية، فرضية انفصال طبوغرافي بين النسقين **لشع** و **شع**، كما ترتبط بها الإمكانية المتاحة لتمثل من التمثلات لأن يكون حاضراً في آن معاً في موضعين من الجهاز النفسي، بله أن يتقدم نظامياً، إن لم تحتجزه الرقابة، من موضع إلى آخر، وربما من دون أن يبارح موقعه الأول، أو تسجيله الأول. قد يبدو هذا باعثاً على الاستغراب، لكنه يرتكز في الواقع إلى انطباعات مستقاة من الممارسة التحليلية النفسية.

لو أطلعنا المريضَ على تمثُّل أفلحنا في تخمينه بعد أن سبق له، في زمن ما، أن كبته، لما بدلّ ذلك شيئاً في حالته النفسية في بادئ الأمر. وخلافاً لما يمكن أن يتوقعه بعضنا، فإن الكبت لا يزول، ومفاعيله لا تلتغي، لمجرد أن التمثل اللاشعوري آنفاً قد أضحى الآن شعورياً. بل على العكس، فنحن لا نفوز من ذلك في بادئ الأمر إلا برفض متجدد للتمثل المكبوت، لكن المريض يمسي في الحقيقة حائزاً على التمثل عينه في شكل مزدوج وفي موضعين مختلفين من جهازه النفسي؛ فقد باتت في متناوله أولاً الذكرى الشعورية للأثر السمعي للتمثل الذي تمّ إبلاغه إليه، وهو يحمل في ذاته ثانياً، كما نعلم عن يقين، إلى جانب هذه الذكرى، ولكن في الشكل القديم، الذكرى اللاشعورية لما سبق له أن عاشه. والواقع أن إلغاء الكبت لا يتمّ قبل أن يدخل التمثل الشعوري، بعد التغلب على المقاومات، في اتصال مع الآثار الذاكرية اللاشعورية. ويكون بلوغ النجاح متى ما أضحت هذه الآثار بدورها شعورية. ومن هنا قد يتراءى لنا، فيما لو



اكتفينا بفحص سطحي، أن التمثلين الشعوري واللاشعوري هما تسجيلان، متباينان ومنفصلان طبوغرافياً، لمضمون واحد. لكن إعمال الفكر، ولو في أدنى الحدود، يظهر لنا أن التطابق بين الذكرى المبلَّغة للمريض وذكراه المكبوتة ظاهري ليس إلا. فأن يسمع المرء شيئاً وأن يكون قد عاشه فعلان من طبيعة سيكولوجية مختلفة تماماً، وإن يكن مضمونهما متماثلاً.

على هذا النحو لا نجد في أنفسنا المقدرة، دفعة واحدة، على البتّ في الاحتمالين موضوع النقاش. ولعلنا نلاقي لاحقاً عوامل قمينة بأن تجعل كفة الميزان ترجح لصالح أحد الاحتمالين. ولعلنا سنكتشف، في أجل غير بعيد، أن طريقتنا في طرح المشكلة كانت ناقصة وغير كافية وأن تمييز التمثل اللاشعوري من التمثل الشعوري يجب أن يُحدَّد تحديداً مغايراً تماماً.

٣ ـ المشاعر اللاشعورية

قصرنا المناقشات السابقة على التمثلات وبوسعنا الآن أن نطرح مسألة جديدة؛ والمفروض في الجواب أن يسهم في توضيح تصوراتنا النظرية. فقد قلنا إنه توجد تمثلات شعورية وتمثلات لاشعورية؛ لكن هل توجد أيضاً حاثات غريزية، مشاعر، إحساسات لاشعورية، أم أن مثل هذه المزاوجات بين الألفاظ لا معنى لها في هذه الحالة؟

في الحقيقة، أعتقد أن التعارض بين الشعور واللاشعور لا ينطبق على الدافع الغريزي. فالدافع الغريزي لا يمكن أبداً أن يغدو موضوعاً للشعور، بل الوحيد الذي يستطيع ذلك هو التمثل الذي يمثل هذا الدافع الغريزي. لكن في اللاشعور أيضاً لا يمكن للدافع الغريزي أن يُمثَّل إلا بواسطة التمثُّل. فإن لم يكن الدافع الغريزي مرتبطاً بتمثل أو إن لم يظهر في صورة حالة انفعالية، ما استطعنا أن نعرف عنه شيئاً. لكن إن تكلمنا مع ذلك عن حاثة غريزية لاشعورية أو عن حاثة غريزية مكبوتة، فهذه محض هنة في التعبير لا يترتب عليها من عواقب. فكل ما يسعنا أن نعنيه بها هو أنها حاثة غريزية بقي ممثِّلُ تمثُّلِها لاشعورياً. ولا شيء غير ذلك.



قد يخامرنا الاعتقاد بأن الجواب عن السؤال المتعلق بالأحاسيس والمشاعر والانفعالات اللاشعورية سهل إعطاؤه. بيد أنه من ماهية الإحساس بالذات أن يكون مدرَكاً، أي معروفاً من قبل الشعور. وعلى هذا النحو يتلاشى تماماً بالنسبة إلى المشاعر والإحساسات والانفعالات احتمال أن تكون لاشعورية. لكن جرت بنا العادة في الممارسة التحليلية النفسية على الكلام عن حب أو كره أو حنق، إلخ، لاشعوري، بل لا نجد بداً من استعمال أشباه هذه المزاوجة اللفظية الغريبة: «الشعور اللاشعوري بالذنب»، أو أشباه هذه المفارقة: «حصَر لاشعوري». فهل لهذه الطريقة في الكلام من معنى أكثر مما لكلامنا عن «دافع غريزي لاشعوري»؟

في الواقع، ما هكذا تمثُل الأمور للعيان هنا. فقد يحدث أولاً أن تقع حاثة انفعالية أو عاطفية تحت الإدراك وأن تبقى غير معروفة مع ذلك. وبالنظر إلى أن ممثلها الخاص يكون قد كُبت في هذه الحال، فإنها تضطر إلى الارتباط بتمثل آخر، وعندئذ يعدّها الشعور تجلّياً لهذا التمثل. وحين نعيد الارتباط الصحيح إلى نصابه، نطلق صفة «اللاشعورية» على الحالة الانفعالية الأصلية، بالرغم من أن انفعالها لم يكن بحال من الأحوال لاشعورياً، وبالرغم من أن ممثلها وحده هو الذي وقع تحت مفعول نير الكبت. إن استخدام تعبير «انفعال لاشعوري» و«عاطفة لاشعورية» يرجعنا بوجه الخصوص إلى المصائر التي يؤول إليها العامل الكمي في الحاثة الغريزية على إثر الكبت (انظر المقال السابق عن الكبت). ونحن نعلم أن هذا المصير يمكن أن يكون على ثلاثة أشكال: إما أن يبقى الانفعال ـ كلياً أو جزئياً ـ كما هو؛ وإما أن يتحول إلى كمّ انفعالي مختلف نوعياً، وبصورة رئيسية إلى حصَر؛ وإما أن يُكبح، أي يُحال على نحو سافر دون تمخُّضه (هذه الاحتمالات قد تكون دراستها أسهل في عمل الحلم منها في ضروب العصاب). ونحن نعلم أيضاً أن قمع تمخُّض الانفعال هو الهدف النوعي للكبت، وأن عمل الكبت يبقى غير ناجز ما لم يتم بلوغ الهدف النوعي. وفي جميع الحالات التي سينجح فيها الكبت في كف تمخض الانفعال ننعت بـ «اللاشعورية» الانفعالات التي نعيدها إلى نصابها بتصحيحنا عمل الكبت. لا يسعنا إذاً أن ننفي أن هذه الطريقة في الكلام منطقية مع ذاتها؛ لكن يوجد فرق بيِّن بالنسبة إلى التمثل



اللاشعوري؛ فهذا التمثل يبقى، بعد كبته، في النسق **لشع** كتشكيل واقعي، بينما لا يقابل الانفعال اللاشعوري في هذا الموضع عينه سوى عنصر أولي ما أتيحت له سبل التمخُّض. وعليه، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نشجب هذه الطريقة في الكلام، فإنه لا وجود، بحصر المعنى، لانفعالات لاشعورية على نحو ما توجد تمثلات لاشعورية. لكن من المحتمل تماماً أن توجد في النسق **لشع** تشكيلات انفعالية لا تلبث أن تغدو شعورية نظير غيرها. ويتأتى الفرق كله من كون التمثلات توظيفات ـ مستندة إلى آثار ذاكرية ـ بينما الانفعالات والعواطف والمشاعر تناظر سيرورات تفريغ يتم إدراك تظاهراتها النهائية في شكل إحساسات. وفي الوضع الراهن لمعرفتنا بالانفعالات والعواطف والمشاعر، لا نستطيع أن نفصح أكثر مما أفصحنا عنه بصدد الفرق المشار إليه.

يمكن للكبت إذاً أن ينجح في كف تحوُّل الحاثة الغريزية إلى تجلٍّ للانفعال؛ ولهذه الملاحظة أهمية فائقة بالنسبة إلينا. فهي تدلنا على أن النسق **شع** يتحكم، بصورة طبيعية، بالطاقة الانفعالية كما بحيازة الطاقة الحركية؛ كذلك، إنها ترفع من قيمة الكبت ببيانها أن نتيجته هي الحؤول لا دون بلوغ الشعور فحسب، بل كذلك دون تمخُّض الانفعال وانطلاق النشاط العضلي. وبوسعنا أيضاً أن نقول فيما لو عكسنا تصويرنا للأمور: ما دام النسق **شع** يتحكم بالطاقة الانفعالية والطاقة الحركية، فإننا ننعت حالة الفرد النفسية بأنها سوية. بيد أن ثمة فارقاً لا مماراة فيه في العلاقة القائمة بين العملين التفريغيين المتجاورين وبين النسق المتحكم بهما[11]. فإن تكن سيطرة النسق **شع** على الطاقة الحركية الإرادية ثابتة وراسخة، وإن تكن قادرة في العادة على مقاومة هجمة العصاب ولا يصيبها انهيار إلا في الذهان Psychose، فإن سيطرة **شع** على تمخض الانفعال أقل ثباتاً. وإذا بقينا ضمن حدود الحياة السوية وجدنا النسقين **شع** و**لشع** يتصارعان باستمرار ليضمن كل نسق منهما لنفسه الكلمة العليا في مضمار الطاقة

١١ ـ تتجلى الطاقة الانفعالية بصورة رئيسية في التصريف الحركي (الإفرازي، الوعائي، الناظم) الهادف إلى إحداث تغيير في جسم الشخص المعني (داخلياً)، دونما صلة بالعالم الخارجي؛ كما تتجلى الطاقة الحركية في أعمال تهدف إلى تغيير العالم الخارجي.



الانفعالية، ورأينا دوائر النفوذ يحدد بعضها حدود بعضها الآخر، وتحالفات بين قوى فاعلة تنعقد.

إن أهمية النسق **شع** (**قشع**) فيما يتعلق بالمنفذ إلى تحرُّر الانفعال وإلى العمل تجعلنا نفهم أيضاً الدور الذي يعود إلى التمثل البديل في تكوين المرض. ومن المحتمل أن ينطلق تمخض الانفعال مباشرة من النسق **لشع**؛ وفي هذه الحال يكون له على الدوام طابع من الحصَر، وهذا الحصَر هو الذي تتمّ مبادلة جميع الانفعالات «المكبوتة» به. لكن قد يحدث أيضاً ـ وهذا متواتر ـ أن تضطر الحاثة الغريزية إلى الانتظار إلى أن تجد لها تمثلاً بديلاً في النسق **شع**. عندئذ يغدو تمخض الانفعال ممكناً بدءاً من هذا البديل الشعوري، وطبيعة هذا الأخير هي التي تحدد الطابع النوعي للانفعال. وقد كنا أكدنا أنه يحدث، عند الكبت، انفصال بين الانفعال وبين تمثيله، مما يجعل كلاً منهما يسير نحو مصير مختلف عن مصير الآخر. وهذا أمر لا جدال فيه من وجهة النظر الوصفية؛ لكن السيرورة الحقيقية هي، عموماً، أن الانفعال لا يعلن عن ظهوره ما لم يكلل بالنجاح الاختراقُ الذي يهيِّئ له كيفية جديدة لتمثيله في النسق **شع**.

٤ ـ طبوغرافيا الكبت وديناميته

قررنا أن الكبت هو في جوهره سيرورة تفعل فعلها في التمثلات عند الحد الفاصل بين النسقين **لشع** و **قشع**، وبوسعنا الآن أن نقوم بمحاولة جديدة لوصف أكثر تعمقاً لهذه السيرورة. ولا بدّ أن يكون كنه هذه السيرورة، بالضرورة، **سحباً للتوظيف**؛ ولكن المسألة الجديرة بأن تبحث هي تلك المتعلقة بمعرفة النسق الذي فيه يتم السحب والنسق الذي إليه ينتمي التوظيف المسحوب.

إن التمثل المكبوت يبقى، في **لشع**، قادراً على الفعل؛ فهو يحافظ إذاً بالضرورة على توظيفه. أما ما جرى سحبه فلا بدّ أن يكون شيئاً آخر. وإذا أخذنا حالة الكبت بملء معنى الكلمة (الكبت البعدي) والكيفية التي يؤثر بها على التمثلات القبشعورية أو حتى الشعورية فعندئذ لا يمكن أن يكون كنه الكبت إلا ما يلي: سحب التوظيف، الذي ينتمي إلى النسق **قشع**، من التمثل. وبعد ذلك



يبقى التمثل عادم التوظيف، أو يتلقى توظيفاً من **لشع**، أو يحافظ أخيراً على التوظيف **لشع** الكامن فيه مقدماً. إذاً: إما سحب التوظيف ما قبل الشعوري، وإما الحفاظ على التوظيف اللاشعوري، وإما استبدال التوظيف ما قبل الشعوري بتوظيف لاشعوري. ولنلاحظ على كل حال أننا بنينا دونما قصد، إذا جاز القول، هذه الملاحظات على أساس الفرضية التي مؤداها أن الانتقال من النسق **لشع** إلى نسق مجاور لا يتمّ عن طريق تسجيل جديد، بل عن طريق تغيُّر في الحالة وتبدُّل في التوظيف. وبذلك تكون الفرضية الوظيفية قد تغلبت هنا بلا مشقة على الفرضية الطبوغرافية.

لكن عملية سحب الليبيدو هذه لا تكفي لجلاء أمر صفة أخرى من صفات الكبت. فنحن لا نفهم لماذا لم يحاول التمثل الذي بقي موظفاً أو الذي تلقى توظيفاً من **لشع** أن يقتحم من جديد، معضَّداً بتوظيفه، النسق **قشع**. وفي هذه الحال لا بدّ أن يتكرر سحب الليبيدو، المتمحور حول ذلك التمثل، وستتواصل اللعبة إلى ما لا نهاية، لكن النتيجة لن تكون هي الكبت. كذلك إن الآلية التي نحن بصدد الكلام عنها ـ سحب التوظيف القبشعوري ـ ستكون منعدمة الوجود متى ما كان المطلوب تكوين صورة عن الكبت الأصلي؛ إذ إن ما يواجهنا في هذه الحال هو عبارة عن تمثل لاشعوري لم يتلقَّ بعد أي توظيف من القبشعور ولا سبيل بالتالي لأن يُسحب منه أي توظيف.

نحن بحاجة إذاً هنا إلى سيرورة أخرى تصون، في الحالة الأولى، الكبت ، ويكون دورها، في الحالة الثانية، أن ترسي أسسه وأن تجعله يدوم؛ وليس في مستطاعنا العثور على مثل هذه السيرورة إلا إذا سلّمنا بوجود **توظيف مضاد** يحتمي به النسق **قشع** من ضغط التمثل اللاشعوري. وسوف نرى، بناء على أمثلة سريرية، كيف يتظاهر مثل هذا التوظيف المضاد الذي يحدث في النسق **قشع**. هذا التوظيف المضاد هو الذي يمثل الإنفاق الدائم في كبت أصلي، لكنه هو الذي يضمن أيضاً دوام هذا الكبت. إن التوظيف المضاد هو الآلية الوحيدة للكبت الأصلي؛ أما في الكبت بحصر المعنى (الكبت البعدي) فينضاف إليها سحب التوظيف **قشع**. ومن الممكن تماماً أن يكون التوظيف المسحوب من



التمثل هو ذاته المستخدم في التوظيف المضاد.

لنلاحظ كيف أننا توصلنا شيئاً فشيئاً، في عرضنا للظاهرات النفسية، إلى إبراز وجهة نظر ثالثة، علاوة على وجهتي النظر الدينامية والطبوغرافية، هي وجهة النظر **الاقتصادية** التي تسعى إلى تتبع مصائر كميات التنبيه وإلى الحصول على تقييم، ولو نسبي، لهذه الكميات. ولا يخلو الأمر من أهمية بالنسبة إلينا أن نصف باسم خاص نمط الفهم الذي به يكتمل المبحث التحليلي النفسي. وأنا أقترح أن نتكلم عن عرض **ميتاسيكولوجي** حينما نفلح في وصف سيرورة من السيرورات النفسية من النواحي **الدينامية والطبوغرافية والاقتصادية**. ومن المفهوم ألا نتوصل إلى ذلك، في الحالة الراهنة لمعارفنا، إلا بصدد نقاط منفردة.

لنجازف هنا بوصف ميتاسيكولوجي لسيرورة الكبت في الأنواع الثلاثة المعروفة من الأعصبة الاستبدالية. وبوسعنا أن نستبدل لفظ «التوظيف» بلفظ «الليبيدو» ما دام بيت القصيد بالفعل، كما نعلم، مصائر الدوافع الغريزية الجنسية.

في الهستريا الحصرية كثيراً ما لا يُلحظ طور أول للسيرورة، هذا إن لم يُهمل بلا تحفظ، لكن يمكن للملاحظة المتأنية أن تتعرفه بيسر وسهولة. ويتجلى هذا الطور الأول في أن الحصَر يعلن عن ظهوره من دون أن يتضح ما هو موضوعه. ولا بدّ لنا من التسليم بأنه كانت توجد في النسق **لشع** حاثة حبِّية كانت تطلب الانتقال إلى النسق **قشع**؛ لكن التوظيف الموجَّه بدءاً من هذا النسق نحو الحاثة انسحب منها في شكل محاولة هرب، كما جرى تفريغ التوظيف الليبيدوي اللاشعوري المنحَّى في صورة حصَر. وقد أتاح تكرار محتمل للسيرورة الشروع بخطو خطوة أولى نحو السيطرة على التمخُّض المستكره للحصَر. وقد اتجه التوظيف، أثناء هربه، نحو تمثل بديل كان، من جهة أولى، على علاقة ترابط وتداعٍ مع التمثُّل المبعد، وغير واقع، من الجهة الثانية، بالنظر إلى بعده عنه، تحت الكبتِ (**بديل عن طريق النقل**)، فكان يفسح في المجال بالتالي أمام عقلنة لتمخُّض الحصَر الذي لا يزال متعذراً كفُّه. ومنذئذ يلعب التمثل البديل، بالنسبة إلى النسق **شع** (**قشع**)، دور توظيف مضاد، وذلك بقدر ما يقيه من انبجاس التمثل المكبوت في **شع**؛ ومن جهة أخرى إن هذا التمثل البديل هو ـ أو يتصرف



كما لو أنه ـ نقطة الانطلاق لتمخض انفعال حصَري، انفعال لا يغدو متعذراً مطلق التعذر كفُّه إلا ابتداء من هذه اللحظة. وتدل الملاحظة السريرية أن الطفل الذي يشكو، على سبيل المثال، من رهاب حيوانات لا يراوده شعور بالحصَر إلا في نوعين من الشروط؛ أولاً حين تتعزز الحاثة الحبية المكبوتة وتتدعم، وثانياً حين يقع نظر الطفل على حيوان الحصَر. التمثل البديل يتصرف إذاً، في هذه الحال، وكأنه هو محلّ الانتقال من النسق **لشع** إلى النسق **شع**، وفي الحالة الأخرى كمصدر مستقل بذاته لإطلاق الحصَر. ويتجلى توسع سيطرة النسق **شع** عادة في واقع أن النمط الأول لتنبيه التمثل البديل يتراجع تدريجياً أمام النمط الثاني. وقد يتصرف الطفل في نهاية المطاف وكأنه لم يساوره قط ميل إلى أبيه، وكأنه قد تحرر تماماً منه، وكأن الحيوان هو فعلاً وواقعاً مسبِّب الحصَر له. بيد أن حصَر الحيوان هذا، المغذى من مصدر غريزي لاشعوري، يدلل على غلو وإفراط وعلى مقاومة ومشاكسة لجميع المؤثرات الصادرة عن النسق **شع**، وينمّ من هنا بالذات عن أن أصله كامن في النسق **لشع**.

لقد أفضى إذاً التوظيف المضاد، الآتي من النسق **شع**، في الطور الثاني من الهستيريا الحصَرية، إلى تشكيل بديل، وسرعان ما تجد الآلية عينها تطبيقاً جديداً لها. فسيرورة الكبت، كما نعلم، لما تنتهِ بعد؛ فثمة هدف آخر للمسعى الذي يرمي إلى كفّ تمخُّض الحصَر المنبثق عن البديل. ويجري الأمر على النحو التالي: فمجمل المحيط المرتبط بالتمثل البديل يكون موضع توظيف شديد بحيث يَظهر حساسية كبيرة عند التنبيه. ومن ثم، إن تنبيه أي موضع من هذا الجزء المتقدم لا بدّ أن يتسبَّب، بحكم الارتباط بالتمثل البديل، في تمخُّض حصَر طفيف، يجري عندئذ استخدامه كإشارة تؤذن بكفّ التقدم اللاحق لتمخُّض الحصَر عن طريق سحب جديد للتوظيف. وكلما كانت التوظيفات المضادة الحساسة واليقظة بعيدة الموقع عن البديل المرهوب، كانت أكبر الدقة التي يمكن أن تعمل بها الآلية المفروض بها أن تعزل التمثيل البديل وأن تبقي التنبيهات الجديدة بمنأى عن هذا الأخير. وطبيعي أن هذه الاحتياطات لا تقي إلا من التنبيهات الآتية من الخارج، عن طريق الإدراك الحسي، إلى التمثل البديل، لكنها لا تقي أبداً من التنبيه



الغريزي الذي يتأتى من الصلة بالتمثل المكبوت ويصل إلى التمثل البديل. هذه الاحتياطات لا تبدأ تؤتي مفعولها إذاً إلا بعد أن يضطلع البديل على خير وجه بوظيفته في تمثيل المكبوت. علاوة على أنه لا يجوز لنا أن نثق وثوقاً كاملاً بمفعولها هذا. ومع كل زيادة في التنبيه الغريزي يتحتم تقديم السور الواقي المحيط بالتمثل البديل قليلاً إلى الأمام. وكل هذا البناء، الذي يتكرر على نحو مشابه في الأعصبة الأخرى، يحمل اسم **الرهاب**. ويتجلى الهرب أمام التوظيف الشعوري للتمثل البديل في التحاشيات والعزوفات والنواهي والمحظورات التي هي دليلنا إلى تعرف الهستيريا الحصَرية. وإذا رأينا إلى السيرورة في جملتها، أمكن لنا القول إن الطور الثالث قد كرر عمل الطور الثاني على نطاق أوسع. فالنسق **شع** يحمي نفسه الآن من تنشيط التمثل البديل عن طريق التوظيف المضاد للمحيط، كما لو أن توظيف التمثل البديل كان يوفر الحماية له في السابق من انبجاس التمثل المكبوت. وعلى هذا النحو يكون تكوين البديل بطريق النقل قد امتد واستطال. وينبغي أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن النسق **شع** ما كان يحوز في البدء إلا مكاناً صغيراً يصلح لأن يكون للحاثة الغريزية المكبوتة معبراً إلى الاقتحام، وكان ذلك هو على وجه التعيين التمثل البديل؛ بيد أن كل البناء الرهابي المتقدم هو ما يناظر في نهاية المطاف المجال الضيق الذي ينحصر فيه التأثير اللاشعوري. ويمكننا، فضلاً عن ذلك، أن نستشف احتمالاً آخر مثيراً حقاً: فعن طريق مجمل آلية الدفاع التي جرى استخدامها أمكن التوصل إلى إسقاط لمصدر الخطر الغريزي على الخارج. فالأنا يتصرف كما لو أن خطر تمخُّض الحصَر لا يأتي من حاثة غريزية بل من إدراك حسي، فيكون مسوَّغاً له بالتالي أن يردّ على هذا الخطر الخارجي بمحاولات الهرب المتمثلة في التحاشيات الرهابية. وبهذه العملية يحقق الكبت نجاحاً بصدد النقطة التالية: فتمخُّض الحصَر يمكن، بنوع ما، إيقافه ووقف مده، ولكن مقابل تضحيات فادحة في مضمار الحرية الشخصية. بيد أن محاولات الهرب أمام المطالب الغريزية لامجدية بوجه العموم، ونتيجة الهرب الرهابي ليست مُرضية في خاتمة الحساب.

إن عدداً غير يسير من الشروط التي تعرفناها في الهستيريا الحصَرية ينطبق



أيضاً على العصابين الآخرين؛ لذا يسعنا أن نقصر الفحص على الفروق وعلى دور التوظيف المضاد. ففي الهستيريا الاستبدالية ينتقل التوظيف الغريزي للتمثل المكبوت إلى تعصيب العرَض. أما إلى أي حدّ وفي أية ظروف يدفع هذا التفريغ بالتمثل اللاشعوري إلى التعصيب بحيث يمكن له أن يوقف ضغطه على النسق **شع**، فهذا سؤال يخلق بنا أن نستبقيه، مع أسئلة أخرى مشابهة، لبحث خاص حول الهستيريا. إن دور التوظيف المضاد، الصادر عن النسق **شع (قشع)**، لواضح في الهستيريا الاستبدالية، وهو يتجلى في تكوين العرَض. فالتوظيف المضاد هو الذي يختار، في ممثل الدافع الغريزي، الجزء الذي يمكن أن ينصبّ عليه كل توظيف هذا الممثل. وهذا الجزء الذي وقع عليه الاختيار ليصير هو العرَض يحقق واحداً من الشروط: تقديم تعبير للهدف الرغبي للحاثة الغريزية، وكذلك لميل النسق **شع** إلى الدفاع عن نفسه أو معاقبته لذاته؛ إذاً فهو يكون محل توظيف مضاعف، ومنظوراً إليه من الجانبين كليهما على أنه التمثل البديل للهستيريا الحصَرية. وبوسعنا أن نستنتج مباشرة من هذه العلاقة أن الإنفاق في كبت النسق **شع** ليس ملزماً بأن يكون بمثل حجم طاقة توظيف العرَض، لأن قوة الكبت تقاس بالتوظيف المضاد المستخدم، بينما يستند العرَض لا إلى التوظيف المضاد فحسب، بل أيضاً إلى التوظيف الغريزي المكثف فيه والنابع من النسق **شع**.

أما العصاب الوسواسي فلن نبدي بصدده سوى ملاحظة واحدة نضيفها إلى ملاحظات المقال السابق: فهنا، بكل بداهة، يأتي التوظيف المضاد التابع للنسق **شع** في المرتبة الأولى. فهو الذي يضطلع، منظَّماً في تشكيل ارتجاعي، بعبء الكبت الأول، وهو الذي فيه ينجح، لاحقاً، الاختراق الذي يقوم به التمثل المكبوت. ومن المباح لنا أن نتقدم بفكرة مؤداها أن عمل الكبت يبدو أقل نجاحاً بكثير في الهستيريا الحصَرية والعصاب الوسواسي منه في الهستيريا الاستبدالية، وذلك بسبب غلبة التوظيف المضاد والافتقار إلى تفريغ.

٥ ـ السمات الخاصة للنسق لشع

يكتسي التمييز بين النسقين النفسيين دلالة جديدة حين ننتبه لواقع أن



سيرورات أحد هذين النسقين، **لشع**، تظهر للعيان خواص لا تتكرر في النسق الأعلى منه مباشرة.

تتكون نواة **لشع** من تمثيلات للدافع الغريزي تبغي تفريغ توظيفها، إذاً من حاثات رغبية. هذه الحاثات الغريزية متناسقة فيما بينها، وهي تتواجد بعضها إلى جانب بعضها الآخر من دون أن تؤثر واحدتها في الأخرى ومن دون أن تناقض واحدتها الأخرى. وحين يتم تنشيط حاثتين رغبيتين في آن معاً، مع أن هدفيهما قد يبدوان لنا متنافيين، فلا مجال لانسحاب حاثة من الحاثة الأخرى، ولا لقضاء حاثة على الحاثة الأخرى، بل هما تتضافران معاً في تكوين هدف وسيط، في تكوين تسوية.

لا يوجد في هذا النسق نفي ولا شك ولا درجات في اليقين. وإنما عمل الرقابة بين **لشع** و **قشع** هو الذي يقحم ذلك كله. فالنفي هو بديل لكبتٍ على مستوى أعلى. وليس في **لشع** سوى مضامين موظفة توظيفاً متفاوت القوة.

إن حركية الشدة التوظيفية كبيرة للغاية في **لشع**. فعن طريق سيرورة **النقل** يمكن لتمثل ما أن يتنازل عن كلّ كمّه لتمثل آخر، كما يمكن له، عن طريق سيرورة **التكثيف**، أن يستحوذ على توظيف عدة تمثلات أخرى. وقد اقترحت أن نعتبر هاتين السيرورتين علامتين مميِّزتين لما نسميه **بالسيروة النفسية الأولية**. أما في النسق **قشع** فتسود **السيرورة الثانوية**[١٢]؛ وإذا ما سُمح لمثل تلك السيرورة الأولية بأن تجري على عناصر من النسق **لشع**، فإنها تظهر بمظهر «هزلي» وتستثير الضحك.

إن سيرورات النسق **لشع لازمنية**، بمعنى أنها غير متناظمة في الزمن، ولا يعدّلها تصرم الزمن، ولا علاقة لها بتاتاً بالزمن، إذ إن العلاقة بالزمن مرتبطة هي الأخرى بعمل النسق **شع**.

كذلك إن سيرورات **لشع** لا تراعي **الواقع**، فهي خاضعة لمبدأ اللذة؛

١٢ ـ انظر تفصيل ذلك في الفصل السابع من **تأويل الحلم** الذي يرتكز إلى الأفكار التي عرَضها ج. بروير في **دراسات في الهستيريا**.



ومصيرها غير منوط إلا بقوتها وتوافقها أو عدم توافقها مع مقتضيات نظام اللذة/ الكدر.

لنلخص فنقول: **انعدام التناقض، السيرورة الأولية** (حركية التوظيفات)، **اللازمنية، إحلال الواقع النفسي محل الواقع الخارجي**، تلكم هي السمات التي ينبغي أن نتوقع أن تكون السيرورات المنتمية إلى النسق **لشع** متَّسمة بها[١٣].

ليس لنا من سبيل إلى معرفة السيرورات اللاشعورية إلا في شروط الحلم والأعصبة، إذاً في ظروف تكون فيها تكون سيرورات النسق الأعلى، النسق **قشع، قد تراجعت** (عن طريق النكوص) إلى طور أسبق. وهذه السيرورات هي بحدّ ذاتها غير قابلة لأن تُعرف، بل غير قابلة لأن توجد، لأن النسق **لشع** قد موَّهه وحجبه في وقت مبكر للغاية النسق **قشع** الذي استولى على المنفذ إلى الشعور وإلى الطاقة الحركية. ومن تصريف النسق **قشع** في التعصيب البدني سيتمخض الانفعال، لكن **قشع** ينازعه على وسيلة التصريف هذه، كما رأينا. وليس في مقدور النسق **لشع** أن ينجز بمفرده بنجاح في شروط عادية أي عمل عضلي مناسب، باستثناء تلك الأعمال المنظمة من الأساس في صورة أفعال منعكسة.

إن الدلالة الكاملة لسمات النسق **لشع**، هذه السمات التي تقدَّم بنا وصفها، لا يمكن أن تتجلى لنا بكل جلائها إلا في حال مقارنتنا ومقايستنا إياها بخواص النسق **قشع**. ولكن هذا قمين بأن يشطّ بنا بعيداً جداً، مما يجعلني أقترح، هنا أيضاً، تعليق المقارنة بين النسقين وعدم الشروع بها إلا بعد الفحص المعمَّق للنسق الأعلى. وعليه لن نذكر من الآن فصاعداً إلا ما هو ملحّ وذو صفة مستعجلة إلى أقصى حدّ.

تنمّ سيرورات النسق **قشع** ـ وهذا سواء أكانت شعورية أم مؤهلة فقط لأن تغدو شعورية ـ عن كفٍّ للميل إلى تصريف التمثلات الموظفة. وحين تنتقل السيرورة من تمثل إلى آخر، يحافظ الأول على قسم من توظيفه، ولا يتعرَّض

١٣ ـ نستبقي لأنفسنا أن نذكر في سياق آخر امتيازاً مهماً للنسق **لشع**.



للنقل سوى نزر زهيد منه. فالنقل والتكثيف، كما يحدثان في السيرورة الأولية، لا وجود لهما هنا أو هما محدودان للغاية. وقد حمل هذا الوضع د. بروير على التسليم بوجود حالتين متباينتين من توظيف الطاقة في الحياة النفسية: حالة طاقة مقيَّدة من أساسها، وحالة طاقة ذات حركية حرة، ميالة إلى التصريف. واعتقادي أن هذا التمييز يمثِّل إلى يومنا هذا أعمق وجهة نظر حول طبيعة الطاقة العصبية، ولست أدري ما السبيل إلى عدم الأخذ بها. والحق أن حاجتنا ماسة إلى النقاش بصدد هذه النقطة إذا كنا نريد أن نتمثل الأمور من وجهة النظر الميتاسيكولوجية - وإن يكن مشروع كهذا محفوفاً بمخاطر جمة.

على عاتق النسق **قشع** تقع أيضاً مهام أخرى: إيجاد إمكانية اتصال بين مضامين التمثلات بحيث تقتدر على التأثير بعضها في بعضها الآخر، والترتيب الزمني لهذه المضامين، وإقحام الرقابة أو عدة رقابات، وامتحان الواقع ومبدأ الواقع. وتبدو الذاكرة الشعورية منوطة بكليتها، هي الأخرى، بالنسق **قشع**، ولا بدّ هنا من التمييز الدقيق الواضح بينها وبين الآثار الذاكرية: ففي هذه تتثبت خبرات **لشع** المعاشة، بينما تتطابق الذاكرة الشعورية، بوجه الاحتمال الأقرب إلى الحقيقة، مع تسجيل خاص، نظير ذاك الذي كان بنا ميل إلى التسليم بوجوده فيما يخص علاقة التمثل الشعوري بالتمثل اللاشعوري والذي كنا أنكرناه مع ذلك. وإنما في هذا السياق سنهتدي أيضاً إلى الوسيلة لوضع حدّ لترددنا بصدد تسمية النسق الأعلى الذي نسمِّيه الآن بلا تمييز تارة **قشع**، وطوراً **شع**.

ثمة ما يدعو أيضاً إلى التحذير من تعميم سابق لأوانه لما استخلصناه حتى الآن بصدد توزيع العمليات النفسية بين كلا النسقين. ونحن نصف الأمور كما تتبدى لنا لدى الإنسان الراشد الذي لا يعمل لديه النسق **لشع** بحصر المعنى إلا كطور تمهيدي للتنظيم الأعلى. أما بصدد معرفة ما مضمون هذا النسق، وما علاقاته أثناء التطور الفردي، وما دلالته ومؤداه لدى الحيوان، فذلك شيء لا سبيل إلى استنتاجه من توصيفنا، بل لا بدّ أن يكون موضوعاً لبحث مستقل. وعلينا، فضلاً عن ذلك، أن نتوقع أن نكتشف لدى الإنسان شروطاً باتولوجية، فيها يبدِّل النسقان مضمونهما وخواصهما، هذا إن لم يتبادلاها فيما بينهما.



٦ ـ التواصل بين النسقين

لن يكون من الصواب مع ذلك أن نتصور أن **لشع** يلبث ساكناً، بينما يتولى **قشع** تنفيذ كل العمل النفسي، أو أن نتخيَّل أن **لشع** شيء بطل استعماله، جهاز متخلف، رسابة نمو. كذلك من الخطأ أن نسلِّم بأن العلاقات بين النسقين تنحدّ بفعل الكبت، فنتصور أن **قشع** يرمي إلى هاوية **لشع** بكل ما يبدو له مزعجاً، مُخِلّاً بالنظام. فالنسق **لشع** على العكس حيّ، قادر على التطور، وعلاقاته كثيرة ومتعددة الوجود بالنسق **قشع**، بما فيها التعاون أيضاً. وبعبارة مكثفة، علينا أن نقول إن **لشع** يمتد في ما نسميه فسائله، وإنه عرضة لتأثير أحداث الحياة، وإنه يمارس تأثيراً دائماً على **قشع**، بل إنه خاضع من جهته للمؤثرات الصادرة عن **قشع**.

إن دراسة فسائل **لشع** ستخيِّب بعمق توقعنا العثور على تمايز له نقاء المخطط البياني بين النسقين النفسيين. وليس من المستبعد أن يُقابَل ذلك بالامتعاض وعدم الرضى عن نتائجنا، وأرجح الظن أنه سيُستغل للتشكيك في قيمة التفريق كما أجريناه بين السيرورات النفسية. ولكننا سنحتج في هذه الحال بأن مهمتنا لا تتعدى ترجمة نتائج الملاحظة إلى نظرية، وبأننا لا نشعر بأنه من اللزام علينا أن نصل من الدفعة الأولى إلى نظرية مصقولة مشذَّبة، توجب الأخذ بها لبساطتها. بل نحن سندافع عن تعقيدات النظرية ما دامت تدلل على توافقها مع الملاحظة، من دون أن نعزف عن الأمل بأن تقودنا هذه التعقيدات في نهاية المطاف إلى معرفة وضع بسيط بحدّ ذاته وقابل في الوقت نفسه للتطابق مع تعقيدات الواقع.

من جملة فسائل الحاثات الغريزية اللاشعورية، المتسمة بالسمة الآنفة الذكر، فسائل تجمع في ذاتها تعيينات متعارضة. فهي من جهة أولى رفيعة التنظيم، بريئة من التناقض، تستخدم جميع مكتسبات النسق **شع**، ويشقّ على ملكة الحكم عندنا أن تميِّزها عن تشكيلات هذا النسق. وهي من الجهة الثانية لاشعورية، وغير قابلة لأن تغدو شعورية. وعليه، إنها تنتمي؛ من حيث النوع، إلى النسق **قشع**، لكن انتماءها الواقعي هو إلى **لشع**. والأصل الذي تصدر عنه هو العامل الحاسم بالنسبة إلى مصيرها. وهي أشبه ما تكون بخلاسيي الأعراق البشرية الذين



يكادون، بوجه الإجمال، أن يشبهوا البيض، لكن أصلهم الملوَّن تنمّ عنه هذه السمة اللافتة للنظر أو تلك من سماتهم، فيبقون بحكم ذلك منبوذين من المجتمع وغير متمتعين بأي امتياز من امتيازات البيض. إلى هذا النوع تنتمي التشكيلات التخيليية لأسوياء الناس كما للعصابيين، هذه التشكيلات التي تعرَّفنا فيها المراحل التمهيدية لتكوين الحلم والعرَض. فهي تبقى مكبوتة رغم تنظيمها الرفيع، ولا يمكنها، ما دامت مكبوتة، أن تغدو شعورية. إنها تدنو غاية الدنو من الشعور، وتبقى على مقربة منه دونما تعكير ما دامت بمنأى عن أي توظيف مكثف، لكنها لا تلبث أن تُردّ على أعقابها ما إن تتخطى مستوى معيَّناً من التوظيف. ومن جملة فسائل **لشع** الرفيعة التنظيم هذه، نجد أيضاً التشكيلات البديلة؛ غير أن هذه التشكيلات تفلح في الولوج إلى الشعور مستفيدة من ظرف خاص، كالالتحام على سبيل المثال مع توظيف مضاد صادر عن **قشع**.

حين سنمحِّص بمزيد من التقصي، في مقطع تالٍ، شروط صيرورة اللاشعوري شعورياً، فإن بعض الصعوبات التي تواجهنا هنا ستُذلَّل. وهنا قد نجد أن من المناسب لنا أن نقيم مقابلة بين الكيفية التي نظرنا بها إلى الأشياء لحدّ الآن من منطلق اللاشعور وبين تأملات مستنتجة انطلاقاً من وجهة نظر الشعور. فجملة السيرورات النفسية تنتمي إلى مملكة القبشعور. وشطر كبير للغاية من هذا القبشعور يستمدّ أصله من اللاشعور، ويتلبس طابع فسائل اللاشعور، ويخضع للرقابة قبل أن يتاح له أن يصير شعورياً. وثمة شطر آخر من **قشع** مؤهل لأن يغدو شعورياً بلا رقابة. هكذا نصل هنا إلى نتيجة مناقضة لفرضية سابقة. فعند تمحيصنا مشكلة الكبت، وجدنا لزاماً علينا أن نعيِّن موقع الرقابة، التي تقرر صيرورة اللاشعوري شعورياً، بين **لشع** و **قشع**. وهانحنذا نجدنا منقادين إلى تنصيب رقابة بين **قشع** و **لشع**. لكن حسناً نفعل إذا لم نرَ في هذا التعقيد إشكالاً ما، وإذا سلَّمنا على العكس بأن كل انتقال من نسق إلى نسق أعلى منه مباشرة، وبالتالي كل تقدم نحو مستوى أرفع من التنظيم النفسي، تقابله رقابة جديدة. وهنا لا مندوحة من القول بأن فرضية التجدد المتواصل للتسجيلات تغدو بحكم اللاغية بنتيجة ما تقدم.



ينبغي أن نبحث عن علة هذه الإشكالات كافة في واقع أن الكينونة الشعورية، التي هي من بين سائر سمات السيرورات النفسية السمة الوحيدة التي تقع تحت إدراكنا المباشر، ليست بحال من الأحوال من طبيعة تؤهلها لتقديم معيار للتمييز. فمن دون أن نتكلم عن واقع أن الشعوري ليس على الدوام شعورياً، بل هو أيضاً كامن بصفة مؤقتة، نجد أن الكثير مما يشاطر النسق **قشع** خواصه لا يغدو شعورياً، كما تدلنا على ذلك التجربة؛ وأخيراً لا بدّ أن نعلم أيضاً أن صيرورة اللاشعوري شعورياً محكومة بالوجهة التي ينصرف إليها الاهتمام. إذاً، فليست هي بسيطة علاقة الشعور بالأنساق ولا بالكبت. والحقيقة أن المكبوت النفسي ليس هو وحده الذي يبقى غريباً عن الشعور، بل كذلك قسم من الحاثات المتحكمة بأنانا، وبالتالي ما يعارض المكبوت أشد المعارضة وظيفياً. وبقدر ما نتطلع إلى الوصول إلى تصور ميتاسيكولوجي للحياة النفسية، يتوجب علينا أن نتعلم كيف نعتق أنفسنا من إسار الأهمية المعلّقة في العادة على العرَض التالي: «كون الشيء شعورياً».

أما ما دمنا متشبثين بهذا العرَض، فسنرى الاستثناءات وهي تتصدى بالدحض بصورة نظامية لمفترضاتنا العامة. سنرى أن فسائل من **قشع**[١٤] تغدو شعورية في صورة تشكيلات بديلة وأعراض، وبصورة عامة يحدث هذا بعد أن تطرأ على اللاشعور تحريفات كبيرة، لكن الكثير من السمات التي تستدعي الكبت تبقى في كثير من الأحيان مصونة. وسنكتشف أن كثرة من التشكيلات القبشعورية تبقى لاشعورية مع أنه كان ثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن طبيعتها تسمح لها بلا حرج بأن تصير شعورية. وأرجح الظن أن ما يُعتدّ به في حالتها هو أن جاذبية **لشع** تكون هي الأقوى. وسنجد أنفسنا منقادين إلى عدم البحث عن الفرق الأهم بين الشعوري والقبشعوري، بل على العكس إلى البحث عنه بين القبشعوري واللاشعوري. ذلك أن **لشع** تردّه الرقابة من حيث أتى عند تخوم **قشع**، وقد تتمكن فسائله من تحاشي الرقابة، فترقى إلى درجة عالية من التنظيم وتعزز

١٤ ـ تلاحظ الطبعتان الإنكليزية والفرنسية أن ثمة خطأً مطبعياً هنا في أغلب الظن؛ فلو قلنا **لشع** (اللاشعور) بدلاً من **قشع** (ما قبل الشعور) لاستقام المعنى أكثر في تقديرهما. «م».



توظيفها في **قشع** وصولاً إلى درجة معيَّنة من الشدة ، ثم متى ما تجاوزت هذه الدرجة وأرادت أن تفرض نفسها على الشعور أُكتشف أمرها بوصفها فسائل من **لشع**، ورُدَّت من جديد إلى حدّ آخر: الرقابة بين **قشع ولشع**. وهكذا تؤدي الرقابة الأولى عملها ضد **لشع** نفسه، بينما تؤديه الثانية ضد الفسائل القبشعورية من **لشع**. وعلى هذا، قد يكون في مستطاعنا الافتراض بأن الرقابة قد تقدمت خطوة إلى الأمام في مجرى التطور الفردي.

تأتينا المعالجة التحليلية النفسية بالدليل غير القابل للطعن على وجود الرقابة الثانية، أي الرقابة الواقعة بين النسق **قشع** والنسق **لشع**. فنحن ندعو المريض إلى أن يكوّن كمية وفيرة من فسائل **لشع**. وتوصلاً إلى ذلك نلزمه بأن يتغلب على الاعتراضات التي تجبه بها الرقابة الصيرورة الشعورية لهذه التشكيلات القبشعورية؛ وبالانتصار على هذه الرقابة نشقّ طريقنا إلى إلغاء الكبت الذي هو من صنع الرقابة السابقة. ولنضف أيضاً الملاحظة التالية: إن وجود الرقابة بين **قشع ولشع** ينبهنا إلى أن صيرورة اللاشعوري شعورياً ليست محض فعل من أفعال الإدراك، بل هي أيضاً في أرجح الظن **توظيف مضاعف**، تقدُّم جديد في التنظيم النفسي.

لنقلِّب النظر الآن في علاقات **لشع** بالأنساق الأخرى، لا بهدف الوصول إلى نقاط جديدة، بل كيلا يغيب عنا ما هو ملموس لمس اليد. فعند جذور النشاط الغريزي تتصل الأنساق بعضها ببعض على أوسع نحو. فقسم من السيرورات التي يتمّ تنبيهها عند جذور هذا النشاط يمرّ بالنسق **لشع** وكأنه مستوى تحضيري، ويصل إلى أعلى نقاط تشكله النفسي في **لشع**، بينما يتم احتجاز قسم آخر بوصفه **لشع**. لكن **لشع** تصل إليه، فضلاً عن ذلك، التجارب والخبرات الآتية من الإدراك الخارجي. وبصورة عامة، تبقى جميع الطرق الموصلة من الإدراك إلى **لشع** سالكة؛ ووحدها الطرق التي تنطلق من **لشع** لتوصل إلى ما هو أبعد يقطعها الكبت بحاجز.

ومما يسترعي الانتباه أن **لشع** إنسانٍ من الناس يمكن أن يتجاوب مع **لشع** إنسان آخر متحاشياً النسق **شع**. وهذه الواقعة تستأهل تمحيصاً أعمق، وعلى



الأخص لنعلم إن كان في المستطاع نفي كل نشاط قبشعوري عن ظاهرة تبقى، من المنظور الوصفي، لا تقبل المماراة.

إن مضمون النسق **قشع** (أو **شع**) يأتي، في قسم منه، من الحياة الغريزية (بواسطة **لشع**)، وفي قسمه الآخر من الإدراك. وبوسعنا أن نتساءل إلى أي حدٍّ يمكن لسيرورات هذا النسق أن تمارس تأثيراً مباشراً على **لشع**؛ فكثيراً ما يدلّ تقصي الحالات المرَضية على أن **لشع** مستقل عن كل تأثير وعديم الاكتراث به إلى حدّ يكاد لا يصدَّق. والحالة المرَضية تتَّصف بصورة عامة بتفارق تام في الميول وبقطيعة مطلقة بين كلا النسقين. غير أن المعالجة التحليلية النفسية تستند مع ذلك إلى التأثير الذي يمارسه **شع** على **لشع**، وتبيَّن على كل حال أن هذه النتيجة، مهما تكن صعبة، ليس متعذراً الحصول عليها. ففسائل **لشع**، التي تقوم بدور الوسيط بين النسقين، تشقّ لنا الطريق، كما تقدم بنا القول، إلى تحقيق هذا المفعول. لكن يسعنا التسليم على كل حال بأن التغيير العفوي للنسق **لشع** بوساطة **شع** سيرورة صعبة ولا تتمّ إلا ببطء وتؤدة.

من الممكن أن يقوم ضرب من التعاون بين حاثة قبشعورية وحاثة لاشعورية، حتى ولو كانت هذه الأخيرة مكبوتة بقوة، إذا ما قام وضع يتيح للحاثة اللاشعورية أن تفعل فعلها في نفس الاتجاه الذي يفعل فيه ميل من الميول الراجحة الكفة. وفي هذه الحال يلتغي الكبت، ويتم قبول النشاط المكبوت من حيث أنه يعزز النشاط الذي يرنو إليه الأنا. ويغدو اللاشعوري بالنسبة إلى هذه المنظومة وحدها مطابقاً للأنا من دون أن يتغير شيء أصلاً فيما يتعلق بكبته. ولا يسعنا ألا نرى في هذا التعاون نجاحاً للنسق **لشع**؛ فالميول المعززة تسلك غير المسلك الذي تسلكه الميول العادية، وتفسح في المجال أمام إمكانية عمل يتسم فعلاً بصفة الكمال، وتبدي حيال التناقضات مقاومة مشابهة لتلك التي تبديها الأعراض الوسواسية على سبيل المثال.

بوسعنا أن نشبه مضمون **لشع** بما يمكن أن يكون عليه السكان الأصليون في المجال النفسي. فإن تكن لدى الإنسان تشكيلات نفسية موروثة، شبيهة نوعاً ما بغريزة الحيوانات، فذلك هو تحديداً ما يؤلف نواة **لشع**. وإلى هذه النواة ينضاف



لاحقاً ما تمّ استبعاده في مجرى نمو الطفل بوصفه غير قابل للاستعمال وما ليس به حاجة إلى أن يكون من طبيعة مغايرة لطبيعة ما هو موروث. وإنما عند البلوغ فحسب يقوم، بصفة عامة، انفصال واضح ونهائي في مضمون النسقين.

٧ ـ استكشاف اللاشعور

ما تقدم قوله حتى الآن يكاد يلخص كل ما يمكن أن يقال بخصوص **لشع** ما دام مرجعنا الأوحد معرفة الحياة الحلمية والأعصبة التحويلية. وبديهي أن هذه النتيجة زهيدة، يلفّها في بعض نواحيها غموض ولبس، وتخلّف لدى المرء شعوراً بالأسف بالنظر إلى تعذّر ربط **لشع** بمنظومة متكاملة معروفة أو تصنيفه فيها. وتحليل الإصابات التي نسميها بالأعصبة النفسية النرجسية هو وحده المهيأ لأن يأتينا بتصورات تقرّب الشقّة بيننا وبين **لشع** الملغز، وتؤهلنا للإمساك به إن جاز التعبير.

منذ أن أنجز أبراهام[١٥] مبحثاً له في عام ١٩٠٨ ـ وقد تلطف هذا المؤلف فعزا إليّ حضّه على القيام به ـ ونحن نحاول أن نحدّد سمات الخبل المبكر كما قال به كرابلان Kraepelin[١٦] (= فصام بلولر Bleuler) بالكيفية التي يتصرف بها حيال التعارض بين الأنا والموضوع. ففي الأعصبة التحويلية (الهستيريا الحصَرية، الهستيريا الاستبدالية، العصاب الوسواسي) ما كان يستوقف انتباهنا شيء يمكن أن يعطي ذلك التعارض مكانة الصدارة. صحيح أننا كنا نعلم أن الحرمان من الموضوع يتسبب في ظهور العصاب، وأن العصاب يعني، في ما

١٥ ـ كارل أبراهام: محلل نفسي ألماني (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥). تلميذ وفيّ لفرويد. له مساهمات نظرية شتى في إغناء التحليل النفسي. والإحالة في النص إلى بحثه المنشور عام ١٩٠٨ بعنوان: **الفوارق الجنسية النفسية بين الهستيريا والخبل المبكر**. «م».

١٦ ـ إميل كرابلان: طبيب نفسي ألماني يعتبر مؤسس الطب النفسي العلمي الحديث (١٨٥٦ ـ ١٩٢٦). بذل قصاراه لاعتماد معايير سريرية موضوعية في تصنيف الأمراض العقلية، وله أسبقية إلى تعريف الخبل المبكر Dementia Praecox بوصفه ذهاناً مزمناً يطرأ لدى المراهقين والشبان، ويترافق باضطرابات عقلية وعاطفية تتطور تدريجياً نحو الانهيار النفسي التام وتترجم عن نفسها باضطرابات في الذاكرة واللغة وبالمماحكة العقلية وبالنزوع إلى السلوك السلبي والمعارضة للراشدين. من مؤلفاته: **الخبل المبكر والذهان الهوسي الاكتئابي، رحلة غير عادية إلى مركز الدماغ، الجنون الهوسي الاكتئابي**. «م».



يعني، العزوف عن الموضوع الواقعي؛ وصحيح أننا كنا نعلم أيضاً أن الليبيدو المسحوب من الموضوع الواقعي يرتدّ إلى موضوع متخيَّل، ومن ثم، إلى موضوع مكبوت (الانكفاء Introversion). لكن التوظيف الموضوعاني في هذه الأعصبة يبقى بوجه العموم مصاناً، وبطاقة كبيرة؛ وقد أرغمنا التعمُّق في تحليل سيرورات الكبت على التسليم بأن التوظيف الموضوعاني يظل قائماً في النسق **لشع** رغماً عن الكبت ـ أو بالأحرى من جرائه. بل إن القابلية للتحويل، التي نستخدمها في هذه الأمراض لأغراض علاجية، تفرض مقدماً أن يبقى التوظيف الموضوعاني بلا مساس.

أما في الفصام، على العكس، فقد فرضت نفسها علينا الفرضية التي مؤداها أن الليبيدو الذي تمّ سحبه لا يبحث، بعد عملية الكبت، عن موضوع جديد، بل ينكفئ على نفسه في الأنا، وأنه يتم التخلي في هذه الحالة عن التوظيفات الموضوعانية وتقوم حالة لاموضوعانية بدائية من النرجسية. وعدم قدرة هؤلاء المرضى على التحويل ـ في حدود السيرورة المرَضية على الأقل ـ وما يستتبع ذلك من استعصاء على المعالجة، ورفضهم المميِّز لهم للعالم الخارجي، وظهور علامات توظيف مضاعف لأناهم، والبلادة الكاملة التي إليها يؤول حالهم، جميع هذه السمات السريرية تبدو وكأنها تتوافق على أمثل نحو مع الفرضية القائلة بحدوث استنكاف عن التوظيفات الموضوعانية. والشيء الذي استرعى انتباه جميع المراقبين، من ناحية العلاقات بين كلا النسقين، هو أن أشياء كثيرة تتظاهر في الفصام في شكل شعوري، في حين أن التحليل النفسي هو وحده الذي يتيح لنا، في الأعصبة التحويلية، أن نثبت وجودها في **لشع**. لكن ما أمكن التوصل من البداية إلى إقامة رابط قابل للفهم بين علاقة الأنا/الموضوع وبين علاقات الشعور.

يبدو أن ما نبحث عنه نلتقيه في طريق لامتوقع هو التالي. فنحن نلحظ لدى الفصاميين، وبخاصة في الأطوار الأولية الغنية بالإفادة، عدداً من التحريفات **اللغوية** التي يستأهل بعضها أن يُدرس من وجهة نظر محددة. فطريقة التعبير كثير ما تحاط بعناية خاصة، فتغدو «متكلَّفة»، «متحذلقة». ويطرأ على بناء الجمل خلل من نوع خاص فيجعلها غير ذات معنى. وكثيراً ما تحتل مكانة



الصدارة في مضمون هذه الأقوال علاقة بأعضاء الجسم أو بالتعصيبات البدنية. وإلى هذا نستطيع أن نضيف أن العلاقة بين البديل والمكبوت في أعراض الفصام هذه، التي تشبه تشكيلات بديلة هستيرية أو وسواسية، تتصف مع ذلك بخصائص ما كانت إلا لتثير دهشتنا فيما لو أنها كانت عائدة إلى العصابيين المذكورين.

لقد وضع د. ف. تاوسك Tausk[١٧] (فيينا) تحت تصرفي بعضاً من الملاحظات التي سجّلها في حالة بداية فصام؛ ولهذه الملاحظات ميزة خاصة نظراً إلى أن المريضة كانت لا تزال قادرة على أن تقدِّم بنفسها تفسيراً لأقوالها. وعليه، سأبيِّن من خلال مثالين مستقيين من هذه الحالة ما التصور الذي أزمع أن آخذ بناصره؛ وأنا لا يخامرني الشك على كل حال في أنه سيكون من السهل على أي مراقب أن يأتي، فيما لو شاء، بمثل هذه المادة بوفرة.

اقتيدت مريضة شابة من مرضى تاوسك إلى العيادة بعد شجار مع حبيبها، وراحت تنتحب وتشتكي قائلة: «**العيون ليست كما يجب، إنها مقلوبة شزراً**». وقد شرحت بنفسها معنى هذا القول، بعبارة منطقية، حين انهالت بجملة من المآخذ على حبيبها: «إنها لا تستطيع أن تفهمه بتاتاً، فهو يبدو في كل مرة مختلفاً، إنه منافق، قلاّب عيون، لقد قلب لها عينيه، عيناها الآن منقلبتان، عيناها ما هما عيناها، إنها ترى العالم الآن بعينين غير عينيها».

إن لتصريحات المريضة بصدد كلامها اللامفهوم قيمة تعادل قيمة التحليل؛ فهي تتضمن مكافئ هذا الكلام في شكل تعبيري مفهوم عادة؛ وهي في الوقت نفسه بمثابة مدخل لنا إلى مدلول تكوين الكلمات ومنشئه لدى الفصامي. وبالتوافق مع تاوسك، أستنتج من هذا المثال واقع أن العلاقة بالعضو (بالعين) قد

---

١٧ - فكتور تاوسك: محام وطبيب نفسي نمساوي من أصل سلوفاكي (١٨٧٩ - ١٩١٩). انتسب، بعد تعرفه إلى فرويد، إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. درس، كطبيب عسكري أثناء الحرب العالمية الأولى، ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية والأذهنة الحربية. ولكنه لم يلقَ التشجيع الذي كان يأمل فيه من فرويد ومن المحللين النفسيين البارزين في عصره، وربما كان هذا هو السبب في انتحاره. والإحالة في النص إلى مقال نشره تاوسك في **المجلة الدولية للتحليل النفسي** عام ١٩١٩ بعنوان: **عن تكوين «جهاز التأثير» في مسار الفصام. «م»**.



انتحلت لنفسها وظيفة تمثيل المضمون برمَّته. والكلام الفصامي يتصف هنا بسمة هجاس المرض Hypocondrie، وقد أمسى لغة **عضوانية**[١٨].

وهوذا تصريح ثانٍ للمريضة نفسها: «إنها واقفة في الكنيسة، بغتة أحست بهزة، يجب أن **تغيِّر وضعها، لكأن أحدهم يغيِّر لها وضعها، لكأن وضعها يتغيَّر**».

ويأتي بعد ذلك التحليلُ من خلال دفقة أخرى من المآخذ ضد الحبيب «الذي هو عادي تماماً، الذي جعلها بدورها عادية، هي سليلة أسرة عريقة. جعلها مشابهة له، إذ صوَّر لها أنه أعلى منها؛ وها هي قد أصبحت الآن مثله هو، لأنها كانت تظن أنها ستصير أفضل فيما لو أمست مشابهة له. لقد وضع نفسه في **موضع كاذب**. لقد غشَّ[١٩]. إنها الآن مثله تماماً (تماهٍ!). لقد وضعها **في موضع كاذب**».

يلاحظ تاوسك أن «تغيير الموضع» هو تمثيل مجازي لكلمة «غشَّ» وللتماهي مع الحبيب. وأنا أنوِّه مرة ثانية بغلبة هذا العنصر، الذي مضمونه تعصيب جسماني (أو بالأحرى الإحساس بهذا التعصيب)، في كل سلسلة الأفكار تلك. ولو كانت الفتاة مصابة بالهستيريا لكانت، في الحالة الأولى، قلبت عينيها تشنجاً، ولكانت في الحالة الثانية نفَّذت فعلاً حركة الهزة بدل أن تحس بحفزة إليها أو أن يخامرها الإحساس بها، ولما كانت، في الحالتين كلتيهما، خالجتها أية فكرة شعورية، ولما كان أمكن لها، بعد ذلك، أن تعبِّر عن أية فكرة شعورية.

تشهد هاتان الملاحظتان حتى الآن لصالح ما أسميناه باللغة الهجاسية أو اللغة العضوانية، لكنهما تلفتان انتباهنا أيضاً، وهذا ما يبدو لنا أعظم أهمية، إلى مظهر آخر للأشياء، مظهر قابل بسهولة للتوضيح والجلاء كما في الأمثلة المجموعة في دراسة بلولر[٢٠] والقابلة للتلخيص في صيغة محددة دقيقة. ففي الفصام تخضع

١٨ ـ أي لغة ذات تعبير فيزيولوجي كما لو أنها عضو من أعضاء البدن. «م».

١٩ـ ثمة جناس في الأصل الألماني بين «غشّ» و«غيَّر». وهو غير قابل للترجمة. «م».

٢٠ ـ الإحالة هنا إلى **«محاضرة عن الازدواجية»** ألقاها بلولر عام ١٩١١. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الكلمات للسيرورة ذاتها التي تنتج، بدءاً من أفكار الحلم الكامنة، صور الحلم والتي أسميناها **السيرورة النفسية الأولية**. فالكلمات تكثَّف، وتحوّل عن طريق الإزاحة والنقل توظيفاتها من بعضها إلى بعض بلا توقف؛ وقد تنشطّ هذه السيرورة بعيداً حتى إن الكلمة الواحدة تتولج بوظيفة سلسلة بكاملها من الأفكار، تؤهلها لذلك علاقات لا تقع تحت حصر. وقد وفَّرت دراسات بلولر ويونغ وتلامذتهما مادة غزيرة في تأييد هذه الأطروحة على وجه التحديد[٢١].

قبل أن نخرج بنتيجة ختامية من هذه الانطباعات، لنستذكر من جديد الفروق الدقيقة، والباعثة على الدهشة في الوقت نفسه، بين تكوين البديل في الفصام من جهة وفي الهستيريا والعصاب الوسواسي من الجهة الأخرى. عندي الآن مريض أضعه قيد الملاحظة، وهو يشيح عن اهتمامات الحياة جميعاً بسبب سوء حالة جلد وجهه. وهو يؤكد أن في وجهه الذي يستوقف نظر الناس جميعاً بثوراً وثقوباً عميقة. ويدلّ التحليل على أنه يمثِّل عقدة خصائه بكاملها على مستوى جلده. فقد كان يهتم بادئ الأمر ببثوره دونما تبكيت ضمير، إذ كان عصرها يعود عليه بإشباع عظيم، لأن ثمة شيئاً ما، كما كان يقول، ينبجس منها. ثم بدأ يداخله الاعتقاد أنه حيثما اقتلع بثراً ظهرت فجوة عميقة، فراح يلوم نفسه أشدَّ اللوم لأنه شوّه جلده بصورة نهائية «من كثرة ما لاعبه بيده». ومن الواضح أن عصر محتوى البثور هو بالنسبة إليه بديل عن الاستمناء. والفجوة التي تظهر عندئذ من جراء فعلته هي العضو التناسلي المؤنث، أي تنفيذ وعيد الخصاء المترتب على الاستمناء (أو بالأحرى الاستيهام الذي يمثِّل هذا الخصاء). وتكوين البديل هذا، رغماً عن طابعه الهجاسي، يشبه غاية الشبه تحولاً هستيرياً، ومع ذلك نشعر، حتى قبل أن يتاح لنا بيان ما كنه الفارق، بأن ثمة شيئاً آخر يحدث هنا وبأننا لا نستطيع أن نرى في تكوين بديل من هذا النوع ضرباً من الهستيريا. فمن العسير على المريض بالهستيريا أن يحسب مثل تلك الفجوة الصغيرة التي بحجم مسام الجلد رمزاً للمهبل، وإن كان يقارنه على أية حال بكل الأشياء التي تتضمن

٢١ ـ بالمناسبة، إن عمل الحلم يتعامل مع الكلمات تعامله مع الأشياء ويخلق عندئذ كلاماً أو تعابير جديدة «فصامية» مشابهة للغاية.



فسحة جوفاء. ونحن نعتقد أيضاً بأن كثرة الفجوات الصغيرة ستردعه عن استخدامها كبديل للجهاز التناسلي المؤنث. وينطبق الشيء ذاته على مريض شاب شرح تاوسك قبل بضع سنين حالته أمام **الجمعية الفيينَاوية للتحليل النفسي**. فقد كان هذا المريض يتصرف تصرف العصابي الوسواسي تماماً، فيقضي ساعات في الاغتسال، إلخ. لكن ما كان يسترعي الانتباه في حالته هو أنه كان في مستطاعه أن يبين بلا مقاومة عن مدلول كفوفه. ومن قبيل ذلك أنه فيما كان يرتدي جوربه خطرت له فكرة مبلبلة تأمره بأن ينزع زردات الجورب، أي ثقوبه، متصوراً أن كل ثقب هو رمز لفتحة فرج المرأة. وهذا شيء لا يمكن بدوره أن يعتبر من أعراض العصاب الوسواسي. فقد روى ر. رايتلر Reitler[٢٢] أن مريضاً بالعصاب الوسواسي، يشكو من عرَض مماثل، «كان يمضي وقتاً طويلاً في ارتداء جوربيه»، وقد اكتشف تفسير ذلك، بعد أن تمّ التغلب على المقاومات، بكون القدم رمز القضيب، ويكون فعل ضمّ الجورب فعل استمناء؛ فهو إذا ما لبس الجورب وخلعه بصورة متواصلة، فإنما ليستكمل من جهة أولى صورة الاستمناء، وليلغيها من الجهة الثانية ارتجاعياً.

إذا تساءلنا عما يضفي على تكوين البديل وعلى العرَض لدى الفصامي طابعهما الباعث على الدهشة، انتهى بنا الأمر إلى أن ندرك أن مردّ ذلك إلى غلبة العلاقة اللفظية على العلاقة الشيئية. فبين عصر البثر وقذف القضيب لا وجود إلا لشبه طفيف من حيث الشيئية؛ كما أنه أكثر طفافة بين مسام البشرة التي لا عدّ لها وبين المهبل؛ لكن ثمة شيء ينبجس من الشيئين كليهما في الحالة الأولى، بينما الصيغة الماجنة، القائلة بأن الثقب ثقب، صحيحة حرفياً في الحالة الثانية. وتماثل التعبير اللفظي، وليس تشابه الأشياء المسماة، هو الذي تحكّم بعملية الإبدال. وحيثما لا يتطابق العنصران ـ أي اللفظ والشيء ـ يفترق تكوين البديل الفصامي عن تكوين الأعصبة التحويلية.

---

٢٢ ـ رودولف رايتلر: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٥ ـ ١٩١٧). شارك في تأسيس **جمعية يوم الأربعاء للتحليل النفسي**. كان مختصاً بالمعالجة بالمياه المعدنية، وأول من مارس التحليل النفسي بصفة رسمية بعد فرويد. «م».



لنقارن بين هذه الفكرة وبين الفرضية التي تنصّ على أن التوظيفات الموضوعانية يتم التخلي عنها في الفصام. عندئذ نرى لزاماً علينا أن ندخل عليها التعديل التالي: إن توظيف التمثلات اللفظية للمواضيع يبقى قائماً. وفي هذه الحال لا يلبث ما نستطيع أن نسمّيه بالتمثل الموضوعاني الشعوري أن ينشطر إلى **تمثل لفظي وتمثل شيئي**. والتمثل الشيئي يكمن، إن لم يكن في توظيف الصور الذاكرية المباشرة للشيء، فعلى كل حال في توظيف آثار ذاكرية مشتقة منها ولكنها أكثر نأياً. ويخالجنا الاعتقاد الآن بصورة مفاجئة بأننا نعرف ما الذي يميّز التمثل الشعوري عن التمثل اللاشعوري. فليس هذان التمثلان، كما كان خيِّل إلينا، تسجيلين مختلفين لمضمون واحد في موضعين نفسيين مختلفين، وليس هما أيضاً حالتين من توظيفات وظيفية مختلفة في موضع واحد: بل يضم التمثل الشعوري التمثل الشيئي علاوة على التمثل اللفظي العائد إليه، بينما لا يضم التمثل اللاشعوري سوى التمثل الشيئي وحده. ويشتمل النسق **لشع** على التوظيفات الشيئية للمواضيع، على التوظيفات الموضوعانية الأولى والحقيقية؛ بينما يظهر النسق **قشع** متى ما ضوعف توظيف هذا التمثيل الشيئي بحكم ارتباطه بالتمثلات اللفظية المناظرة له. هذه التوظيفات المضاعفة ـ مباح لنا افتراض ذلك ـ هي التي تُدخِل تنظيماً نفسياً أعلى وأرفع، وهي التي تتيح إمكانية حلول السيرورة الثانوية، السائدة في **قشع**، محل السيرورة الأولى. وبوسعنا الآن أن نعبِّر بدقة أيضاً عما ينكره الكبت في الأعصبة التحويلية على التمثل الذي يكون قد تمّ إقصاؤه: إنه ترجمة الألفاظ التي ينبغي أن تبقى مرتبطة بالموضوع. وعندئذ يبقى التمثل غير المعبر عنه بألفاظ أو الفعل النفسي غير المضاعف التوظيف متخلفين ومكبوتين في **لشع**.

أبيح لنفسي أن ألفت النظر إلى أننا وضعنا اليد منذ وقت مبكر جداً على كيفية النظر التي تتيح لنا اليوم أن نفهم واحدة من أبرز السمات في الفصام. ففي الصفحات الأخيرة من **تأويل الحلم**، المنشور سنة ١٩٠٠، جاء عرض للفكرة القائلة إن السيرورات التفكيرية، أي الأفعال التوظيفية البعيدة كافي البعد عن الإدراكات، هي بحدّ ذاتها عادمة الصفة ولاشعورية ولا تكتسب الأهلية لأن



تصير شعورية إلا بارتباطها ببقايا الإدراكات اللفظية. والحال أن التمثلات اللفظية تتأتى من الإدراك الحسي، مثلها في ذلك مثل التمثلات الشيئية، وهذا ما يبرر طرح السؤال التالي: لماذا لا تستطيع التمثلات الموضوعانية أن تغدو شعورية بواسطة بقاياها الإدراكية الخاصة؟ بيد أن الفكر يؤدي، في أرجح الظن، وظيفته في أنسقة بعيدة غاية البعد عن البقايا الإدراكية الأصلية إلى حدّ لا تعود معه هذه الأنسقة تحتفظ بأي شيء من صفات هذه البقايا، بل تكون بحاجة، كيما تصبح شعورية، إلى تعزيزٍ لها بصفات جديدة. زد على ذلك أن الارتباط بألفاظ يفسح في المجال لإضفاء صفات على التوظيفات التي ما كانت تستطيع أن تحمل معها أية صفة مستمدة من الإدراكات ذاتها، وذلك لأن هذه التوظيفات تطابق فقط علاقات بين التمثلات الموضوعانية. ومثل هذه العلاقات التي ما أصبحت قابلة للفهم إلا عن طريق الألفاظ تؤلف جزءاً هاماً من سيروراتنا التفكيرية. ومن المفهوم لدينا ألا يكون الارتباط بالتمثلات اللفظية متطابقاً بعد مع صيرورة اللاشعوري شعورياً، ولكنه يوفر الإمكانية ليس إلا لهذه الصيرورة، وهذا يعني أن الارتباط بالتمثلات اللفظية هو من سمات النسقٍ **قشع** دون غيره من الأنسقة. بيد أننا نلاحظ أننا نتخلى بهذا النقاش عما يشكل جوهر موضوعنا: فها نحنذا نغوص في صميم مشكلات القبشعور والشعور، مع أنه كان أجدر بنا أن نستبقيها لنعالجها على حدة.

ثمة تشكك لا بدّ أن يخالجنا ونحن نتكلم عن الفصام الذي لا نتوقف عنده أصلاً إلا بقدر ما يبدو لنا ضرورياً لمعرفة عامة بالنسق **لشع**: هل لا يزال ثمة شيء مشترك بين السيرورة المدعوة هنا بالكبت وبين الكبت الملحوظ في الأعصبة التحويلية؟ إن الصيغة التي تقول إن الكبت سيرورة تحدث بين النسق **لشع** والنسق **قشع** (أو **شع**)، وتكون نتيجتها إبقاء المكبوت بعيداً عن الشعور، تحتاج على كل حال إلى تعديل كيما يسعها أيضاً أن تستوعب حالة الخبل المبكر وأمراضاً نرجسية أخرى. لكن مسعى الأنا إلى الهرب، هذا المسعى الذي يتجلى في سحب التوظيف الشعوري، يبقى على كل حال هو العنصر المشترك. أما إلى أي حدّ يكون اللجوء إلى محاولة الهرب هذه، نعني هرب الأنا، أكثر جوهرية



وعمقاً في الأعصبة النرجسية، فهذا ما يفيدنا به إعمالنا لفكرنا ولو بمنتهى السطحية.

إذا كان قوام هذا الهرب في الفصام سحب التوظيف الغريزي من الأماكن التي تمثّل التمثُّل الموضوعاني اللاشعوري، فقد يتراءى لنا أن من العجب الذي يبعث على الدهشة أن يكون ذلك الجزء من التمثل الموضوعاني نفسه الذي ينتمي إلى النسق **قشع** ـ التمثلات اللفظية المناظرة لهذا التمثل الموضوعاني ـ ملزماً على العكس بأن يكون محلاً لتوظيف أشدَّ قوة. ولقد كان يحقّ لنا بالأحرى أن نتوقع أن يكون التمثل اللفظي، بصفته العنصر القبشعوري، هو المرشح لتحمل صدمة الكبت الأولى، وألا يعود ثمة من سبيل إلى توظيفه بعد أن يكون الكبت قد تواصل حتى شمل التمثلات الشيئية اللاشعورية. هذه، بكل تأكيد، نقطة يعسر فهمها. وللَخروج من هذا الإشكال، نستطيع أن نقول إن هذا التوظيف للتمثل اللفظي لا ينتمي إلى فعل الكبت، بل يمثل على العكس أولى محاولات التصحيح أو الشفاء التي تملأ، على نحو ملفت للنظر، اللوحة السريرية للفصام. وتنزع هذه الجهود إلى استعادة المواضيع المفقودة؛ ومن المحتمل جداً أن تسلك، ما دامت عاقدة النية على ذلك، طريق الموضوع مروراً بالعنصر اللفظي من هذا الموضوع، مما يحملها عندئذ على وجوب الاكتفاء بالألفاظ بدل الأشياء. وبالفعل، يمكن لنشاطنا النفسي، بصورة بالغة العمومية، أن يسير في مجريين متعاكسي الاتجاه: فإما أن يصدر عن الدوافع الغريزية عن طريق النسق **لشع** ليصل إلى العمل الفكري الشعوري، وإما أن يمرّ، بحضٍّ من الخارج، بالنسقين **شع وقشع** ليصل إلى التوظيفات اللاشعورية للأنا وللمواضيع. هذا الطريق الثاني يجب أن يبقى، رغم الكبت الذي يكون قد حدث مقدماً، سالكاً، وهو يبقى إلى حدٍّ ما مفتوحاً أمام جهود العصاب لاستعادة مواضيعه. ولكن حين نفكر في الأمور تفكيراً مجرداً، نجازف بإهمال علاقات الألفاظ بالتمثلات الشيئية اللاشعورية، ولا يسعنا من ثم أن ننكر أن فلسفتنا تتلبس، في تعبيرها وفي مضمونها، ضرباً من المشابهة ما كنا نتمناه لها مع الكيفية التي بها يتصرف الفصاميون. ومن جهة أخرى، يمكننا أن نحاول تحديد سمات نمط التفكير لدى



الفصاميين بالقول إنهم يعاملون الأشياء العينية كما لو أنها مجردة.

إن نكن حقاً قد استكشفنا **لشع** وحدَّدنا على الوجه الصحيح الفرق بين تمثل لاشعوري وتمثل قبشعوري، فإن الأبحاث التي يمكننا أن نقوم بها من منطلقات مغايرة تماماً ستعيدنا بالضرورة إلى هذه الكيفية في النظر إلى الأمور.



تكملة ميتاسيكولوجية لنظرية الحلم[1]

في مناسبات شتى تتاح لنا الفرصة لنختبر ما يعود على مبحثنا من فائدة فيما لو عقدنا مقارنات مع بعض الحالات والظاهرات التي يمكننا اعتبارها نماذج سوية لإصابات مرَضية. ومن جملة هذه النماذج نستطيع أن نخص بالذكر حالة الحداد وحالة الحب، وكذلك حالة النوم وظاهرة الحلم.

إننا لم نتعود على التأمل ملياً في واقع أن الإنسان ينضو عنه في كل ليلة الأردية التي يستر بها جلده، وربما أيضاً الأدوات التي يستخدمها ليكمل بها أعضاءه البدنية، بقدر ما يكون أفلح في تمويه تقصيرها بواسطة بدائل: النظارات، الشعر المستعار، الأسنان الاصطناعية، إلخ. ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه يعرّي، على المنوال نفسه، حين يهمّ بالرقاد، نفسيته أيضاً، فيتخلى عن معظم مقتنياته النفسية، بحيث يقترب، من كلا الجانبين، وإلى أقصى حدّ، من الموقف الذي كان نقطة الانطلاق لنموه. فالنوم هو، من وجهة النظر البدنية، استذكار للإقامة في جسم الأم وتحقيق لبعض شروطها: الوضعية الساكنة، الدفء، والابتعاد عن التنبيهات؛ بل كثيرون هم الأشخاص الذين يتخذون أثناء رقادهم وضعية جسم الجنين ، وتتسم حالة النائمين النفسية بانسحاب شبه تام من العالم المحيط وبإلغاء كل اهتمام به.

حين ندرس الحالات العصابية النفسية، نجدنا في كل مرة منقادين إلى جلاء ما يسمى **بالنكوصات الزمنية**، أي مقدار التراجع إلى الوراء في النمو بالنسبة إلى

١ ـ هذا المقال والمقال التالي له مأخوذان من مجموعة أردت في الأصل أن أنشرهما في كتاب بعنوان **مقدمات لعلم ميتاسيكولوجي**. وأضيفهما هنا إلى مقالات نشرت في المجلد الثالث من **المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي**. وغرض هذه السلسلة من المباحث توضيح الفرضيات النظرية التي يمكن أن يقوم على أساسها مذهب تحليلي نفسي وتعميقها.



كل حالة. ونحن نميّز نكوصين من هذا القبيل: النكوص الخاص بنموّ الأنا، والنكوص الخاص بنموّ الليبيدو. ويشطّ الثاني، في حالة النوم، إلى حدّ إحياء **النرجسية البدئية**، كما يشطّ الأول إلى درجة **الإشباع الهلوسي للرغبة.**

إن ما نعرفه عن الخصائص النفسية لحالة النوم قد جاءنا علمه بطبيعة الحال من دراسة الحلم. صحيح أن الحلم يظهر لنا الإنسان بقدر ما لا يكون نائماً، لكنه يكشف لنا مع ذلك، بهذه المناسبة، عن بعض خصائص النوم بالذات. وقد كشفت لنا الملاحظة عن خواص معيَّنة للحلم ما أمكن لنا للوهلة الأولى أن نفهمها، وقد بات يسيراً علينا الآن أن ندمجها بجملة معارفنا. ومن ذلك أننا بتنا نعرف أن الحلم أنوي مطلق الأنوية، وأن الشخص الذي يلعب الدور الرئيسي في المشاهد هو على الدوام الشخص المعني، وهذه بالطبع نتيجة سافرة لنرجسية حالة النوم. وبالفعل، إن النرجسية والأنوية تتطابقان؛ فكلمة «النرجسية» لا دور لها سوى التنويه بأن الأنوية ظاهرة ليبيدوية أيضاً، أو بعبارة مغايرة، يمكن تعريف النرجسية بأنها التكملة الليبيدوية للأنوية[٢]. ونحن ندرك أيضاً قدرات الحلم على «تشخيص المرض»، هذه القدرات التي لا يُعترف بها بوجه عام إلا باعتبارها غامضة ملغزة؛ فكثيراً ما يحس المرء بأوجاع جسمية بادئة في وقت أبكر وبوضوح أبكر مما في حالة اليقظة، وجميع الإحساسات الجسمية التي تخالجه ساعة النوم تأتي مضخَّمة إلى حدٍّ هائل. وهذا التضخم هو من طبيعة هجاسية، ويقتضي أن يكون كلّ توظيف نفسي قد سُحبٍ من العالم الخارجي صوب الأنا المعني، وعلى هذا النحو يتيح إمكانية التعرف المبكّر إلى التغيُّرات الجسمية التي لو طرأت أثناء اليقظة لمرَّ نزر من الزمن قبل أن يُفطن لها.

يفيدنا الحلم أنه حدث شيء ما أراد تعكير صفو النوم، ويتيح لنا أن ندرك الكيفية التي مكنَّت النائم من حماية نفسه من هذا التعكير. فالنائم قد رأى، في

---

٢ ـ يجد المترجم العربي نفسه محرجاً أمام ترجمة المصطلح الألماني: Egoismus ومرادفه الفرنسي أو الإنكليزي. فقد درج القاموس العربي على ترجمته بالأنانية، وهي ترجمة صحيحة بكل تأكيد، ولكنها تحجب عن الإدراك المدلول الثاني الذي يمكن أن يكون لهذه الكلمة من منظور التحليل النفسي على وجه التحديد، ألا هو: **الأنوية**، بالنظر إلى أن لفظ Ego المستعار من اللاتينية يعني بالضبط الأنا. «م».



ختام الحساب، حلماً، وبوسعه الآن أن يتابع نومه؛ وبدلاً من المطلب الداخلي الذي كان يزعم أنه شاغله، طرأت خبرة معاشة خارجية وتمّت تصفية طلبها. الحلم إذا **إسقاط** أيضاً، تظهير لسيرورة باطنة. وإننا لنذكر، ولا بدّ، أننا كنا التقينا الإسقاط في مكان آخر، في عداد وسائل الدفاع. ففي الرهاب الهستيري أيضاً تدرك الآلية نقطة أوجها حين يتمكن الفرد، كما كنا رأينا، من أن يدرأ عن نفسه، بمحاولات هرب، خطراً خارجياً ناب مناب مطلب غريزي داخلي. لكننا سنمتنع عن تقديم تفسير جوهري للإسقاط إلى أن نتوصل إلى تفكيك طبيعة الإصابة النرجسية ـ الذي فيها تلعب هذه الآلية أبرز أدوارها ـ إلى عناصرها.

بأية طريقة وفي أية حالات يمكن التشويش على نية النوم؟ قد يأتـي التشويش من تنبيه باطني أو من تنبيه خارجي. ولنتمعن أولاً في الحالة الأقل وضوحاً والأكثر إثارة للاهتمام، حالة التشويش الآتي من الداخل؛ فالتجربة تدلنا على أن ما يحضّ على تكوين الحلم هي البقايا النهارية، التوظيفات التفكيرية التي لم تخضع للسحب العام للتوظيفات، بل حافظت، رغم هذا السحب، على كمية معينة من قيمتها الليبيدوية أو غير الليبيدوية. هنا يكون إذاً قد توجب على نرجسية النوم أن تسلِّم من البداية باستثناء، وبهذا الاستثناء تبدأ عملية تكوين الحلم. ونحن نتعرف تلك البقايا النهارية في التحليل في شكل أفكار الحلم الكامنة، ونجدنا مكرهين على أن نتعرف فيها، بحسب طبيعتها كما بحكم مجمل الموقف، تمثلات قبشعورية، توابع للنسق **قشع**.

حتى نتمكن من المضيّ قدماً في تفسيرنا لتكوين الحلم، لا بدّ لنا من تذليل بعض الإشكالات. فلا شك في أن نرجسية حالة النوم تعني سحب توظيف جميع التمثلات الموضوعانية، سواء الأجزاء الشعورية من هذه التمثلات أو الأجزاء القبشعورية. فإذا ما بقيت بعض «البقايا النهارية» موظفة، فلن نسلِّم بلا تحفظ إذاً بأن هذه البقايا تكتسب أثناء الليل قدراً كافياً من الطاقة لترغم الشعور على أن يعيرها انتباهاً؛ بل نحن نميل بالأحرى إلى التسليم بأن التوظيف المتبقي لها أضعف بكثير من ذاك الذي كان لها أثناء النهار. وبصدد هذه النقطة يوفِّر علينا التحليل الشطط في المضاربات النظرية إذ يبرهن لنا أنه لا بدّ لهذه البقايا

النهارية، فيما إذا شاءت أن تدخل في عداد مكوّنات الحلم، من أن تتلقى تعزيزاً يكمن مصدره في الحاثات الغريزية اللاشعورية. وهذه الفرضية لا تنطوي في بادئ الأمر على إشكالات، إذ لا بدّ لنا من الافتراض بأن مستوى الرقابة بين النسقين **قشع ولشع** ينخفض انخفاضاً شديداً أثناء النوم، وهذا ما يسهِّل التنقل بين النسقين.

لكن ثمة إشكالاً آخر لا يمكن لنا أن نتغاضى عنه. فإن صحَّ أن حالة النوم النرجسية نتيجتها سحب جميع توظيفات النسقين **لشع وقشع**، فلن يعود ثمة من إمكانية لأن تستمد البقايا النهارية القبشعورية دعماً وتعزيزاً من الحاثات الغريزية اللاشعورية، نظراً إلى أن هذه الحاثات قد تخلت هي ذاتها للأنا عن توظيفاتها. هنا تتمخض نظرية تكوين الحلم عن تناقض، اللهم إلا إذا وقاها منه تعديل للفرضية بصدد نرجسية النوم.

إن فرضية تحديدية كهذه لا سبيل إلى تحاشيها في نظرية الخبل المبكر، كما سيتضح لاحقاً، ومنطوقها الوحيد الممكن هو أن الشطر المكبوت من النسق **لشع** لا يخضع للرغبة في النوم الصادرة عن الأنا، بل يحافظ على توظيفه كاملاً أو جزئياً، ويكتسب بنتيجة الكبت، بصورة عامة، درجة معينة من الاستقلال تجاه الأنا. أما النتيجة الثانية فتتمثل في أن كماً معيَّناً من الإنفاق الكبتي (من **التوظيف المضاد**) لا بدّ أن يظل في حالة يقظة طوال الليل لدرء خطر الدافع الغريزي، على الرغم من أن انسداد جميع الطرق التي تقود إلى تحرر الانفعال والطاقة الحركية يمكن أن يخفِّف تخفيفاً لا يستهان به من مستوى التوظيف المضاد اللازم. بوسعنا إذاً، إذا شئنا، أن نصف على النحو التالي الموقف الذي يفضي إلى تكوين الحلم: إن الرغبة في النوم تسعى إلى احتواء جميع التوظيفات المنطلقة من الأنا، وإلى فرض نرجسية مطلقة. وهذا أمر لا يمكن أن ينجح إلا بصورة جزئية لأن مكبوت النسق **لشع** لا يخضع للرغبة في النوم. إذاً لا بدّ أن يبقى جزء أيضاً من التوظيفات المضادة في حالة يقظة، كما لا بدّ أن تستمر الرقابة بين النسقين **لشع وقشع** وإن بغير كامل قوتها. وحيثما امتدت سيطرة الأنا، تفرغ الأنسقة كافة من التوظيفات. وكلما كانت التوظيفات الغريزية اللاشعورية أقوى، كان النوم



خؤوناً. ونحن نعرف أيضاً تلك الحالة القصوى التي يتخلى فيها الأنا عن الرغبة في النوم لأنه يشعر بالعجز عن كفّ الحاثات المكبوتة التي تنعتق أثناء النوم؛ وبعبارة أخرى، يعزف عن النوم لأنه يخاف من أحلامه.

سنتحقق لاحقاً من النتائج الخطيرة التي تترتب على فرضية تمرد الحاثات الغريزية. ولنواصل الآن دراسة الموقف المطابق لتكوين الحلم.

ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا احتمال حدوث انقطاع ثانٍ في النرجسية؛ وهو الاحتمال، المشار إليه أعلاه، في أن تدلل بعض الأفكار النهائية القبشعورية هي الأخرى على مقاومة صلبة، فتستبقي قسماً من توظيفها وتحبسه. ومن الممكن للحالتين كلتيهما، في واقع الأمر، أن تتطابقا: فمن الممكن في بعض الأحوال ردّ مقاومة البقايا النهارية إلى ارتباطٍ بحاثات لاشعورية قائم من الأساس في حالة اليقظة؛ أو قد تكون الوقائع أقل بساطة بقليل، فلا تدخلُ البقايا النهارية، التي لا تكون قد أُجليت بتمامها، في علاقة مع المكبوت إلا في حالة النوم، وذلك بفضل الاتصال ـ الذي يمسي أكثر سهولة عندئذ ـ بين النسقين **قشع ولشع**. والحال أنه في الحالتين كلتيهما، يكون قد تمّ تحقيق تقدم حاسم في تكوين الحلم، إذ تكون الرغبة القبشعورية في الحلم قد أفصحت عن نفسها؛ وهذه الرغبة هي التي تنمّ عن **الحاثة اللاشعورية في مادة البقايا النهارية القبشعورية**. ومن الواجب أن نميِّز هذه الرغبة في الحلم هذه تمييزاً جلياً عن البقايا النهارية؛ فليس من الضروري أن تكون قد وجدت في حالة اليقظة، وبوسعها من الأساس أن تكشف عن الطابع اللاعقلاني الذي يحمل في ذاته كل ما هو لاشعوري متى ما سيق إلى الشعور. كذلك لا يجوز أن نخلط بين الرغبة في الحلم وبين الحاثات الرغبية التي يمكن أن تتواجد، احتمالاً لا وجوباً، بين أفكار الحلم القبشعورية (الكامنة). لكن إن وجدت مثل هذه الرغبات القبشعورية، فإن الرغبة في الحلم لا تلبث أن تنضاف إليها لتعززها تعزيزاً ناجعاً منتهى النجع.

لنرَ الآن ما ستكونه ابتداء من هنا مصائر هذه الحاثة الرغبية التي تمثِّل في جوهرها مطلباً غريزياً لاشعورياً والتي تكونت في القبشعور في صورة رغبة في الحلم (تخييل يحقق الرغبة). إن إعمال الفكر يدلنا على أنها قد تجد أمامها ثلاثة



سبل متباينة لتصفية نفسها. فإما أن تنفُذ، من خلال ممارسة ضغطها، من النسق **قشع** إلى الشعور، وهذا هو الطريق الطبيعي في حالة اليقظة؛ وإما أن تحيد عن الشعور وتتدبر لنفسها تصريفاً حركياً مباشراً؛ وإما أن تسلك ذلك الطريق غير المتوقع الذي تتيح لنا الملاحظة مع ذلك أن نهتدي إلى مسراه. وفي الحالة الأولى، ستتحول الحاثة الرغبية إلى **فكرة هذائية**، مضمونها هو تحقيق الرغبة، ولكن هذا شيء لا يحدث أبداً في حالة النوم (ما دمنا غير عارفين كامل المعرفة بالشروط الميتاسيكولوجية للسيرورات النفسية، فعسى هذه الواقعة أن تقدّم لنا مؤشراً إلى أن النسق المفرغ إفراغاً تاماً يغدو، بحكم ذلك، غير مهيأ للاستجابة للمحرّضات). أما الحالة الثانية، حالة التصريف الحركي المباشر، فمن الواجب استبعادها نزولاً عند حكم المبدأ نفسه، إذ إن المنفذ إلى الطاقة الحركية يقع عادة إلى أبعد قليلاً من رقابة الشعور، ولكن من الممكن، ولو بصورة استثنائية، رصد هذه الحالة في شكل الروبصة أو السرنمة Somnambulisme. ونحن لا نعرف ما الشروط التي تجعل ذلك ممكناً، كما لا نعرف لماذا لا تحدث السرنمة بتواتر أكبر. وما نلاحظه، في واقع الأمر، في تكوين الحلم هو اختيار لافت للنظر وغير متوقع بالمرة. فالسيرورة التي تبدأ في النسق **قشع** ويعززها **لشع** تسلك طريقاً تقهقرياً، عبر **لشع**، نحو الإدراك الذي يفرض نفسه على الشعور. وهذا النكوص هو الطور الثالث في تكوين الحلم. ولنكرر هنا الإشارة، كيما تأتي الصورة شاملة، إلى الطورين السابقين: تعزيز البقايا النهارية للنسق **قشع** بالنسق **لشع**، وتكوين الرغبة في الحلم.

إننا نصف مثل هذا النكوص بأنه **مكاني** تمييزاً له عن النكوص **الزمني** أو النكوص في تاريخ النمو كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. ولا يتطابق النكوصان على الدوام بالضرورة، ولكنهما يفعلان ذلك تحديداً في المثال موضوع البحث. وتقهقر مسار التنبيه بدءاً من **قشع**، وعبر **لشع**، وصولاً إلى الإدراك هو، في الوقت نفسه، عودة إلى الطور القديم من التحقيق الهلوسي للرغبة.

لقد بتنا نعلم، منذ كتابنا **تأويل الحلم**، الكيفية التي يتمّ بها نكوص البقايا النهارية القبشعورية في تكوين الحلم. فثمة أفكار تُقلب إلى صور - بصرية في



المقام الأول ـ أي ثمة تمثلات لفظية تُرَدّ إلى التمثلات الشيئية المناظرة لها، كما لو أن السيرورة كلها يهيمن عليها اعتبار رئيسي: **القابلية للتشخيص** Figurabilité. وبتمام النكوص، تبقى مجموعة من التوظيفات في النسق **لشع**، توظيفات ذكريات شيئية تمارس عليها السيرورة النفسية الأولية تأثيرها إلى أن تشكّل المضمون الظاهر للحلم من خلال تكثيفها هذه الذكريات وبإجرائها مناقلات فيما بين التوظيفات. وإنما عندما تكون التمثلات اللفظية بين البقايا النهارية بقايا حديثة وراهنة من الإدراكات، وليست تعبيراً عن أفكار، عندئذ فقط تُعامل وكأنها تمثلات شيئية وتتعرض في ذاتها لمفاعيل التكثيف والنقل. ومن هنا كانت القاعدة التي نُصَّ عليها في **تأويل الحلم**، والتي تعززت بالبراهين منذئذ حتى باتت هي البداهة بعينها، القاعدة القائلة إن الكلمات والعبارات في مضمون الحلم ليست ابتكارات جديدة بل تتشكل بدءاً من عبارات النهار السابق للحلم (أو بدءاً من انطباعات حديثة أخرى قد تتأتى أيضاً من المطالعات). وإنه لما يلفت النظر أن نعاين مدى قلة اكتراث عمل الحلم بالتمثلات اللفظية؛ فهو مستعد في كل لحظة وآن لمقايضة الألفاظ بعضها ببعض إلى أن يفوز بالتعبير الذي يقدّم للتشخيص التشكيلي أكبر قدر من التيسير[٣].

هنا يتبدى الفرق الجوهري بين عمل الحلم والفصام. ففي الفصام نجد أن

٣ ـ إلى مراعاة هذه القابلية للتشخيص أعزو أيضاً واقعة ألحّ عليها سلبرر(*) وقد يكون غالى في أهميتها، وأعني بها كثرة الأحلام التي تسمح بتأويلين، كلاهما وجيه، وإن اختلفا في ماهيتهما: تأويل ينعته سلبرر بأنه تحليلي، وآخر بأنه باطني. والأمر هنا على الدوام أمر أفكار ذات طبيعة مجردة للغاية، اصطدم تشخيصها في الحلم بعقبات كأداء. لتتصور على سبيل المقارنة صعوبةَ مهمةِ مَن يُطلب إليه استبدال افتتاحية جريدة سياسية برسوم وتصاوير! وفي نظير هذه الحالات يتوجب على عمل الحلم بادئ ذي بدء أن يستبدل نص الأفكار المجردة بنص أكثر عيانية يرتبط به بطريقة أو بأخرى ـ وبالمشابهة أو بالرمزية أو بالكناية المجازية أو، وهذا أحسن، بطريق الوراثة ـ ويغدو، بدلاً منه، مادة عمل الحلم. وتشكّل الأفكار المجردة ما يسمى بالتأويل الباطني، ومحزرته أسهل علينا في عملنا التأويلي من محزرة التأويل التحليلي المحض. وبحسب ملاحظة صائبة أبداها أ. رانك فإن بعض الأحلام الاستشفائية لدى المرضى قيد المعالجة التحليلية هي أجود الأمثلة على تلك الأحلام القابلة لتأويل متعدد.

(*) هربرت سلبرر: محلل نفسي نمساوي عصامي (١٨٨٢ ـ ١٩٢٣). انتمى إلى **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي** وبرز بدراسته للرمزية. تحول لاحقاً نحو التصوف والباطنية ومات منتحراً. من مؤلفاته: **مشكلات التصوف ورمزيته**. وإليه يحيل فرويد في الهامش. «م».



الألفاظ، المعبرة في الأصل عن الفكرة القبشعورية، هي عينها التي تغدو موضوعاً للصياغة من قبل السيرورة الأولية؛ أما في الحلم فليست هي الألفاظ وإنما التمثلات الشيئية التي إليها رُدّت الألفاظ. إن الحلم يتعرض لنكوص مكاني، وذلك بعكس الفصام؛ فالتبادل في الحلم حرٌّ بين التوظيفات اللفظية (**قشع**) والتوظيفات الشيئية (**لشع**)؛ وبالمقابل، إن من السمات المميزة للفصام انقطاع هذا التبادل. والتأويلات الحلمية التي نقوم بها في الممارسة التحليلية النفسية هي، على وجه التخصيص، التي تضعف شعورنا بهذا الفرق. فحين يقفو تأويل الحلم أثر عمل الحلم، ويسير في الطرق التي تقود من الأفكار الكامنة إلى عناصر الحلم، ويكتشف أي استغلال اُستغِّل المعنى المزدوج للألفاظ، ويعيِّن الجسور اللفظية التي تربط بين مجالات مواد مختلفة، يُحدِث انطباعاً أقرب ما يكون تارة إلى ذاك الذي تحدثه النكتة وطوراً إلى ذاك الذي يحدثه الفصام، فيجعلنا ننسى عندئذ أن جميع العمليات التي ترتكز إلى ألفاظ ما هي بالنسبة إلى الحلم إلا تحضير للنكوص نحو التمثلات الشيئية.

تكتمل سيرورة الحلم متى ما صار المضمون التفكيري، المتحوِّل بفعل النكوص والمبدَّل إلى استيهام رغبي، شعورياً بصفته إدراكاً حسِّياً يخضع نظير كل مضمون إدراكي للصياغة الثانوية. ونحن نقول إن رغبة الحلم هلسية، وتجد في شكل هلوسة تصديقاً لواقعية تحقيقها. وبهذا الجزء النهائي من تكوين الحلم على وجه التحديد تحفّ أعظم الشكوك؛ ولجلاء أمرها سنعمد إلى مقارنة الحلم بالحالات المَرَضية التي تمتّ إليه بصلة قربى.

إن تكوين التخييل الرغبي ونكوصه إلى الهلوسة هما الجزءان الرئيسيان في عمل الحلم، لكنهما ليسا خاصته الموقوفة عليه دون سواه. بل نحن نلفاهما على العكس في حالتين مَرَضيتين: التخليط الهلوسي الحادّ أو **الأمانسيا** (كما قال بها مينرت)[٤]، والطور الهلوسي من الفصام. فهذاء الأمانسيا الهلوسي تخييل رغبي

٤ ـ ثيودور مينرت : MEYNERT من أشهر الأطباء العصبيين في النمسا في أواخر القرن الماضي (١٨٣٣ ـ ١٨٩٢). عارض فرويد وتحداه، وإن ودياً، أن يكتشف حالة هستيرية مذكرة واحدة في فيينا. «م».



قابل للتعرف بوضوح وجلاء، وفي كثير من الأحيان منظمٌ تنظيمَ حلمِ يقظةٍ نهاري جميل. ويسعنا الكلام إذا شئنا، على نحو بالغ العمومية، عن **ذهان هلوسي رغبي**، وأن نلتقيه أيضاً في الحلم والأمانسيا. وتصادفنا كذلك أحلام لا قوام لها سوى أخاييل رغبية غنية للغاية وغير محرَّفة. أما الطور الهلوسي من الفصام فلم يحظَ بمثل هذه الدراسة المعمقة؛ وبوجه عام يبدو أنه من طبيعة مزيجة، ولكن من الممكن أن يتطابق، في جوهره، مع محاولة ترميم جديدة ترمي إلى إرجاع التوظيف الليبيدوي إلى التمثلات الموضوعانية(٥). ولا يسعني أن أشمل بالمقارنة الحالات الهلوسية الأخرى التي نصادفها في إصابات مرَضية شتى، لأنني لا أملك، بصددها، خبرة شخصية ولا أستطيع أن أستخدم خبرة الآخرين.

ليكن واضحاً تمام الوضوح بالنسبة إلينا أن الذهان الهلوسي الرغبي ـ في الحلم وفي غير الحلم ـ يفضي إلى نتيجتين لا تتطابقان بأي صورة من الصور. فهو لا يقود إلى وعي الرغبات الدفينة أو المكبوتة فحسب، بل يصوِّرها أيضاً، بتصديق كامل، وكأنها قد تحققت. وحرّي بنا أن نفهم تلاقي هاتين الواقعتين. فنحن لا نستطيع قطعاً التوكيد بأن الرغبات اللاشعورية لا بدّ أن تعتبر بمثابة حقائق واقعة بمجرد أن تصبح شعورية، لأننا نعلم أن ملكة الحكم لدينا مؤهلة تمام التأهيل للتمييز بين الحقائق الفعلية وبين التمثلات والرغبات كائنة ما كانت شدتها. وبالمقابل، يبدو أن ثمة ما يسوغ الافتراض بأن الاعتقاد بالواقعية يرتبط بالإدراك عن طريق الحواس. فما إن تجد فكرة من الأفكار طريقها إلى النكوص باتجاه الآثار الذاكرية الموضوعانية اللاشعورية، ومنها إلى الإدراك، حتى نقرّ بواقعية إدراكها. إذاً، فالهلوسة تستلزم الاعتقاد بالواقعية. وبوسعنا الآن أن نتساءل ما الشرط اللازم توافره لحدوث الهلوسة. ومن الممكن أن يأتي الجواب الأول: إنه النكوص؛ وهذا ما يتيح لنا في هذه الحال أن نستبدل السؤال عن أصل الهلوسة بالسؤال عن آلية النكوص. ولن تواجهنا مشقة في الإجابة عن هذا السؤال الأخير فيما يخص الحلم. فنكوص الأفكار الحلمية التابعة للنسق **قشع** إلى الصور الشيئية الذاكرية هو بالبداهة نتيجة الجاذبية التي تمارسها هذه التمثيلات الغريزية اللاشعورية ـ

٥ ـ في مبحثنا عن **اللاشعور** تعرفنا إلى أول محاولة من هذا القبيل: التوظيف المضاعف للتمثلات اللفظية.



وعلى سبيل المثال الذكريات المكبوتة لخبرات معاشة ـ على الأفكار المصاغة في ألفاظ. لكن سرعان ما سيتضح لنا أننا اقتفينا أثراً كاذباً. فلو كان سر الهلوسة هو سر النكوص ليس إلا، لكان كل نكوص على درجة كافية من الشدة أنتج هلوسة مع اعتقاد بالواقعية. لكننا نعرف جيد المعرفة تلك الحالات التي يقود فيها تأمل نكوصي إلى وعي للصور الذاكرية البصرية البالغة الوضوح، وهذا من دون أن نعتبر هذا الوعي، ولو لهنيهة من الزمن، إدراكاً واقعياً. كما يسعنا أيضاً، لو شئنا، أن نتصور أن عمل الحلم يتوصل إلى مثل تلك الصور الذاكرية ويضفي صفة الشعور على تلك التي كانت لا تزال لاشعورية، ملوّحاً لنا بسراب تخييل رغبي يحرّك فينا توقاً شديداً من دون أن نعتبره تحقيقاً واقعياً للرغبة. المفروض في الهلوسة إذاً أن تكون أكثر من مجرد إحياء نكوصي لصور ذاكرية هي، بحدّ ذاتها، تابعة للنسق **لشع**.

ناهيك عن ذلك، لا يجوز لنا أن ننسى ما للتمييز بين الإدراكات وبين الأفكار، مهما ثبتت في الذاكرة بقوة، من أهمية عملية. فعلاقتنا بالعالم الخارجي منوطة بجملتها، في الواقع، بهذه القدرة التمييزية. وبموجب الفرضية التي تخيَّلناها، فإننا لم نكن نمتلك هذه القدرة من البدء؛ وبموجبها أيضاً، كنا في مستهل حياتنا النفسية نهلوس فعلاً بالموضوع الإشباعي متى ما ساورتنا الحاجة إليه. ولكن ما كان الإشباع يحدث في هذه الحال، والمفروض أن يكون هذا الفشل قد قادنا في زمن مبكر جداً إلى خلق جهاز يمكن لنا بواسطته تمييز مثل ذلك الإدراك الرغبي عن تحقيق واقعي، وبالتالي أن نتجنبه لاحقاً ونتحاشاه. وبعبارة أخرى، لقد عزفنا في زمن مبكر جداً عن الإشباع الهلوسي للرغبة وأقمنا ضرباً من **امتحان الواقعية**. والمسألة الآن أن نعرف ما كنه امتحان الواقعية هذا، وكيف يتوصل الذهان الهلوسي الرغبي في حالة الحلم والأمانسيا وفي حالات مشابهة إلى إلغائه وإلى إحياء نمط الإشباع القديم.

في مستطاعنا سوق الجواب عن هذا السؤال إذا تمكَّنا من أن نحدد بمزيد من الوضوح والدقة ثالث أنسقتنا النفسية، النسق **شع** الذي لم نميِّزه إلى الآن تمييزاً دقيقاً عن النسق **قشع**. ولقد كنا وجدنا في **تأويل الحلم** أن من اللزام علينا أن



نحزم أمرنا على اعتبار الإدراك الشعوري وظيفة لنسق خاص قائم بذاته؛ وقد حبونا هذا النسق ببعض خواص قيِّمة، وستكون لنا أسباب وجيهة لنعزو إليه خصائص أخرى. هذا النسق الذي أسميناه، في مؤلفنا ذاك، النسق **إد**، نطابق بينه وبين النسق **شع**[٦] الذي يتحكم عمله، بوجه عام، بالمنفذ إلى الشعور. لكن واقعة الأيلولة إلى الشعور لا تتطابق تمام التطابق، رغم كل شيء، مع الانتماء إلى نسق بعينه، إذ تبيَّن لنا أنه في مقدورنا استشفاف صور ذاكرية حسية من دون أن يكون في مكنتنا تعيين موقعها النفسي في النسق **شع** أو **إد**.

لكن لا يزال في مستطاعنا إرجاء بحث هذا الإشكال إلى أن نتمكن من وضع النسق **شع** ذاته في مركز اهتمامنا. أما في السياق الراهن ففي مقدورنا أن نأذن لأنفسنا بالفرضية التالية: إن الهلوسة عبارة عن توظيف للنسق **شع** (**إد**)، وهو توظيف لا يحدث، كما هو متوقع، من الخارج، وإنما من الداخل، وشرطه اللازم أن يتواصل النكوص إلى أن يطال هذا النسق ذاته، فيصير في وسعه على هذا النحو أن يعفي نفسه من امتحان الواقعية[٧].

في سياق سابق (**الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**)[٨] ارتأينا أن الجسم الذي لا يزال في حالة عوز يمتلك المقدرة على تدبر توجُّه أول لنفسه في العالم بفضل إدراكاته، من خلال تمييزه بين «الخارج» و«الداخل» تبعاً للعلاقة بعمل عضلي ما. فكل إدراك من شأن العمل أن يزيله يتمّ تعرفه على أنه خارجي، على أنه واقع؛ أما إذا لم يغيِّر هذا العمل شيئاً، فمعنى ذلك أن الإدراك آتٍ من داخل الجسم وأنه ليس واقعياً. وإنه لشيء ثمين بالنسبة إلى الفرد أن يحوز مثل هذه العلامة الفارقة للواقع، علامة هي في الوقت نفسه وسيلة للاحتماء من الواقع. ولكم سيكون بودِّه لو أنه يمتلك سلطاناً مماثلاً ضد مطالبه الغريزية التي

٦ ـ **شع**: هو الرمز المختصر للنسق الشعوري كما تقدم بيان ذلك؛ أما النسق **إد** فهو اختصار للنسق الإدراكي. «م».

٧ ـ أضيف، تتمة لذلك، أن أية محاولة لتفسير الهلوسة يجب أن تتصدى أولاً للهلوسة السلبية، وليس للهلوسة الإيجابية.

٨ ـ انظر البحث الأول من هذا الكتاب. «م».



كثيراً ما تكون قاسية لا ترحم. ولهذا يجشِّم نفسه مشقة كبيرة لينقل إلى الخارج وليسقط عليه ما يأتيه من الداخل وما يكون مصدر مضايقة له.

وظيفة التوجه في العالم هذه بفضل التمييز بين الداخلي والخارجي يجب أن نعزوها إلى النسق **شع** (**إد**) وحده، وذلك بعد أن انتهينا من تشريح الجهاز النفسي على هذا النحو المعمَّق. والمفروض أن يكون في متناول الشعور تعصيب محرِّك يتيح له أن يقرِّر هل في مستطاعه أن يزيل الإدراك أم أن هذا الأخير يدلل على مقاومة صلبة. وليس **لامتحان الواقعية** من وظيفة أخرى غير أن يقوم بدور هذا الجهاز[٩]. وليس في مقدورنا أن نفصح عن أكثر من ذلك بصدد هذا الموضوع ولا أن نكون أكثر تحديداً، لأننا لا نعرف إلا على أسوأ وجه طبيعة النسق **شع** وكيفية اشتغاله. ولسوف نصادر على أن امتحان الواقعية هو واحدة من كبريات **مؤسسات الأنا**، إلى جانب الرقابات التي نعلم بوجودها بين الأنسقة النفسية. وإننا لنأمل أن يتيح لنا تحليل الإصابات النرجسية اكتشاف مؤسسات أخرى من النمط نفسه.

بالمقابل، يستطيع علم الأمراض من الآن أن ينبئنا بالكيفية التي يمكن أن يلغى بها امتحان الواقعية أو أن يُشلّ عن العمل، وهذا ما سنتبيَّنه في الذهان الرغبي، أي الأمانسيا، على نحو أثبت وأوثق مما في الحلم: فالأمانسيا هي ردّ الفعل على خسارة يؤكدها الواقع لكن لا خيار للأنا إلا في أن ينفيها لأنها فادحة لا تطاق. وعندئذ يقطع الأنا العلاقة بالواقع، ويسحب من النسق الإدراكي، من النسق **شع**، التوظيف، أو ربما بعبارة أفضل توظيفاً يمكن أن تكون طبيعته الخاصة موضوعاً لبحث إضافي. وما إن يشيح الأنا على هذا النحو عن الواقع، حتى تتمّ تنحية امتحان الواقعية جانباً، وتتمكن الأخاييل الرغبية ـ غير المكبوتة والشعورية تماماً ـ من الدلوف إلى النسق، وتحظى من ثم بالاعتراف بها باعتبارها واقعاً أفضل. ومثل هذا الانسحاب يمكن أن يدرج في عداد السيرورات الكبتية؛ فالأمانسيا تقدِّم لنا مشهداً مثيراً للاهتمام، مشهد أنا ينشقّ عن أحد أعضائه،

٩ ـ سنتكلم لاحقاً عن التمييز بين امتحان الراهنية وامتحان الواقعية.



عن عضو ربما كان أخلص خدّامه، علاوة على أنه كان يرتبط به بأوثق العرى[١٠].

إن ما يفعله «الكبت» في حالة الأمانسيا هو ما يصنعه في الحلم العزوف التلقائي. فحالة النوم لا تريد أن تعلم شيئاً عن العالم الخارجي، وهي لا تكترث بالواقع أو لا تكترث به إلا بقدر ما يكون مدار الرهان على التخلي عن حالة النوم، أي الاستيقاظ. إنها تسحب إذاً التوظيفات من النسق **شع**، كما من النسقين الآخرين، **قشع ولشع**، وهذا بقدر ما تنصاع المواقع الموجودة في هذين النسقين للرغبة في النوم. وفي مثل هذه الحالة من انعدام التوظيف في النسق **شع**، يتمّ التخلي عن امتحان الواقعية، وستجد التنبيهات، التي كانت سلكت طريق النكوص بمعزل عن حالة النوم، هذا الطريق سالكاً وصولاً إلى النسق **شع** الذي ستأخذ فيه قيمة واقع لا مماراة فيه[١١]. أما فيما يخص الذهان الهلوسي للخبل المبكر، فإن تأملاتنا تتأدى بنا إلى الاستنتاج بأن هذا الذهان لا يمكن أن ينتمي إلى الأعراض الأولية للمرض. فهو لا يغدو ممكناً إلا حين يتفكّك أنا المريض إلى حدّ كافٍ كيلا يعود في مستطاع امتحان الواقعية أن يعيق الهلوسة.

أما فيما يتعلق بعلم نفس سيرورات الحلم، فنصل إلى نتيجة مؤداها أن جميع سمات الحلم الرئيسية تتحدد بهذا الشرط: حالة النوم. لقد كان الشيخ أرسطو على حقّ في نهاية المطاف من جميع الأوجه في الصيغة التي تقدم بها والتي كانت عادمة الأهمية في الظاهر: الحلم هو النشاط النفسي للنائم[١٢]. وقد أمكن

---

١٠ ـ ابتداء من هنا نستطيع أن نجازف بالافتراض بأن ضروب الهلاس السمّي Hallucinoses Toxiques، وعلى سبيل المثال الهذاء الكحولي، يمكن أن تفهم بدورها على نحو مماثل. والخسارة التي لا تطاق التي تنجم عن الواقع هي في هذه الحال خسارة الكحول تحديداً، بينما الإمداد بالكحول يلغي الهلوسات.

١١ ـ إن مبدأ عدم قابلية الأنسقة اللاموظفة للتنبيه يبدو هنا مطعوناً في صحته فيما يتعلق بالنسق **شع (إد)**. لكن لعل الأمر لا يعدو أن يكون إلغاء جزئياً للتوظيف؛ وفيما يتعلق بالنسق الإدراكي تحديداً سنجد أنفسنا مكرهين على القبول بعدد لا بأس به من شروط التنبيه التي تختلف اختلافاً بيّناً عن شروط تنبيه أنسقة أخرى. وليس في نيتنا البتة أن نموّه ونجمّل الطابع المتردد والمتلمس طريقه لهذه التأملات الميتاسيكولوجية. والتعمق في الدراسة هو وحده الذي سيتيح لنا أن ندرك درجة معينة من مشاكلة الحقيقة.

١٢ ـ الإحالة هنا إلى أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) في **مقالة الأحلام**. «م».



لنا أن نحدد أكثر فنقول: بُقيا من نشاط نفسي أتاح لها إمكانية الوجود كون حالة النوم النرجسية لا تقوم بلا قيد ولا شرط. ومن دون أن نتكلم بلهجة مغايرة كثيراً لما قاله علماء النفس والفلاسفة في كل زمان وآن، نشير إلى أن استنتاجنا هذا يرتكز إلى نظرات مختلفة تماماً بصدد بناء الجهاز النفسي واشتغاله؛ ومن امتياز هذه النظرات على سابقتها أنها تتيح لنا أن نفهم أيضاً خصائص الحلم كافة.

ختاماً، لنلقِ نظرة أخرى على الأهمية التي تتلبسها الدراسة **الطبوغرافية** لسيرورة الكبت بالنسبة إلى فهمنا لآلية الاضطرابات النفسية. ففي الحلم يطال سحب التوظيف (الليبيدو، الاهتمام) الأنسقة جميعها على السواء؛ أما في الأعصبة التحويلية فإن توظيف النسق **قشع** هو الذي يُسحب، وفي الفصام يُسحب توظيف **لشع**، وفي الأمانسيا يسحب توظيف **شع**.

الحداد والسويداء

بعد أن قدّم لنا الحلم نموذجاً سوياً للاضطرابات النفسية النرجسية، سنحاول الآن أن نسلّط الضوء على ماهية السويداء Mélancolie من خلال مقارنتها بالانفعال السوي في الحداد Deuil. لكن هنا نرانا مضطرين إلى الإدلاء سلفاً باعتراف ليكون لنا واقياً من المغالاة في أهمية النتيجة المحرزة. فالسويداء، التي ليس لمفهومها تحديد ثابت حتى في الطب النفسي الوصفي، تتبدى في أشكال سريرية شتى، لا سبيل إلى الجزم بإمكانية تجميعها في وحدة واحدة، علماً بأن بعضاً من هذه الأشكال يحمل على الاعتقاد بأنها ناشئة عن إصابات بدنية أكثر منها عن إصابات نفسية. وعلاوة على الخبرات التي يمكن أن تتوفر لكل مراقب، تنحدّ مادتنا بعدد ضئيل من الحالات التي لا جدال في طبيعتها النفسية المنشأ. سنمسك إذاً سلفاً عن كل ادعاء بأن لنتائج هذا المبحث صلاحة عامة، وسنعزّي أنفسنا عن ذلك بأخذنا في الاعتبار أن أقصى منانا، بما يتوفر لنا من وسائل البحث راهناً، أن نصل إلى شيء **نمطي**، إن لم يكن بالنسبة إلى فئة بكاملها من الإصابات المرَضية، فعلى الأقل بالنسبة إلى زمرة محدودة منها.

إن المقارنة بين السويداء والحداد تبدو مبررة على ضوء اللوحة الإجمالية لهاتين الحالتين[1]. وفضلاً عن ذلك، إن العوامل المسبِّبة لكليهما والناشئة عن مفعول الخبرات الحياتية تتطابق، وهذا بقدر ما تكون شفافة. فالحداد هو، قياسياً، ردّ الفعل على فقد شخص حبيب أو تجريدِ مُنزَلٍ منزلتَه من وطن أو

---

١ ـ انطلق أبراهام، الذي ندين له بأهم دراسة من الدراسات التحليلية النادرة حول هذا الموضوع، من المقارنة نفسها هو الآخر: (Zentralblatt fur psychoanalyse، ١١. ١٩١٢ ,٦)(*).

(*) الإحالة هنا إلى بحث كارل أبراهام: **تمهيدات للتقصي وللعلاج التحليلي النفسي للجنون الهوسي الاكتئابي وللحالات المماثلة**. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



حرية أو مثل أعلى، إلخ. وتحت مفعول خبرات حياتية متماثلة تظهر لدى كثرة من الأشخاص ـ وهذا ما يحملنا على الاشتباه في وجود قابلية مرَضية لديهم ـ سويداء بدلاً من الحداد. ومما يسترعي الانتباه أيضاً أنه لا يخطر لنا ببال أبداً أن نعتبر الحداد حالة مرَضية وأن نعهد بأمر معالجته إلى طبيب رغم أنه يحيد على نحو لا يخلو من خطورة عن السلوك الحياتي السوي. وحسبنا أن نعوِّل على التغلب عليه بعد فترة من الزمن، ونرتئي أنه من غير المناسب، بل من الضار تعكيره والتشويش عليه.

تتصف السويداء من وجهة النظر النفسية بهبوط شديد الإيلام، وبتعليق للاهتمام بالعالم الخارجي، وبفقدان للقدرة على الحب، وبكفٍّ لكل نشاط، وبتناقص في حسّ تقدير الذات يتجلى في تأنيبات ذاتية وإهانات ذاتية، وقد يتفاقم إلى أن يغدو توقعاً هذائياً للعقاب. وهذه اللوحة تصير أسهل فهماً علينا حين ندرك أن الحداد يتسم بالسمات نفسها خلا سمة واحدة: ففي حالته لا يطرأ خلل على حسّ تقدير الذات. أما فيما عدا ذلك فالحال سيان. فالحداد الصارم كردّ فعل على فقدان شخص حبيب ينطوي على الاكتئاب النفسي المؤلم عينه، ويستتبع تلاشي الاهتمام بالعالم الخارجي ـ بقدر ما لا يذكّر بالمتوفى ـ وفقدان القدرة على اختيار موضوع جديد للحب أياً يكن ـ إذ إن اختياراً من هذا القبيل يعني أنه قد تمّ استبدال الشخص المحدود عليه ـ والعزوف عن كل نشاط لا يكون ذا صلة بذكرى الفقيد. ويسير علينا أن ندرك أن هذا الكفّ وهذا الحدّ للأنا يعبران عن واقع أن الفرد منصرف بكليته إلى حداده بحيث لا يبقى ثمة مجال لمراميَ أخرى واهتمامات أخرى. والحق أن هذا السلوك يبدو لنا غير مَرَضي لمجرد أننا نعرف حقَّ المعرفة كيف نفسّره.

وسنوافق أيضاً على المقارنة التي تطلِق صفة «المؤلم» على المزاج النفسي لحالة الحداد. ومبرر هذه المقارنة سينجلي في أرجح الظن متى ما توفرت لنا المقدرة على تحديد خصائص الألم من وجهة النظر الاقتصادية.

فيمَ يكمن الآن العمل الذي ينجزه الحداد؟ أعتقد أننا لن نقسر الأمور لو تصورناه على النحو التالي: لقد دلّ امتحان الواقعية على أن الموضوع المحبوب لم



يعد له من وجود، ومن ثمّ إنه يأمر بسحب كل الليبيدو من الروابط التي تشدّه إلى هذا الموضوع. وهذا ما يقابَل بعصيان لا يعسر فهمه: إذ يسعنا أن نلحظ بوجه عام أن الإنسان لا يتخلى عن طيب خاطر عن موقف ليبيدوي حتى وإن ترأرأ له البديل. وقد يبلغ هذا العصيان مبلغاً من الشدة يشيح معه الفرد عن الواقع ويبقي على الموضوع من خلال ذهان هلوسي رغبي (انظر البحث السابق). والشيء السوي في مثل هذه الحال أن ترجح كفة احترام الواقع. لكن المهمة التي يفرضها هذا الواقع ليست مما يمكن تنفيذه للحال. وبالفعل، إنها تُنفَّذ بالتقسيط، بإنفاق كبير في الوقت وفي الطاقة التوظيفية، وفي غضون ذلك يتواصل نفسياً وجود الموضوع المفقود. فكل ذكرى من الذكريات، كل أمل من الآمال التي بها كان يرتبط الموضوع، يعاد إحياؤُه ويُضاعَف توظيفُه، وعليه تتمّ عملية انفصال الليبيدو. فلماذا يكون هذا النشاط الساعي وراء تسوية وحلٍّ وسط، والذي فيه يتمّ بالتقسيط تنفيذ الأمر الصادر عن الواقع، مؤلماً غاية الإيلام؟ من العسير تفسير ذلك على أسس اقتصادية. والشيء الذي يلفت النظر هو أن تنغيص الألم هذا يبدو لنا بديهياً مسلَّماً به. لكن الثابت هو أن الأنا، بعد أن ينجز عمل الحداد، يعود من جديد حراً وبلا كفوف.

لنطبّق الآن على السويداء ما علمناه عن الحداد. فجلي للعيان أن السويداء يمكن أن تكون بدورها، في العديد من الحالات، ردَّ فعل على خسارة موضوع محبوب؛ ويمكننا في ظروف أخرى أن نقرّ بأن الخسارة هي من طبيعة معنوية بالأحرى. وأرجح الظن أن الموضوع لا يموت فعلاً، ولكنه يُخسر من حيث أنه موضوع حب (كالخطيبة التي تُهجر على سبيل المثال). وفي أحوال أخرى أيضاً يتراءى لنا أننا ملزمون بالتمسك بفرضية خسارة كهذه، ولكن من دون أن يكون في مقدورنا أن نتعرف بوضوح وجلاء طبيعة ما تمّت خسارته. وبديهي أنه يمكننا الافتراض في هذه الحال أن المريض نفسه لا يستطيع أن يحدد بوعي ما خسره. ولا يختلف واقع الحال كثيراً فيما لو كانت الخسارة المسبِّبة للسويداء معروفة من قبل المريض، إذا كان هذا الأخير يعرف من خسره ولكن من دون أن يعرف ما خسره في هذا الشخص. وهذا قمين بأن يحملنا على أن نعزو السويداء بكيفية أو



بأخرى إلى خسارة للموضوع لا يطالها الوعي، خلافاً للحداد الذي لا يكون فيه أي شيء من هذه الخسارة لاواعياً.

لقد كنا رأينا أن الكفّ Inhibition وانعدام الاهتمام في الحداد قابلان للتفسير تماماً بعمل الحداد الذي يشغل الأنا ويستغرقه. والخسارة المجهولة التي تحدث في السويداء سيكون من نتيجتها عمل داخلي مشابه، وستكون مسؤولة، بحكم ذلك، عن الكف السويدائي. والفارق الوحيد هو أن الكف السويدائي يبدو لنا أشبه شيء بلغز، لأننا لا نستطيع أن نتبيَّن ما الذي يستغرق المرضى مثل هذا الاستغراق الكامل. ثم إن السوداوي يفصح عن سمة أخرى لا وجود لها في الحداد، ونعني بها التناقص الخارق للمألوف في حسّ تقديره لذاته والافتقار الهائل الذي يطرأ على أناه. العالم في الحداد هو الذي يصبح فقيراً خاوياً، أما في السويداء فإن الأنا نفسه هو الذي يصبح كذلك. فالمريض يصوّر لنا أناه عادم القيمة، عاجزاً عن إتيان أي شيء، حقيقاً بالإدانة أخلاقياً: فهو يوبخ ذاته وينهال على نفسه بالشتائم ويتوقع أن يُلقى به خارجاً وأن يعاقب. إنه يحطّ من قدر نفسه أمام كل إنسان آخر، ويرثي لكل واحد من ذويه لارتباطهم بشخص دنيء مثله. إنه لا يستطيع أن يدرك أن تغييراً ما قد حدث فيه، لكنه يسحب نقده الذاتي على ماضيه، فيؤكد أنه ما كان قط أفضل مما هو عليه اليوم. ولوحة هذاء الصَغار هذا ـ على الصعيد المعنوي في المقام الأول ـ تجد تكملتها في أرقٍ، وإباء للطعام، وانقهار واندحار ـ وهذه واقعة لافتة جداً للانتباه سيكولوجياً ـ في الدافع الغريزي الذي يفترض به أنه يجبِر كل كائن حيّ على التشبث بالحياة.

ولن يجدينا نفعاً في هذه الحال، لا علمياً ولا علاجياً، أن نناقض المريض الذي تعتمل في نفسه مثل هذه الشكاوى والاتهامات ضد أناه. فهو لا بدّ أن يكون، بوجه من الوجوه، على صواب من أمره، مما يحتم عليه أن يصف لنا وضعاً بعينه هو بالفعل كما يبدو له. ونحن بدورنا مرغمون على المصادقة حالاً وبلا تحفظ على بعض توكيداته. فهو بالفعل عادم الاهتمام وعاجز عن الحب وعن النشاط إلى الحدّ الذي يدّعيه. لكن ذلك، كما نعلم، هو محض نتيجة ثانوية: نتيجة ذلك العمل الداخلي، المجهول منا، الشبيه بالحِداد، الذي يلتهم أناه. كذلك

يتراءى لنا أنه مصيب في بعض من شكاواه الأخرى ضد نفسه، وأن كل ما به هو أنه يدرك الحقيقة بنفاذ بصيرة وبمضاء لا يقدر عليهما من هم ليسوا سوداويين مثله. فحين يصف نفسه، في نقده الذاتي الساخط، بأنه حقير، أناني، غير صادق، لا قِبَل له بأن يكون سيِّد أمره، وبأنه إنسان لا ترمي جهوده كافة إلا إلى إخفاء ضعف طبيعته، فليس من المستبعد على حدّ تقديرنا أن يكون قد اقترب قليلاً من معرفة ذاته. والسؤال الوحيد الذي نطرحه هو أن نعرف لماذا يتوجب على الإنسان أن يمرض أولاً حتى يشقّ طريقه إلى مثل هذه الحقيقة. ذلك أنه لا يخامرنا أدنى شك في أن من اكتشف ذاته على هذا النحو وراح يجاهر الآخرين بمثل هذا التقييم لذاته ـ تقييم كذاك الذي يحتفظ به الأمير هملت لنفسه ولسائر الآخرين[٢] ـ هو بالفعل مريض، سواء أقال الحقيقة أم ظلم نفسه بقدر أو بآخر. وليس من العسير كذلك أن نلاحظ أن لا وجود، بحسب فهمنا، لأي تطابق بين مدى التهوين من قيمة الذات وبين التبرير الواقعي لهذا التهوين. فتلك التي كانت إلى اليوم امرأة طيبة، نشِطة، وفية بواجباتها، لن تتحدث عن نفسها أثناء سويدائها بأحسن من تلك التي لا تساوي، في الحقيقة، شروى نقير؛ بل لعل فرص الأولى في أن تصاب بالسويداء أكبر من فرص الثانية التي لا نستطيع نحن أيضاً أن نتكلم عنها بخير. أخيراً، لا يمكن إلا أن يسترعي انتباهنا كون السوداوي لا يتصرف تماماً رغم كل شيء تصرُّفَ إنسانٍ ترهقه، في الأحوال العادية، التبكيتات والتأنيبات الذاتية. فما نفتقده هنا هو الخجل أمام الآخرين ـ هذا الخجل الذي يفترض فيه أنه هو السمة الأولى للحالة الأخيرة ـ أو هو على كل حال لا يسفر عن نفسه على نحو لافت للنظر. ولعلنا نستطيع أن نعزو إلى السوداوي الصفة المعاكسة: فهو يبوح للآخرين بما في نفسه إلى حدّ الإلحاف، شافياً غلّته بتعرية ذاته أمامهم.

ليس من المهم إذاً أن نتساءل عما إذا كان السوداوي على صواب وحقّ في انتقاصه المضني من قدر نفسه، وذلك بقدر ما يتوافق نقده مع حكم الآخرين. بل

---

٢ ـ «لو عومل كل امرئ بموجب استحقاقه، فمن ينجو في هذه الحال من الجلد بالسياط»، (**هملت**، الفصل الثاني، المشهد الثاني).



إن ما ينبغي أن يستوقفنا بالأحرى كونه يصف لنا وصفاً صحيحاً وضعه السيكولوجي. فهو قد فقد احترامه لذاته، ولا بدّ أن يكون لذلك سبب وجيه. لكن هنا نصطدم بتناقض يطرح علينا لغزاً عسيراً حلُّه. فقد كان التشابه مع الحداد تأدى بنا إلى الاستنتاج بأن السوداوي قد مني بخسارة تتعلق بالموضوع؛ أما ما يتضح من أقواله فخسارة تتعلق بالأنا.

قبل أن نتطرق إلى هذا التناقض، لنتوقف هنيهة عند ما يتيح لنا مرض السوداوي أن نعلمه عن جِبِلَّة الأنا البشري. فنحن نعاين لدى السوداوي كيف يقف شطر من الأنا موقف المعارضة من شطره الآخر، وكيف يقيِّمه تقييماً نقدياً، وكيف ينظر إليه نظرته إلى موضوع إن جاز القول. إننا نشكّ في أن يكون في مقدور السلطة النقدية، المنفصلة هنا عن الأنا انفلاقاً، أن تدلل في ظروف أخرى أيضاً على استقلالها الذاتي، وسوف تؤكد ملاحظاتنا اللاحقة كلها هذا الافتراض. وسوف نلقى بالفعل أسباباً وجيهة لفصل هذه السلطة عن بقية الأنا. فما نتعرف إليه هنا هو تلك السلطة التي تُسمّى عادة **بالضمير**؛ وسوف ندرجها مع رقابة الوعي وامتحان الواقعية في عداد مؤسسات الأنا الكبرى، وسوف نعثر أيضاً في مكان ما على الأدلة التي تثبت أنه في الإمكان أن تصاب بالمرض بمعزل عما عداها. أما في اللوحة السريرية للسويداء، فإن الاشمئزاز الأخلاقي للمريض من أناه هو الذي يحتل مكانة الصادرة، فنراه يظهره للعيان ويبرزه قبل غيره من العيوب؛ أما العاهة الجسمية والقبح والضعف والدونية الاجتماعية فنادراً ما تكون موضوعاً لتقييمه الذاتي؛ والوقوع في حالة افتقار وعوز هو وحده الذي يحتل مكانة مميزة بين مخاوف المريض أو توكيداته.

إن ما يفتح لنا الطريق إلى تفسير التناقض المشار إليه أعلاه ملاحظة لا يعسر علينا أن نقوم بها. ذلك أننا إذا ما أصغينا بصبر إلى الشكاوى العديدة الصادرة عن السوداوي ضد نفسه، ما أمكن لنا في نهاية المطاف أن نردّ عنا انطباعاً يساورنا بأن أقسى هذه الشكاوى لا تنطبق في أغلب الأحيان على شخصه بالذات إلا بعسر بالغ، بينما يمكن بسهولة، فيما لو أُدخلت عليها تعديلات



طفيفة، أن تنطبق على شخص آخر يحبُّه المريض أو أحبَّه أو يفترض فيه أنه أحبَّه. وفي كل مرة ندقِّق في الوقائع، نجدها تؤكد هذا الافتراض. وهكذا نضع يدنا على مفتاح اللوحة السريرية متى أدركنا أن التأنيبات الذاتية هي تأنيبات موجَّهة إلى موضوع حبيٍّ، لكنها عُكست باتجاه الأنا ذاته بدل الموضوع.

إن المرأة التي تتشكى بعالي صوتها من أن زوجها مقترن بامرأة عديمة الأهلية تريد، في واقع الأمر، أن تشتكي من انعدام أهلية زوجها بكل المعاني التي يمكن أن تُفهم بها هذه الكلمة. ولا داعي للعجب الشديد إن تكن بعض التأنيبات الذاتية الصحيحة الثابتة قد اختلطت بالتأنيبات التي قُلبت ضد الذات. فمن المباح لها أن تندفع لتحتل مكانة الصدارة ما دامت تساعد على إخفاء المآخذ الأخرى وعلى تجاهل وضع الأمور الحقيقي؛ زد على ذلك أنها صادرة هي الأخرى عن الـ«مع» والـ «ضد» في الصراع من أجل الحب الذي أفضى إلى خسارة الحب. ومنذئذ يغدو سلوك المرضى هو الآخر أكثر قابلية للفهم. **فشكاواهم هي شكاوى اتهامية**، بحسب المعنى القديم للعبارة: ihre Klagen sind Anklagen[٣]؛ وهم لا يساورهم خجل ولا يستترون لأن جميع الألفاظ الترذيلية التي يتلفظون بها بحقّ أنفسهم إنما يتلفظون بها في واقع الأمر بحقّ شخص آخر؛ ثم إنهم لا يدللون، حيال محيطهم، على شيء من الهوان والرضوخ المميِّزين عادة لأخسّاء الناس؛ بل على العكس، فهم مماحكون إلى أبعد حدّ، كما لو أنه لحق بهم غبن أو كما لو أنهم وقعوا ضحية جور عظيم. وهذا كله غير ممكن إلا لأن استجاباتهم السلوكية لا تزال تصدر عن تكوين نفسي كان هو تكوين التمرد قبل أن تدفع به سيرورة معيَّنة إلى التطور باتجاه الرهق السوداوي.

هنا لا يعسر علينا أن نعيد بناء هذه السيرورة. فقد كان هناك أولاً اختيارٌ موضوعاني، ربطٌ لليبيدو بشخص معيَّن؛ بيد أن هذه العلاقة الموضوعانية ما لبثت أن تصدَّعت بفعل ضرر فعلي أو خيبة مصدرهما الشخص المحبوب. ولم

٣ ـ عبارة ألمانية قانونية قديمة كانت تعني : توجيه الاتهام أو رفع شكوى ضد شخص ما. «م».



تكن النتيجة هي عينها المتوقعة في مثل هذه الحال: أعني انفصال الليبيدو عن هذا الموضوع وتحوّله نحو موضوع جديد؛ بل كانت نتيجة مغايرة ما كان لها أن تحدث، على ما يبدو، لو لم تتوافر لها عدة شروط. فنظراً إلى أن التوظيف الموضوعاني لم يدلل على مقاومة تذكر، فقد جرى إلغاؤه، لكن الليبيدو الحرّ لم ينقل إلى موضوع آخر، بل انكفأ منسحباً نحو الأنا. وهناك، وبدلاً من أن يُستعمل بكيفية ما، أفاد في إقامة تماهٍ Identification بين الأنا والموضوع المهجور. وعلى هذا النحو سقط ظل الموضوع على الأنا الذي أمكن عندئذ لسلطة خاصة أن تحاكمه وكأنه موضوع، وعلى وجه التحديد الموضوع المهجور. على هذا النحو تحولت خسارة الموضوع إلى خسارة للأنا، وتحول النزاع بين الأنا والشخص المحبوب إلى انشقاق بين نقد الأنا وبين الأنا المُغيَّر بالتماهي.

نستطيع للحال أن نحزر بعضاً من الشروط التي تستلزمها سيرورة كهذه وبعضاً من النتائج التي تتمخض عنها. فلا بدّ من أن يكون هناك من جهة أولى تثبيت قوي على الموضوع الحبّي، لكن لا بدّ أيضاً، من الجهة المقابلة، وعلى نحو مناقض، من أن تكون مقاومة التوظيف الموضوعاني ضعيفة. هذا التناقض يستلزم على ما يبدو، وكما لاحظ أ. رانك Rank[٤] بأرابة، أن يكون الاختيار الموضوعاني قد تمّ على أساس نرجسي، بحيث يمكن للتوظيف الموضوعاني، إذا ما انتصبت عقبات في وجهه، أن ينكص نحو النرجسية. وعندئذ يغدو التماهي النرجسي مع الموضوع بديلاً عن التوظيف الحبّي، الأمر الذي تكون عاقبته عدم التخلي عن علاقة الحب رغم النزاع مع الشخص المحبوب. ومثل هذا الاستبدال للحب الموضوعاني بالتماهي هو آلية لها أهميتها في الأمراض

٤ ـ أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي يهودي من أصل نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). غيّر اسمه العائلي روزنبرغ بسبب إدمان أبيه على الكحول إلى رانك إحالة إلى الطبيب الطيب القلب رانك في مسرحية إبسن **بيت الدمية**. تولى فرويد تحليله جزئياً، ولكنه اختلف معه بسبب رفضه لمفهومه عن العقدة الأوديبية التي ردّها إلى عقدة أقدم منها هي رضة الميلاد كما يقول عنوان واحد من أشهر كتبه. من مؤلفاته الأخرى: **أسطورة ميلاد البطل، دون جوان وقرينه، مساهمة في النرجسية**. «م».



النرجسية. وقد استطاع ك.لانداور Landauer[٥] أن يكتشف هذا الاستبدال مؤخراً في سيرورة شفاء حالة من حالات الفصام[٦]. وهو يتطابق بطبيعة الحال مع **نكوص** من نمط محدد للاختيار الموضوعاني إلى النرجسية الأصلية. وقد كنا أشرنا في موضع آخر إلى أن التماهي هو الطور التمهيدي للاختيار الموضوعاني، والكيفية الأولى، المتناقضة في تعبيرها، التي بها ينتخب الأنا موضوعاً له. فأمنية الأنا أن يستدمج هذا الموضوع، علماً بأن وسيلة هذا الاستدماج هي الافتراس طبقاً للطور الفموي أو الآدِمي[٧] من نمو الليبيدو. وأغلب الظن أن أبراهام يصيب إذ يعزو إلى هذه العلاقة إباء الطعام الذي يظهر في الحالات الحادة من السويداء[٨].

من سوء الحظ أن تنقيباتنا لم تأتِ بعد بالبرهان المؤيد للنتيجة التي تستوجبها النظرية، ومؤداها أن القابلية للإصابة تكمن في غلبة النمط النرجسي في الاختيار الموضوعاني. ولقد أقررتُ في الأسطر القليلة التي جعلتها مدخلاً لهذا المبحث بأن المادة الاختبارية التي شيدت عليها هذه الدراسة ليست في مستوى طموحنا. ولو كان في مقدورنا أن نسلِّم بأن الملاحظة تتفق واستنتاجاتنا، لما ترددنا في أن ندرج في عداد السمات المميِّزة للسويداء النكوص من **التوظيف الموضوعاني** إلى **الطور الفموي** لليبيدو الذي لا يزال نرجسي الانتماء. وفي الأعصبة التحويلية أيضاً لا تندر التماهيات مع الموضوع؛ بل تشكِّل على العكس آلية معروفة من آليات تشكُّل العرَض، وبخاصة في الهستيريا. لكن بوسعنا أيضاً أن نضع يدنا على الفارق بين التماهي النرجسي والتماهي

٥ ـ كارل لانداور: محلل نفسي ألماني (١٨٨٧ ـ ١٩٤٥). درس طبّ الأعصاب على إميل كرابلان، وبعد تعرفه إلى فرويد درس الذهان والأعصبة النرجسية، وشارك في تأسيس **معهد فرانكفورت للتحليل النفسي** الذي بات يُعرف لاحقاً باسم **معهد سيغموند فرويد**. والإحالة في النص إلى بحثه المنشور عام ١٩١٤ بعنوان: **حالة شفاء عفوي من إغماء تخشبي**. «م».

٦ ـ Inter. Zeitschr. Fur Arztl. Phychoanalyse، ١٩١٤، ١١.

٧ ـ نسبة إلى الآدِمية Cannibalisme أي أكل لحم البشر. «م».

٨ ـ الإحالة هنا إلى مضمون رسالة موجهة من كارل أبراهام إلى فرويد في ١٣ آذار/مارس ١٩١٥. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الهستيري: ففي الأول يتمّ التخلي عن التوظيف الموضوعاني، بينما يستمر هذا التوظيف في الثاني ويكون له تأثير معيَّن ينحصر عادة ببعض الأفعال والتعصيبات المنعزلة. وعلى كل حال، إن التماهي، في الأعصبة التحويلية أيضاً، تعبير عن رابطة ما قد تكون هي رابطة الحب. والتماهي النرجسي هو الأقرب إلى الأصل، وهو يشقّ لنا الطريق إلى فهم التماهي الهستيري الذي لم يحظَ بقدر مماثل من الدراسة.

تستعير السويداء إذاً قسماً من خصائصها من الحداد والقسم الآخر من سيرورة النكوص بدءاً من الاختيار الموضوعاني النرجسي وانتهاء إلى النرجسية. فهي من جهة أولى، ونظير الحداد، ردّ فعل على خسارة موضوع الحب، لكنها متميزة من الجهة الثانية بشرط لا وجود له في الحداد السوي أو هو قمين بتحويل هذا الحداد إلى حداد مرَضي إذا ما اقترن به. وخسارة موضوع الحب هي سانحة ممتازة لإبراز ازدواجية العلاقات الحبِّية للعيان. فحيثما تكن القابلية للعصاب الوسواسي قائمة يضفِ النزاعُ الازدواجي بفعل ذلك على الحداد شكلاً مرَضياً ويرغمه على التعبير عن نفسه في شكل تأنيبات ذاتية يكون الشخص المعني بمقتضاها هو المسؤول عن خسارة موضوع الحب؛ وبعبارة أخرى، يكون هو الذي أرادها. في هذا النوع من الهبوط العصابي/ الوسواسي الذي يطرأ عقب وفاة شخص محبوب، نكون بمواجهة ما ينجم عن النزاع الازدواجي وحده دون سواه حين لا ينضاف إليه الانسحاب النكوصي لليبيدو. والأسباب المسبِّبة للسويداء تتخطى بوجه العموم الحالة الجلية للعيان التي هي حالة الخسارة بفعل الوفاة لتشمل جميع المواقف التي يتعرَّض فيها الشخص المعني لضرر أو إهانة أو خيبة، والتي من شأنها أن تقحم على العلاقة طباق الحب والكره أو أن تعزز ازدواجية وجدانية قائمة من الأساس. هذا النزاع الموسوم بميسم الازدواجية، الذي يمكن أن يرجع أصله تارة إلى الواقع في المقام الأول، وطوراً إلى العوامل الجِبِلِّية، لا يجوز إهماله أو التهوين من شأنه بين سائر الشروط التي تفترضها السويداء. وإن يكن حب الموضوع ـ هذا الحب الذي لا يمكن التخلي عنه وإن تمّ التخلي عن موضوعه ـ قد لاذ بحمى التماهي



النرجسي، فإن الكره يتدخل ليفعل فعله في هذا الموضوع البديل، فيهينه ويحطّ من قدره ويعذِّبه ويجتني من هذا العذاب إشباعاً سادياً. والتعذيب الذي ينزله السوداوي بنفسه، والذي لا جدال في أنه يلذّ له، يمثِّل، شأنه شأن الظاهرة المناظرة في العصاب الوسواسي، إشباعاً لميول سادية ولميول كرهية ارتدَّت، في استهدافها لموضوع ما، نحو الشخص ذاته[٩]. ويتوصل المرضى عادة، في الإصابتين كلتيهما، وعن طريق معاقبة الذات، إلى الأخذ بثأرهم من المواضيع الأصلية وإلى تعذيب أولئك الذي يحبونهم بواسطة مرضهم، وذلك حتى بعد أن يلوذوا بحمى المرض كيلا يجدوا أنفسهم مكرهين على الإفصاح عن بغضهم لهم مباشرة. والشخص الذي تسبَّب في التشوُّش الطارئ على عواطف المريض، والذي يكون المرض موجهاً نحوه، يكون متواجداً عادة في محيط المريض. وهكذا يكون التوظيف الحبِّي، الذي كان المريض قد أحاط به موضوعه، قد آل إلى مصير مزدوج؛ فمن جهة أولى نكص إلى التماهي، ومن الجهة الثانية جرت إحالته، تحت تأثير النزاع الوجداني الازدواجي، إلى طور السادية الذي هو إلى هذا النزاع أقرب.

هذه السادية هي وحدها التي تأتي لتفكّ لغز الميل إلى الانتحار الذي يجعل السويداء مثيرة جداً للاهتمام ـ وخطرة للغاية. فلقد رأينا أن الحب الكبير الذي يكنّه الأنا لنفسه يشكِّل الحالة البدئية التي منها تنطلق الحياة الغريزية؛ كما أننا نعاين، متى ما نشأ حصَر بنتيجة تعرُّض الحياة للخطر، إطلاق شحنة هائلة من الليبيدو النرجسي بحيث لا يسعنا أن ندرك كيف يمكن لهذا الأنا أن يقبل بتدمير ذاته بذاته. صحيح أننا كنا نعلم منذ زمن بعيد أن العصابي لا تساوره نية الانتحار ما لم تكن هذه النية نتيجة ارتداد نحو الذات لحفزة جامحة إلى قتل الغير؛ لكننا ما كنا نفهم أيضاً ما صراع القوى الذي يمكن أن يحوِّل نية كهذه إلى فعل. والحال أن تحليل السويداء يبيِّن لنا أن الأنا لا يمكن له أن يقتل ذاته إلا متى ما استطاع، عن طريق انقلاب التوظيف الموضوعاني، أن يعامل ذاته كموضوع، أي متى ما أتيح له أن يوجِّه إلى ذاته العداوة التي تستهدف موضوعاً ما وتمثل

٩ ـ بصدد التمييز بينها انظر مبحث: **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**.



الاستجابة الأصلية للأنا حيال مواضيع العالم الخارجي (**انظر الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**). وعليه، إن يكن الموضوع قد حُذف وألغي أثناء النكوص بدءاً من الاختيار الموضوعاني النرجسي، فقد أظهر بالمقابل أنه أعظم قوة من الأنا ذاته. وفي هذين الموقفين المتعارضين كليهما، الحالة الحبية المتطرفة والانتحار، ينسحق الأنا تحت وطأة الموضوع، وإن بطريقتين مختلفتين جذريَّ الاختلاف.

أما تلك السمة التي تقدمت الإشارة إليها من سمات السويداء اللافتة للنظر، ونعني الأهمية التي يرتديها حصَر الافتقار، فنجدنا ميالين إلى محاولة اشتقاقها من الإيروسية الشرجية التي تكون في هذه الحال قد سُلخت عن ارتباطاتها وجرى تحويلها نكوصياً.

تطرح السويداء علينا أسئلة أخرى نعجز جزئياً عن الإجابة عنها. فالسويداء تنجز مسارها بعد فترة وجيزة من الزمن بدون أن تخلّف وراءها تغيُّرات ظاهرة وجسيمة، وهذه سمة مشتركة بينها وبين الحداد. فقد رأينا أن الزمن في الحداد ضروري ليتمّ بالتقسيط تنفيذ أمر امتحان الواقعية، وأنه .بعد هذا العمل يمكن للأنا أن يعتق الليبيدو الخاص به من إسار الموضوع المفقود. وبوسعنا أن نفترض أن الأنا ينشغل أثناء السويداء بعمل مماثل؛ وفي الحالين كليهما نقف عاجزين، من وجهة النظر الاقتصادية، عن فهم السيرورة. فأرق السويداء يدلنا على أن هذه الحالة ثابتة جامدة، وأنه من المتعذر إنجاز عملية السحب العام للتوظيفات، وهو السحب الضروري للنوم. وتتصرف العقدة السوداوية وكأنها جرح فاغر يجتذب إليه من كل جانب طاقات توظيفية (تلك الطاقات التي أسميناها، في الأعصبة التحويلية، «توظيفات مضادة»)، ومن شأنه أن يُفرغ الأنا إلى حدّ الإفقار التام؛ ومن الممكن بسهولة لهذه العقدة أن تدلل على مقاومة لرغبة الأنا في النوم. وثمة عامل بدني في أرجح الظن، ليس له تفسير نفسي المنشأ، يلعب دوره هنا في تسكين الألم الذي يطرأ على الحالة بانتظام عند المساء. وبهذه التأملات يرتبط سؤال يتعلق بمعرفة ما إذا لم تكن خسارة يصاب بها الأنا تكفي لتنتج لوحة السويداء بدون أن يدخل الموضوع في الحساب (خسارة



نرجسية خالصة تلمّ بالأنا) ، وما إذا لم يكن في مستطاع افتقارٍ سُمِّي المنشأ في الليبيدو الأنوي أن ينتج مباشرة بعض أشكال المرض؟

إن أغرب خاصية من خواص السويداء، وأكثرها حاجة إلى الدرس والجلاء، ميلها إلى الانقلاب إلى الحالة ذات الأعراض المعاكسة، أعني الهوس Manie. ومعلوم بالطبع أن ليس إلى هذا المصير تؤول كل سويداء. فثمة حالات توالي تقدمها من خلال انتكاسات دورية لا نقع في الفترات الفاصلة بينها على أثر للطابع الهوسي، وإذا وقعنا عليه فبنسبة زهيدة لا تذكر. بينما هناك حالات أخرى يظهر فيها تناوب منتظم بين أطوار سوداوية وأطوار هوسية، ويجد هذا التناوب تعبيره في مفهوم الجنون الدوري. ولقد كنا سنميل إلى استبعاد هذه الحالات من التصور القائل بالمنشأ النفسي فيما لو أن العمل التحليلي النفسي لم يتوصل، في العديد منها، إلى اكتشاف الحل وإلى ممارسة تأثير علاجي. ليس من المباح إذاً فحسب، بل من المطلوب أن ندرج الهوس أيضاً في التفسير التحليلي للسويداء.

لا يسعني أن أعد بأن تتمخض هذه المحاولة عن نتائج مُرضية تماماً. بل على العكس، فأقصى ما تستطيع الوصول إليه هو إتاحة إمكانية توجُّهٍ أولي. وفي متناولنا هنا نقطتا ارتكاز، أولاهما عبارة عن خبرة مستمدة من التحليل النفسي، وثانيتهما واقعة اقتصادية يمكن القول عنها بلا تثريب إنها متأتية من تجربة عامة. أما الخبرة، التي سبقت صياغتها من قبل العديدين من الباحثين في مضمار التحليل النفسي، فهي التالية: ليس للهوس من مضمون مختلف عن مضمون السويداء، والإصابتان كلتاهما تصارعان ضد «عقدة» واحدة، وكل الفارق بينهما أن الأنا يرزح تحت نير هذه العقدة في السويداء بينما يتمكن في الهوس من السيطرة عليها أو تنحيتها. أما نقطة الارتكاز الثانية فتمدّنا بها واقعة اختبارية: فجميع حالات الفرح والجذل والتهلل والازدهاء التي تظهِر لنا، في الحالة السوية، النموذج الأولي للهوس، تتسم بالشروط الاقتصادية عينها. ففي هذه الحالات، ونتيجة لحدثٍ ما طرأ، تنتفي الحاجة إلى إنفاق كبير في الطاقة النفسية بعد أن كانت جرت التهيئة لمثل هذا الإنفاق منذ زمن بعيد، أو بعد أن



كانت مثل هذه الطاقة تُستهلك حتى في الأحوال العادية؛ وعلى هذا النحو تغدو هذه الطاقة شاغرة برسم استعمالات واحتمالات تصريف أخرى من كل نوع. ومن الأمثلة على ذلك: حينما ينعتق رجل مسكين على حين بغتة من الهمّ المزمن الذي يرغمه على تحصيل قوت يومه على إثر كسب مبلغ كبير من المال، أو حينما يُكلَّل صراع طويل الأمد وشاقّ بالنجاح في خاتمة المطاف، أو حينما يتحرر الإنسان دفعة واحدة من التزام كان يجثم على صدره، أو من كتمان لأمر طال إخفاؤه، إلخ. فجميع المواقف التي من هذا النوع تتصف باهتياج وابتهاج مزاجي، وبعلامات على تصريف لانفعال الفرح، وباندفاع متعاظم إلى إتيان شتى ضروب الأفعال والأعمال، تماماً كما في الهوس، وبالتعارض التام مع الاكتئاب والكفّ في السويداء. وبوسعنا أن نحاول التعبير عن الأمور بقولنا إن الهوس إن هو إلا انتصار وازدهاء من هذا القبيل، مع فارق وحيد وهو أنه في هذه الحالة أيضاً يبقى خافياً على الأنا ما الذي انتصر عليه وما به يزدهي. وبالكيفية عينها قد نستطيع تفسير الثمل الكحولي، الذي ينتمي إلى الفئة عينها من الحالات، وهذا بشرط أن يكون ثمَلاً فرِحاً؛ فأرجح الظن أن ما يحدث في الثمل الكحولي هو إلغاء للإنفاقات الكبتية بوسائل سمّية. ودارج في أوساط غير أهل العلم رأي يقول إنه إذا كان يطيب للمرء في حالة هوسية كهذه أن يكثر من الحركة ومن أخذ المبادرات والإقدام، فمردّ ذلك إلى «حسن الاستعداد» لديه. وبديهي أنه يتوجب علينا أن نفسخ هذا الرابط المغلوط. فالشرط الاقتصادي الآنف الذكر يكون قد تحقق في الحياة النفسية، ولهذا السبب يغدو المرء من جهة أولى مرح المزاج للغاية، ومن الجهة الثانية منعتقاً غاية الانعتاق من الكفّ عن العمل وعن النشاط.

إذا ربطنا بين التوضيحين اللذين تقدَّم بيانهما وصلنا إلى ما يلي: لا بدّ للأنا في الهوس من أن يكون قد تغلَّب على خسارة الموضوع (إما الحداد على الخسارة، وإما ـ ربما ـ على الموضوع عينه)، مما يتيح لكل شحنة التوظيف المضاد، التي سحبها العذاب السوداوي المؤلم من الأنا باتجاهه وشدّ وثاقها إليه، أن تغدو شاغرة وحرة. و بالفعل، إن المهووس يثبت لنا ، على نحو لا لبس فيه، باندفاعه

كالجائع في التماس توظيفات موضوعانية جديدة، أنه قد انعتق من الموضوع الذي سبَّب له آلاماً مبرحة.

إن هذا التفسير يبدو مستساغاً في الظاهر، ولكنه، أولاً، مبهم وغامض أكثر مما ينبغي، ويثير، ثانياً، أسئلة وشكوكاً جديدة لا يسعنا أن نعطي عنها جواباً. ونحن لن نتهرب من مناقشتها، حتى وإن لم يكن في مقدورنا أن نتوقع أن نهتدي عبرها إلى طريقنا إلى النور.

بادئ ذي بدء نجد أن الحداد السوي يتغلب هو الآخر على خسارة الموضوع ويمتص بدوره، ما دام مستمراً، طاقات الأنا كافة. فلمَ لا يقوم في حالته، في نهاية مساره، الشرط الاقتصادي لطورِ انتصارٍ وازدهاءٍ، ولو في شكل إشارة تلميحية؟ أجد أنه من المتعذر الردّ بصورة مباغتة على هذا الاعتراض الذي يلفت انتباهنا، فضلاً عن ذلك، إلى واقع عجزنا حتى عن الإبانة عن الوسائل الاقتصادية التي يعتمدها الحداد في إنجاز مهمته. لكن لعل افتراضاً ما قد يهبّ هنا لنجدتنا. فعلى كل ذكرى من الذكريات وعلى كل موقف من مواقف الانتظار التي تدلّ على ارتباط الليبيدو بالموضوع المفقود، يصدر الواقعُ حكمَه: إن الموضوع لم يعد له من وجود؛ والأنا، الذي يجد نفسه في مواجهة شبه مباشرة مع السؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان يريد أن يؤول هو الآخر إلى مصير كهذا، يقرر، مدفوعاً بسائق جملة الإشباعات النرجسية، البقاء على قيد الحياة وبتَّ صلته بالموضوع البائد. ولعلنا نستطيع أن نتصور هذه القطيعة سيرورةً في غاية من البطء والتدرج بحيث تكون الطاقة المتوجب إنفاقها لإنجازها قد تبددت وبادت بتمامها في نهاية العمل[١٠].

إنه لمن المغري لنا أن نبحث، بدءاً من تكهناتنا بصدد عمل الحداد، عن طريق يتيح لنا أن نتعقل عمل السويداء. لكن ينهانا عن ذلك للحال شكٌّ معيَّن. فنحن لم نولِ اهتماماً حتى الآن لوجهة النظر الطبوغرافية في السويداء، ولم نطرح

١٠ ـ إن وجهة النظر الاقتصادية لم تؤخذ البتة تقريباً بعين الاعتبار في المباحث التحليلية النفسية إلى يومنا هذا. ولننوه على سبيل الاستثناء بمقال ف. تاوسك: **«تناقص قيمة حافز الكبت تعاوضياً»**، (Intern Zeitschr. Fur Arztl. Psychoanalyse, 1, 1913).



السؤال المتعلق بمعرفة ما الأنسقة التي فيها وبينها يتمّ عمل السويداء. فأي قسم من السيرورات النفسية لهذا المرض يظل يفعل فعله في التوظيفات الموضوعانية اللاشعورية التي بقيت شاغرة، وأي قسم يفعل فعله في بديلها عن طريق التماهي في الأنا؟

قد نتسرع فنقول، بل قد نستسهل أن نكتب أن «الليبيدو تخلى عن التمثل (الشيئي) اللاشعوري للموضوع». لكن هذا التمثل يتلبس في الواقع شكل انطباعات وخبرات تفصيلية لا تقع تحت حصر (آثار لاشعورية من هذه الانطباعات والخبرات). وتنفيذ انسحاب الليبيدو هذا لا يمكن أن يأخذ شكل سيرورة فورية؛ بل هو بكل تأكيد، كالحداد، سيرورة طويلة الأمد تتقدم خطوة خطوة. ومن الثابت أنه ليس من السهل معرفة ما إذا كان هذا الانسحاب يبدأ في عدة مواضع في آن معاً أم يتمّ وفق تسلسل يكون متعيِّناً بكيفية أو بأخرى؛ وكثيراً ما نلاحظ في التحاليل أن هذه الذكرى أو تلك هي التي يتمّ تنشيطها في تارةٍ أو في أخرى، وأن تلك الشكاوى التي لا تتبدل فحواها والتي هي بحقّ متعبة برتابتها تصدر في كل مرة مع ذلك عن أساس لاشعوري مختلف. وحين لا يكون للموضوع تلك الأهمية الكبرى، المعزَّزة بألف رابط ورابط، بالنسبة إلى الأنا، لا تكون خسارته بدورها قادرة على تسبيب حداد أو سويداء. إذاً، إن إنجاز انفصال الليبيدو على مراحل هو طابع ينبغي أن يعزى إلى السويداء كما إلى الحداد؛ وهو يرتكز في أرجح الظن إلى موقف اقتصادي واحد ويخدم ميولاً واحدة.

لكن السويداء، كما علمنا، تنطوي في مضمونها على شيء آخر لا ينطوي عليه مضمون الحداد السويّ. فالعلاقة بالموضوع ليست بسيطة في حالتها، بل هي علاقة معقدة بحكم النزاع الوجداني الازدواجي. ومن الممكن أن تكون الازدواجية هنا جِبِلِّية، أي مرتبطة بجميع علاقات الحب التي يعقدها هذا الأنا الخاص، أو أن تنجم على وجه التحديد عن تجارب معاشة يستتبعها تهديد بخسارة الموضوع. لهذا يمكن للشروط المسبِّبة للسويداء أن تتخطى من بعيد شروط الحداد الذي لا ينشأ، كقاعدة عامة، إلا عن خسارة فعلية للموضوع،



أي موته. وعليه، تدور في السويداء حول الموضوع رحى معارك تبارزية عديدة يصارع فيها الكره والحب واحدهما الآخر: الكره ليفصل الليبيدو عن الموضوع، والحب ليبقي على موقع الليبيدو هذا في مواجهة الهجوم. هذه المبارزات لا نستطيع أن نعيِّن لها موقعاً في نسق آخر غير النسق **لشع**، في مملكة الآثار الذاكرية الشيئية (بالتعارض مع التوظيفات اللفظية). وفي هذا النسق أيضاً تتمّ، في حالة الحداد، محاولات الانفصال، لكن لا شيء يحول في هذه الحالة دون أن تنتشر هذه السيرورات وتمتدّ، بالطريق السوي الذي يمرّ بالنسق **قشع**، لتصل إلى الشعور. ولكن هذا الطريق مسدود بالنسبة إلى عمل السويداء، وربما بحكم جملة من الأسباب التي من الممكن أيضاً أن تفعل فعلها متضافرة. إن الازدواجية الجبلِّية تنتمي تعريفاً إلى المكبوت، ومن الممكن للخبرات الرضِّية[١١] المعاشة ذات الصلة بالموضوع أن تكون قد نشَّطت في الواقع مكبوتاً آخر. وبناء عليه، إن كل ما يمتّ بصلة إلى هذه المعارك الازدواجية يبقى بمنأى عن الشعور ما دام المآل المميِّز للسويداء لم يحدث بعد. ويتمثل هذا المآل، كما نعلم، في أن التوظيف الليبيدوي المهدَّد يتخلى في نهاية المطاف عن الموضوع ولكن فقط كيما ينسحب إلى موقع الأنا الذي منه انطلق. وبذلك ينجو الحب، بهربه والتجائه إلى الأنا، من الإلغاء. وإنما بعد نكوص الليبيدو هذا يمكن للسيرورة أن تغدو شعورية، فتَمْثُل للوعي في صورة نزاع بين شطر من الأنا وبين السلطة النقدية.

إن ما يعرفه الشعور عن عمل السويداء ليس، إذاً، الجزء الأساسي من هذا العمل، ولا كذلك الجزء الذي نستطيع أن نعزو إليه تأثيراً على زوال العذاب. فنحن نرى الأنا وهو يخفض من شأن نفسه ويستشيط غيظاً من ذاته، ولا نفهم أكثر مما يفهم المريض ما جدوى ذلك وكيف يمكن أن تتغير هذه الحال. وإنما إلى الجزء اللاشعوري من العمل نستطيع بالأحرى أن نعزو مثل تلك الوظيفة، إذ ليس من العسير علينا أن نكتشف تشابهاً جوهرياً بين عمل السويداء وعمل الحداد.

١١ ـ نسبة إلى الرضة Traumatisme، وهي الجرح النفسي الذي يكون له في الغالب مفعول إمراضي. «م».



فكما أن الحداد يقود الأنا إلى العزوف عن الموضوع عن طريق إعلان وفاة الموضوع، وكما أنه يقدم للأنا مكافأة البقاء على قيد الحياة، كذلك إن كل معركة من المعارك الازدواجية التي يتبارز فيها الطرفان تخفف من تثبيت الليبيدو على الموضوع بانتقاصها من قيمة هذا الأخير، وبخفضها من قدره، بل بضربها إياه حتى الموت إن جاز التعبير. ومن المحتمل أن تنتهي هذه السيرورة في النسق لشع، وذلك إما بأن تخفّ ضراوتها وتهدأ في نهاية الأمر، وإما بأن يتمّ التخلي في خاتمة المطاف عن الموضوع باعتباره عادم القيمة. ونحن لا نعلم أي هذين الاحتمالين هو الذي يؤدي بانتظام أو أغلب الأحايين إلى نهاية السويداء، وما التأثير الذي يكون لهذا الانتهاء على مسرى الحالة لاحقاً. بيد أنه يغدو في مستطاع الأنا عندئذ أن يستمتع بتعرُّفه ذاتَه على أنه الأفضل والأسمى مقاماً من الموضوع.

لكن حتى لو سلَّمنا بصحة هذا التصور لعمل السويداء، فإنه يعجز عن أن يعلِّل لنا النقطة التي من أجلها انطلقنا نلتمس تفسيراً. فقد كنا أمَّلنا أن نتمكن من اشتقاق الشرط الاقتصادي لحدوث الهوس، متى ما انتهى مسار السويداء، من الازدواجية المهيمنة على هذا المرض الأخير، وكان من الممكن لنا أن نبني هذا الأمل على تشابهات نستقيها من مجالات مغايرة شتى؛ لكن ثمة حقيقة واقعة لا محيص لنا عن الإذعان لها. فمن الشروط الثلاثة المفترضة للسويداء: خسارة الموضوع، الازدواجية الوجدانية، ونكوص الليبيدو في الأنا، نلتقي الشرطين الأولين فقط في التأنيبات الوسواسية التي تعقب وفاة ما. ولا شك البتة في أن الازدواجية هي نابض النزاع هنا. والملاحظة تدل على أنه متى ما انتهى مسار هذا النزاع لا يبقى شيء يمكن وصفه بأنه انتصار لحالة ذهنية هوسية. وهذا ما يدعونا إلى اعتبار العامل الثالث العامل الوحيد الذي يمكن أن يكون له هذا المفعول. فهذا التراكم في التوظيف، الذي كان مقيَّداً في البدء ثم غدا حراً بعد انتهاء عمل السويداء فجعل الهوس ممكناً، هذا التراكم يجب أن يكون ذا صلة بنكوص الليبيدو إلى النرجسية. والنزاع في الأنا، الذي قايضته السويداء بالصراع في سبيل الموضوع، يفعل فعله بالضرورة كجرح مؤلم يلحّ



في طلب توظيف مضاد مرتفع إلى حدٍّ غير مألوف. لكن هنا يخلق بنا أن نتوقف من جديد وأن نرجئ تتمة تفسير الهوس إلى أن تتوفر لنا معلومات عن الطبيعة الاقتصادية **للألم** الجسماني أولاً، ثم **للألم** النفساني المشابه له. ومهما يكن من أمر، فقد بتنا نعلم علم اليقين أن ترابط المشكلات النفسية وتداخلها يرغماننا على أن نترك كل مبحث من مباحثنا غير مكتمل الختام إلى أن يتاح لنتائج مبحث آخر أن تأتي لمعاضدته ومؤازرته[١٢].

١٢ ـ ملاحظة أضيفت سنة ١٩١٢٥: انظر دراستنا الآنفة لمشكلة الهوس في **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**.



ملحق(١)

١ ـ كتب فرويد هذا النص بالإنكليزية مباشرة، وذلك تلبية لدعوة وجّهتها إليه **الجمعية اللندنية للأبحاث النفسية** في مطلع عام ١٩١٢ للمساهمة في الملحق الطبي لتقاريرها الفصلية، ولم تصدر ترجمته الألمانية إلا في آذار/ مارس ١٩١٣. وقد عدّه جون ستراتشي، مترجم مؤلفات فرويد الكاملة إلى الإنكليزية، واحداً من أهمّ النصوص النظرية التي كتبها فرويد قط. وقد نشر جان لابلانش وجان برتران بونتاليس ترجمته بالفرنسية كملحق لـ **«ما بعد علم النفس»**. «م».


مكتبة
الفكر الجديد

ملاحظة حول اللاشعور في التحليل النفسي

بودِّي أن أعرض في بضع كلمات، وبأكبر قدر ممكن من البساطة، ما بات مصطلح «اللاشعور» يعنيه في التحليل النفسي، وحصراً في التحليل النفسي.

إن أي تمثّل ـ أو أي عنصر نفسي ـ يكون حاضراً الآن في وعيي يمكن أن يغدو غائباً في لحظة تالية، ثم قد يعود من جديد حاضراً بعد فاصل ما، وهذا بدون أن يتغيّر، وانطلاقاً من الذكرى، كما نقول، وليس كنتيجة لإدراك جديد من قبل حواسنا. وهذه الواقعة هي التي اعتدنا على تعليلها بالافتراض بأن تمثُّلها كان حاضراً في ذهننا في الفترة الفاصلة، وإن يكن **كامناً** في وعينا. أما ما الشكل الذي يمكن أن يكون تلبَّسه وجوده حيث كان حاضراً في ذهننا وكامناً في وعينا، فليس في متاحنا أي وسيله لنحزر ذلك.

عند هذه النقطة المحدَّدة يسعنا أن نتوقع أن نصطدم بالاعتراض الفلسفي الذي يصادر على أن التمثُّل الكامن لا وجود له كموضوع لعلم النفس، وإنما فقط كاستعداد فيزيقي لتكرُّر الظاهرة النفسية عينها، أي لعودة التمثُّل المشار إليه. لكن بوسعنا أن نردّ بأن هذه نظرية تتخطى حدود علم النفس بحصر معنى الكلمة، وبأنها ترتكز إلى مصادرة على المطلوب ـ ليس إلاـ بتوكيدها أن «الواعي» أو «الشعوري» هو مصطلح مرادف لـ «النفسي»، وبأنها تخطئ خطأً لا مماراة فيه إذ تنكر على علم النفس الحقّ في تعليل وقائعه الأكثر شيوعاً، نظير الذاكرة، بوسائله الخاصة.

لنطلق الآن نعت «الشعوري» على التمثُّل الذي يكون ماثلاً لوعينا والذي نرتئي ونجزم بأن ذلك هو المدلول الوحيد للفظ «الشعوري»[2]. أما فيما يخصّ

---

٢ ـ نكرر هنا القول بأن التمييز اللفظي الذي تقيمه اللغة العربية المحدثة بين «الوعي» و«الشعور»، وبالتالي بين «الوعي» و«الشعوري»، أو «اللاواعي» و«اللاشعوري»، لا وجود له في معظم اللغات الأوروبية، إذ إن كلمة Conscience بالإنكليزية أو بالفرنسية تعني «الوعي» و«الشعور»، وكذلك «الضمير» في آن معاً. «م».



التمثُّلات الكامنة، إن يكن لدينا من سبب ما للافتراض بأن لها وجودها في الذهن ـ كما الحال في الذاكرة ـ فسنشير إليها بلفظ «اللاشعور».

وعليه، إن التمثُّل اللاشعوري هو تمثُّل لا يقع تحت إدراكنا الحسّي، ولكننا مستعدون مع ذلك للتسليم بوجوده آخذين بعين الاعتبار أدلة أخرى أو دلائل أخرى.

وما كان ذلك إلا ليكون محض مجهود وصفي أو تصنيفي غير ذي فائدة لو أنه لم يكن في حوزة ملَكة الحكم لدينا أي تجربة أخرى غير وقائع الذاكرة أو حالات التداعي والترابط بفعل روابط لاشعورية. والحال أن التجربة التي تُعرف باسم «الإيحاء ما بعد النوامي» توجب علينا أن نعطي كل الأهمية اللازمة للتمييز بين «**الشعوري**» و«**اللاشعوري**»، وهي تؤكد على ما يبدو أهمية هذا التمييز.

ففي هذه التجربة، كما قام بها برنهايم[٣]، يوضع شخص من الأشخاص في حالة من النوام، ثم يعاد إيقاظه. ويكون، في أثناء استغراقه في الحالة النوامية تحت تأثير الطبيب، قد أُصدر إليه الأمر بأداء عمل ما في لحظة ما بعد استيقاظه، ولنقل بعد نصف ساعة. فهذا الشخص، عندما يستيقظ، يبدو عليه وكأنه في ملء وعيه وفي حالته الطبيعية. ومع أنه لا يحتفظ بأي شيء عن حالته النوامية، فلا يعتم، في الساعة التي حُدِّدت له مقدَّماً، أن يجد نفسه مأموراً بأن يفعل هذا الشيء أو ذاك، ولا يلبث أن يفعله بملء وعيه، وإن بدون أن يدري لذلك سبباً. ويبدو أنه من المتعذر أن نعطي توصيفاً آخر لهذه الظاهرة سوى أن نقول إن الأمر الذي كان صدر إليه في نوامه بقي ماثلاً في ذهنه في حالة كمون، أو إنه بقي ماثلاً على نحو لاشعوري إلى أن حان الحين المضروب له فصار عندئذ شعورياً. ولكن ليست تمامية هذا الأمر هي التي انبجست في شعوره، وإنما تصوّر الفعل هو وحده الذي وضع موضع تنفيذ. أما باقي الأفكار الأخرى المرتبطة بهذه الفكرة ـ الأمر الصادر إليه، تأثير الطبيب، ذكرى الحالة النوامية ـ فقد بقيت لاشعورية، حتى في تلك اللحظة.

---

٣ ـ هيبوليت برنهايم: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٤٠ ـ ١٩١٩). ارتبط اسمه بمدرسة نانسي للإيحاء التنويمي. «م».



ولكن لا يزال أمامنا أن نعلم المزيد بخصوص هذه التجربة. فقد انتقلنا من رؤية وصفية خالصة إلى رؤية **دينامية**. فليست فكرة العمل المأمور به في أثناء النوام هي وحدها التي مَثُلَت أمام الشعور في لحظة معيَّنة، لكن الجانب الألفت للنظر في هذه الواقعة هو أن تلك الفكرة قد صارت **فاعلة**: فقد تمَّت ترجمتها إلى عمل حالما تنبّه الوعي لحضورها. وبما أن أمر الطبيب كان هو الدافع الذي حضّ على الفعل، لذا يعسر علينا ألا نسلّم بأن أمر الطبيب قد غدا فاعلاً هو الآخر. ومع ذلك، إن هذه الفكرة الأخيرة ما انجلت من تلقاء نفسها للوعي، على منوال ما انجلى ما ترتَّب عليها، أي فكرة الفعل: فقد بقيت لاشعورية، مما يصحّ معه أن نقول إنها غدت على هذا النحو **فاعلة ولاشعورية** في آن معاً.

إن الإيحاء ما بعد النوامي هو نتاج مخبري، واقعة مصطنعة. لكن لو أخذنا بنظرية الظاهرات الهستيرية كما تقدم بها في أول الأمر جانيه[٤] وطوَّرها بعد ذلك بروير وأنا نفسي، فلن يشقّ علينا أن نقع على عدد كبير من الوقائع الطبيعية التي تبرِز للعيان بمزيد من الوضوح والتمييز الطابع السيكولوجي للإيحاء ما بعد النوامي.

إن ذهن المريضة الهستيرية تعمره أفكار ناشطة فاعلة ولكن لاشعورية. وبالفعل، إن أكثر ما يلفت النظر في الذهن الهستيري هو وقوعه تحت سيطرة هذه الأفكار. فلو تقيَّأت المرأة الهستيرية فقد يكون مردّ ذلك إلى ما إلى يساورها من فكرة بأنها حامل. بيد أنها لا دراية لها بالمرة بهذه الفكرة بالرغم من سهولة اكتشاف وجود هذه الفكرة في ذهنها واستحضارها إلى الوعي بواحدة من الطرائق التقنية للتحليل النفسي. وحتى لو صدرت عنها تلك الاختلاجات والحركات التي تتظاهر بها «نوبتها»، فإنها لن تستطيع أن تستحضر أمام وعيها هذه الأفعال الصادرة عنها، بل قد لا يستبعد أن ترى إلى هذه الأفعال بالبرودة التي ينظر بها ناظر إليها من الخارج. بيد أن التحليل كفيل بأن يظهر لنا أنها تؤدي

٤ ـ بيير جانيه: من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ ـ ١٩٤٧). كان من تلاميذ شاركو. شغل منصب مدير المختبر في مستشفى السالبترير بباريس، واتجهت به أبحاثه الأخيرة نحو توكيد أهمية اللاشعور في الحياة النفسية. «م».



دورها في إعادةِ إنتاج مُمَسرَحةٍ لحدث طرأ ذات يوم في حياتها، وبقيت ذكراه ناشطة لاشعورياً أثناء النوبة. ومثل هذه الهيمنة المسبقة لأفكار لاشعورية هي التي يشفّ عنها التحليل باعتبارها الواقعة الأساسية في سيكولوجيا كل شكل آخر من أشكال العصاب.

يفيدنا تحليل الظاهرات العصابية إذاً بأن الفكرة الكامنة أو اللاشعورية ليست بالضرورة فكرة واهنة، وأن حضور مثل هذه الفكرة في الذهن يقدِّم لنا أدلة غير مباشرة تكافئ في قوتها الإلزامية تلك التي يقدّمها لنا الدليل المباشر الذي يزوِّدنا به الوعي. وهنا يخامرنا شعور بأنه من المسوَّغ لنا أن نعدِّل تصنيفنا بحيث يتطابق مع هذه المعرفة الجديدة التي توفَّرت لنا بحيث ندخل تمييزاً جوهرياً بين شتى ضروب الأفكار الكامنة أو اللاشعورية. فقد كنا اعتدنا على التوهم بأن كل فكرة كامنة ما كانت لتكون كذلك إلا لأنها ضعيفة واهنة، وبأنها لا تغدو شعورية إلا متى اشتدّ ساعدها وباتت قوية. أما الآن فقد توطَّد لدينا الاقتناع بأنه توجد أفكار كامنة لا تشقّ طريقها إلى الوعي مهما تكن القوة التي أمكن لها الوصول إليها. وعلى هذا النحو يسعنا أن ننعت الأفكار الكامنة التي من النمط الأول بأنها **ما قبل شعورية**، بينما نحتفظ بمصطلح **اللاشعوري** (أو اللاواعي بحسب اللغة الذائعة) لنطلقه حصراً على النمط الثاني الذي أتيح لنا أن ندرسه في الأعصبة. فمصطلح **اللاشعوري**، الذي كان دارجاً استعماله كمصطلح وصفي خالص، بات ينمّ الآن عن معنى إضافي. فهو لا يشير فقط إلى الأفكار الكامنة بصورة عامة، بل كذلك وعلى الأخص إلى الأفكار التي تتصف بقدر من الدينامية، وهي الأفكار التي تبقى بمنأى عن الوعي بالرغم من شدَّتها وفاعليتها.

قبل أن أتابع عرضي يجدر بي أن أتوقف عند اعتراضين قابلين لأن يثارا بصدد هذه النقطة. أولهما يمكن صوغه على النحو التالي: فبدلاً من الأخذ بفرضية وجود أفكار لاشعورية لا ندري عنها شيئاً، يخلق بنا أن نفترض أن الوعي يمكن أن يصيبه شكل من التصدع والانفلاق بحيث أن بعض الأفكار أو بعض الأفعال النفسية قد تشكّل وعياً مفارقاً قائماً في ذاته بعد أن ينفصل عن الشطر الأكبر من النشاط النفسي الواعي ويغترب عنه كما لو أنه أجنبي. وإن بعض الحالات

المَرَضية المعروفة، مثل حالة الدكتور آزام[٥]، تبدو وكأنها تثبت، بغير ما ظلٍّ من الشك، أن انفلاق الوعي ليس شططاً وغلواً من قبل الخيال.

إنني لن أتردد في أن أقول بحق هذه النظرية إنها لا تعدو أن تكون افتراضاً اعتباطياً ليس له من أساس سوى سوء استخدام كلمة «الوعي». إذ ليس يجوز لنا أن نتوسع بدلالة هذه الكلمة لنشمل بها وعياً لا يعيه مالكه بالذات. ولئن يكن الفلاسفة يجدون صعوبة في القبول بوجود أفكار لاواعية، فإن وجود وعي لاواعٍ يثير، على ما يبدو لي، قدراً أكبر من الاعتراضات. والحالات التي توصف بأنها انفصام في الوعي، كحالة الدكتور آزام، خليقة بأن توصف بأنها حالات تنقُّل في الوعي بحكم تأرجح هذه الوظيفة ـ كائنة ما كانت ـ بين عقدتين نفسيتين متمايزتين تتراوحان تناوبياً بين الشعور واللاشعور.

أما الاعتراض القمين بأن يثار فهو أن يقال إننا نطبّق على علم النفس السويّ استنتاجات مستخلصة بصورة رئيسية من دراسة شروط باتولوجية. ومن المباح لنا هنا أن نردّ بالإحالة إلى واقعة أخرى ندين بمعرفتنا بها للتحليل النفسي. ذلك أنه يسعنا أن نوضح بسهولة أن بعض حالات الضعف والخور في الوظيفة، الكثيرة التواتر حتى لدى الأسوياء من الناس، من قبيل زلات اللسان وأغلاط الذاكرة وأخطاء الكلام ونسيان الأسماء، إلخ، تكون مرهونة بفاعلية أفكار لاشعورية قوية، مثلها تماماً مثل الأعراض العصابية. ولسوف تتوفَّر لنا على ذلك حجة أخرى أكثر إقناعاً في طور لاحق من هذه المناقشة.

إن تمييزنا بين الأفكار القبشعورية واللاشعورية قادنا إلى تجاوز مضمار التصنيف وإلى تكوين رأي أولي حول العلاقات الوظيفية والدينامية في النشاط النفسي. وقد وجدننا أمام **فاعلية لاشعورية** تنتقل إلى الشعور الواعي بغير ما مشقة، وأمام **فاعلية لاشعورية** تبقى على حالتها هذه وتبدو وكأنها منفصلة عن الشعور الواعي.

---

٥ ـ إتيين أوجين آزام: جراح فرنسي (١٨٢٢ - ١٨٩٩). أولى اهتماماً خاصاً لعلم النفس واشتهر بمعالجته التي دامت سنيناً طوالاً لمريضة تعرف باسم فيليدا. وقد نشر ثلاثة كتب متتالية حول هذه المريضة التي كانت «متناوبة الشخصيات»، وهي: **التنويم المغنطيسي وازدواجية الوعي وتقلبات الشخصية**. «م».



والحال أننا لا نعرف ما إذا كان هذان النمطان من النشاط النفسي متماثلين أو متباينين جوهرياً من البداية، ولكن في وسعنا أن نتساءل لماذا يصيران مختلفين في مجرى النشاط النفسي. عن هذا السؤال الأخير يجيب التحليل النفسي بوضوح وبلا تردد. فليس يتعذّر على الإطلاق على نتاج النشاط اللاشعوري أن يدلف إلى الشعور، لكن هذه المهمة تقتضي مقداراً ما من المجهود. إذ إننا عندما نحاول أن نفعل ذلك في داخل نفسنا ننتبه إلى وجود إحساس واضح **بالرفض** لا غنى لنا عن التغلب عليه، وعندما نستحدث ذلك لدى مريض من مرضانا تطالعنا من قبله إشارات لا تقبل مماحكة إلى وجود ما نطلق عليه اسم **المقاومة**. وعلى هذا النحو ندرك أن الفكرة اللاشعورية قد استبعدت من مجال الوعي من قبل قوى نشيطة تعارض قبولها فيه، في حين لا تبدي هذه القوى اعتراضاً في قبالة أفكار أخرى، هي الأفكار القبشعورية. ولا يدع التحليل النفسي أي مجال للشك في أن الرفض الصادر عن أفكار لاشعورية إنما تكون قد استحدثته الميول المتجسدة في مضامينها. وأول نظرية قابلة لأن تكون هنا مطابقة لواقع الأشياء في هذا الطور من معرفتنا يمكن أن تصاغ على النحو التالي: إن اللاوعي طور نظامي ومحتوم في عمليات نشاطنا النفسي، ومن الممكن إما أن يبقى كذلك وإما أن يتطور ويتقدم وصولاً إلى الوعي، طبقاً لما قد يلاقيه أو لا يلاقيه من مقاومة. والتمايز بين النشاط القبشعوري والنشاط اللاشعوري ما هو بتمايز أولي، بل لا يحدث إلا بعد أن يتدخل الرفض. فإنما عندئذ فحسب يكتسب قيمةً، نظريةً وعمليةً على حدٍّ سواء، الفارقُ بين الأفكار القبشعورية، القمينة بأن تمثُل للوعي وبأن تعاود تظاهرها في كل آن وحين، وبين الأفكار اللاشعورية التي ما هي بقادرة على ذلك. ولعلنا نستطيع هنا أن نقتبس من فن التصوير الفوتوغرافي العادي مماثلة مؤاتية، وإن كانت لا تخلو من فجاجة، بخصوص تلك العلاقة المفترضة بين النشاط الواعي والنشاط اللاواعي. فالطور الأول من التصوير الفوتوغرافي «سالب»، إذ يتوجب على كل صورة فوتوغرافية أن تمرّ بعملية «سحب سالب»، ووحدها الصورة السالبة التي قُيّض لها أن تجتاز الامتحان بنجاح هي التي يقع

عليها الاختيار لتُقبل في «السحب الموجب»، الذي يتمخض عن الصورة الفوتوغرافية المطلوبة.

بيد أن التمييز بين النشاط القبشعوري والنشاط اللاشعوري، وتعرُّف الحاجز الذي يفصل بينهما، لا يمثّلان النتيجة النهائية، ولا الأهم، للتحري التحليلي النفسي عن الحياة النفسية. فثمة نتاج نفسي قد نلتقيه لدى الأشخاص الأسوياء كل السواء، ولكنّه ينطوي مع ذلك على شَبَهٍ لافت جداً للنظر مع منتجات الجنون الأكثر فجاجة، وهو الشبه الذي استعصى بقدر الجنون نفسه على فهم الفلاسفة. مقصود قولي هنا هو الحلم. والحال أن التحليل النفسي قام على أساس تحليل الأحلام. وتأويل الأحلام هو أتمّ جزء من العمل الذي أنجزه هذا العلم الفتيّ إلى يومنا هذا. وإن واحداً من أنماط تكوين الحلم الأكثر شيوعاً يمكن وصفه على النحو التالي: قافلة من الأفكار أيقظها عمل الذهن أثناء النهار، فحافظت على شطر من نشاطها وأفلتت من إسار الكبت العام الذي يطال الشواغل والاهتمامات والذي هو المقدمة النفسية للنعاس، وبالتالي للنوم. وقافلة الأفكار هذه هي التي تفلح في أثناء النوم في الاهتداء إلى رباط يربطها بأحد النوازع اللاشعورية الماثلة منذ الطفولة في ذهن الحالم، ولكن **المكبوتة**، والمنحّاة عن الحياة الشعورية. وبفضل القوة المستمدة من هذه المعونة اللاشعورية تعود الأفكار، أو البقايا النهارية، إلى سابق نشاطها وتنبجس في الشعور في شكل حلم. وعلى هذا النحو تكون قد حدثت أمور ثلاثة:

١ ـ فقد طرأ على الأفكار تغيُّر أو تنكُّر أو تحريف ما، وذلك هو القسط الذي يكون قد أسهم به الحليف اللاشعوري.

٢ ـ وشغلت الأفكار مسرح الوعي في وقت ما كان يتعيّن عليها فيه أن تفعل ذلك.

٣ ـ وبفضل ذلك أمكن لقسط من اللاشعور أن ينبجس في الشعور.

ونحن قد تعلّمنا فن اكتشاف «الأفكار الرسابية»، أقصد **أفكار الحلم الكامنة**، واقتدرنا، من خلال مقارنتها بالحلم الظاهر، على التكهن بطبيعة التغيرات الطارئة وبالكيفية التي أمكن بها لهذه التغيرات أن تُستحدث.



إنّ أفكار الحلم الكامنة لا تختلف بصورة من الصور عن منتجات نشاطنا الشعوري النظامي؛ وهي تستأهل أن نطلق عليها اسم الأفكار القبشعورية، وإن كان لا يُستبعد أنها كانت شعورية في لحظة بعينها من حياة اليقظة. بيد أنها، بارتباطها مع الميول والنوازع اللاشعورية أثناء الليل، موثل بينها وبين هذه الأخيرة وجرى خفضها، إن جاز القول، إلى حالة أفكار لاشعورية، وتمّ إخضاعها للقوانين التي تتحكم بالنشاط اللاشعوري. ولكن هنا تحديداً تتاح لنا الفرصة لنعلم ما كان يتعذّر علينا أن نعلمه عن طريق التأمل النظري، أو عن طريق أي مصدر آخر من مصادر العلم الاختباري، ونعني به كون قوانين النشاط اللاشعوري تختلف كبير الاختلاف عن قوانين النشاط الشعوري. وعلى هذا النحو يتسنى لنا أن نجمع كل المعلومات التفصيلية عن خصائص **اللاشعور**، وبوسعنا أن نأمل في أن نحظى بالمزيد من المعلومات عن هذه الخصائص عن طريق التعمّق في التنقيب عن سيرورات تكوين الحلم.

إن استقصاءنا هذا لم يقطع حتى نصف الطريق إلى نهايته، وإنه لمن العسير علينا حتى أن نعرض النتائج التي توصّلنا إليها إن لم نطرق باب المشكلات الأكثر تعقيداً لتحليل الحلم. ولكني سأحاذر مع ذلك أن أضع حدّاً لهذه المناقشة بدون أن أشير إلى التغيُّر والتقدّم في فهمنا للاشعور بفضل دراستنا التحليلية النفسية للأحلام.

لقد تبدّى اللاشعور في بادئ الأمر على أنه محض سمة ملغزة لفعل نفسي محدد. أما الآن فهو يكتسب المزيد من الدلالات بالنسبة إلينا. فهو بمثابة علامة على أن هذا الفعل ينتمي بطبيعته إلى مقولة نفسية محدَّدة توصَّلنا إلى معرفتها من خلال ما تتَّسم به من صفات أخرى أكثر أهمية، وعلامة كذلك على أنه يرتبط بنظام من النشاط النفسي يستأهل منا كل الاهتمام. والواقع أن قيمة اللاشعور كمؤشر قد تجاوزت من بعيد أهميته كخاصية قائمة بذاتها. ونحن لا نطلق على النظام الذي يشفّ عنه ذلك المؤشر- الذي يلفت انتباهنا إلى أن الأفعال المفردة المؤلِّفة لأجزاء من هذا النظام هي أفعال لاشعورية ـ أقول: نحن لا نطلق عليه اسم «اللاشعور» إلا لأنه ليس بحوزتنا مصطلح أفضل وأقلّ التباساً. وبالألمانية أقترح أن



نشير إلى هذا النظام بالأحرف UBW، التي هي بمثابة اختصار للكلمة الألمانية UNBEWUSST[٦]. وذلك هو بالفعل المعنى الثالث، والأبلغ دلالة، الذي اكتسبه مصطلح «اللاشعور» في التحليل النفسي.

٦ ـ وهو ما ترجمناه بالعربية بـ «لشع» كمختصر للاشعور. «م».

مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء



تقديم

في عام ١٩٢٦ ثارت في أوساط التحليل النفسي والأوساط الطبية على حدّ سواء، في النمسا كما في إنكلترا والولايات المتحدة، مساجلة حول ممارسة غير الأطباء للتحليل النفسي وحول وجوب (أو عدم وجوب) صدور مرسوم ينظّم مهنة التحليل النفسي ويربطها بالسلك الطبي على نحو يغدو معه محرَّماً على غير الأطباء ممارسة التحليل. والحال أن بعضاً من أبرز أنصار فرويد والعاملين في ميدان التحليل النفسي، من أمثال أوتو رانك وميلاني كلاين، كانوا لا يحملون إجازات طبية.

وقد اتفق في ذلك العام نفسه أن أحد المرضى رفع أمام القضاء النمساوي دعوى على ثيودور رايك، وكان وجهاً بارزاً في **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** - ولم يكن طبيباً - يتهمه فيها بأنه استخدم معه «طرائق ضارة». بيد أن الاختلال العقلي السافر لرافع الدعوى، والتدخل الخفي لفرويد لدى أحد كبار الموظفين، حالا دون تجريم ثيودور رايك بتهمة «التدجيل». وقد اغتنمت الصحافة الفييناوية الفرصة للتشنيع على التحليل النفسي وأنصاره. كما أن الأمريكيين من ممارسي التحليل انتهزوا السانحة نفسها ليؤكدوا، خلافاً لموقف زملائهم الأوروبيين، أن التحليل النفسي ينبغي أن يكون له قوام قانوني مماثل لقوام مهنة الطب. ومن ثم لم يجد فرويد مناصاً من التدخل في المساجلة وحرَّر، وهو في السبعين من العمر، هذا النص الذي جعل عنوانه **«مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء»**[1]، والذي أعطاه شكل محاورة. وقد أوضح فرويد قصده من

١ - هي ترجمة غير دقيقة من حيث اللفظ، ولكنها أقرب الممكن إلى المعنى المقصود في الأصل DIE FRAGE DER LAIENANALYSE التي تمكن ترجمتها أيضاً بـ **«مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الاختصاصيين»**، علماً بأن هناك من ترجمها بـ **«مسألة التحليل العلماني»**. «م».



كتابته هذا الكتاب في رسالة منه إلى القس أوسكار بفستر في ١٩٢٨/١١/٢٥ قال فيها: «لست أدري إن كنت فهمت الصلة بين «**مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء**» وبين «**مستقبل وهم**». ففي الأول أردت حماية التحليل من الأطباء، وفي الثاني أذود عنه ضد الكهنة». كذلك أكد في رسالة أخرى إلى ماكس آيتنغون: «إن الحركة ضد المحللين غير الأطباء تبدو لي مجرد رسابة من المقاومة القديمة ضد التحليل النفسي بوجه عام. ومن سوء الحظ أن الكثيرين من أعضائنا مصابون بقدر من حسر النظر أو أن مصالحهم المهنية قد أعمتهم بما فيه الكفاية فشاركوا في تلك الحملة. وإني لأعتبر أن هذه الحملة برمتها تعبِّر عن سخط الفييناويين واغتياظهم من الاهتمام وحسن الالتفات اللذين أثارهما في العالم الخارجي عيد ميلادي السبعون. ولهذا أشعر أني مسؤول ولو جزئياً عن القضية...».

لقد تخيَّل فرويد أن أمامه محاوراً محادياً، خبيراً في الشؤون القضائية وتحضير الدعاوى، يناقشه ويستعرض وإياه الحجج والحجج المضادة. ولكنه في هذه المحاورة تجاوز من بعيد مسألة ممارسة غير الأطباء للتحليل النفسي، وقدَّم عرضاً وافياً ومركَّزاً للمذهب التحليلي النفسي ولخطته العلاجية، وضمنَّه آخر فتوحاته النظرية، كتقسيم المساحة النفسية لدى الكائن الإنساني إلى ثلاث مناطق: «**الهذا**» و«**الأنا**» و«**الأنا الأعلى**». وهكذا، وباستثناء بضع صفحات عالج فيها فرويد تلك المسألة التي باتت تاريخية خالصة بعد أن أمسى اليوم للتحليل النفسي وضع شرعي مقنَّن في أغلب بلدان العالم، فإن النص الذي بين أيدينا يحتلّ مكانه بين أهمّ الخلاصات التي كتبها مؤسس علم نفس الأعماق واللاشعور عن المذهب الذي أبدعه. حتى إن ساندور فيرنزي، النصير الهنغاري الكبير للتحليل النفسي والذي كان في يوم من الأيام رئيساً لجمعيته المجرية، كتب يقول: «إني لأعتقد أن هذا الكتاب يقدِّم خلاصة كاملة عن التحليل النفسي في حالته الحاضرة، خلاصة تتميَّز بالدقة كما بالسلاسة. ولو سألني سائل أي الكتب أستطيع أن أوصي به للتعرُّف إلى مبادئ التحليل النفسي وزبدة نظرياته، لما ترددت لحظة واحدة في تزكية هذا الكتاب».



وقد كنا ترجمنا هذا النص عن الترجمة الفرنسية التي قامت بها ماري بونابرت وراجعها فرويد نفسه وأصدرتها منشورات غاليمار سنة ١٩٢٨. وقد أدخلنا بعض التعديلات على ترجمتنا في هذه الطبعة التي بين يدي القارئ بالإحالة إلى الترجمة الفرنسية الجديدة الصادرة في المجلد الثامن عشر من **أعمال فرويد الكاملة** عن المنشورات الجامعية الفرنسية، والتي توجًّها فريق عمل رباعي مؤلف من ج. ألتونيان وأ. بورغينيون وب. كوتيه وأ. روزي.

ج. ط



مدخل

قد لا يبدو عنوان هذا النص الصغير مفهوماً للوهلة الأولى. وعلى هذا سأشرحه: فالمقصود هنا بغير الاختصاصيين غير الأطباء، والسؤال هو: هل يجوز أن يباح لغير الأطباء مزاولة التحليل؟ إن لهذا السؤال شروطه الزمانية والمكانية. زمانياً: لم يكترث أحد إلى اليوم بمن يزاول أو لا يزاول التحليل النفسي. بل أكثر من ذلك، فقد بلغ من قلة اكتراث الناس أنهم ما اتفقوا إلا على نقطة يتيمة، وهي أنه لا يجوز لأحد أن يزاوله، وهذا لأسباب شتى يتذرع بها هذا أو ذاك من الناس، وكلها تنطوي في صميمها على نفور متماثل. إذاً، فالمطالبة بأن يُقصر حقّ مزاولة التحليل على الأطباء وحدهم تنمّ عن موقف جديد، أكثر وداً في ظاهره، حيال التحليل النفسي ، هذا إذا أفلح في الإفلات من شبهة كونه مجرد طبعة محرَّفة من الموقف الأول. فثمة من يسلِّم الآن بأن الشروع بعلاج تحليلي نفسي أمر قد تفرضه ظروف معيَّنة، لكن ليس لغير الأطباء في هذه الحال أن يتولجوه. أما ما علة هذا التقييد فمسألة لا تزال بحاجة إلى بحث.

وبما أن هذه المسألة ليست على قدر واحد من الأهمية في البلدان قاطبة، فإن لها من ثمّ شروطها المكانية أيضاً. ففي ألمانيا وأميركا لا مجال لأن يكون النقاش إلا نظرياً بحتاً: ففي هذين القطرين يمكن لكل مريض أن يطلب العلاج كيفما شاء وعلى يد من شاء. كما يمكن لكائن من كان، حتى لو كان «دجالاً»، أن يعالج من شاء من المرضى، على أن يتحمل تبعة أفعاله. فالقانون لا يتدخل إذا لم يطلب أحد تدخله عقاباً على ضُرٍّ نزل بالمريض. أما في النمسا، البلد الذي فيه وله أكتب، فإن القانون احترازي: فهو يحظِّر على غير الطبيب أن يتولج معالجة المرضى ، وهذا بدون أن ينتظر نتيجتها[1].

١ ـ والحال كذلك في فرنسا.



وعليه، إن للسؤال هنا مدلولاً عملياً: هل ينبغي أن يباح لغير الأطباء أن يعالجوا المرضى بالتحليل النفسي؟ لكن حرف القانون يبدو هنا وكأنه يحسم السؤال حال طرحه. فـ«العصبيون» مرضى، وغير الأطباء ما هم بأطباء، والتحليل النفسي طريقة غرضها شفاء الأمراض العصبية أو تحقيق تقدم على طريق البرء منها، وكل معالجة من هذا القبيل حكر موقوف على الأطباء: ومن ثم لا يؤذن لغير الأطباء أن يطبّقوا على «العصبيين» طريقة التحليل، وإن حدث ذلك فعلى القانون أن يعاقب بقسوة. وما دامت الأمور بمثل هذه البساطة، فإن المرء لا تكاد تؤاتيه الجرأة لإيلاء مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء مزيداً من الاهتمام بعد. على أنه تنهض هنا بعض الإشكالات التي لا يكترث القانون لها، وإن كانت تستأهل أن تؤخذ بعين الاعتبار. فقد يتضح أن المرضى، في هذه الحال، ليسوا بمرضى عاديين، وأن غير الأطباء ليسوا بجاهلين بأصول علمهم، وأن الأطباء ليسوا تماماً ما هو متوقع من الأطباء أن يكونوا عليه، وما عليه يمكن لهم بالتالي أن يقيموا دعواهم. فإن تأتى لنا أن نثبت ذلك، فإنه سيكون من الواجب في هذه الحال ـ وهذا مطلب مسوَّغ ـ ألا يجري تطبيق القانون بلا تعديل على الحالة التي تشغلنا.

(١)

والحال أن البتّ في المسألة يعود إلى أشخاص غير ملزمين بأن تكون لهم معرفة بخصائص الاستشفاء التحليلي النفسي. من واجبنا إذاً أن ننوِّر هؤلاء الأشخاص النزهاء الذين لا نزال نفترض بهم أنهم على جهل لحدّ الآن بكنه التحليل. وإنه لما يبعث على الأسف ألا يكون في مستطاعنا أن نهيِّئ لهم الفرصة ليشهدوا بأمّ عينهم جلسة استشفاء تحليلي. فـ «الموقف التحليلي» لا يحتمل وجود شخص ثالث. أضف إلى ذلك أن جلسات المعالجة تختلف واحدتها عن الأخرى اختلافاً شديداً في قيمتها. ولو قبلنا ارتجالاً بحضور خبير قضائي كهذا - وهو بالضرورة غير كفؤ في مجال التحليل - في واحدة من هذه الجلسات لما خرج في أغلب الظن بأي انطباع ذي شأن، والأرجح أنه لن يفقه شيئاً مما يدور بين المحلّل والمريض، أو قد يعتريه الملل والسأم. لهذا فإن عليه، شاء أو أبى، أن يكتفي بأقوالنا التي سنعمل على أن تكون جديرة بالثقة إلى أقصى حدّ مستطاع.

من الممكن أن يكون المريض يعاني من تقلبات مزاجية لا يسعه أن يتحكم بقيادها، أو قد يأخذه تهيُّب وثبوط، فتشلّ طاقته وتتلاشى كل ثقة له بنفسه، أو قد يقع فريسة ارتباك وجزع حالما يجد نفسه في محضر أغراب من الناس. وقد يشعر المريض، بدون أن يدري للأمر علة، أن إنجاز عمله المهني بات عسيراً عليه، وعسيراً كذلك إبرام أي قرار يتصف بقدر من الأهمية، أو الإقدام على تنفيذ مشروع من المشاريع. وربما انتابته يوماً - بدون أن يدري سبباً - نوبة قلق وحصَر مؤلمة، فيصعب عليه بعدئذ أن يجتاز شارعاً أو يركب قطاراً ما لم يقسر نفسه على ذلك قسراً - هذا إن لم يضطر إلى العدول عن أي من الأمرين. أو قد تسلك أفكاره - وفي الأمر عجب - طريقها الخاص، فيعصى على إرادته قيادها. فهي تجدُّ في إثر مسائل لا تعني له هو نفسه شيئاً، ومع ذلك نراه عاجزاً عن تحويلها عنها!



وقد تفرض مهام سخيفة نفسها عليه، كأن يحصي عدد النوافذ في واجهات المنازل؛ وإذا ما قام بأبسط الأعمال، كأن يلقي برسالة في صندوق البريد أو يطفئ أنبوب الغاز، لا يلبث، بعد هنيهة من الزمن، أن يتشكك في أن يكون قد فعل ذلك حقاً. وقد لا يعدو الأمر أن يكون مثيراً للغيظ ومسبِّباً للتنغيص ليس إلا. لكن الحالة تغدو لا تطاق إذا صار صاحبنا على حين بغتة في وضع لا يستطيع معه أن يردّ عن ذهنه فكرة تصوّر له أنه دفع بولد من الأولاد تحت عجلات عربة، أو رمى بشخص لا يعرفه من أعلى الجسر، أو صار لا يستطيع أن يمنع نفسه من التساؤل بينه وبين ذاته، وفكره متجه إلى جريمة اكتشفت في ذلك اليوم: «ألست أنا القاتل الذي تبحث عنه الشرطة؟»... وهذا كله بطبيعة الحال ضرب من الهراء، والمسكين يعرف ذلك حق المعرفة، فهو ما آذى أحداً في حياته قط، ولكن الشعور بالذنب ما كان ليبلغ لديه مبلغاً أكبر من القوة فيما لو كان هو حقاً ذلك المجرم الذي تبحث عنه الشرطة!

أو لعل مريضنا ـ ولنقل هذه المرة مريضتنا ـ تعاني غير هذه المعاناة وفي مضمار مغاير. فهي عازفة بيانو، لكن أصابعها تتشنج وتأبى مطاوعتها. وإذا عنّ لها أن تقوم بزيارة ما، ألحَّت عليها تواً الحاجة إلى التبول، علماً بأن إشباع هذه الحاجة ليس مما يتفق والحياة الاجتماعية. ومن ثم عزفت عن ارتياد الاجتماعات والحفلات أو العروض المسرحية أو الموسيقية. وفي أكثر الأوقات بعداً عن المناسبة ينتابها صداع شديد أو غيره من الأحاسيس الموجعة. وقد تتقيأ أحياناً كل ما أصابته من طعام، وفي هذا خطر على صحتها على المدى الطويل. وأخيراً تراها ـ وهذا وضع يؤسف به ـ عاجزة عن تحمُّل أي انفعال، مع أن الانفعالات هي من الأمور المحتومة في الحياة. فلو انفعلت لأصيبت حالاً بالإغماء، وكثيراً ما يقترن الإغماء بتشنُّج عضلي قد يوحي بأنها تعاني من مرض خطير.

وقد يصاب مرضى آخرون في مضمار تكون فيه الحياة العاطفية على صلة وثيقة بالجسم. فإن كانوا من الرجال عجزوا عن التعبير تعبيراً بدنياً عن المشاعر العذبة التي يوحي بها إليهم الجنس الآخر، على حين أن جميع الاستجابات المنشودة تكون متاحة لهم في محضر نساء لا يحبونهن. أو إن شهوانيتهم تغلّهم



إلى نساء يحتقرونهن وبودّهم لو أمكنهم الانعتاق من أصفادهم التي تشدّهم إليهن. أو إن هذه الشهوانية تلزمهم بإتيان أفعال هم منها على نفور وقرف. وإن كانوا من النساء، حالت مشاعر الحصَر أو الاشمئزاز أو قيود وعوائق من أصل مجهول بينهن وبين الاستجابة لمتطلبات الحياة الجنسية؛ أو إذا هنّ أسلسن قيادهن للحب، بالرغم من كل شيء، وجدن أنفسهن وقد حرمن من المتعة التي تكافئ بها الطبيعة من يمتثل لقوانينها.

إن جميع هؤلاء الأشخاص يقرّون في نهاية المطاف بأنهم مرضى ويبحثون عن أطباء يلتمسون لديهم خلاصاً من مثل هذه الاضطرابات العصبية. والأطباء هم الذين وضعوا أيضاً التصانيف التي تصنَّف فيها هذه الأدواء. فهم يشخِّصونها ويعيِّنون أسماءها من وجهة نظرهم: النوراستينيا، أو البسيكاستينيا[1]، أو الأرهبة، أو الوساوس، أو الهستيريا. ويجرون فحوصاً على الأعضاء التي تتظاهر من خلالها الأعراض: القلب، المعدة، المعي، الأعضاء التناسلية، فيجدونها صحيحة سليمة، وعندئذ يشيرون على المريض بالانقطاع عن مشاغله العادية وينصحونه بتلهية نفسه وممارسة الرياضة وتناول العقاقير المقوية، وتكون النتيجة التي ينتهون إليها على هذا النحو تحسناً عابراً ـ أو لا شيء على الإطلاق. وفي آخر الأمر قد يتناهى إلى علم المريض أن ثمة أشخاصاً تخصصوا حصراً في معالجة الأمراض التي يشكون منها، فيبدؤون لديهم تحليلاً.

لا بدّ أن خبيرنا النزيه، الذي أتخيَّله حاضراً، أبدى من العلائم ما يدلّ على نفاد صبره فيما أنا منصرف إلى تعداد أعراض الأعصبة. أما الآن وقد تنبَّه وصار كله آذاناً صاغية، فإنه يبادرنا بالقول:

ـ أخيراً، سنعلم ما يفعله المحلل مع المريض الذي ما استطاع الطبيب له إسعافاً.

والحقّ أنه لا يدور بين المحلِّل والمريض شيء آخر سوى أنهما يتبادلان أطراف الكلام. فالمحلِّل لا يستخدم أدوات حتى ولو لفحص المريض ولا يصف أدوية.

---

١ ـ البسيكاستينيا: عصاب يتَّسم بانخفاض في التوتر النفسي مصحوب بعدم القدرة على تركيز الانتباه وبالعجز عن العمل وقلة الشهية والأرق والصداع والشك الدائم. «م».



وكلما وجد الأمر مؤاتياً، ترك المريض يعيش، مدة العلاج، في جوِّه ومحيطه. وهذا ليس، بالطبع، شرطاً من شروط العلاج، ولا يمكن توفره على الدوام. ويطلب المحلل إلى المريض أن يأتيه في ساعة معلومة من النهار، ويتركه يتحدث، ويصغي إليه، ثم يكلِّمه، فيصغي إليه المريض بدوره.

عندئذ يبدي خبيرنا الحيادي عن انفراجه، وتظهر عليه علائم ارتياح واضح، وإن مقروناً بشيء من الاحتقار، فلكأني به يقول: «أهذا كل شيء؟ كلام، بكلام، بكلام»، كما كان يقول هاملت! وقد ترد إلى ذهنه أيضاً عبارة مفيستو[٢] الساخرة: «بالكلمات يستطيع المرء أن يفعل كل ما يشاء». وعلى الأثر يقول:

ـ أهو إذاً ضرب من السحر؟ تتكلم فتزول العلل من تلقاء نفسها!

ـ هذا عين الصواب: فهو ضرب من السحر لو كان له أن يؤتي مفعوله بمثل هذه السرعة! فالسحر يقتضي ـ وهذه صفته الأساسية ـ أن يـأتي النجاح سريعاً، بل فورياً. بيد أن المعالجة التحليلية تتطلب شهوراً، بل سنوات، وسحر بطيء كهذا يفقد طابع الإعجاز. على كل، حذارِ من ازدراء الكلمة! فالكلمة أداة جبارة؛ الوسيلة التي بها نوصل إلى الآخرين مشاعرنا، والطريق الذي نسلكه لنؤثِّر على غيرنا من الناس. والكلمات بوسعها أن تحقق خيراً يندّ عن الوصف، كما يمكن أن تتسبب في شرور رهيبة. وصحيح أنه في البدء كان الفعل، ثم أتت الكلمة بعد ذلك[٣]؛ ولقد كان من إنجازات الحضارة أن الفعل ملَك زمام نفسه فصار كلمة. غير أن الكلمة كانت في الأصل رقية، فعلاً سحرياً، وقد حافظت إلى اليوم على قدر كبير من قوتها القديمة.

يواصل الخبير الحيادي الكلام فيقول:

ـ لنفرض أن المريض ليس أحسن استعداداً مني لفهم العلاج التحليلي. فكيف

---

٢ ـ في **فاوست** لغوته. «م».

٣ ـ إشارة، من قبيل المعارضة، إلى الجملة المشهورة التي يبدأ بها إنجيل يوحنا: «في البدء كانت الكلمة»، والتي يعارضها غوته في **فاوست** بالقول: «في البدء كان الفعل». «م».



تريده أن يقتنع بسحر الكلمة وبسحر الكلام الذي سوف يخلِّصه من أوجاعه؟

ـ لا بدّ بطبيعة الحال من تهيئته للعلاج. وثمة وسيلة بسيطة للغاية في متناولنا لهذا الغرض. فنحن ندعوه إلى التزام جانب الصدق المطلق في حديثه مع محلِّله، فلا يخفي عنه عن قصد أي شيء مما قد يرد إلى خاطره، ثم إلى الترفع عن كل تحفظ من شأنه أن ينهاه عن الإفصاح عن خاطرة بعينها أو ذكرى بعينها. وما من امرئ إلا ويعلم أنه يطوي بين جوانحه أشياء يكره أن يكاشف بها الآخرين، هذا إن لم يكن ذلك مستحيلاً عليه. فتلك «دخائل نفسه». وهو يستشعر أيضاً ـ وهذا تقدم كبير في معرفة الذات ـ أن ثمة أشياء أخرى لا يريد أن يقرّ بها ولو بينه وبين ذاته، ويؤثر على العكس كتمانها عن نفسه، ويقطع خيطها ويطردها طرداً إذا ما بزغت في خاطره عفواً. ولعل صاحبنا ملاحظ أن معضلة نفسية مثيرة تنشأ ما دام متوجباً أن تبقى خاطرة من خواطره الخاصة سراً مغلقاً على أناه بالذات. فلكأن أناه لم يعد يتمتع بتلك الوحدة التي اعتاد أن يعزوها إليه، أو لكأن في نفسه شيئاً يمكن أن ينهض في وجه أناه معارضاً. وقد يستشعر على هذا النحو بوجود تناحر بين أناه وبين الحياة النفسية بمعناها الواسع. فإن قبل المريض بقاعدة التحليل الأساسية: البوح بكل شيء، تقبَّل بسهولة احتمال أن يتمخض الاتصال وتبادل الأفكار في مثل هذه الشروط غير المألوفة عن نتائج غريبة ما كان له هو نفسه أن يتوقعها.

هنا يتدخل خبيرنا الحيادي ويقول:

ـ فهمت، فأنت تفترض أن كل «عصبي» يكتم شيئاً يثقل عليه ويرهقه، سراً من الأسرار. وبدفعك إياه إلى البوح به، تريحه من ذلك العبء وتخفِّف عنه. وذلك هو مبدأ الاعتراف الذي طالما لجأت إليه الكنيسة الكاثوليكية على مرّ العصور لضمان سيطرتها على النفوس[٤].

لا مناص لنا من الإجابة هنا: نعم ولا. فالاعتراف يدخل بالفعل، إلى حدّ ما،

٤ ـ الاعتراف: واحد من أسرار الكنيسة السبعة وبموجبه يتعيَّن على الخاطئ أن يسارر الكاهن بخطيئته لينال الغفران. «م».



ضمن نطاق التحليل على سبيل التمهيد له. لكن شتان ما بينه وبين جوهر التحليل، وما أبعده عن القدرة على تفسير مفعوله. ففي الاعتراف يقول الخاطئ ما يعرفه؛ أما في التحليل فلا بدّ لمريض الأعصاب أن يقول أكثر من ذلك. هذا إلى أننا ما سمعنا قط من يزعم أن الاعتراف له قدرة على شفاء أعراض مرَضية حقيقية.

هنا يجيبنا صاحبنا:

ـ إذاً، أنا لم أفهم بعد. فما معنى قولك: لا بدّ للمريض أن يقول أكثر مما يعرف؟ على أني أستطيع أن أتصور أن يكون لك من التأثير على مريضك باعتبارك محللاً قدر أكبر مما للمعرِّف على الخاطئ التائب. فأنت توليه من وقتك زمناً أطول، وتهتم به اهتماماً شخصياً مكثفاً، وبوسعك أن تستخدم تأثيرك المتعاظم عليه لتصرفه عن أفكاره المريضة، ولتسقط عنه مخاوفه وهواجسه، إلخ... وإنه لمما يبعث على العجب حقاً أن تتوصل، بمثل هذه الوسيلة، إلى السيطرة على أعراض بدنية خالصة، من قيء أو إسهال أو تشنج عضلي، لكني أعلم أن مثل هذا التأثير على الكائن الإنساني ممكن أيضاً في حال تنويمه مغنطيسياً. وأرجح الظن أن جهودك توصلك إلى شبه علاقة تنويمية بينك وبين المريض، الذي ستشدّه إليك في هذه الحال قوة الإيحاء، وهذا حتى لو لم تتقصد ذلك. وعليه، إن معجزات طريقتك العلاجية لن تعدو أن تكون حصيلة الإيحاء التنويمي. غير أن العلاج التنويمي، في ما أعلم، أسرع بكثير من تحليلك الذي يمتّد، باعترافك، شهوراً وقد يستغرق سنوات.

هكذا يتكشف لنا أن خبيرنا الحيادي ليس على ذلك القدر من الجهل أو الارتباك الذي تراءى لنا أول الأمر، فهو يجهد بلا مراء إلى فهم التحليل النفسي بمعونة معارفه السابقة، وإلى الربط بينه وبين بعض ما كان يعلمه من قبل. لكن يبقى علينا أن نُفهِمه ـ وما أشقَّها من مهمة! ـ أنه لن يصل إلى شيء من هذا بهذه الوسيلة، وأن نوضح له أن التحليل طريقة فريدة قائمة بذاتها SUI GENERIS، وأنها شيء جديد، خاص، لا سبيل إلى فهمه إلا من خلال نظرات جديدة ـ أو إذا شئتم، من خلال فروض جديدة. لكن لا مندوحة لنا أولاً من الإجابة عن ملاحظاته الأخيرة.

ـ إن ما قلتَه عن التأثير الشخصي للمحلِّل أمر جدير، بكل تأكيد، بالاعتبار. فمثل هذا التأثير واقع، وله في التحليل دور كبير. لكنه ليس عين دوره في التنويم المغنطيسي. ولا يعزّ عليّ أن أثبت لك أن الموقفين مختلفان كل الاختلاف. وقد يكفي أن أسوق الملاحظة التالية: وهي أننا لا نستخدم ذلك التأثير الشخصي ـ العامل «الإيحائي» ـ لنخنق الأعراض المرَضية على نحو ما يحصل في الإيحاء التنويمي. ثم إنه من الخطأ، ناهيك عن ذلك، أن نتصور أن هذا العامل هو ركيزة العلاج وصانعه الأول. قد يكون كذلك هو دوره في البدء، لكن الإيحاء التنويمي لا يلبث في وقت لاحق أن ينهض حجر عثرة في وجه مقاصدنا التحليلية ويرغمنا على اتخاذ تدابير معاكسة بالغة الصرامة. وبودِّي أن أبيِّن لك من خلال مثالٍ واحد مدى افتراق التقنية التحليلية عن الطرائق التي تسعى إلى الإلهاء أو الردع. فإن كان مريضنا واقعاً فريسة شعور فادح بالذنب كما لو أنه اقترف جرماً شنيعاً، فإننا لا ننصحه بالإغضاء عن وساوس ضميره بحجة أن براءته ثابتة لا شكّ فيها: فهذه طريقة كان جرّبَها من قبل من تلقاء نفسه بدون أن يصيب فلاحاً. بل ننبِّهه إلى أن شعوراً بمثل هذه القوة وهذا العناد لا بدّ أن يرتكز إلى واقع ما، وأن هذا الواقع قابل لأن يزاح النقاب عنه.

هنا يقول خبيرنا الحيادي:

ـ إنه ليدهشني أن تتوصل إلى تسكين الشعور بالذنب لدى مريضك بمسايرتك إياه في ما يعتقده. لكن ما مراميك التحليلية، على كل حال، وكيف تعمل مع مريضك؟




مكتبة
الفكر الجديد

(٢)

ـ لكي يكون ما أقوله في متناول الفهم، لا بدّ لي الآن من أن أعرض عليك بعضاً من جوانب نظرية سيكولوجية غير معروفة للعموم أو لا تحظى بالتقدير خارج الدوائر التحليلية. وسيكون يسيراً أن نستخلص من هذه النظرية ما نتوقعه من المريض وما الطرق التي نسلكها للوصول إلى هدفنا. وسوف أعرضها عليك عرضاً دوغمائياً، كما لو أنها اكتملت نظاماً ومذهباً. لكن لا تتصور أنها رأت النور مكتملة النمو، نظير المذاهب الفلسفية. فقد عملنا على تطويرها ببطء وتؤدة وبالتدريج، وكان علينا أن نفوز بكل نقطة منها غلاباً، وما ونينا نتناولها بالتعديل مرة تلو الأخرى على ضوء الملاحظة والمشاهدة إلى أن اكتسبت أخيراً الشكل الذي بدت لنا معه وافية بالغرض لما نتوخاه منها. ولو كنت تحدثت عن هذه النظرية قبل سنوات قليلة، لتحدثت عنها بصيغة أخرى وبمفردات أخرى. ولست أستطيع أن أجزم لك بطبيعة الحال أن الصيغة الحالية لهذه النظرية ستكون هي النهائية. فالعلم كما تعرف ليس وحياً منزلاً، ويظل يفتقر، حتى بعد مرور زمن طويل على ابتدائه، إلى اليقين والثبات والمعصومية التي يتوق إليها العقل البشري أعظم التوق. على أن هذه النظرية، بصيغتها الراهنة، هي أحسن ما استطعنا الوصول إليه، ولا يغرب عنك أن علمنا ما زال في مطلع حداثته، وما بلغ من العمر أكثر مما بلغه القرن الذي نحن فيه[1]، وأن المادة التي يعمل فيها ربما كانت من أعوص ما يمكن أن يعرض للبحث البشري؛ فإن فطنت إلى ذلك ما صعب عليك أن تضع نفسك في الموقف الذهني الضروري لفهم ما أزمع أن أذكره لك. لكن لا داعي لأن تقاطعني كلما عزّ عليك تتبّع ما أقوله أو رغبت في مزيد من الإيضاح.

١ ـ لا ننسَ أن فرويد كتب هذا النص عام ١٩٢٦. «م».



ـ سأقاطعك حتى قبل أن تبدأ. فأنت تقول إنك تودّ أن تعرض عليّ علماً نفسياً جديداً، لكن علم النفس، في ما يخيّل إليّ، ليس بعلم جديد. والموجود من علم النفس وعلماء النفس كافٍ ووافٍ، وقد تناهى إلى علمي، في أثناء دراستي، أن أشياء عظيمة كثيرة قد تمّ إنجازها في هذا المضمار.

ـ وأنا لا أودّ أن أماري في قيمتها. لكنني لو أمعنت النظر في هذه المنجزات الكبيرة عن كثب لوجدت نفسك مكرهاً على أن تعزوها بالأحرى إلى فيزيولوجيا الإحساسات. إذ ما كان لعلم الحياة النفسية أن يتطور، وقد أعاقه عن التقدم خطأ واحد ولكنه أساسي. فإلامَ يتوصَّل هذا العلم اليوم كما يدرَّس في المدارس؟ ليس إلى أكثر ـ إن استثنينا وجهات النظر الفيزيولوجية المفيدة حول الإحساسات ـ من لائحة تصانيف وتعاريف صارت متاعاً مشتركاً للمتعلمين جميعاً بفضل اللغة المعهودة. على أن هذا لا يكفي بطبيعة الحال لفهم حياتنا النفسية. أما لاحظت أن كل فيلسوف أو كاتب أو مؤرخ أو واضع سيرة يتدبر لحسابه الخاص علماً بعينه للنفس ويتقدم إلينا بفروض من عنده بصدد العلاقات النفسية وأهداف الأفعال النفسية، وهي فروض قد يكون لها جانبها الجذاب، ولكنها كلها موضع شك؟ وما يعوزنا هنا، كما هو واضح للعيان، هو أساس مشترك. وهذا ما جعل علم النفس علماً لا يعتّد فيه برأي أحد، ولا يُعترف فيه بأحد ثقةً وحجةً، ولهذا أيضاً كان في وسع أي امرئ أن يدلي هنا بدلوه . اطرحْ على بساط البحث مسألة من مسائل الفيزياء أو الكيمياء، تجد كل من لا يحوز «معلومات تقنية» يلزم الصمت. لكن حسبك أن تتقدم برأي نفساني حتى ترى الناس كلهم ينبرون لمجادلتك والردّ عليك. فلكأن هذا مضمار لا وجود فيه لـ«معلومات تقنية». فلكل امرئ حياته النفسية، ومن ثم يعتبر كل امرئ نفسه عالماً بالنفس. لكن لا يبدو لي هذا المؤهّل كافياً. يروى أن امرأة تقدمت يوماً لشغل وظيفة «مربية أطفال»، فلما سئلت عما إذا كان لها خبرة في تربيتهم أجابت: «طبعاً! ألم أكن أنا نفسي طفلة في يوم من الأيام؟».

ـ وأنت تزعم أن ذلك «الأساس المشترك» لحياة النفس، الذي غاب عن علماء النفس قاطبة، قد اكتشفته أنت من خلال ملاحظتك المرضى؟



ـ لا أعتقد أن هذا الأصل يجرِّد مشاهداتنا من قيمتها. فعلم الأجنة، مثلاً، ما كان ليستأهل أي ثقة لو لم يكن في مقدوره أن يعلل أسباب التشويهات الولادية. لكني حدثتك عن أناس تشرد أفكارهم من تلقاء نفسها، مما يضطرهم إلى تقليب الفكر إلى ما لانهاية في مشكلات لا تعني لهم شيئاً عن الإطلاق. فهل تتصور أن علم النفس المدرسي قدَّم أي إسهام في إيضاح علة مثل هذه الظاهرة الشذوذية؟ وقد يتفق لنا جميعاً، أخيراً، أن يشرد فكرنا ليلاً وأن يسلك طريقه الخاص، فيخلق أشياء يعصى علينا فيما بعد فهمها، أشياء تبدو لنا غريبة وعلى جانب من الشبه المريب ببعض الأعراض المَرَضية. إني أقصد بذلك أحلامنا. وعامة الناس ما أقلعوا قط عن الاعتقاد بأن للأحلام معنى وقيمة، وأنها تدل على شيء ما. ومعنى الأحلام هذا ما استطاع علم النفس المدرسي قط أن يهتدي إليه. ولقد تحيَّر أصلاً في ما ينبغي أن يفعله بالحلم؛ والتعديلات القليلة التي جازف بها لم تكن سيكولوجية: فقد أرجع الحلم إلى تنبيهات حسِّية، أو إلى التفاوت في عمق النوم في أقسام الدماغ المختلفة، إلخ... على أنه يحقّ لنا القول إن علم نفس يعجز عن تفسير الحلم هو علم لا يصلح لفهم الحياة النفسية العادية ولا يستأهل حتى أن يسمى علماً.

ـ هأنتذا تنزع إلى العدوانية: فلكأني مسست فيك نقطة حساسة. وبالفعل، تناهى إلى مسمعي أن أصحاب التحليل النفسي يعلّقون أهمية جلّى على الأحلام، وأنهم يؤوِّلونها ويكتشفون فيها ذكرى أحداث واقعية، إلخ... لكن بلغني أيضاً أن تأويل الأحلام مباح لهوى المحلِّل، وأن المحللين أنفسهم لم ينتهوا بعد إلى اتفاق على طريقة تأويل الأحلام وعلى مدى جواز استخلاص نتائج حاسمة منه. وما دام الأمر كذلك، فالأولى بك ألا تتكلم بمثل هذا الوثوق عن تفوُّق التحليل النفسي على علم النفس التقليدي.

ـ ما تقوله هو عين الصواب. فحقٌّ أن تأويل الأحلام اكتسب، في نظرية التحليل النفسي وممارسته على حدٍّ سواء، أهمية لا تضاهى. ولئن بدوت عدوانياً، فما ذلك إلا دفاعاً عن نفسي. لكن حينما يذهب بي الفكر إلى كل الصخب الذي أقامه بعض المحللين حول تأويل الأحلام، أكاد لا أملك دفعاً لما يعتريني من



قنوط، وقد أحكم بصواب رأي الساخر الكبير نستروي NESTROY[٢] حين هتف بهتافه المشتائم: «ما كل تقدُّم إلا نصف ما يبدو عليه من حجم أول الأمر!». لكن أرأيت الناس تفعل شيئاً آخر غير أن تخلط وتشوِّه كل ما يقع بين أيديها؟ ومهما يكن من أمر، فإن قدراً طفيفاً من الفطنة ومن السيطرة على الذات يكفي لتحاشي أكثر مزالق تأويل الأحلام. لكن هل نتصور أننا سنصل يوماً إلى ما كنت أودّ عرضه عليك لو واصلنا على هذا المنوال خروجنا عن موضوعنا؟

ـ بلى: كنت تريد أن تعرض لي الجوانب الأساسية من علم النفس الجديد، إن كنت أحسنت فهمك.

ـ ما كان قصدي أن أبدأ بذلك. بل كان بودّي أن أطلعك على التصور الذي كوّناه لأنفسنا عن بنية الجهاز النفسي عبر دراساتنا التحليلية.

ـ أيمكن أن أسألك عما تعنيه بما تسمِّيه بـ «الجهاز النفسي»، ومما هو مكوَّن؟

ـ سيتبيَّن لك عما قليل ما هو الجهاز النفسي. لكني أرجوك ألا تسألني مما هو مكوَّن! فهذا لا أهمية سيكولوجية له، وهو لا يعني شيئاً لعلم النفس مثلما لا يعني شيئاً لعلم البصريات معرفة هل جوانب المقراب[٣] مصنوعة من المعدن أو من الورق المقوى. إننا سندع جانباً «ماهية» الأشياء، فلا نشغل أنفسنا إلا بموقعها في «المكان». والحق أننا نتصور الجهاز المجهول، الذي يضطلع بعمليات النفس، أشبه بأداة مركبة من أجزاء شتى متوافقة نطلق عليها اسم «الهيئات النفسية». فكل هيئة مولجة بوظيفة خاصة، وتقوم بين الهيئات علاقة مكانية ثابتة. وبعبارة أخرى، إن العلاقة المكانية، نظير «من أمام ومن خلف» أو «سطحي وعميق»، لا تعبِّر في نظرنا، بادئ ذي بدء، إلا عن التتابع المنتظم للوظائف. لكن أما زال واضحاً لك ما أقول؟

ـ بصعوبة، وربما فهمت فيما بعد، ولكن ما أعجبه من تشريح للنفس، لا نلقى له ما يطابقه في العلوم الطبيعية!

٢ ـ يوهان نستروي: ممثل ومغنٍّ وكاتب مسرحي نمساوي (١٨٠١ ـ ١٨٦٢). كتب العديد من المسرحيات، أكثرها ساخر. وقد لقب «بشكسبير النمساوي» و«أرسطوفان الفييناوي». «م».

٣ ـ التلسكوب. «م».



ـ على رسلك، ولكنه مجرد فرض، وما أكثر الفروض في العلوم. والفروض الأولى هي على الدوام على شيء من الفجاجة، وقابلة للمراجعة[٤]، كما يمكن لنا أن نقول، ولست أرى من حاجة هنا إلى استخدام التعبير الذي شاع وذاع: «كما لو أن». فقيمة مثل هذا«الوهم» ـ كما كان سيدعوه الفيلسوف فايهنغر ـ رهن بما يمكن أن نفعله به[٥].

وأتابع كلامي فأقول: إن لبثنا على أرض الحكمة الشائعة، اعترفنا بأن في الإنسان هيئة نفسية تستقبل من جهة أولى تنبيهاته الحسّية وتدرك حاجاته البدنية، وتوجِّه من الجهة الثانية أفعاله الحركية، وهي تقوم بدور صلة الوصل بين الطرفين برسم هدف محدد. على هذه الهيئة نطلق اسم **«الأنا»**. وليس هذا بالشيء الجديد؛ فكل منا يفرض هذا الفرض وإن لم يكن فيلسوفاً، بل ثمة منا من يفرضه حتى وإن كان طويل الباع في الفلسفة. لكن حذارِ من الاعتقاد بأننا استوفينا بذلك وصف الجهاز النفسي. فعلاوة على ذلك «الأنا» نقول بوجود منطقة نفسية أوسع مساحة وأرحب مدى وأكثر غموضاً من «الأنا»؛ وعلى هذه المنطقة نطلق اسم **«الهذا»**[٦]. والعلاقة القائمة بين «الأنا» و«الهذا» هي أول ما سيحظى منا بالاهتمام.

أرجح الظن أنك ستستهجن أن يكون اختيارنا قد وقع على هذين اللفظين الدارجين، لا على أسماء إغريقية طنانة، لنسمّي بهما هاتين الهيئتين أو المنطقتين النفسيتين. لكننا نحبذ، نحن المحللين النفسيين، أن نبقى على صلة بطرائق التفكير الشعبية، ونؤثر أن نجعل التصورات الشعبية قابلة للاستخدام من قبل العلم بدل أن

---

٤ ـ بالإنكليزية في النص: OPEN TO REVISION. «م».

٥ ـ «كما لو أن»: سفسطة قال بها الفيلسوف الألماني فايهنغر (١٨٥٢ ـ ١٩٣٣) في كتابه **«فلسفة كأن»** ومؤداها أن الكثير من الحقائق لا تعدو أن تكون أوهاماً يستعين بها العقل لعجزه أصلاً عن الوصول إلى الحقيقة. «م».

٦ ـ «الهذا» عند فرويد هو القطب الغريزي في الشخصية النفسية. وقد آثرنا ترجمة ES الألمانية و ID الإنكليزية و LE ÇA الفرنسية بـ «الهذا»، لا بـ «الهو» ولا بـ «الهي» كما درجت المدرسة المصرية. فالأصل فيه أنه ضمير لاشخصي. والحال أن «الهو» أو «الهي» ضمير شخصي، وإن يكن ضمير الغائب. وبما أنه لا وجود لضمائر لاشخصية بالعربية، فقد بدا لنا أن «الهذا» أبلغ دلالة. «م».



نبذها. وليس لنا في هذا فضل ندَّعيه، بل يرغمنا على سلوك هذا المسلك كون نظرياتنا بحاجة إلى أن تُفهم من قبل مرضانا الذين غالباً ما يكونون على قدر كبير من الذكاء، وإن لم يكونوا على الدوام من المتبحرين في دراسة الآداب القديمة. فـ «الهذا» اللاشخصي يتطابق مباشرة مع طرائق الإنسان العادي في الكلام والتعبير. أفما نراه يقول: «أرعدني هذا» و«كان هذا أقوى من أن أطيقه أنا»؟[٧].

إننا لا نستطيع أن نصف الأمور في علم النفس إلا بالاستعانة بالتشابيه. وهذا ليس مقصوراً على علم النفس، بل شائع في مجالات أخرى. لكن لا مفرّ أمامنا من تغيير التشابيه بلا انقطاع: فما من تشبيه يمكن أن يفي بالغرض على المدى الطويل. فإن شئتَ، إذاً، أن أوضح لك الصلة بين «الأنا» و«الهذا»، فسأطلب إليك أن تتصور «الأنا» وكأنه واجهة لـ «الهذا» أو سطحه الأول، أو طبقته الخارجية، أي لحاءه. ولنتمسك بهذا التشبيه الأخير: فنحن نعلم أن الطبقات اللحائية تدين عموماً بصفاتها الخاصة للتأثير التعديلي للوسط الخارجي المحيط بها. ولنتمثل الأشياء على النحو التالي: فالأنا هو الطبقة اللحائية ـ التي تتعدَّل بتأثير العالم الخارجي، بتأثير الواقع ـ للجهاز النفسي الذي يتمثَّل بالهذا. وأنت ترى كم نحمل، في التحليل النفسي، التصورات المكانية على محمل الجدّ. فـ «الأنا» عندي هو بالفعل الأكثر سطحية، بينما «الهذا» هو الأعمق، وهذا إذا ما نظرنا إليهما بطبيعة الحال من الخارج. و«الأنا» يقع موقعاً وسطاً بين الواقع الخارجي وبين «الهذا» الذي هو النفسي بالمعنى المحض للكلمة.

ـ لن أسألك الآن كيف توصلت إلى معرفة هذا كله. ولكن قل لي أولاً ما الجدوى من تمييزك بين «أنا» و«هذا»، وما الذي يقسرك عليه؟

ـ يدلني سؤالك على الاتجاه الذي ينبغي لي أن أمضي فيه. فالمهم بالفعل أن نعرف، في المقام الأول، أن «الأنا» و«الهذا» يختلفان أشدّ الاختلاف، ومن نواحٍ عدة. والقواعد التي تتحكم بالأفعال النفسية في «الأنا» هي غير تلك التي تتحكم

٧ ـ بالفرنسية في النص: C'ETAIT PLUS FORT QUE MOI. «م».



بها في «الهذا». و«الأنا» يرمي إلى أهداف أخرى وبوسائل أخرى. وهذا جانب من الموضوع يمكن لنا الإسهاب فيه مطوّلاً، لكن ألن يكفيك تشبيه جديد ومثال جديد؟ تخيَّل الفوارق بين الجبهة والمؤخرة على نحو ما تحددت في الحرب الأخيرة[8]. فيومئذ ما كان أحدنا ليدهشه أن تجري الأمور في الجبهة غير مجراها في المؤخرة، وأن تباح في المؤخرة أشياء كثيرة كان لا بدّ من تحريمها في الجبهة. وبديهي أن العامل الحاسم الأثر كان القرب من العدو، وهو في الحياة النفسية القرب من العالم الخارجي. ولقد كانت كلمات الخارج والأجنبي والعدو مترادفة فيما غبر. ولنأتِ الآن إلى المثال: فـ «الهذا» لا تدور فيه معارك، بل تتجاور فيه الأضداد والمتنافيات، بدون أن يعكِّر صفوها معكِّر، وكثيراً ما تستقر الأمور على تسويات وحلول وسطى. ولو واجه «الأنا» حالاً كهذه الحال لوقع فريسة نزاع لا بدّ له من حلّ، ولما جاء الحلّ إلا في صورة عزوف عن دافع من الدوافع لصالح آخر. ذلك أن «الأنا» عبارة عن هيئة تتميَّز بميل ملحوظ إلى الوحدة وإلى التركيب؛ أما «الهذا» فيفتقد هذه الخاصية ـ فلكأنه من ثم مفكَّك، عادم التلاحم، وكل صبوة من صبواته تنشد هدفها الخاص، غير حافلة بما عداها.

ـ إن تكن هناك منطقة خلفية نفسية بمثل هذه الأهمية، فكيف تفسِّر لي أن الناس غفلت عنها إلى أن رأى التحليل النفسي النور؟

ـ ها نحنذا قد عدنا إلى أحد أسئلتك السابقة. فعلم النفس سدّ على نفسه المنفذ إلى مضمار «الهذا» منذ أن تمسك بفرضية بدت للوهلة الأولى قابلة للتصديق، ولكنها في الواقع غير قابلة للتأييد، أعني الفرضية القائلة إن الأفعال النفسية واعية، وإن «الوعي» هو العلامة الفارقة للنفسي، وإنه لو دارت في دماغنا عمليات لاواعية فهي لن تستأهل اسم الأفعال النفسية ولن تمتّ بصلة إلى علم النفس،

ـ هذا من بديهيات الأمور، فيما يبدو لي.

ـ أجل، هذا ما يعتقده أيضاً علماء النفس ولكن من اليسير علينا مع ذلك أن

---

٨ ـ الحرب العالمية الأولى. «م».



نتبيّن خطأ هذا الاعتقاد، ومجانبة عملية الفصل والتفريق هذه للحقيقة. فحتى الملاحظة السطحية للذات تدلنا على أن الإنسان يمكن أن تراوده أفكار وخواطر مباغتة، لكن بدون أن يعني هذا أنها بزغت دونما إعداد وتحضير. لكنك لن تدرك شيئاً من هذه الأحوال التمهيدية لتفكيرك، التي لا بدّ أن تكون هي أيضاً من طبيعة نفسية، ولن يقع في شعورك منها سوى نتيجتها النهائية، ولن يتأتى لك إلا في مناسبات نادرة، وبعد أن يكون كل شيء قد تمّ، أن تسترجع عن طريق الوعي، وبما يشبه عملية «إعادة البناء»، أطوار الفكر التمهيدية تلك.

ـ أرجح الظن أن الانتباه كان منصرفاً عنها، وهذا ما حال دون ملاحظة هذه الأطوار التمهيدية في حينها.

ـ هذه تعِلّة واهية للتملص! لكنك لست مستطيعاً المماراة في واقع أنه قد تحدث في داخلك أفعال من طبيعة نفسية، وبالغة التعقيد في كثير من الأحيان، لا يدرك منها وعيك شيئاً، ولا يقع منها شيء في متناول معرفتك. أم تراك على استعداد للأخذ بالفرضية التي تقول إن «قدراً طفيفاً» من «الانتباه» يكفي لقلب الفعل غير النفسي إلى فعل نفسي؟ وعلى كل حال، ما الجدوى من هذا النقاش؟ فثمة تجارب في التنويم المغنطيسي تثبت وجود مثل هذه الأفكار غير الواعية وجوداً قاطعاً لا يمكن أن يماري فيه من يريد أن يرى الأمور على حقيقتها.

ـ لا أودّ أن أناقضك، لكن يخيَّل إليّ أني بدأت أفهم ما تعنيه. فما تسمّيه بـ«الأنا» هو الوعي، أما ما تدعوه بـ «الهذا» فهو ما يطلق عليه اسم «ما تحت الوعي» الذي يدور حوله في الوقت الراهن لغط كثير! ولكن ما الداعي إلى مثل هذا التنكّر خلف أسماء جديدة!

ـ ليس في الأمر أي تنكُّر؛ فتلك الأسماء الأخرى غير قابلة للاستعمال. ودعك من محاولة أخذي بالأدب قبل العلم. فمن يتكلم عن عمليات ما تحت واعية، ولا أدري إن كان يتكلم عنها بالمعنى الطبوغرافي ـ أي ما يكمن في النفس تحت الوعي ـ أم بالمعنى الوصفي، قاصداً بها وعياً آخر، باطنياً إن جاز التعبير. وأرجح الظن أن محاوري نفسه لا يملك فكرة واضحة جداً عن المقصود بذلك. ومهما يكن من أمر، فإن التقسيم الوحيد المقبول هو التمييز بين «الواعي»



و«اللاواعي». لكن من الخطأ الفاحش الذي قد يترتب عليه وخيم العواقب الافتراض بأن مثل هذا التقسيم يتطابق مع التقسيم إلى «أنا» و«هذا». ولا ريب في أن الأمر لو كان بمثل هذه البساطة لكان رائعاً، ولكانت كل السبل تيسَّرت أمام نظريتنا. بيد أن الواقع غير هذا. فالشيء الوحيد الأكيد أن كل ما يجري في «الهذا» لاواعٍ ويبقى لاواعياً، على حين أن السيرورات التي تحدث في «الأنا» يمكن لها، وحدها، أن تصير واعية. لكنها ليست جميعها واعية، لا بالضرورة، ولا على الدوام، ومن الممكن لأجزاء كبيرة من «الأنا» أن تبقى أبداً لاواعية[٩].

إن الكيفية التي تصير بها سيرورة نفسية ما سيرورة واعية أمر معقد. ولست أستطيع أن أمسك نفسي عن أعرض عليك هنا أيضاً بطريقة دوغمائية ما نراه في هذه المسألة. فأنت تذكر أن «الأنا» هو الطبقة الخارجية، المحيطية، من «الهذا». والحال أننا نعتقد أنه توجد على السطح الخارجي الظاهر لهذا «الأنا» هيئة خاصة متجهة مباشرة نحو العالم الخارجي، هي عبارة عن نظام أو عضو يمكن عن طريق تنبيهه وحده أن ترى النور الظاهرة التي نسمّيها بالوعي. ومن الممكن استثارة هذا العضو من الخارج، عن طريق استقباله، بمعونة أعضاء الحسّ، التنبيهات الصادرة عن العالم الخارجي، أو من الداخل، عن طريق تعرُّفه إلى الأحاسيس الكامنة في «الهذا» أولاً، ثم إلى السيرورات التي تجري في «الأنا» ثانياً.

ـ الأمر يسير من سيء إلى أسوأ، والفهم يعزّ عليّ أكثر فأكثر. لقد كنت دعوتني إلى محادثة مقتضبة حول المسألة التالية: هل يحقّ لغير الأطباء أن يمارسوا أيضاً المعالجة التحليلية النفسية؟ فما بالك تسهب هذا الإسهاب الذي لا طائل فيه في عرض نظريات عويصة غامضة، يتعذّر عليك إقناعي بصحّتها؟

ـ أعرف ذلك، أعرف أني لست مستطيعاً إقناعك. فهذا يخرج عن طاقتي، ومن ثم عن مقصدي. فنحن عندما نلقي على تلاميذنا دروساً نظرية في التحليل النفسي، يتسنى لنا أن نلاحظ كم يبقى ما نقوله لهم عديم التأثير فيهم أول الأمر.

٩ ـ نعود إلى التذكير هنا بالصعوبة التي يصطدم بها المترجم العربي عندما يتصدى لترجمة كلمة الوعي CONSCIENCE والنعوت المشتقة منها، وذلك بعد أن شاع في اللغة العربية التمييز في اللفظ وفي المعنى بين الوعي والشعور وكذلك بين سائر النعوت المشتقة منهما. «م».



فهم يتلقون النظريات التحليلية ببرود مماثل لذاك الذي يستقبلون به التجريدات الأخرى التي تحشى أدمغتهم بها. وقد يبدي بعضهم رغبة صادقة في الاقتناع، لكن ليس ثمة ما يدل على اقتناعهم فعلاً. ولهذا نطلب إلى كل من يرغب في ممارسة التحليل النفسي على الآخرين أن يجري على نفسه أولاً هذا التحليل. وإنما في أثناء هذا «التحليل الذاتي» (كما يدعى خطأ)[10] ومن خلال إحساس تلاميذنا في أجسامهم ـ أو بالأصح في أنفسهم بالذات ـ بالسيرورات التي يؤكد التحليل النفسي وجودها، يتولّد لديهم الاقتناع الذي سيسدِّد خطاهم فيما بعد كمحللين نفسانيين. فكيف لي، والحال هذه، أن أتوقع أن يكون في مستطاعي إقناعك بصحة نظرياتنا، أنت الخبير الحيادي الذي لا يسعني أن أضع أمامه سوى عرْض ناقص، مبتور، وبالتالي مبهم، غامض، علاوة على أنه يعوزه التأييد من صميم خبرتك وتجربتك؟

والحق أني أنشد هدفاً آخر. فليس بيت القصيد هنا مناقشة ما إذا كان التحليل النفسي معقولاً أو فارغاً، وما إذا كان مدّعاه ينهض على أساس من الصواب أو الخطل الفادح. بل إني أعرض نظرياتنا أمام ناظريك، لأن هذا خير سبيل لأبيِّن لك ما الأفكار التي ينهض عليها بنيان التحليل النفسي، وما المقدمات التي ننطلق منها حين نشرع بعلاج مريض من المرضى، وما الخطة التي يعتمدها في هذا العلاج. ومن ثم سنسلط ضوءاً قوياً على مسألة ممارسة التحليل من قبل غير الأطباء. لكن لتطمئن نفساً! فما دمت قد تتبعتني لحدّ الآن، فقد تحملت الجانب الأعسر، أما ما سيلي فسيبدو لك سهلاً ميسوراً. لكن دعني الآن أستردَّ أنفاسي وأصبْ شيئاً من الراحة.

---

١٠ ـ معلوم أن فرويد كان يرفض من حيث المبدأ التحليل الذاتي، أي قيام المحلل النفسي بتحليل نفسه بنفسه. «م».



(٣)

ـ أتوقع أن تشرح لي كيف ينشأ، انطلاقاً من نظريات التحليل النفسي، المرض العصبي؟

ـ سأحاول ذلك. لكن علينا في هذه الحال أن ندرس «الأنا» و«الهذا» من وجهة نظر جديدة، هي الوجهة الدينامية، أي آخذين بعين الاعتبار القوى التي تتواجه في داخلهما وفيما بينهما. فقد اكتفينا حتى الآن **بوصف** الجهاز النفسي.

ـ المهم ألا تعسّر عليَّ الأمر من جديد!

ـ آمل أن لا. بل أعتقد أن المسألة كلها ستتوضح لك عما قليل. ولنبدأ بالتسليم بأن القوى التي تحرّك الجهاز النفسي تتولد عن أعضاء الجسم وتعبّر عن حاجات الجسم الكبرى. ولعلك تذكر كلمات شاعرنا الفيلسوف: **الجوع والحب**[١]. زوج من قوى مهيبة جبارة! ونحن نطلق على هذه الحاجات الجسمية، من حيث أنها هي التي تحضّ على النشاط النفسي، اسم TRIEB[٢]، وهو لفظ تحسدنا عليه لغات حديثة شتى. وهذه الدوافع الغريزية تملأ «الهذا»؛ بل سنقول باقتضاب: إن كل الطاقة الكامنة في «الهذا» تنبثق عنها. كما أن القوى

---

١ ـ هو شيلر الذي قال في قصيدته **حكماء العالم**:

بانتظار أن تتكفل الفلسفة

بتحقيق تلاحم بنية العالم

تتكفل الفلسفة بتسيير الدواليب

بالجوع والحب. «م».

٢ ـ يميّز فرويد هنا بين الغريزة INSTINKT، وهو لفظ له ما يقابله في أكثر اللغات، وبين الدافع الغريزي TRIEB، وهو لفظ تنفرد به اللغة الألمانية ويترجم إلى الفرنسية بـ PULSION وإلى الإنكليزية بـ DRIVE. وفرويد لا يستعمل عادة مصطلح الغريزة إلا بمعناها الحيواني. أما الدافع الغريزي فهو لدى الإنسان ميل ونزوع أكثر منه حاجة جبرية وقاهرة. «م».



الموجودة داخل «الأنا» ليس لها بدورها من مصدر آخر، فهي مشتقة من القوى المحتواة في «الهذا». وماذا تبغي هذه الدوافع الغريزية؟ الإشباع، أي استحداث مواقف يمكن فيها للحاجات البدنية أن تُروى وتنطفئ. فإن انخفض توتر الرغبة كان له، في عضو إدراكنا الحسي الواعي، وقع اللذة؛ وإن زاد التوتر عينه نجم عنه شعور بالكدر. ومن هذا التـأرجح تتولد سلسلة أحاسيس «اللذة/الكدر»، الناظمة لنشاط الجهاز النفسي كله. وهذا ما نسمِّيه «سيادة مبدأ اللذة».

إن حالة لا تطاق تنشأ إذا لم تجد دوافع «الهذا» الغريزية ما يشبع مطالبها. وسرعان ما تدل الخبرة أن مثل هذا الإشباع لا سبيل إلى الفوز به إلا بمعونة العالم الخارجي. وعندئذ يشرع في العمل ذلك الجزء المتجه نحو العالم الخارجي من «الهذا»، أي «الأنا». فإن تكن كل القوة التي تمدّ السفينة بالطاقة المحرّكة مستمدَّة كلها من «الهذا»، فإن دور «الأنا» يكون في هذه الحال أشبه بمن يدير الدفة التي لا يمكن بدونها بلوغ أي هدف. إن دوافع «الهذا» الغريزية تصبو إلى إشباع فوري، فظ، لا يقيم اعتباراً لشيء، فلا تحصل على هذا النحو على شيء. بل قد تنزِل بنفسها أذى محسوساً. وتقع عندئذ على عاتق «الأنا» مهمة تدارك هذا الفشل، والتدخل باعتباره وسيطاً بين مطالب «الهذا» وبين المعارضات التي يُواجه بها هذا الأخير من قبل العالم الواقعي الخارجي. ويبذل «الأنا» نشاطه في اتجاهين. فمن جهة أولى يراقب العالم الخارجي، مستعيناً في ذلك بأعضاء الحسّ، أي النسق الشعوري، ومتحيّناً الفرصة المناسبة لإشباع غير محفوف بالمخاطر؛ ومن الجهة الثانية يمارس تأثيره على «الهذا» ويلجم أهواءه، ويحضّ الدوافع الغريزية على إرجاء إشباعها، بل يرغمها، إذا ما رأى ضرورة لذلك، على تغيير الأهداف التي تنزع إليها أو على العزوف عنها مقابل تعويض ما. وإذ يقيّد «الأنا» «الهذا» بهذا النير، يستبدل مبدأ اللذة، الذي لم يكن ثمة في الأصل مبدأ ساري المفعول غيره، بما نسميه «مبدأ الواقع»، الذي ينشد بلا ريب الهدف نفسه، ولكنه يدخِل في حسابه الشروط التي يفرضها العالم الخارجي. وفي وقت لاحق يتنبه «الأنا» إلى وجود وسيلة أخرى لتأمين الإشباع غير التكيُّف، الذي تكلمنا عنه، مع العالم الخارجي. وبالفعل، يمكن التأثير على العالم الخارجي بغية تعديله وخلق شروط فيه

عن سبق عمد بحيث يغدو الإشباع ممكناً. وعندئذ يمسي هذا الضرب من النشاط أسمى إنجاز لـ «الأنا»؛ فكل فن الحياة يتلخص في روح التصميم التي تفسح في مجال الاختيار أمام المرء ليقرر متى يجدر به أن يلجم أهواءه ويرضخ للواقع ومتى ينبغي له أن يأخذ بناصية هذه الأهواء عينها ويحارب في سبيلها ضد العالم الخارجي.

ـ وكيف يسلس «الهذا» قياده لـ «الأنا»، ويسوقه كيفما يشاء، وهو أقوى الاثنين إن كنت أحسنت فهمك؟

ـ أجل، هذا ما يحدث فعلاً، ما دام «الأنا» يتمتع بتنظيمه الشامل، وبتمام قدرته على الفعل، وما دام في مكنته أن ينفذ إلى جميع مناطق «الهذا» وأن يمارس عليها تأثيره. وبالفعل، لا وجود لعداء طبيعي بين «الأنا» و«الهذا»، فهما يؤلفان كلاً واحداً، ولا مجال من الناحية العملية للتمييز بينهما في حالة الصحة والسلامة النفسية.

ـ هذا مفهوم. لكنني لا أرى كيف يمكن لمثل هذه العلاقة المثلى أن تفسح مجالاً، ولو ضيقاً، لاضطراب مرضي.

ـ صدقت: فما دام «الأنا» يستجيب، في صِلاته بـ «الهذا»، لهذه المطالب المثلى، فلن يقع أي اضطراب عصبي. أما المدخل إلى المرض فيقع حيث لا يشتبه فيه أحد، ولو أن أحداً ممن يعرفون علم الأمراض العام لن يدهشه أن يتأكد الأمر هنا مرة أخرى: فأهم التطورات والتمايزات هي على وجه التدقيق تلك التي تحمل في ذاتها بذرة الدخول في الداء، أي القصور الوظيفي.

ـ هأنتذا تغرق في العلم، فيعسر عليّ من جديد فهمك.

ـ يجب أن أتناول الأمور من أولها. إن الكائن الصغير الذي يأتي إلى الدنيا هو، كما تعلم، شيء صغير مسكين وعاجز عن مواجهة العالم الخارجي الكلي الجبروت والطافح بالمفاعيل الهدامة. والكائن البدائي، الذي لم يطوِّر بعد «أنا» منظَّماً، عرضة لجميع الصدمات والرضات. فهو لا يعيش إلا لإشباع حاجاته الغريزية إشباعاً أعمى، مما قد يتسبب في كثير من الأحيان في هلاكه. فتمايز



«الأنا» هو في المقام الأول خطوة نحو صيانة الحياة. وبديهي أن الكائن، إذا ما هلك، لا يكون قد استفاد من تجربته مغنماً، لكنه إن بقي على قيد الحياة بعد الصدمة أخذ حذره، متى ما نشأت مستقبلاً مواقف مماثلة وقرع ناقوس الخطر، بتكراره على نحو مختصر الانطباعات التي خالجته في أثناء الرضة الأولى: وهذا هو وجدان الحصَر. وردّ الفعل هذا على الخطر يستتبع محاولة للهرب، كشرط للنجاة والسلامة، إلى أن يشتدّ عود الكائن ويمتلك ما فيه الكفاية من القوة لمواجهة الأخطار التي يعجّ بها العالم الخارجي مواجهة إيجابية وفعالة، وقد ينتقل حتى إلى الهجوم.

ـ هذا يجرّنا بعيداً جداً عما كنت وعدت ببيانه لي.

ـ إنما أنت الذي لا يخطر له ببال كم أنا على وشك الوفاء بوعدي! فحتى لدى الكائنات التي سيتطور لديها لاحقاً «أنا» منظم في مستوى ما ينتظره من مهام، يكون «الأنا» في طور الطفولة ضعيفاً وغير متمايز تمايزاً واضحاً عن «الهذا». والآن لنتصور ما سيقع حين سيواجه هذا «الأنا» الذي لا حول له ولا قوة مطلباً غريزياً من مطالب «الهذا»، مطلباً بودّه لو يقاومه ويردعه، لإدراكه بأن إشباعه محفوف بالمخاطر، وقد ينشأ عنه موقف رضّيٌّ وصدامٌ مع العالم الخارجي، ولكن من غير أن تتوفر له القدرة بعد على السيطرة على هذا المطلب الغريزي. ففي هذه الحال يعتبر «الأنا» الخطر الغريزي الداخلي خطراً خارجياً، فيحاول أن يهرب، وينسحب من منطقة «الهذا»، ويتركه لمصيره بعد أن يحجب عنه أي شكل من أشكال المعونة التي اعتاد أن يضعها تحت تصرف الحاثات الغريزية. عندئذ نقول إن «الأنا» يشرع بكبت تلك الحاثات الغريزية. والنتيجة المباشرة لذلك درء الخطر، لكن الخلط بين ما هو داخلي وما هو خارجي لا يتمّ بلا عقاب. والمرء لا يستطيع هرباً من ذاته. و«الأنا»، حين يكبت، يخضع لمبدأ اللذة، الذي من مهمته المعتادة تعديله، ومن ثم لا مناص من أن يلحقه نتيجة لذلك ضرر. ويتمثل هذا الضرر في أن «الأنا» يكون قد ضيَّق على هذا النحو بصفة مستديمة حدود سلطانه. فالحاثة الغريزية المكبوتة قد باتت الآن معزولة، متروكة لشأنها، بعيدة المنال، ولكن في الوقت نفسه عصية على أي تأثير. فهي ستسلك



من الآن فصاعداً سبلها الخاصة. ولن يتمكن «الأنا» بعد ذلك بصفة عامة، حتى ولو اشتد عوده وعظمت قوته، من رفع الكبت: فتركيبه قد تفكك، وبقي جزء من «الهذا» أرضاً محرَّمة على «الأنا». بيد أن الحاثة الغريزية المعزولة لا تقف، هي الأخرى، مكتوفة اليدين، بل تعمل على تعويض نفسها عن الخسارة التي لحقت بها من جراء حرمانها من الإشباع العادي، فتنتج فسائل نفسية تنوب منابها، وتربط نفسها بسيرورات نفسية أخرى بعد أن تفصلها بدورها عن «الأنا» بقوة تأثيرها، وأخيراً تقتحم مجال «الأنا» والشعور في صورة تشكيل بديل مشوه، لا سبيل إلى تعرُّف أصله؛ وبالاختصار، تنشئ ما يسمى بـ «العرَض». وهكذا ندرك الآن بنظرة واحدة ما كنه الاضطراب «العصبي»: فمن جهة أولى، «أنا» معطَّل في تركيبه، ولا نفوذ له على جزء من «الهذا» ومحتّم عليه أن يقلع عن ممارسة شطر من نشاطه تفادياً لاصطدام جديد بما هو مكبوت، ومستنفد قواه في حرب لا طائل فيها ضد الأعراض وفسائل الحاثات المكبوتة؛ ومن الجهة الأخرى، «هذا» استقلت فيه الدوافع الغريزية المعزولة بنفسها، وصارت تنشد أهدافها الخاصة بدون أي مراعاة لمصالح الكائن العامة، ولا تخضع لغير قوانين السيكولوجيا البدائية التي تمسك بزمام الأمور في أعماق «الهذا». فإن نظرنا الآن إلى الأشياء من علٍ، تبدى لنا تكوين الأعصبة في هذه الصيغة البسيطة: فـ «الأنا» حاول خنق بعض أجزاء «الهذا» **بطريقة غير موائمة**، فمُني بالفشل، فهبّ «الهذا» يأخذ بثأره. العصاب إذاً نتيجة صراع بين «الأنا» و«الهذا»، صراع يشارك فيه الأنا ـ والفحص المعمَّق يثبت ذلك ـ لأنه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يتخلى عن ارتباطه بوقائع العالم الخارجي. والتعارض إنما هو بين العالم الخارجي «والهذا». وبما أن «الأنا»، وفاء منه لماهيته الصميمة، يأخذ بناصر العالم الخارجي، فإنه يزجّ بنفسه في نزاع مع «الهذا». لكن حذارِ من الاعتقاد بأن هذا الصراع بحدّ ذاته هو ما يتسبب في المرض ـ فمثل هذه المنازعات بين الواقع و«الهذا» محتومة، وأحد واجبات «الأنا» الدائمة التوسط بينهما ـ وإنما ما يؤدي إلى المرض هو كون «الأنا» يستخدم، لحسم الصراع، وسيلة غير كافية، هي الكبت. على أن علة ذلك بدوره أن «الأنا»، حين انطرحت عليه هذه المهمة، كان لا يزال واهي النمو



وبلا قوة. وبالفعل، إن أخطر ضروب الكبت تتمّ جميعها في الطفولة الأولى.

ـ يا له من لفّ ودوران! إني أتقيَّد بنصيحتك، وأمتنع عن النقد، وذلك ما دام كل غرضك أن تبيِّن لي كيف يتصور التحليل النفسي نشوء الأعصبة، لتربط به من ثمّ خطته في علاجها. وإن لديّ أسئلة كثيرة أطرحها، وسوف أطرح بعضاً منها لاحقاً. غير أني أميل أولاً إلى اقتفاء خطاك، لأحاول بدوري أن أتقدم بفرضية وأن أنشئ نظرية. لقد أوضحتَ لي العلاقة بين العالم الخارجي والأنا والهذا، وجعلت الشرط الرئيسي للأعصبة أن يدخل «الأنا»، المقيَّد بالتبعية للعالم الخارجي، في نزاع من «الهذا». أفلا يمكن لنا تصور العكس في مثل هذا النزاع، بحيث ينجرف «الأنا» خلف «الهذا» ويسقط من حسابه كل مراعاة للعالم الخارجي؟ وماذا يحدث في مثل هذه الحال؟ إني لست من أهل العلم في هذه المسائل، ولكن يخيِّل إليّ، بحسب ما تجمع لديّ من أفكار حول طبيعة مرض من الأمراض النفسية، أن ذلك قد ينشأ عن قرار كذاك يتخذه «الأنا». وعلى هذا، إن السمة الرئيسية للمرض النفسي هي، فيما يبدو لي، الإشاحة عن الواقع.

ـ أجل، هذا ما ذهب بي الفكر إليه أنا نفسي، وأعتقد أن ذلك هو الصواب، وإن يكن البرهان على هذه الفكرة يقتضي مناقشة علاقات بالغة التعقيد. وبديهي أن صلة قربى وثيقة تجمع بين العصاب والذهان، ومع هذا لا بدّ أن يختلفا في نقطة رئيسية ما. وقد تكون هذه النقطة هي الطرف الذي سينحاز إليه «الأنا» في مثل هذا الصراع. أما «الهذا» فالمفروض فيه، في كلا الحالين، أن يُحافظ على طبعه المتصلب وعناده الأعمى.

ـ على رسلك، أرجوك أن تتابع. بمَ يمكن أن تفيد نظريتك من ناحية علاج الأعصبة؟

ـ يسير علينا الآن تحديد هدفنا العلاجي. فنحن نبغي أن نعيد بناء «الأنا»، وأن نحرره من قيوده، وأن نردّ إليه سيطرته على «الهذا»، تلك السيطرة التي فقدها من جراء كبوتاته المبكرة. لهذا الهدف وحده نقوم بالتحليل، وكل تقنيتنا تسعى إلى هذه الغاية. فعلينا أن نبحث عن الكبوتات القديمة، وأن نحضّ «الأنا» على تصحيحها بمعونتنا، وعلى حلّ مشكلاته على نحو آخر وأفضل غير محاولة



الهرب منها. وبما أن هذه الكبوتات تحدث في زمن مبكر جداً في الطفولة، فإن العمل التحليلي لا بدّ أن يعود بنا القهقرى إلى هذه الحقبة. وغالباً ما تكون المواقف التي عنها نشأت هذه المنازعات القديمة قد طوتها يد النسيان، والطريق التي ترجعنا إليها تهدينا إليها أعراض المريض وأحلامه وتداعياته الحرة التي لا بدّ لنا في هذه الحال من تأويلها وترجمتها، لأنها تكون قد ارتدت، تحت سلطان سيكولوجيا «الهذا»، أشكالاً غريبة تصدم إدراكنا. إن الأفكار العارضة والخواطر والذكريات، التي لا يبوح لنا بها المريض بدون صراع داخلي، تبيح لنا أن نفترض أنها تمتّ، على نحو ما، بصلة قربى إلى المكبوت، أو أنها فسائل متفرعة منه. وحين نحضّ المريض على التغلّب على مقاوماته وعلى البوح لنا بكل شيء، ندرّب أناه على الظهور على ميله إلى الهرب والفرار ونعلّمه أن يتحمل اقتراب «المكبوت». وحينما يتوصل في آخر الأمر إلى أن يستعيد في ذاكرته الموقف الذي أدى إلى الكبت، تكون مكافأته على هذه الاستجابة عظيمة! ففارق الزمن عمل لصالحه: فالأشياء التي لاذ أمامها أناه الطفلي مذعوراً تظهر في كثير من الأحيان للأنا الراشد الذي اشتدّ عوده وقوِيَ ساعده أشبه بعبث الأطفال.



(٤)

ـ كل ما رويته لي حتى الآن كان من قبيل علم النفس. وكثيراً ما لاح لي غريباً، عويصاً، غامضاً، لكنه كان على الدوام... نظيفاً، إن جاز لي القول. صحيح أني ما كنت أعرف حتى اليوم شيئاً ذا بال عن تحليلكم النفسي، لكنه يصبّ اهتمامه الرئيسي، بحسب ما ترامى إليّ من الشائعات، على أمور لا يصدق عليها ذلك الوصف. والحال أنك ما عرضت حتى الآن لأشياء من هذا القبيل؛ ويخيَّل إليّ أنك تتعمّد هنا التحفُّظ. كما أني لا أستطيع أن أكتمك شكاً آخر يراودني. فالأعصبة، على حدّ قولك بالذات، عبارة عن اضطرابات في الحياة النفسية. ولكن ألا تلعب أمور الأخلاق والضمير والمثل العليا، بكل ما لها من أهمية، أي دور على الإطلاق في هذه الاضطرابات العميقة؟

ـ أنت تأسف إذاً لأن حديثنا اقتصر حتى الآن على موضوعين: ما يتصل بأحطّ الأمور وما يتصل بأرفعها. ومردّ ذلك إلى أننا لم نعرض بعد لمضمون الحياة النفسية. فدعني الآن ألعب أنا نفسي دور المقاطِع، فأوقف لهنيهة من الزمن مجرى حديثنا. فلئن توسعت معك إلى هذا الحدّ في الكلام في علم النفس، فلأني كنت أرغب في أن أوحي إليك بأن العمل التحليلي هو قسم من علم النفس التطبيقي أو بالأحرى شطر من علم نفس لا يزال خارج الدوائر التحليلية مجهولاً. فعلى المحلل، قبل أي شيء آخر، أن يكون قد ألمَّ بعلم النفس هذا، علم نفس الأعماق أو علم نفس اللاشعور ـ أو على أي حال في حدود ما بلغت إليه معارفنا عنه إلى يومنا هذا. ولسوف تكون بنا حاجة إلى هذا في استنتاجاتنا اللاحقة. أما الآن فأخبرني بما كان قصدك حين ألمحت إلى النظافة؟

ـ حسناً. يقال إن التحليل النفسي يتناول أخصّ شؤون الحياة الجنسية وأفحش دقائقها بتفصيل لا تورع فيه. فإذا كان الأمر كذلك ـ وأنا لم أستخلص من



شروحك السيكولوجية أن الأمر لهو بالحتم كذلك ـ كان حجة قوية لعدم السماح لغير الأطباء بالقيام بمثل هذا العلاج. إذ كيف يمكن البوح بأشياء جريئة وخطرة كهذه لأشخاص من غير الأطباء، مشكوك في التزامهم بالكتمان ولا ضامن لاستقامتهم؟

ـ لا مراء في أن للأطباء، في مضمار الحياة الجنسية، بعض الامتيازات، بل إن من حقهم فحص الأعضاء التناسلية، وإن لم يكن ذلك مباحاً لهم في الشرق؛ ناهيك عن أن بعض دعاة إصلاح الأخلاق ـ وأنت تعرف من أعني[1] ـ أنكروا عليهم هذا الحقَّ. لكنك تودّ أولاً أن تعلم ما إذا كان الأمر كذلك في التحليل النفسي، ولماذا كان من المحتم أن يكون كذلك؟ وإني لأجيبك: أجل، إن الأمر لكذلك حقاً ولا بدّ من أن يكون كذلك. أولاً، لأن التحليل النفسي ينهض على أساس الصدق المطلق. ففيه تُتداول، مثلاً، الأمور المالية بصراحة ودقة، فيدلي المريض باعترافات لا يدلي بمثلها أمام أي مواطن من مواطنيه، حتى وإن لم يكن مزاحماً له، أو أمام جابٍ من جباة الضرائب! وأما أن هذا الالتزام بالصدق يرتِّب مسؤولية أخلاقية جسيمة على عاتق المحلِّل نفسه، فهذا ما لا أماري فيه، بل بالعكس ألفت انتباهك إليه، وأحرص على أن أفعل. ولا بدّ أن يكون الأمر كذلك، ثانياً، لأن عوامل الحياة الجنسية تلعب، بين سائر العلل الفاعلة أو الموجبة للأمراض العصبية، دوراً خطيراً، راجحاً، بل حاسماً. وماذا بوسع المحلل أن يفعل غير أن يتكيف مع المادة التي يزوِّده المريض بها؟ إن المحلل لا يدفع بالمريض أبداً نحو المضمار الجنسي، ولا يقول له سلفاً: إن الأمر يتعلق بدخائل حياتك الجنسية! بل يدعه يبدأ كما يحلو له، وينتظر بهدوء أن يطرق المريض بنفسه الموضوعات الجنسية. وإني لأحرص على تنبيه تلاميذي إلى أن خصومنا بشّرونا بأننا سنلاقي حالات لا يلعب فيها العامل الجنسي أي دور، وأن من واجبنا بالتالي أن نحاذر زجّه في التحليل بأيدينا، وإلا أضعنا الفرصة للعثور على حالة كتلك! ولكن إلى اليوم لم يصادف أحدَنا حسنُ الطالع هذا!

---

١ ـ أرجح الظن أنه تولستوي. «م».



إني أعلم أن موقفنا من الجنسية هو الذي غدا أقوى باعث ـ أجُهر به أم لم يجهر ـ لعداء الجمهور للتحليل النفسي. فهل لهذا أن يزرع فينا الشك؟ كلا، بل الأولى بنا أن نستدل منه على مدى اتسام حضارتنا كلها بطابع عصابي، وذلك ما دام الأسوياء المزعومون يسلكون فيها سلوكاً لا يكاد يختلف عن سلوك «العصبيين».

يوم كان التحليل النفسي عرضة للإدانة الصاخبة في الجمعيات العلمية في ألمانيا ـ وقد خفتت الأصوات اليوم خفوتاً ملموساً ـ ادعى خطيب من الخطباء أنه مخوَّل سلطة خاصة للحكم نظراً إلى أنه كان يدع هو أيضاً ـ على حدّ قوله ـ مرضاه يتكلمون ويفصحون عما بأنفسهم! ولا ريب في أنه كان يفعل ذلك بهدف تشخيصي، وللتحقق من دعاوى المحللين. غير أنه سرعان ما أضاف قوله إنه ما إن يبدأ مرضاه بالكلام عن الشؤون الجنسية حتى يأمرهم بإغلاق أفواههم.

فما رأيك في مثل هذا الإجراء؟ ومع ذلك هتفت الجمعية العلمية للخطيب وصفَّقت بدل أن تعلوها حمرة الخجل بالنيابة عنه كما هو مفروض. وليس لنا أن نفسر ازدراء هذا الخطيب المعلن لكل منطق إلا بتوطُّد اليقين المظفَّر لديه بأن الآخرين كلهم يشاطرونه أحكامه المسبقة المتحيِّزة. وبعد مضيّ بضع سنوات استجاب بعض ممن كانوا تلامذتي للحاجة إلى تحرير المجتمع الإنساني من نير الجنسية الذي يريد التحليل النفسي أن يكبِّله به. فصرح أحدهم[٢] أن «الجنسي» لا يعني البتة شيئاً يتصل بـ «الحياة الجنسية» وإنما هو شيء مختلف مجرد، روحاني؛ وادعى ثانٍ[٣] أن الحياة الجنسية ما هي إلا واحد من المضامير التي يمارس فيها الإنسان شهوته الغريزية إلى القوة والسيطرة. وقد وُجد من صفَّق لهما تصفيقاً كثيراً ـ لحين من الزمن على الأقل.

ـ إني سأجازف، ولو لمرة واحدة. بالتحيُّز. فمن الجرأة البالغة، فيما يبدو لي، الادعاء بأن الجنسية ليست حاجة طبيعية وأولية من حاجات الكائن البشري،

٢ ـ كارل غوستاف يونغ. «م».

٣ ـ ألفريد آدلر. «م».



وأنها مجرد تعبير عن شيء مغاير. وحسبنا لهذا أن نرجع إلى مثال الحيوانات!

ـ كلامك هذا لن يقدم ولن يؤخر. فالمجتمع لن يمتنع عن تجرع أي شراب مزيج، مهما ابتعد مزجه عن المعقول، إذا قيل له إنه هو الترياق ضد الجنسية وجبروتها.

وإني لأصارحك، بالمناسبة، بأن النفور الذي ظهر لي منك حيال فكرة أن العامل الجنسي يضطلع بدور كبير في نشوء الأعصبة لا يبدو لي متفِّقاً وواجبك في التجرد والحياد. أفلا تخشى أن يعيقك هذا النفور عن إصدار حكم منزَّه؟

ـ يحزّ في نفسي أن أسمعك تتكلم على هذا النحو. ويبدو لي أن ثقتك بي قد اهتزت. فلمَ لم يقع اختيارك إذاً على شخص آخر ليكون سامعاً حيادياً؟

ـ لأن هذا الشخص الآخر لن يفكر تفكيراً يختلف عن تفكيرك. وحتى لو كان عنده استعداد مسبق للاعتراف بأهمية الحياة الجنسية، فلن يلبث الناس أن يهبّوا جميعهم يصرخون: إنه ليس حيادياً، بل هو واحد من أتباعك. كلا، إني لم أقنط من التأثير على آرائك. لكنني أقرّ بأن هذه الحالة لا تبدو لي كسابقتها. فحين كنا نتكلم قبل قليل في أمور علم النفس، كان سواء عندي إن صدقتني أم لا، ما دام يساورك انطباع بأن تلك محض مسائل سيكولوجية. أما هذه المرة، وما دام الأمر يتصل بالمسألة الجنسية، فبودي أن أتوصل إلى إفهامك ما يلي: إن أقوى باعث لديك إلى مناقضتي هو العداء الفطري الذي تخوض به المناقشة، ذلك العداء الذي يشاطرك إياه كثيرون من الناس.

ـ إن التجربة، التي ولَّدت لديك هذا اليقين الذي لا يتزعزع، لا تزال تنقصني إذاً.

ـ بوسعي الآن أن أتابع. إن الحياة الجنسية ليست مجرد فحش، بل هي أيضاً معضلة علمية خطيرة. فقد كان لا يزال علينا أن نكتشف أموراً جديدة كثيرة، وأن نجد حلولاً لألغاز كثيرة. وقد سبق لي أن ذكرت لك أن التحليل النفسي كان ملزماً بأن يرتدّ إلى السنوات الأولى من طفولة المريض، لأن الكبوتات الحاسمة تقع في هذا الطور من العمر، حينما يكون «الأنا» غضّ العود. ولكن



أليس دارجاً القول بأن الطفل لا حياة جنسية عنده، لأنها لا تبدأ إلا مع البلوغ؟ والحال أنه كان علينا، على العكس من ذلك، أن نكتشف أن النوازع الجنسية ترافق الحياة منذ يوم الميلاد، وأن هذه الدوافع الغريزية هي عينها التي يحتمي منها «الأنا» الطفلي بواسطة الكبت. أفليس من غريب المصادفات أن يصارع الطفل الصغير ضد القوة الجنسية مثلما سيصارعها فيما بعد صاحبنا الخطيب في الجمعية العلمية أو في زمن لاحق تلامذتنا يوم سيبتدعون لأنفسهم نظرياتهم الخاصة بهم؟ كيف حدث ذلك؟ إن أعمّ تفسير يمكن التقدم به هو أن حضارتنا تشيَّد، بمختصر الكلام، على حساب الجنسية، غير أن هذه مسألة لا يزال فيها متسع لكلام كثير عنها.

إن تأخرنا إلى اليوم في اكتشاف الجنسية الطفلية لهو مما ينبغي أن تحمرّ وجوهنا منه خجلاً. والحق أن بعض الأطباء المختصين في علاج الأطفال ما كانوا قط على جهل بالأمر ولا كذلك، فيما يلوح، بعض مربيـات الأطفال. وقد أسرع بعض مشاهير الأشخاص، ممن يحملون لقب الاختصاصيين في علم نفس الأطفال، يتحدثون، بلهجة استهجان، عن «تدنيس الطفولة». دوماً عواطف بدلاً من حجج! ومثل هذا الأسلوب مألوف في دوائرنا السياسية، حيث ينهض عضو من أعضاء المعارضة ويندد بسوء تصريف الأعمال في الإدارة، أو الجيش، أو القضاء، أو في أي مجال آخر. وعلى الأثر ينهض خطيب آخر، من أعضاء الحكومة في العادة، فيعلن أن مزاعم كتلك، تطعن في شرف الدولة والجيش والسلالة الحاكمة، بل شرف الوطن نفسه، ليس لها أن تكون مطابقة للحقيقة؛ ذلك أن مؤسسات كهذه وما تمثّله من قيم لا تحتمل أن تهان.

بديهي أن الحياة الجنسية عند الطفل تختلف عنها عند الراشد. فالوظيفة الجنسية، من مبدأها إلى شكلها النهائي الذي نعرفه، يطرأ عليها تطور معقد. فهي تتكون من اجتماع عدة دوافع غريزية جزئية، لكل منها أهدافه الخاصة، وتمرّ بمراحل عدة من التنظيم، إلى أن تضع نفسها في خاتمة المطاف في خدمة التناسل. ولا تصلح جميع الدوافع الجنسية الغريزية الجزئية على السواء للاستخدام برسم الهدف النهائي. بل لا بدّ من تحويلها، وإعادة تشكيلها، وقمع جانب منها.



وتطور واسع النطاق كهذا لا يتمّ على الدوام بصورة لا غبار عليها؛ فقد تحدث وقفات في النمو، و«تثبيتات» جزئية عند أطوار مبكرة من النمو؛ فإن اتفق فيما بعد أن اصطدم نشاط الوظيفة الجنسية بعقبات ارتدّ النازع الجنسي ـ أو الليبيدو كما نسمّيه ـ إلى مواقعه وتثبيتاته الأولى. وقد قدَّمت لنا دراسة الجنسية الطفلية والتحولات التي تطرأ عليها وصولاً إلى النضج مفتاح ما نسمّيه بالانحرافات الجنسية التي ما كان يدور الكلام عنها إلا مقرونة بجميع علائم الاشمئزاز والاستكراه، ولكن بدون أن يستطيع أحد أن يجد علة لمنشئها. إن هذا كله ميدان شائق للغاية، لكن لا جدوى، من منظور الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا، من أن أفيض فيه أكثر من ذلك. ومن شاء شقّ طريقه في هذا الميدان فلا بدّ له، بطبيعة الحال، من التزوُّد بمعارف تشريحية وفيزيولوجية ـ ومن سوء الحظ أن لا سبيل إلى تحصيلها كلها في مدارس الطب! ـ لكن لا غنى له أيضاً عن الإلمام بتاريخ الحضارة وبالميتولوجيا.

ـ ما زلت عاجزاً، حتى بعد كل ما ذكرته لي، عن تصور الحياة الجنسية لدى الطفل.

ـ لزام عليّ إذاً ألا أترك هذا الموضوع بعد. والحق أنه يعزّ عليَّ أن أقف منه عند هذا الحد! وأرجو أن تنتبه إلى أن أعجب ما في حياة الطفل الجنسية يتمثَّل لي في أنها تنجز تطورها بتمامه، على سعته، في السنوات الخمس الأولى من العمر؛ ومن ذلك الحين إلى البلوغ تمتدّ الفترة التي يقال لها «مرحلة الكمون»، وهي المرحلة التي تتوقف فيها الجنسية ـ إن يكن الطفل سوياً ـ عن التقدم كما تفقد النوازع الجنسية من قوتها، ويعزف الطفل عن الكثير من الأشياء التي كان يفعلها سابقاً وينسى كثيراً من الأمور التي كان يعرفها من قبل. وفي إبان هذه المرحلة، وبعد أن يذوي الازدهار المبكر للحياة الجنسية، تتكون استجابات «الأنا» ـ مثل الحياء والقرف والنزعة الأخلاقية ـ المقيَّض لها أن تواجه لاحقاً عواصف البلوغ وأن تحتجز النوازع الجنسية لدى بدء استيقاظها. وأغلب الظن أن نمو الحياة الجنسية هذا على مرحلتين ذو صلة وثيقة بنشوء الأمراض العصبية. فهذا النمو على دفعتين لا نجد له نظيراً، فيما يبدو، لدى غير الإنسان، وربما كان هو شرط



ذلك الامتياز الإنساني: العصاب. وما قبل تاريخ الحياة الجنسية هذا هو ما غفل عنه الناس، قبل ظهور التحليل النفسي، أمداً طويلاً من الزمن، مثلما كانوا غفلوا عن الشقّ الخلفي من الحياة النفسية الشعورية. ولك أن تشتبه ـ بحق ـ في أن الأمرين كليهما على صلة وثيقة أحدهما بالآخر.

إن المرحلة المبكرة من الجنسية لدى الطفل تنطوي على قدر كبير من المفاهيم وأنماط التعبير والأنشطة التي يشقّ على المرء أن يتوقعها. فستعجب ولا شك إن علمت، مثلاً، أن الصبي الصغير كثيراً ما يخاف أن يأكله أبوه (ألن يدهشك كذلك أن تراني أدرج هذا الخوف في عداد تظاهرات الجنسية؟). ولكن ما عليّ إلا أن أذكّرك بالأسطورة التي تعلمتها في المدرسة والتي لعلك ما نسيتها: أفما كان الإله كرونوس[٤] يلتهم أبناءه؟ لقد بدت لك هذه الأسطورة غريبة، ولا شك، حين طرقت مسامعك للمرة الأولى! ولكني أعتقد أن أحداً منا لم يتدبرها بالتفكير يومذاك. وإنه يسعنا اليوم أن نتذكر أساطير أخرى يلتهم فيها وحش من الوحوش، مثل الذئب، شخصاً ما، ولن يعزّ علينا أن نتعرف فيها طريقة تنكرية في تمثيل الأب. وإني لأنتهز هذه السانحة لألفت انتباهك إلى أن الميتولوجيا والفولكلور لا سبيل إلى فهمهما بمعزل عن معرفة الحياة الجنسية الطفلية، وهذا كسب إضافي للدراسات التحليلية.

ولن تكون دهشتك أقل إن أخبرتك أن الصبي الصغير ترتعد فرائصه جزعاً من أن يسلبه أبوه عضو ذكورته الصغير، وهذا إلى حدّ أن خوف الخصاء هذا يكون له أقوى الأثر في تكوين طبعه واتجاه جنسيته بصفة عامة. وهنا أيضاً ستحملك الميتولوجيا على تصديق التحليل النفسي. فكرونوس نفسه، الذي يلتهم أولاده، قد خصى أيضاً أباه أورانوس[٥]، وخصاه بدوره ابنه زفس[٦]، وهذا الأخير ما نجا من الخصاء إلا بفضل دهاء أمه. فإن كنت ميالاً إلى الأخذ بالفرضية التي تزعم

٤ ـ كرونوس: إله الزمن والقدر عند الإغريق. حَكَم الكون قبل زفس. «م».

٥ ـ أورانوس: إله السماء في الميثولوجيا الإغريقية. «م».

٦ ـ زفس: كبير آلهة الإغريق، ابن كرونوس وريا، وإله الصاعقة. خلع كرونوس واحتل مكانه في جبل الأولمب. وهو عند الرومان جوبيتر. «م».



أن كل ما يقوله التحليل النفسي عن جنسية الأطفال المبكرة هو من اختلاق خيال المحللين الجامح، فاعترف على الأقل بأن هذا الخيال قد أبدع عين ما أبدعه خيال البشرية البدائية، الذي لا تعدو الأساطير والخرافات أن تكون رسابة متخلفة عنه إن جاز التعبير. أما الفرضية الأخرى، الأكثر تعاطفاً مع أطروحتنا، والأقرب أيضاً إلى الواقع، فهي تلك التي تقول إن نفس الطفل في العصور الحديثة تنطوي على العوامل الأثرية نفسها التي كان لها سيطرة عامة في الأزمنة البدائية للحضارة. فالطفل يكرر، في مسار نموه النفسي وعلى منوال مختصر، التطور النفسي للسلالة البشرية، وهو التكرار الذي كان علم الأجنَّة قد أقام البرهان عليه فيما يتصل بتطور الجسم.

وثمة خاصية أخرى للجنسية الطفلية البدائية: فالأعضاء التناسلية الأنثية لا تلعب فيها أي دور ـ إذ لا يكون الطفل قد اكتشفها بعد. فالانتباه كله يتركز على عضو الذكورة، والاهتمام كله ينصب على هذا السؤال: أهو موجود أم غير موجود؟ وما نعرفه عن الحياة الجنسية للبنت الصغيرة أقل بكثير مما نعرفه عن الحياة الجنسية للصبي الصغير. ولا داعي إلى المبالغة في الخجل والتحرج من هذا الجهل: فالحياة الجنسية للمرأة الراشدة لا تزال قارة سوداء بالنسبة إلى علم النفس. غير أنه اتضح لنا أن الحرمان من عضو جنسي مماثل لعضو الذكر تستشعر له البنت الصغيرة وطأة شديدة، فتعدّ نفسها أدنى قيمة، كما تبيّن لنا أن هذا الحسد القضيبي تنشأ عنه سلسلة كاملة من ردود الأفعال والاستجابات الخاصة بالمرأة.

ومما يختص به أيضاً الطفل أن وظيفتي الإخراج كلتيهما مشحونتان بالنسبة إليه بقيمة جنسية. ثم لا تلبث التربية أن ترسم في وقت لاحق خطاً فاصلاً واضحاً بينهما وبين الوظيفة الجنسية، غير أن بعض «النكات» لا تعتم أن تمحوه من جديد. وقد لا يبدو لنا هذا الموضوع مما تستحبّه النفس. ولكن لا بدّ من مرور بعض الوقت، كما نعلم، قبل أن يكتسب الطفل القدرة على الشعور بالقرف. وحتى أولئك الذين يتحمسون لفكرة الطهر الملائكي لنفس الطفل ما أمكنهم أن ينكروا ذلك.

ولكن ما من واقعة تستأهل أن نحيطها باهتمامنا كالواقعة التالية: إن الطفل



يتخذ موضوعاً مطرداً لرغائبه الجنسية الأشخاص الذين يمتّون إليه بأوثق صلة قربى، أي أباه وأمه في المقام الأول، وبعد ذلك إخوته وأخواته. فأول موضوع للحب عند الصبي أمه، وعند البنت أبوها؛ وهذا إن لم يتولد في الوقت نفسه عن استعداد جنسي ثنائي ميلٌ إلى عكس هذا الموقف. وينظر الطفل إلى والده الآخر نظرته إلى غريم مزعج، ويصبّ عليه من ثم كراهية سافرة. وأرجو أن تفهمني جيداً: فأنا لا أقصد القول إن الطفل يصبو فقط إلى أن يفوز، من جانب والده الأثير، بذلك النوع من المحبة الذي يطيب لنا لاحقاً، متى ما أدركنا سن الرشد، أن نرجِع إليه ماهية الصلة بين الأهل والأولاد. كلا، فالتحليل لا يترك مجالاً للشك: فما تصبو إليه رغائب الطفل، علاوة على هذه المحبة، هو ما نسميه بالإشباع الشهواني، وعلى أي حال بقدر ما تسمح به قدرة الطفل على تمثل هذه الأمور واستيعابها. ويسير علينا أن ندرك أن الطفل لا يخمّن أبداً واقع الصلة بين الجنسين، بل يُحِلّ محلها تصورات يستقيها من معين خبرته الخاصة وأحاسيسه الخاصة. وفي العادة تبلغ رغائبه أوجها في تطلعه إلى أن يلد طفلاً آخر، أو أن ينجبه بطريقة ما مبهمة. وحتى الصبي الصغير لا يستبعد من رغائبه، في غيهب جهله، الرغبة في أن يضع هو نفسه طفلاً. وهذا البنيان النفسي كله هو ما نسمّيه، طبقاً للأسطورة الإغريقية المعروفة، **عقدة أوديب**. والمفروض بهذه العقدة في الحالات السوية أن تزول مع نهاية المرحلة الجنسية الطفلية الأولى، فتقوَّض من أساسها أو تحوَّل. ويكون لهذا التحول نتائج عظيمة الشأن في الحياة النفسية اللاحقة. لكن الأشياء لا تسير في أغلب الأحيان على هذا المنوال الأمثل، فإذا بالبلوغ يوقظ العقدة القديمة، الأمر الذي قد تترتب عليه عواقب وخيمة.

يدهشني أنك ما زلت ملتزماً الصمت. وما صمتك هذا في أرجح التقدير استحسان. فالتحليل النفسي حين يزعم أن الموضوع الأول لحب الطفل يختاره هذا الأخير على أساس **محرمي**(٧)، إن شئنا أن نستخدم اللفظ الصحيح، يجرح من جديد مشاعر الناس الأكثر قدسية، ولا مناص له بالتالي من أن يحصد مقابل ذلك، كما هو متوقع، المعارضة والإنكار وسيلاً من التهم. وذلك كان، بالفعل،

٧ ـ نسبة إلى حب المحارم: INCESTE. «م».



نصيبه إلى حدّ كبير. فلا شيء أساء إلى سمعته لدى المعاصرين وحجَب رضاهم عنه كقوله إن عقدة أوديب هي شكل إنساني عام ومحتوم من أشكال كينونة البشر. ولا بدّ أن الأسطورة الإغريقية كان لها أصلاً المعنى نفسه، لكن غالبية الناس في أيامنا هذه ـ المتعلم منهم والجاهل ـ يؤثرون أن يعتقدوا بأن الطبيعة حبتنا بنفور فطري من زنا المحارم حماية لنا منه.

والتاريخ أول من يمدّ لنا يد المساعدة هنا. فحين قدم يوليوس قيصر إلى مصر وجد الملكة الشابة كليوباترا، التي سرعان ما ستلعب في حياته الدور الذي نعرف، متزوجة من أخيها الأصغر بطليموس. ولم يكن هذا بالأمر الغريب في السلالة المالكة المصرية؛ فالبطالمة، وهم من أصل إغريقي، ما فعلوا سوى أنهم نسجوا على منوال العادة التي درج عليها، منذ آلاف السنين، الفراعنة القدامى، أسلافهم. لكن هذا لم يكن إلا علاقة محرمية أخوية قد لا تدان حتى في أيامنا هذه تلك الإدانة الصارمة. فلنيّمم إذاً شطر الميتولوجيا التي هي شاهدنا الأول في كل ما يتصل بأعراف الأزمنة البدائية. فمنها نتبيَّن أن أساطير الشعوب قاطبة، لا الإغريق وحدهم، غنية كل الغنى بقصص الحب بين الأب وابنته، بله بين الابن وأمه. ويقوم علم الكونيات[٨] وعلم أنساب السلالات الملكية على زنا المحارم. فما الغرض، في رأيك، من ابتكار هذه القصص؟ أهو التنديد بالآلهة والملوك، ووصمهم بالإجرام، واستنزال لعنات البشر عليهم؟ كلا، بل الأرجح أن الرغبات المحرمية تراث إنساني بدائي، وما أمكن قط الظهور عليها بصورة نهائية، ومن ثم فقد أبيح للآلهة وللأسلّاء المنحدرين منها ما بات محرَّماً على عامة الناس. وبالتوافق التام مع تعاليم التاريخ والميتولوجيا هذه نلتقي في طفولة الفرد الشهوة المحرمية، وهي لا تزال فاعلة ومعمولاً بها حتى يومنا هذا.

ـ أكاد أنهال عليك باللوم لأنك نويت أول الأمر أن تمسك عني كل هذه المعلومات التي تتصل بالجنسية الطفلية. والحق أن الجنسية الطفلية هذه تبدو شائقة للغاية على ضوء علاقاتها بتاريخ البشرية البدائي.

٨ ـ الكوسمولوجيا: علم القوانين العامة المسيِّرة للكون. «م».



ـ لقد كنت أخشى أن أنساق بعيداً عن موضوعنا. لكن ربما كان حتى لهذا الاستطراد فوائده.

ـ الآن أخبرني: ما درجة اليقين في استنتاجاتك التحليلية بصدد حياة الأطفال الجنسية؟ وهل يقوم اقتناعك كله على التوافق مع الميتولوجيا والأساطير؟

ـ لا، قطعاً. فهو يستند إلى المشاهدة المباشرة. وقد جرت الأمور على النحو التالي: استنتجنا أولاً مضمون الجنسية الطفلية من تحليل الراشدين، أي بعد ما يتراوح ما بين عشرين وأربعين سنة على انقضاء عهد الطفولة. ثم شرعنا في وقت لاحق بتحليل الأطفال مباشرة، فلم يكن نصراً هيناً لما وجدنا أن كل ما خمناه تخميناً قد ثبتت صحته، على الرغم من التحجرات والتشوهات التي تحدثها يد الزمن بين المرحلتين.

ـ ماذا؟ أقمت حقاً بتحليل أطفال صغار، أطفال تقلّ أعمارهم عن سنوات ست؟ أولاً، هل هذا ممكن؟ وثانياً، أليس في هذا خطر على الأطفال؟

ـ أجل، هذا ممكن كل الإمكان. وقد يعطي خير النتائج. فما يدور في نفس الطفل في الرابعة أو الخامسة من عمره يكاد لا يصدق! فالأطفال في هذه السن تستيقظ مداركهم بسرعة، والمرحلة الجنسية الأولى هي لهم بمثابة زمن للتفتح العقلي. ويتراءى لي أنه بحلول مرحلة الكمون يصيبهم أيضاً كفّ عقلي، فيخبو ذكاؤهم. ويفقد الكثيرون من الأطفال، ابتداء من هذه السن، لطافتهم الجسمانية أيضاً. أما عن الضرر الذي قد ينشأ عن تحليل مبكر، فبوسعي أن أؤكد لك أن أول طفل أجريت عليه هذه التجربة ـ قبل زهاء عشرين عاماً[٩] ـ هو اليوم شاب يتمتع بأحسن عافية ومقدرة، وقد اجتاز بلا عناء أزمة البلوغ بالرغم من رضات نفسية خطيرة. ولنا أن نأمل بأن غيره من «ضحايا» التحليل المبكر لن يجنوا منه فائدة أقل من تلك التي جناها. والحق أن تحاليل الأطفال هذه مفيدة من أكثر من ناحية، ولربما ارتدت في المستقبل قدراً أعظم من الأهمية بعد، وقيمتها النظرية لا

٩ ـ يشير فرويد هنا إلى حالة هانز الصغير التي نشر تقريراً عن معالجتها في عام ١٩٠٩. انظر ترجمتنا لهذا التقرير في **التحليل النفسي لرهاب الأطفال (هانز الصغير)** في المجلد الثالث من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».



يكتنفها شك ولا تقبل نقاشاً. فهي تجيب بلا لبس أو إبهام عن مسائل تبقى في تحاليل الراشدين معلَّقة. وتدرأ من ثم عن المحلِّل وزر أخطاء وخيمة العواقب. وبالفعل، إنها تتيح للمحلِّل أن يمسك بالعوامل المسبِّبة للعصاب وهي في فورة نشاطها، فلا يمكن أن يخطئها. ولا ريب في أن التأثير التحليلي ينبغي أن يقترن، لصالح الطفل، بتدابير تربوية، وهذه خطة لا تزال تنتظر من يصممها ويرسي أصولها. وهناك ملاحظة ذات أهمية علمية كبيرة: إن عدداً غفيراً من الأطفال يمرون، في أثناء نموهم، بطور عصابي لا مراء فيه. وقد تقدمت معرفتنا في هذا المضمار تقدماً مرموقاً، ونحن نميل الآن إلى الاعتقاد بأن العصاب الطفلي هو القاعدة لا الاستثناء، إذ يبدو وكأنه أمر محتوم في مسيرة الإنسان من طور الطفولة البدائي إلى طور التحضّر والتكيّف مع الحياة الاجتماعية. وفي معظم الأحوال تنحلّ أزمة الطفل العصابية هذه من تلقاء نفسها فيما يبدو؛ ولكن هل لنا أن ننكر أن رواسب منها تتبقى حتى لدى أولئك الذين ينعمون إجمالاً بصحة نفسية جيدة؟ وبالمقابل، لا يعجزنا أبداً أن نهتدي لدى الراشدين من المرضى العصابيين إلى الصلة بالعصاب الطفلي الذي لا حاجة به إلى أن يظهر، في حينه، ظهوراً بيّناً. وعلى منوال مماثل، فيما يبدو لي، يؤكد علم الأمراض العام اليوم أن كل امرئ يصاب في طفولته، وإلى درجة ما، بضرب من السلّ. غير أن ما يكسبه الإنسان في هذه الحال، فيما يتصل بالأعصبة، ليس هو المناعة، بل على العكس الاستعداد المسبق.

أعود الآن إلى سؤالك بصدد يقينية أدلّتنا. لقد ولَّدت لدينا الملاحظة التحليلية المباشرة للأطفال اقتناعاً عاماً بأننا أوَّلنا على الوجه الصحيح ما ساقه لنا الراشدون من طفولتهم. لكن في جملة من حالات أخرى تأتّى لنا أن نتأكد من صحة ما ذهبنا إليه بطريق آخر. فقد أعدنا، بالاستناد إلى المادة التي زوَّدنا بها التحليل، بناء بعض الظروف الخارجية وبعض الأحداث التي كان لها وقع وتأثير في طور الطفولة، والتي لم تحتفظ منها ذاكرة المريض الواعية بشيء، ثم ساقت لنا ظروف مؤاتية، أو استقصاءات أجريناها مع الأهل أو مع أشخاص آخرين ممن تولوا رعاية الطفل، الدليل القاطع على أن الأحداث وقعت بالفعل على نحو ما كنا



استنتجناه. وبديهي أننا لم نوفَّق على الدوام إلى مثل هذا الحظ، ولكن حيثما واتانا، كان له في نفوسنا أبعد الأثر. وأودّ أن تعلم أن إعادة بناء خبرات الطفولة المنسية بناءً صحيحاً لها على الدوام مفعول علاجي عظيم، سواء أحظيت بتأييد خارجي موضوعي أم لا. وترجع أهمية هذه الخبرات بطبيعة الحال إلى وقوعها في زمن مبكر، في عهد كان يمكن لها فيه أن تؤثر تأثيراً رضِّياً على «الأنا» الضعيف الواهن.

ـ وما نوع الخبرات التي يفترض بالتحليل أن يهتدي إليها على هذا النحو؟

ـ متنوعة وشتى. فهناك أولاً الانطباعات التي من شأنها أن تترك أثراً دائماً في حياة الطفل الجنسية الوليدة: مشاهدة اتصال جنسي بين راشدين، أو خبرة جنسية شخصية مع راشد أو مع طفل آخر ـ وهذا ليس بالنادر! ـ أو كذلك سماع أحاديث تأتّى للطفل أن يفهمها حالاً أو في وقت لاحق، متصوراً أنه واجد فيها معلومات عن أشياء غامضة أو باعثة على القلق، أو أخيراً أقوال أو أفعال يأتيها الطفل نفسه ويتبدى من ثناياها ما يضمره من عواطف ذات دلالة نحو أشخاص آخرين، سواء أكانت عواطف حنو ومحبة أم كراهية ونفور. وإنه لمن الأهمية بمكان الوصول، في أثناء التحليل، إلى ما يتذكره المريض عن نشاطه الجنسي الطفلي الخاص الذي نسيه وما استتبعه من تدخل أشخاص كبار لوضع حدّ له.

ـ ها قد سنحت لي الفرصة لأطرح عليك سؤالاً طالما همّت شفتاي بأن تنطقا به. ما كنه هذا «النشاط الجنسي» الذي يصدر عن الطفل في ذلك الطور من تفتُّح جنسيته الذي طال إغفاله، كما تقول، إلى أن جاء التحليل النفسي؟

ـ الغريب أن الجانب الجوهري والمألوف من هذا النشاط الجنسي لم يغفل الناس عنه؛ وبعبارة أخرى، لم يكن مستغرباً منهم، إذ كان من المستحيل ألا يلحظوه! فانفعالات الطفل الجنسية تعبِّر عن نفسها بصورة رئيسية من خلال الإشباع الاستمنائي، أي باستثارته أعضاءه الجنسية الخاصة، أو بالأصح الجزء الذكري منها (القضيب والبظر). والانتشار الخارق للمألوف لهذه «العادة السيئة» لدى الأطفال ما غاب قط عن إدراك الراشدين، بل إنهم رأوا في «العادة السيئة» نفسها خطيئة فظيعة تستوجب أشدَّ العقاب. أما كيف السبيل إلى التوفيق بين

هذه المشاهدة للنوازع اللاأخلاقية لدى الأطفال - إذ إن الأطفال يفعلون ذلك، كما يقرّون بأنفسهم، لأنه يلذّ لهم - وبين نظرية طهرهم الفطري وبعدهم عن أي شكل من أشكال الشهوانية، فلا تسألني عن ذلك بل أطلب إلى خصومي أن يفسّروه لك! فثمةِ مشكلة أهم تشغلنا: ماذا ينبغي أن يكون موقفنا من النشاط الجنسي في الطفولة الأولى؟ نحن نعلم مدى التبعة التي نتحملها فيما لو قمعناه، ومع ذلك لا نجرؤ على إرخاء الحبل له ليتفتّح بلا قيد. إن الشعوب الأقل تحضراً منا والطبقات الاجتماعية الدنيا من الشعوب المتحضرة تطلق، فيما يبدو، تمام الحرية للحياة الجنسية لدى أطفالها. وبذلك تتوفر في أغلب الظن حماية ناجعة ضد العصاب الفردي لاحقاً، ولكن كم تضيع بنتيجة ذلك من طاقات بالنسبة إلى تقدم الحضارة! إن المرء ليساوره الشعور هنا بأنه واقع بين خيارين، أحلاهما مرّ.

غير أني أترك لك الآن أن تبتّ في هذه المسألة: هل من شأن الاهتمام الذي توقظه دراسة الحياة الجنسية لدى العصابيين أن يخلق جواً يساعد على انتشار الفسق والفجور؟



(٥)

ـ أحسب أني فهمت مراميك. فأنت تريد أن تبيِّن لي ما المعارف اللازمة لمزاولة التحليل النفسي، حتى أستطيع أن أحكم فيما إذا كان ينبغي حصرها بالطبيب وحده. والحال أني لم أسمعك حتى الآن تحدثني عن الطب إلا نزراً يسيراً، على حين أنك أسهبت في الكلام عن علم النفس، وبقدر أقل عن علم الأحياء وعلم الجنس. أترانا لم نبلغ بعد خاتمة المطاف؟

ـ محقق أن لا، فما زالت أمامنا ثغرات تتطلب أن تسدّ. هل أستطيع أن أتوجه إليك برجاء؟ هل لك أن تخبرني بما كوَّنته حتى الآن من تصور عن الكيفية التي يدار بها علاج تحليلي؟ صفها كما لو أنك تتولى بنفسك علاج أحد المرضى.

ـ لا يخلو الأمر من طرافة! لست أودّ أن أختم سجالنا بتجربة كهذه! لكني سأفعل ما رغبت إليَّ في أن أفعله: والتبعة فيه إنما ستقع عليك!

إني أفترض إذاً أن المريض قدم إلى مقابلتي شاكياً من أوجاعه. فأعده بالشفاء، أو على الأقل بالتحسن، إن هو امتثل لما سأطلبه منه. ثم أدعوه إلى أن يروي لي، بصدق مطلق، ما يعرفه وما سيرد إلى خاطره، بدون أن يوقفه شيء عن هذا التصميم، حتى ولو بدا أن ما سيبوح به ليس مما يطيب التصريح به. أتراني أحسنت فهم هذه القاعدة؟

ـ بلى. لكن عليك أن تزيد القول: حتى ولو بدا له أن ما يدور في خاطره تافه أو سخيف.

ـ على رسلك. إذاً ها هو ذا بدأ يتكلم، وأنا أصغي. ثم ماذا؟ سأستنبط مما سيقوله ما كنه الانطباعات والخبرات والانفعالات والرغبات التي كبتها، لأنه التقاها في عهد كان «أناه» لا يزال فيه ضعيفاً واهناً، فأصابه منها جزع وخوف



بدل مواجهتها والتصدي لها. فإذا ما أوضحت له ذلك، وضع نفسه من جديد في ذلك الموقف القديم، والتمس بمعونتي مخرجاً منه أفضل بكثير. وسرعان ما تتلاشى الحدود التي كان «أناه» قد اضطر إلى حبس نفسه فيها، ويكون الشفاء. أليس كذلك هو واقع الأمر؟

ـ مرحى، مرحى! هائنذا أتكهن بأنهم سينحون عليّ باللائمة من جديد لأنني أهّلت محللاً ما هو بطبيب! لقد أحسنت تفهُّمَ كل شيء.

ـ لم أفعل شيئاً سوى أنني ردَّدت ما سمعته منك، مثلي مثل من يتلو عن ظهر قلب. لكنني لا أستطيع أن أتصور بعد كيف سأقوم بالتحليل، كما لا أفهم على الإطلاق لمذا يتطلب عمل كهذا ساعةً كل يوم على مدى شهور طويلة. فالإنسان العادي لا يقع له من الأحداث، بصفة عامة، ما يستوجب كل هذه الإطالة في الزمن؛ أما ما كُبت في الطفولة فهو في أرجح الظن متماثل عند الناس قاطبة.

ـ إنك لتتعلم أشياء كثيرة حين تمارس التحليل النفسي فعلاً. ومن هذا القبيل أنك ستجد أنه ليس من البساطة إلى الحدّ الذي تتصور أن تستنتج، مما يقوله لك المريض، ما الأحداث والخبرات التي نسيها، وما المطالب والحاثات الغريزية التي كبتها. فهو يخبرك بأشياء قد لا تبدو للوهلة الأولى ذات معنى ظاهر بالنسبة إليك ولا بالنسبة إليه على حدّ سواء. وهنا يكون لزاماً عليك أن تتهيأ لتناول العناصر التي يزوِّدك بها الشخص الذي تحلِّله امتثالاً للقاعدة الأولى للتحليل[1] تناولاً خاصاً. فهذه العناصر أشبه بفلزات تحتاج إلى طريقة خاصة في معالجتها لاستخلاص ما تحويه من المعدن الثمين. ويبقى أن تكون مستعداً للعمل في أطنان وأطنان من فلزات لا تحوي سوى نزر يسير من المعدن الثمين المنشود. تلكم هي العلة الأولى لطول مدة العلاج.

ـ وكيف السبيل، إذا أخذنا بتشبيهك، إلى معالجة هذه المادة الخام؟

١ ـ القاعدة المطلقة الأولى في التحليل النفسي هي التزام الشخص المحلَّل بمصارحة المحلِّل بكل ما يرد إلى ذهنه بلا تقييد ولا تحوير ولا انتقاء. «م».



ـ بالأخذ بالفرضية التالية: إن ما يخبرك به المريض، وما يبوح لك به من الخواطر والأفكار العارضة التي تجول في ذهنه، ليس سوى صور محرَّفة مشوَّهة لما تبحث عنه، حتى لكأنها ضرب من التورية لا بدّ لك أن تحزر ما يختفي وراءها. وبالاختصار، عليك أن تقوم بتأويل هذه العناصر، سواء أكانت ذكريات أم خواطر عارضة أم أحلاماً. وبما هو متاح لك من معارف تقنية ستقوم، وأنت تصغي إلى المريض، بصياغة بعض التصورات الافتراضية التي من شأنها أن تسدد خطاك في عملك.

ـ التأويل! يا لها من كلمة كريهة! إني لأنفر منها نفوراً، فلكأنك تجرِّدني من كل يقين. فإن يكن كل شيء رهناً بتأويلي، فما الذي يضمن لي أني أحسن التأويل ولا أتعسَّف؟

ـ على مهلك! فالأمر لم يصل إلى هذا الحدّ من السوء. ولماذا تتصور أن العمليات النفسية التي تدور في ذهنك لا تسري عليها القوانين عينها التي تقرّ بسريانها على العمليات التي تدور في أذهان الآخرين؟ فمتى ما وصلت إلى درجة معيَّنة في ضبط نفسك وتوفَّرت لك المعارف الموائمة، فلن تتأثر تأويلاتك بأوضاعك الشخصية الخاصة، بل سيتاح لك أن تصيب كبد الحقيقة. أنا لا أزعم أن شخصية المحلِّل لا دور لها في هذا الشطر من التحليل. فرهافة الأذن، إن جاز لي القول، ضرورية لسماع لغة المكبوت اللاشعوري، وهي غير متاحة للناس جميعاً بدرجة متساوية. وأول واجب يقع هنا على عاتق المحلِّل أن يكون قد خضع هو نفسه لتحليل معمَّق، كيما يتأتى له أن يتلقى بلا تحيّز وبلا أحكام مسبقة العناصر التحليلية التي يمدّه بها الآخرون. على أنه تبقى بعد ذلك «المعادلة الشخصية»، كما يقال حتى في الرصد الفلكي، ولسوف يلعب هذا العامل الفردي دوراً في التحليل النفسي أكبر مما يلعبه في أي مجال آخر. إن امرءاً غير سويّ يمكن أن يصير فيزيائياً ممتازاً؛ لكن شذوذه سيحول بينه، فيما إذا كان محلِّلاً، وبين أن يرى صور الحياة النفسية صحيحة غير مشوَّهة؛ وبما أنه من المتعذر إقناع شخص من الأشخاص بأنه شاذ، فإن الإجماع في موضوع علم نفس الأعماق أمر يعسر كل العسر الوصول إليه. لذا يرتئي العديد من علماء



النفس أن القضية ميئوس منها وأن لكل أحمق الحق في الادعاء بأن حمقه هو الحكمة بعينها. غير أني أصارحك بأني أكثر تفاؤلاً. فقد دلتنا خبرتنا أنه من الممكن الوصول حتى في علم النفس إلى قدر طيِّب من الاتفاق. إن لكل ميدان من ميادين البحث صعابه الخاصة التي لا مناص من العمل على تذليلها. ثم إنه من الممكن، في فن التأويل الخاص بالتحليل النفسي ـ كما في أي علم آخر ـ تعلُّم أشياء كثيرة: ومن هذا القبيل كل ما يتصل بذلك التمثيل الغريب اللامباشر الذي هو التمثيل بواسطة الرموز.

ـ لقد تلاشت عندي الآن أية رغبة ـ حتى ولو في الخيال! ـ في تطبيق العلاج التحليلي على كائن من كان! فما أدراني كم لا تزال تخبِّئ لي في جعبتك من مفاجآت!

ـ خيراً تفعل إذ تعزف عن مثل هذا العزم. فلقد شرعت تفهم كم تحتاج بعد إلى علم ومران نظريةً وممارسةً. وحتى بعد أن تصل إلى التأويل الصحيح، تواجهك مشكلة أخرى. إذ عليك أن تنتظر الوقت المناسب لتكاشف المريض بتأويلك، إن كنت تريد أن يفلح علاجك.

ـ وكيف يدرك المحلِّل الوقت المناسب؟

ـ المسألة مسألة رهافة حسّ، ومن الممكن لهذا الحسّ أن يزداد رهافة بالخبرة والتجربة. وإنك لترتكب خطأً فاحشاً إن قذفت رأس المريض، رغبة منك في اختزال أمد التحليل، بتأويلاتك حال اهتدائك إليها. فأنت لن تلقى منه في هذه الحال سوى مقاومة وإنكار وسخط، ولن تتوصل إلى حمل «أناه» على وعي ما هو مكبوت والتحكم به. والقاعدة أن تنتظر حتى يقترب هو نفسه من الأمر اقتراباً لا يعود يحتاج معه إلى التقدم أكثر من خطوة أو خطوتين، مسترشداً بك وبتأويلك، ليفهم كل شيء.

ـ أعتقد أني لن أحيط بهذا كله أبداً! لكن على فرض أني أخذت بكل هذه التدابير الاحتياطية في تأويلي، فماذا بعد؟

ـ عليك أن تكتشف أمراً ما كنت لتتوقعه بحال.



ـ أي اكتشاف؟

ـ اكتشافك أنك أسأت التقدير فيما يتصل بمريضك، وأنه ليس لك أن تعتمد بصورة من الصور على تعاونه أو على انقياده ولين عريكته، وأنه مستعدّ لأن يضع عصيّاً كثيرة بين عجلات عملكما المشترك؛ وبالاختصار، أنه لا يريد بحال من الأحوال الشفاء.

ـ محال! هذا أبعد ما قلته لي حتى الآن عن المنطق! ولست مستطيعاً له تصديقاً. هذا المريض الذي يعاني أشد المعاناة، الذي يشكو على هذا النحو المؤثر مما يقاسيه، والذي يبذل ما يبذله من تضحيات ويتكلف ما يتكلفه من نفقات طلباً للعلاج، أتقول إن هذا المريض غير راغب في الشفاء! ظني أنك لا تعني حقاً ما قلته!

ـ ثق أن هذا بالضبط ما عنيته. ما قلته هو الحقيقة بعينها. ليس الحقيقة كلها، بل جانب عظيم الشأن منها. فالمريض يبغي بكل تأكيد شفاء، ولكنه لا يبغي أيضاً شفاء. فأناه قد فقد وحدته، ولهذا لا يستطيع أن يفصح عن مشيئة واحدة. ولو لم يكن كذلك شأنه لما صحّ وصفه بأنه مريض عصابي:

لو كنت محترساً لما كنتُ دُعيت تلّ[٢]

لقد اقتحمت فسائل المكبوت مجال «الأنا» وثبّتت أقدامها فيه؛ والحال أنه إذا كان هذا هو أصل المطالب والنوازع، فإن «الأنا» لا يسيطر عليها مثلما لا يسيطر على المكبوت نفسه، كما أنه لا يفهم في العادة طبيعتها. والحق أن هؤلاء المرضى هم من طراز خاص، والعقبات التي ينصبونها في طريقنا ليست من تلك التي اعتاد الأطباء مواجهتها في أمراض أخرى. إن مؤسساتنا الاجتماعية كافة قد جرى تفصيلها على قدّ أفراد لهم «أنا» سويٌّ موحَّد، «أنا» يوصف بأنه «صالح» أو «طالح»، «أنا» يؤدي وظيفته أو تشلّه عنها قوة قاهرة لا قِبَل له بها. ومن هنا كان التمييز القانوني بين المسؤولية وعدمها. والحال أن مثل هذه التفرقة القاطعة لا

٢ ـ بيت شعر من مسرحية شيلر: **فلهلم تلّ**. وتلّ TELL بالألمانية قريبة لفظاً من المجنون TOLL، ولعل ذلك هو المقصود. «م».



تسري على المرضى العصابيين. ولا مندوحة لنا من الإقرار بأن التوفيق بين المطالب والمقتضيات الاجتماعية وبين حالتهم النفسية ليس أمراً ميسوراً. وقد تجلى الأمر واضحاً، وعلى نطاق واسع، في إبان الحرب الأخيرة. فهل كان المرضى العصابيون المتملصون من الخدمة العسكرية يتصنعون المرض أو لا يتصنعونه؟ الحق أنهم كانوا يتصنعونه ولا يتصنعونه. فإن عوملوا معاملة المتصنِّعين، ولحقهم من مرضهم عنت شديد، تماثلوا إلى الشفاء؛ ولكن إذا ما أعيدوا بعد شفائهم المزعوم إلى الجبهة، لاذوا من جديد بـ «حِمى المرض». ومن ثم كان يعزّ اتخاذ موقف منهم. وكذلك هو شأن المرضى العصابيين في الحياة المدنية. فهم يئنون ويضجون بالشكوى من مرضهم، ولكنهم يستغلونه إلى حدّ إنهاك قواهم؛ فإن وجد من يريد تخليصهم منه، ذادوا عن مرضهم كما تذود اللبوة التي تضرب بها الأمثال عن أشبالها. ولا مجال للإنحاء عليهم باللائمة على تناقضهم هذا.

ـ لكن أليس من الخير في هذه الحال الامتناع عن معالجة هؤلاء الناس الصعبي المراس، وترك كل منهم وشأنه؟ ولست أرى ما الموجب لتحمُّل كل هذا العناء في سبيل كل مريض من هؤلاء على حدة.

ـ لست أستطيع أن أرى رأيك. صحيح أن قبول تعقيدات الحياة كما هي خير من محاولة التهرب منها. وصحيح أن المرضى العصابيين الذين نعالجهم ليسوا كلهم ممن يستأهلون جهود التحليل، لكن بينهم أيضاً أشخاصاً ذوي قيمة جلّى. والهدف الذي ينبغي أن نعيِّنه لأنفسنا هو التالي: أن نختصر إلى أدنى حدّ ممكن عدد الأشخاص الذين يواجهون بعُدَّة غير كافية شؤون الحياة المتحضرة، وهذا ما يوجب علينا أن نجمع عدداً كبيراً من الملاحظات والتجارب وأن نتعلم أشياء كثيرة. وكل تحليل نقوم به يمكن أن يعود علينا بمزيد من العلم والفائدة وأن يزوِّدنا بحقائق جديدة، بصرف النظر عن القيمة الشخصية لكل مريض من المرضى.

ـ لكن حينما يتكون لدى «أنا» المريض إصرار على التمسك بمرضه، فلا بدّ أن يرتكز هذا الإصرار إلى أسس ودوافع ينبغي أن يكون لها بدورها ما يبررها. ومع ذلك تراني عاجزاً عن استبانة السبب الذي يمكن أن يحدو بالإنسان إلى طلب المرض، والجدوى التي يمكن له أن يجنيها منه.



ـ ليس عليك أن تُوغِل بعيداً في البحث. فليذهب بك الفكر إلى عصابيي الحرب الذين أعفوا من الخدمة العسكرية لمرضهم. ففي الحياة المدنية أيضاً يمكن للمرض أن يغدو واجهة يخفي المريض خلفها دونيته في مهنته أو في مزاحمته لمزاحميه. وضمن نطاق الأسرة، يمكن أن يغدو وسيلة لإرغام الآخرين على التضحية وعلى إبداء علائم الحب، أو لفرض المريض إرادته عليهم[٣]. وهذا كله يكون قريباً غاية القرب من سطح اللاشعور، وهو ما نطلق عليه اسم «مكسب المرض». على أن العجيب هو أن المريض، أو «أناه» بالأحرى، يجهل كل شيء عن صلة مثل هذه البواعث بأفعاله، مع أن هذه الأفعال لا تعدو أن تكون نتيجتها المنطقية، ونحن نحارب تأثير هذه النوازع بإرغامنا «الأنا» على تعرّفها. بيد أن هناك بواعث أخرى، أبعد غوراً، للاستمساك بالمرض، والتغلُّب عليها لا يتمّ بمثل هذه السهولة. غير أننا لن نستطيع فهماً لطبيعة هذه البواعث ما لم نغص مرة أخرى في خضم النظرية السيكولوجية.

ـ هيا لا عليك! فليس لقدر آخر من النظريات، بعد كل الذي كان، أن يثنيني عما نحن فيه!

ـ حين حلَّلت لك العلاقات القائمة بين «الأنا» و«الهذا»، أغفلت جزءاً هاماً من نظريتنا في الجهاز النفسي. فقد وجدنا أنفسنا مكرهين على أن نفترض وجود هيئة خاصة في «الأنا» تتميز عنه، دعوناها «الأنا الأعلى». ولهذا «الأنا الأعلى» مركز خاص بين «الأنا» و«الهذا»؛ فهو ينتمي إلى «الأنا»، ويشاطره تنظيمه النفسي الرفيع، لكنه على صلة حميمة أيضاً بـ «الهذا». وفي الواقع، إنه بمثابة رسابة لعلاقات «الهذا» الحبِّية الأولى، ووريث عقدة أوديب بعد العزوف عنها. ومن الممكن لهذا «الأنا الأعلى» أن يقف موقف المعارضة من «الأنا» وأن يعامله وكأنه شيء خارجي، بل كثيراً ما يقسو عليه في المعاملة. و«الأنا» يهمّه أن يبقى على وفاق مع «الأنا الأعلى» بقدر ما يهمّه أن يبقى على وئام مع «الهذا».

٣ ـ هامش أضيف سنة ١٩٣٥: «تلك هي وجهة النظر التي فصلها ما يسمى بعلم النفس الفردي عن سياقها التحليلي النفسي وروّج لها كتعميم لا مبرر له[*]».

(*) نقدة موجهة هنا إلى مذهب ألفريد آدلر. «م».



وللمنازعات بين «الأنا» و«الأنا الأعلى» أثر كبير في الحياة النفسية. ولعلك فطنت إلى أن «الأنا الأعلى» هو المؤتمن على الظاهرة التي نسمّيها الضمير. وإنه لمن الأهمية القصوى بالنسبة إلى الصحة النفسية أن ينمو «الأنا الأعلى» نمواً سوياً، أي أن يكتسب إلى حدٍّ كافٍ صفة لاشخصية. وليس هذا واقع الحال لدى العصابي الذي لم تتحول عنده عقدة أوديب التحول المنشود. فـ «أناه الأعلى» بقي في موقفه من «أناه» كما الأب الصارم في موقفه من ابنه، والكيفية التي يمارس بها أخلاقيته بدائية حقاً: فـ «الأنا» لا بدّ أن يقبل صاغراً بما ينزله به «الأنا الأعلى» من عقاب. وهنا يجري استخدام المرض كوسيلة لتحقيق هذه «العقوبة الذاتية»؛ إذ يتعيّن على العصابي أن يسلك مسلك من هو واقع فريسة الشعور بالذنب، وهو الشعور الذي يحتاج إلى المرض كعقاب ليخمد أجيجه.

ـ هذا يبدو لي شديد الإلغاز. وأغرب ما في الأمر أن قوة الضمير هذه لدى المريض لا يجوز لها هي الأخرى أن تصير شعورية.

ـ أجل، فقد شرعنا اليوم فقط نفهم مغزى جميع هذه العلاقات المهمة. وذلك كان السبب في الغموض الذي لفّ عرضي السابق. وبوسعي الآن أن أتابع. إننا نطلق على جميع القوى التي تعترض سبيل عمل الشفاء اسم «مقاومات» المريض. فـ «المكسب» الذي يجنيه من مرضه هو مصدر أول مقاومة؛ أما «الشعور اللاواعي بالذنب» فيمثّل مقاومة «الأنا الأعلى» التي هي أقوى عامل، والتي هي أكثر ما نخشاه نحن في التحليل. وتصادفنا في أثناء العلاج مقاومات أخرى أيضاً. فإن يكن «الأنا» قد قام، في الطفولة الأولى، بكبتٍ ما بدافع الخوف، لبث هذا الخوف مقيماً وأفصح عن نفسه في شكل مقاومة كلما اقترب «الأنا» من المكبوت. ثم لا يغرب عنك أن الأمر لن يخلو من صعوبة حين نرغم سيرورة غريزية، كانت تمضي في سبيلها الخاص منذ عشرات السنين، على أن تسلك بصورة مباغتة سبيلاً جديداً شققناه لها. ومن الممكن أن نطلق على ذلك اسم مقاومة «الهذا». ومكافحة هذه المقاومات جميعاً هي المهمة الرئيسية للعلاج التحليلي، وإلى جانبها تبدو مهمة التأويل هيّنة غير ذات شأن. بيد أن هذه المعركة، التي من خلالها يتمّ التغلب على المقاومات، هي تحديداً التي تعدّل «أنا»



المريض وتصحِّحه وتشدّ من أزره حتى يمكن لنا، متى ما انتهى العلاج، أن نطمئن إلى سلوكه مستقبلاً.

هأنتذا تدرك الآن ما السر في طول أمد العلاج. فليست العلة الحاسمة هنا طول الطريق الواجب اجتيازه وغنى العناصر الواجب تحليلها. وإنما المهم أن يكون الطريق سالكاً. فالمسافة التي تقطع في زمن السلم بساعتين بواسطة السكك الحديدية قد يستغرق الجيش، كيما يقطعها في زمن الحرب، أسابيع بكاملها بفعل مقاومة العدو. وصراع كهذا يتطلب زمناً أيضاً في المضمار النفسي، ولا محيص لي من أن ألحظ آسفاً أن جميع الجهود التي بذلت لتقصير أمد العلاج التحليلي بصورة ملموسة قد باءت حتى الآن بالفشل. ويلوح أن خير وسيلة لاختصار مدته هي إنجازه على الوجه الصحيح.

ـ لو كنت أشعر في نفسي ميلاً إلى التطاول على حرفتكم وإلى القيام بتحليل أحد الأشخاص بنفسي، لشفاني منه ما عرَضته لي عن المقاومات. لكن ماذا عن التـأثير الشخصي للمحلِّل، ذلك التأثير الذي كنت سلَّمت بوجوده؟ أليس له دور في التغلُّب على تلك المقاومات؟

ـ حسناً فعلت بإثارتك هذه النقطة. إن ذلك التـأثير الشخصي هو سلاحنا الدينامي الأقوى، العنصر الجديد الذي نقحمه على الموقف، المحرِّك الحقيقي للعلاج. وليس للمحتوى العقلي لإيضاحاتنا أن ينوب منابه، لأن المريض، الذي يشاطر الناس المحيطين به أفكارهم المسبقة، لن يصدِّقنا أكثر مما يصدِّقنا نقادنا من الدوائر العلمية. إن العصابي لا يُقدِم على التحليل إلا إذا وثق بالمحلِّل واطمأن إليه من خلال موقف عاطفي خاص يبرز لديه تجاهه، مثله مثل الطفل الذي لا يثق إلا بالأشخاص الذين يميل إليهم ويخصّهم بحبه. ولقد سبق لي أن أوضحت لك الكيفية التي نستخدم بها هذا التـأثير «الإيحائي» البالغ الفعالية. فنحن نستعمله لا كوسيلة لخنق الأعراض ـ وهذا ما يميِّز التحليل عن طرائق العلاج النفسي الأخرى ـ بل كقوة محركة تتيح لـ «الأنا» المريض أن يظهر على مقاومته ويتغلب عليها.

ـ وإن أصبت في ذلك فلاحاً، فهل تسير الأمور بعد ذلك على ما يرام؟

ـ أجل. هذا هو المفروض. لكن قد تبرز هنا صعوبة غير متوقعة. ولعلها أكبر



مفاجأة للمحلِّل: اكتشافه أن العاطفة التي بات المريض يكنّها له هي من طبيعة خاصة تماماً. وأول طبيب حاول القيام بتحليل ـ ولم يكن أنا ـ اصطدم بالظاهرة عينها، فما درى كيف يواجهها[٤]. وبالفعل، إن هذه العاطفة ـ إن شئت الصراحة ـ هي من طبيعة غرامية. وهذا عجيب، أليس كذلك؟ ولا سيما إن علمت أن المحلِّل لا يقوم بشيء من شأنه أن يستثيرها، وأنه يقف على النقيض من ذلك موقف التنائي عن المريض ويحيط نفسه بقدر من التحفظ في علاقته الشخصية به. وعلى الأخص إن لاحظت أن هذه العاطفة الغريبة لا تقيم اعتباراً للشروط الواقعية التي تيسّر أمر الحب أو تعسّره في الأحوال العادية: الجاذبية الشخصية، العمر، الجنس، الوضع الاجتماعي. إن هذا الحب يأخذ بتمامه شكلاً استحواذياً. وبديهي أن هذه الصفة ليست غريبة عن سائر ألوان الحب، أقصد ألوانه التلقائية. بل العكس متواتر كما تعلم. لكن الحب الاستحواذي هو القاعدة في الموقف التحليلي، بدون أن يكون في المستطاع مع ذلك إيجاد تفسير معقول له. وقد يظنّ المرء أن صلات المريض بالمحلِّل لا يجوز أن تنطوي على أكثر من قدر معلوم من الاحترام والثقة والاعتراف بالجميل والتعاطف الإنساني. ولكن بدلاً من ذلك يفجؤنا هذا الحب الذي يحمل هو نفسه علائم الظاهرة المَرضية.

ـ لكني أتصور أن في ذلك ما يعينكم في علاجكم التحليلي! فمن يقع في الحب تلين عريكته وتزيد طواعيته ويتولد لديه الاستعداد لبذل أي شيء في سبيل هذا الحب.

ـ أجل. حقٌّ هذا في بادئ الأمر، لكن متى اشتد ساعد هذا الحب فيما بعد انكشفت للعيان طبيعته الحقيقية، وتجلى عندئذ مدى عدم مؤاتاته من أكثر من جانب لمهمة المحلِّل. فحبّ المريض لا يعود يقتصر على الطاعة، بل يغدو ملحفاً ملحاحاً، يطلب كإشباع له حنواً أو شهوانية. وينهد إلى الوحدانية التي لا شريك فيها، وتستبدّ به الغيرة، ويتبدى منه أكثر فأكثر وجهه الآخر، أي العداء والانتقام

٤ ـ الإحالة هنا إلى جوزيف بروير (١٨٤٢ ـ ١٩٢٥) ومريضته الهستيرية آنا أو. وراجع أيضاً **دراسات في الهستيريا**، كتاب بروير المشترك مع فرويد الصادر عام ١٨٩٥، والذي يعدّ النص المؤسس للتحليل النفسي. «م».



اللذان تكمن نارهما تحت رماد كل حب لا يتمكن من الوصول إلى موضوعه. وهو يحلّ في الوقت نفسه، مثله مثل كل حب آخر، محلّ كل محتوى آخر كان يمكن أن يملأ النفس. ويطفئ من ثم الاهتمام بالعلاج والشفاء. زبدة القول أنه لا مناص أمامنا إلا أن نتبيَّن، على نحو لا يداخله الشك، أن هذا الحب ناب مناب العصاب، وأن نتيجة عملنا كانت إحلال شكل مرَضي محل آخر.

ـ هذا أمر يدعو إلى القنوط! فما العمل؟ هل ستنفض يدك من التحليل؟ لكن بما أن هذه النتيجة، كما تقول، مطردة، فلا سبيل إذاً إلى إنجاز أي تحليل!

ـ الأولى بنا أولاً أن نرى إلى الموقف على ضوء مذهبنا. فما قد يفيدنا به يمكن أن يساعدنا على السيطرة عليه. أفليس مما يلفت الانتباه أن يكون في مكنتنا قلب أي عصاب إلى حالة حبِّية مرَضَية؟

إن اقتناعنا الثابت هو أنه في أساس الأعصبة يكمن على الدوام جانب من حياة حبِّية ضلَّت اتجاهها. وعلى هذا المنوال نستردّ ثقتنا بأنفسنا، ونجترئ على اتخاذ ذلك الحب نفسه موضوعاً للتحليل. وبوسعنا أن نلاحظ شيئاً آخر بعد. فالحب «التحليلي» لا يتجلى في جميع الحالات بمثل ذلك الوضوح والصفاء الذي وصفته لك به. لماذا؟ لن يطول بنا الأمر حتى نقف على سره. فبقدر ما تنزع الميول الشهوانية والميول العدائية في الحالة الحبِّية للمريض إلى الإفصاح عن نفسها، تستيقظ لديه في الآن نفسه معارضته لها. فهو يكافح ضدها، ويجاهد على مرأى منا لقمعها وخنقها. ولا يعزّ علينا عندئذ أن نفهم ما يجري! فالمريض يكرر، في صورة حبه هذا للمحلِّل، خبرات نفسية كان عاشها من قبل؛ فهو يحوِّل باتجاه المحلل أحوالاً نفسية كانت جاهزة متأهبة في داخل نفسه وذات صلة وثيقة بعصابه. وهكذا يكرر، تحت أبصارنا، ردود الفعل الدفاعية التي كانت صدرت عنه من قديم. فلكأني به يحلو له أن يستعيد، في صلاته بالمحلِّل، كل صروف تلك الحقبة التي طوتها يد النسيان من حياته. وما يظهره لنا إنما هو نواة حياته الحميمة وقصته الشخصية، فهو **يستعيدها وكأنها حاضر حيّ، لا على أنها ماضٍ يُستذكر**. وهكذا يكون لغز الحب التحويلي قد وجد حلّه، ومن ثم يستطيع التحليل أن يواصل تقدُّمه مستعيناً بالموقف الجديد عينه الذي بدا في



وقت من الأوقات وكأنه خطر داهم عليه.

ـ إن هذا لعلى قدر كبير من اللطافة والدقة! وهل يصدِّقك المريض بيسر وسهولة حين تجزم له أنه ليس مغرماً بك فعلاً، بل هو مكره فقط على أن يلعب من جديد تمثيلية قديمة.

ـ إن كل شيء يتوقف على هذا، والغاية من المهارة التامة في مداورة التحويل هي الوصول إلى ذلك. وأنت تدرك، ولا بدّ، أن متطلبات التقنية التحليلية تبلغ هنا ذروتها. فهنا يمكن أن تُرتكب أشنع الأخطاء أو أن يحرز أعظم النجاح. ومن العبث أن نحاول الالتفاف من حول الصعوبات بقمع التحويل أو إهماله؛ فهذا نهج لا يستأهل اسم التحليل، ولو سبقه كل ما سبقه من جهود. وصرف المريض حالما تظهر للعيان جوانب الإزعاج في عصابه التحويلي أمر لا معنى له على الإطلاق. بل لن يكون، علاوة على ذلك، إلا تصرفاً جباناً: فما أشبهنا، والحالة هذه، بمن يستحضر الأرواح، فما إن تحضر حتى يولي الأدبار. والحق أننا قد نضطر إلى ذلك في بعض الأحيان اضطراراً: فقد تواجهنا حالات يستعصي علينا فيها قياد التحويل، متى ما انفلت من عقاله، ولا يكون أمامنا محيص من وضع حدٍّ للتحليل؛ على أنه يتعيَّن علينا على كل حال أن نقاوم الأرواح الشريرة إلى أن تخور آخر قوانا. أما الاستجابة للمطالب التي يوحي بها التحليل للمريض، وإشباع نوازعه العاطفية أو الحسية، فأمر لا تنهى عنه اعتبارات أخلاقية مبررة فحسب، بل هو أيضاً تصرف في غير محله ولا جدوى منه على الإطلاق كوسيلةٍ تقَنيةٍ لبلوغ هدف التحليل. فالعصابي لا يمكن أن يشفى لمجرد أننا أتحنا له أن ينسخ من جديد، وطبقاً للأصل، تلك الصورة اللاشعورية الجاهزة لديه للاستنساخ. ولو ارتضينا بحلٍّ وسط، وعرَضنا على المريض إشباعاً جزئياً لقاء استمراره في التعاون مع العملية التحليلية، لتعيَّن علينا على أساس هذا الفرض أن نحاذر الوقوع في ذلك الموقف المضحك الذي وقع فيه الكاهن حين أراد أن يردّ إلى حظيرة الإيمان وكيل التأمين المريض. فقد بقي المريض على كفره، لكن الكاهن لم ينصرف عنه إلا بعد أن وقَّع العقد وصار ملزماً بتسديد أقساط التأمين. والحق أن المخرج الوحيد الممكن من مأزق التحليل هو أن نرجِع كل شيء إلى ماضي المريض، كما عاشه فعلاً، أو كما شاده في خياله، خادم رغباته. وهذا يقتضي، من جانب



المحلِّل، قدراً غير قليل من الحذق والصبر والأناة ونكران الذات.

ـ ومتى يكون المريض قد عاش، على أساس هذا الفرض، النموذج الأولي لحبه التحويلي؟

ـ في طفولته، وبصفة عامة في صلاته مع أحد والديه. فأنت تذكر، ولا بدّ، ما علَّقناه من أهمية على جميع تلك العلاقات العاطفية الأولى، وعلى هذا النحو تنغلق هنا الدائرة!

ـ أانتهيت أخيراً؟ لقد اختلطت عليّ الأمور قليلاً بعد كل الذي سمعته منك. ولكن خبِّرني بعد: أين وكيف يتعلم المرء كل ما ينبغي أن يعرفه ليمارس التحليل النفسي؟

ـ هناك في الوقت الحاضر معهدان لتعليم التحليل النفسي: الأول في برلين، وقد أسسه الدكتور ماكس آيتنغون EITINGON[٥] لصالح **الجمعية البرلينية للتحليل النفسي**. وترعى الثانية **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** وتديره على نفقتها الخاصة وتبذل في سبيل ذلك تضحيات لا يستهان بها. وتقتصر مساهمات السلطات الحكومية في الوقت الحاضر على ما تضعه من عراقيل في سبيل هذه المبادهات الغضة العود. وسوف يفتتح عما قريب معهد تعليمي ثالث في لندن، بمبادرة من **جمعية لندن للتحليل النفسي**، وسيُعهد بإدارته إلى الدكتور جونز[٦]. وفي هذه المعاهد يخضِع المرشَّحون أنفسهم للتحليل، ويتلقون تعليماً نظرياً من خلال محاضرات تعالج جميع الموضوعات التي تهمهم، ويفيدون من

٥ ـ ماكس آيتنغون: طبيب ومحلل نفسي روسي يهودي (١٨٨١ ـ ١٩٤٣). هاجرت أسرته إلى ألمانيا فتخرَّج من جامعة الطب في لايبزغ وعمل في مستشفى بورغولزلي في قسم يوجين بلولر. تولى فرويد نفسه تحليله لفترة قصيرة من الزمن. خَلَف كارل أبراهام في رئاسة **الرابطة التحليلية النفسية الدولية**. ثم هاجر إلى فلسطين حيث أسس **الرابطة التحليلية النفسية الفلسطينية** التي تحولت لاحقاً إلى **الرابطة التحليلية النفسية الإسرائيلية**. وكانت وفاته في القدس عام ١٩٤٣. وله مراسلات مع فرويد استمرت بين ١٩٠٦ و١٩٣٩. «م».

٦ ـ إرنست جونز: من أشهر أنصار التحليل النفسي في بريطانيا(١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). أصاب شهرة عالمية بالترجمة اتي وضعها لحياة فرويد (١٩٥٣ ـ ١٩٥٨) بعنوان **حياة سيغموند فرويد وأعماله** والتي ضمنّها مساهمة هامة في تاريخ الحركة التحليلية النفسية. وقد أسس **جمعية لندن للتحليل النفسي**. وكان له دور عظيم في توفير الرعاية لفرويد وأنصاره يوم التجأوا إلى لندن سنة ١٩٣٨ هرباً من النازية. وله دراسات عدة في التحليل النفسي، من أشهرها: **أوديب وهملت**. «م».



خبرة المحللين المتقدمين عليهم سناً، ويقومون تحت إشراف هؤلاء بتجاربهم الأولى على حالات سهلة. ويستغرق تأهيل المحلل زهاء سنتين. وبديهي أنه لن يكون بعد ذلك سوى مبتدئ، لا معلماً. وما يظل مفتقراً إليه لا بدّ أن يكتسبه بمزاولة التحليل النفسي وبالتردد على الجمعيات التحليلية النفسية حيث يلتقي صغار السن من الأعضاء بكبار السن منهم ويتبادلون وإياهم أفكارهم. وليس الإعداد للنشاط التحليلي أمراً بسيطاً وميسوراً، بل العمل صعب، والمسؤولية ثقيلة. غير أن من يتابع هذه الدروس، ويخضع للتحليل، ويفهم من سيكولوجيا اللاشعور ما يمكن تعليمه منها اليوم، ويكتسب معارف في علم الحياة الجنسية، ويتقن تقنية التحليل النفسي الدقيقة، وفن التأويل، والكفاح ضد المقاومات، ومداورة التحويل، لن يعود امرءاً **غير اختصاصي في مضمار التحليل النفسي**، بل يكون قد اقتدر على الاضطلاع بمعالجة الاضطرابات العصابية، وسيكون في مستطاعه، على مرّ الأيام، أن يحقق كل ما يحقّ لنا أن نرتجيه من هذا الفن العلاجي.

(٦)

ـ لقد بذلت مجهوداً شاقاً لتشرح لي ما التحليل النفسي وما المعارف اللازمة لمزاولته بنجاح. ولم أخسر شيئاً بطبيعة الحال من إصغائي إليك! لكني لست أتبيَّن ما التأثير الذي كنت ترجو أن يكون لشروحك على رأيي وحكمي. فلست أرى في هذه الحالة شيئاً جديداً. فالأعصبة ضرب خاص من المرض، والتحليل طريقة خاصة في معالجتها، أي اختصاص طبي. ومن المألوف ألا يكتفي الطبيب، الذي اختار أن يتخصص، بالمعارف التي تؤهله لحيازة شهادته، ولا سيما إذا كان يرغب في الإقامة في مدينة كبيرة باعتبارها المكان الوحيد الذي يمكن أن يدرّ دخلاً معقولاً على الاختصاصي. فمن طلب أن يصير جراحاً سعى إلى العمل لبضع سنوات في عيادة جراحية؛ وكذلك حال الاختصاصي في العين، والاختصاصي في الحنجرة، إلخ، وعلى الأخص طبيب الأمراض النفسية الذي قد لا يغادر أبداً المصح أو البيمارستان. وكذلك سيكون حال المحلل النفسي فيما أظن. فمن يقع اختياره على هذا الاختصاص الجديد، فلا مناص له من أن يعقد العزم، حال انتهائه من دراسته الطبية، على تمضية سنتين أخريين في المعهد التعليمي الذي أشرت إليه، هذا إذا كان الأمر يستوجب حقاً كل هذه المدة الطويلة! وهناك سيتبيَّن عظيم الفائدة التي يمكن أن يجنيها من بقائه على اتصال بزملائه في الجمعية التحليلية النفسية، وستسير أموره على خير ما يرام. لكني لا أرى، والحال هذه، من داعٍ لأن تثار هنا مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء.

ـ إن الطبيب الذي يفعل ما وعدت باسمه أن يفعله لن يلقى منا جميعاً إلا عظيم الترحاب. وإن أربعة أخماس طلابي هم أصلاً من الأطباء. لكن اسمح لي أن أبيِّن لك ما كانت حقيقة علاقة الأطباء بوجه عام بالتحليل النفسي، وماذا يمكن أن يكون مستقبل هذه العلاقة. إن الأطباء ليس لهم أي حق تاريخي على



الإطلاق في احتكار التحليل، هذا ناهيك عن أنهم استخدموا حتى الأمس القريب كل ما في متناولهم من وسائل وسبل، بدءاً بالسخرية السخيفة وانتهاء بالافتراء الفاحش، ليعملوا فيه معول الهدم. وقد تجيبني بأن هذا ماضٍ مضى وليس له أن يؤثر على المستقبل. وإني لأوافقك. لكنني أخشى ألا يأتي المستقبل على الوجه الذي تتوقع.

اسمح لي بأن أعطي كلمة «الدجال»[1] المعنى الذي يعود إليها حقاً بدلاً من معناها القانوني الصرف. فـ «الدجال» في نظر القانون هو من يعالج المرضى بدون مؤهل طبي معترف به من الدولة. أما أنا فأحبذ تعريفاً آخر: فالدجال هو من يقوم بعلاج الناس بدون أن تتوفر له المعارف والكفاءات الضرورية. واستناداً إلى هذا التعريف، لن أتردد في أن أجزم بأن الأطباء ـ وهذا ليس في أوروبا وحدها ـ يؤلفون بالنسبة إلى التحليل النفسي فيلقاً كبيراً من الدجالين. فكثيراً ما يمارسون التحليل بدون أن يكونوا درسوه أو فقهوا من أمره شيئاً.

عبثاً ستعترض عليّ بأن قلة الذمة والضمير هذه ليست مما يمكن أن يعزى إلى الأطباء. فالطبيب يعلم أن الإجازة الطبية ليست رخصة، وأن المريض ليس خارجاً على القانون. ومن ثم فلا مناص لنا من الافتراض بأن الطبيب يتصرف عن سلامة نية حتى عندما يرتكب الخطأ.

على أن الوقائع تبقى قائمة ـ وإن كان لنا أن نأمل ألا يكون لها من تفسير سوى ذاك الذي تقدمت به! ولسوف أحاول أن أبيّن لك كيف يمكن للطبيب أن يتصرف في مضمار التحليل النفسي تصرفاً ما كان إلا ليتحاشاه بحرص لامتناهٍ في أي مضمار آخر.

أولاً، ينبغي أن تدرك أن الطبيب يتلقى، في الكليات، تعليماً يكاد يناقض مناقضة مطلقة ما يلزم لإعداد المرشح للتحليل النفسي. فهم يوجهون انتباهه نحو وقائع موضوعية قابلة للإثبات، وتتصل بعلوم التشريح والفيزياء والكيمياء، وعلى حسن تفهمها وإجادة مداورتها يتوقف نجاح التدخل الطبي. وهم يردّون مشكلة

١ ـ انظر الفقرة الثانية من «المدخل» في أول هذا الكتاب حيث وردت بقلم فرويد كلمة «الدجال». «م».



الحياة إلى وجهة النظر هذه، وعلى الأقل بقدر ما يمكن تفسير هذه المشكلة إلى يومنا هذا على ضوء صراع القوى القابل وجودها للإثبات في الطبيعة اللاعضوية أيضاً. أما فيما يتصل بالجانب النفسي من الظاهرات الحيوية، فإنهم لا يثيرون اهتمام الطالب به، على اعتبار أن دراسة الوظائف العليا للنفس والذكاء ليست من اختصاص الطب، بل هي من صلاحيات الكليات الأخرى. والطب العقلي هو وحده المفترض به أن يهتم باضطرابات الوظيفة النفسية، لكننا نعلم ما الكيفية التي يفعل بها ذلك وفي أي اتجاه يفعله. فالطب العقلي يبحث عن الأسباب الجسمانية للاضطرابات النفسانية ويعالجها كما تعالج أسباب أيّ مرض.

إن ما يقوم به الطب العقلي حقّ، والتعليم الطبي من هذه الناحية ممتاز ولا ريب. وحين نأخذ على هذا التعليم كونه أحادي الجانب فلا بدّ أولاً أن نأخذ بعين الاعتبار المنظور الذي تنقلب من منطلقه هذه الصفة إلى مأخذ. فكل علم أحادي الجانب، ولا مفرّ له من أن يكون كذلك، ما دام ملزماً بتركيز بحثه كله على مناهج ومظاهر ووقائع خاصة. ومن اللغو الباطل، الذي لا أريد أن أقع فيه، الموازنة بين علم وآخر والمفاضلة بينهما. فالفيزياء لا تنال من قدر الكيمياء، كما لا يمكن لها أن تقوم مقامها، مثلما لا يمكن لهذه أن تسدّ مسدّ تلك. والتحليل النفسي بدروه أحادي الجانب، بكل تأكيد، إذ إنه علم اللاشعور النفسي. ومن ثم ليس لنا أن ننكر على العلوم الطبية حقها في أن تكون أحادية أجانب.

إن المنظور الذي نتحرى عنه ينجلي لنا متى ما أشحنا عن الطب العلمي لنطرق ميدان فن الشفاء العملي. فالمريض كائن معقَّد وأهل لأن يذكِّرنا بأن الظاهرات النفسية، التي يعسر كل العسر تفهمها، لا يمكن محوها على هوانا من صورة الحياة. صحيح أن العصابي يمثِّل مشكلة معقدة ليست موضع ترحاب عند أحد، فضلاً عن أنها محرجة للطب بقدر ما هي محرجة للقضاء أو للجيش. لكن العصابي كائن موجود، ويقع على عاتق الطب عبء خاص حياله. بيد أن الطب لا يوليه اهتماماً، ولا يفعل من أجله شيئاً على الإطلاق. ونظراً إلى الصلة الوثيقة التي تبقى قائمة بين الأشياء حتى عندما نميِّزها إلى أشياء جسمانية وأشياء نفسانية، فلنا أن نرجو أن يأتي يوم تنفتح فيه دروب جديدة أمام المعرفة، وكذلك



أمام العلاج، على ما نأمل؛ دروب تقود من بيولوجيا الأعضاء وكيميائها إلى الظاهرات العصابية. غير أن هذا اليوم لا تزال تلفّه حجب الغيب، كما لا تزال هذه الحالات المرَضية عصية على التناول من الناحية الطبية.

كان من الممكن أن نغضّ النظر عن هذا كله لو كان التعليم الطبي يكتفي بأن يغلق أمام الأطباء أبواب تفهم الأعصبة. غير أنه يفعل أكثر من ذلك: فهو يعطيهم عن هذه الأخيرة فكرة خاطئة وضارة. والأطباء، الذين ما أيقظ أساتذتهم فيهم اهتماماً بالعوامل النفسية للحياة، ينزعون نزوعاً قوياً إلى معاملتها بازدراء، وإلى تناولها بالمزاح وكأنها أمور لا تتصل بالعلم. ولهذا لا يستطيعون أن يحملوا على محمل الجدّ شيئاً مما يتصل بهذه العوامل النفسية، ولهذا أيضاً لا يتأتّى لهم أن يدركوا ما يترتّب عليها من واجبات والتزامات. وهكذا يدرُجون، وهم الجاهلون بالبحث السيكولوجي، على النظر إليه بعين الاستخفاف، ولا يقيمون وزناً يذكر لواجباتهم في هذه الناحية. صحيح أنه لا مفر لهم من معالجة العصابيين ما داموا مرضى يقصدون الطبيب، وما دام في المجال متسع لتجريب طرائق علاجية جديدة عليهم. لكن ما الداعي لأن يجشموا أنفسهم مشقة إعداد طويل الأمد؟ فالأمر ميسور من تلقاء نفسه؛ ومن يدري أصلاً مقدار الفائدة التي يمكن أن تجتدى مما يُدرَّس في معاهد التحليل النفسي؟ وكلما تضاءل فهمهم زاد اندفاعهم. فالعالِم الحقيقي هو وحده الذي يلزم جانب التواضع لأنه يعلم مدى قصور علمه.

إذاً، فمقارنة الاختصاص التحليلي بغيره من الاختصاصات الطبية، وهي المقارنة التي شئت أن تفحمني بها، لا تصدق على ما نحن بصدده. ففي الجراحة وطب العيون، إلخ، تضطلع الكلية نفسها بتوفير الإمكانية للتأهيل اللاحق. أما معاهد التحليل النفسي فقليلة عدداً، وحديثة عهد، ولا سلطان لها. ومدارس الطب لم تعترف بها، ولا تعيرها التفاتاً. والطبيب الناشئ، الذي كان عليه في كل شيء تقريباً أن **يصدِّق** أساتذته، تضاءلت أمامه الفرصة من جراء ذلك لتثقيف ملكة الحكم لديه. ومن ثم فهو سيغتنم الفرصة التي سنحت له، في مضمار لم ترجح فيه بعد كفة أية حجة أو سلطة، ليقف في خاتمة المطاف موقف الناقد.

ثمة ظروف أخرى بعد من شأنها أن تشجع الطبيب ليقوم بدور «الدجال» التحليلي. فلو شاء أن يقوم، دونما سابق إعداد كافٍ، ببعض العمليات الجراحية في العين، لوضع فشله في استئصال سادة العين أو القُزَحية وانصرافُ المرضى عن عيادته حداً سريعاً لجسارته وتهوره... أما مزاولة التحليل فلا خطر منها عليه نسبياً. فالجمهور اطمأن إلى النجاح المألوف في عمليات العين، وهو يتوقع الشفاء على يد الجراح، لكن إن عجز الاختصاصي في الأمراض العصبية عن شفاء المريض لم يقابل هذا بالعجب من أحد. فالجمهور عينه لم يألف النجاح في مضمار معالجة مرضى الأعصاب، ولا يعزّ عليه أن يغسل يديه من المسألة بالقول إن الطبيب تجشم في علاجهم عناء ومشقة. وعلى هذا لا يكون ثمة مجال لعمل شيء كبير، وسيكون خير مداوٍ الطبيعة أو الزمن. فالمرأة، مثلاً، ستشفى على ما يقال مع الحيض، أو لاحقاً مع الزواج، أو أخيراً مع انقطاعِ الطمث. وقد يكون آخر الدواء الموت. ثم إن الطبيب الذي نصَّب نفسه محلّلاً لم يتكلف مع مريضه «العصبي» أمراً جسيماً، ولا مجال بالتالي للومٍ عليه أو تثريب. فهو لم يلجأ إلى أدوات ولا إلى أدوية، وما فعل سوى أنه تبادل الكلام مع مريضه وحاول أن يقنعه بالقيام بشيء أو أن يصرفه عن القيام بشيء آخر. وكل هذا لا أذى منه ولا ضرر، ولا سيما إذا كان الطبيب قد حرص على عدم إثارة المواضيع الشائكة أو الموجعة. ثم إن طبيبنا المحلِّل، الذي لم يتقيَّد بتعاليم مدرستنا الصارمة، لن يتوانى عن محاولة تحسين التحليل النفسي بأن يقتلع أنيابه السامة ويجعله أكثر تقبلاً عند المرضى؛ ومن حسن حظه أنه توقف عند هذا الحدّ، لأنه لو كان جازف بإثارة المقاومات ولم يدرِ بعد ذلك كيف يواجهها، لكان عرَّض سمعته حقاً للخطر.

والنزاهة تقتضي منا أن نعترف ونقرّ بأن خطر المحلِّل غير الحائز على شهادة طبية على المريض أقل من خطر الجراح غير الكفؤ. فالأذى المحتمل لا يتعدى ما يلي: لقد بذل المريض جهداً لامجدياً وأضاع فرصة في الشفاء أو قلّل من حظوظها. أضف إلى ذلك أن سمعة العلاج التحليلي تكون قد تضررت. وهذا كله شيء غير مرغوب فيه، ولكن لا وجه للمقارنة بينه وبين الخطر الناجم عن مبضع جراح «دجال». وفي رأيي أنه ليس لنا أن نخشى من حدوث تفاقم خطِر



ودائم في المرض العصبي من جراء استخدام عادم الكفاءة للتحليل النفسي. فردود الفعل المستكرهة لا تلبث أن تهمد وتزول. وليس للضرر الذي يتسبب فيه المحلِّل وزن يذكر بالمقارنة مع صدمات الحياة ورضاتها التي كانت علة نشوء المرض. وكل ما في الأمر أن المحاولة العلاجية لم تعد بنفع على المريض.

ـ لقد أصغيت إليك، بدون أن أقاطعك، تعرض لي التدجيل الطبي في ميدان التحليل. لكن ما استطعت أن أدفع عن نفسي انطباعاً ساورني بأن ثمة شعوراً بالعداء يتسلط عليك حيال سلك الأطباء، وبأن لهذا الشعور، كما أشرت أنت إلى ذلك من قبل، أصلاً تاريخياً. غير أني أسلِّم معك بشيء واحد: إن لم يكن من التحليل بدّ فمن الواجب أن يتولاه أشخاص أُعدّوا له الإعداد اللازم. لكن ألا تعتقد أن الأطباء الذين سيتطلعون إلى ممارسة التحليل سيبذلون كل ما بوسعهم، مع الزمن، للحصول على التأهيل المرام؟

ـ أخشى أن أجيب بالسلب. فما دامت علاقات المدرسة الرسمية بالمعهد التحليلي على حالها، فإن الأطباء سيستعظمون إغراء تيسير الأمور.

ـ يلوح أنك تتحاشى أن تبدي رأياً صريحاً في مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء. وهذا منطقي. وعليّ أنا تخمين دوافعك: فلأن الأطباء الذين يبغون مزاولة التحليل لا يقعون تحت أي رقابة، فأنت تودّ، بدافع الانتقام بنوع ما، أن تعاقبهم بانتزاع احتكار التحليل منهم وبفتح الباب إلى هذا النشاط الطبي أمام غير الأطباء أيضاً.

ـ لا أدري إن كنتَ أحسنت فهم دوافعي. وربما كان في وسعي أن أبيِّن لك فيما بعد أني لست متغرضاً إلى هذا الحدّ. غير أن ما أحرص عليه أشد الحرص هو التوكيد على النقطة التالية، وهي أنه **لا يجوز لأحد أن يمارس التحليل إن لم يستعد له بتأهيل مناسب**. وسواء أكان بعد ذلك طبيباً أم لا، فهو عندي أمر ثانوي.

ـ ما المقترحات العملية التي تتقدم بها في هذا الشأن؟

ـ لم أصل إلى هذه النقطة بعد، ولا أدري إن كنت سأصل إليها أبداً؛ على أنه بودِّي أن أناقش وإياك مسألة أخرى، وأن أتطرق قبل ذلك إلى نقطة أكثر



خصوصية بعد. يقال إن سلطاتنا المعنية تزمع، بتحريض من سلكنا الطبي، أن تحظّر تحظيراً باتاً مزاولة غير الأطباء للتحليل. وسوف يطال هذا الحظر الأعضاء غير الأطباء في **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**، مع أنهم حصَّلوا تأهيلاً ممتازاً دعَّموه بطول الممارسة والمران. فلو فُرِض هذا الحظر فعلاً لنشأ الوضع التالي: إن بعض الأشخاص سيمنعون من مزاولة مهنة مع أنهم أظهروا فيها قدرة فائقة، بينما ستفتح أبوابها على مصاريعها أمام أشخاص آخرين لا يمكن أن نطمئن إلى مقدرتهم اطمئناننا إلى الأوائل. وليست هذه النتيجة على وجه التحقيق هي التي يفترض بقانون من القوانين أن يصبو إلى بلوغها. بيد أن هذه المشكلة الخاصة ليست بالغة الأهمية على كل حال، ولا مستعصية على الحل. فهي تتعلق بحفنة من الناس لن ينوبها من جراء ذلك أذى كبير. فأرجح الظن أنهم سيهاجرون إلى ألمانيا، حيث لا يضيّق عليهم الخناقَ أيُّ قانون، وحيث يتاح لهم أن يظهِروا بسرعة مقدرتهم، فإن وجدت رغبة في تجنيبهم هذا المآل وفي تخفيف وطأة القانون عليهم، أمكن وضعها موضع التنفيذ بسهولة استناداً إلى سوابق معروفة. ففي النمسا عينها، وفي عهد الملكية، مُنح غير مرة «دجالون» مشهورون إذناً صريحاً وشخصياً بمزاولة الطب، وبعدها أثبتوا طول باعهم في بعض ميادينه. وكانوا في أغلب الأحوال من «المبرئين» الريفيين، وكان ضامنهم في كل مرة دوقة من الدوقات الكثيرات التعداد في ذلك العهد. ومن ثم يمكن اتخاذ الإجراء نفسه في المدن، لدوافع أخرى وبضمانة تقنية خالصة. أما إذا حصل الحظر المشار إليه، فسيقع ضرره الأكبر على **معهد فيينا لتعليم التحليل النفسي** الذي لن يعود في مستطاعه في هذه الحال استقبال المرشحين من خارج الدوائر الطبية لتأهيلهم. وبذلك نكون في النمسا قد خنقنا مرة أخرى نشاطاً فكرياً مباحة له في بلاد أخرى حرية التفتح. إني آخر من يزعم أني فقيه في موضوع القوانين والمراسيم. غير أني أعرف ما فيه الكفاية لأدرك أن التشدد في تطبيق القانون النمساوي على المزاولة اللامشروعة للطب لا يتمشى مع نزوعنا العام الراهن إلى مطابقة القوانين النمساوية مع القوانين الألمانية. ثم إني إدرك، فضلاً عن ذلك، أن تطبيق قانون المزاولة اللامشروعة للطب على التحليل النفسي ضرب من مفارقة تاريخية، لأنه



يوم صدر هذا القانون لم يكن التحليل النفسي قد رأى النور بعد ولم تكن الطبيعة الخاصة للأمراض العصابية قد عرفت بعد.

آتي الآن إلى المسألة التي يلوح لي أن دراستها أهم بكثير: هل ينبغي إخضاع مزاولة التحليل النفسي للتدخل الرسمي أم من الأفضل تركه يتطور تطوراً طبيعياً؟ مؤكد أني لن أحاول حلّ هذه المسألة هنا، لكنني أبيح لنفسي تقليبها على وجوهها على مسمع منك. فقد سادت في النمسا لدهر من الزمن حمّى تحظيرية FUROR PROHIBENDI، نزعة إلى فرض الوصاية والتدخل والحظر. ونعلم جميعاً أنها ما أثمرت ثماراً طيبة، ويكاد يخيَّل إليّ أن شيئاً من هذا لم يتغيَّر في النمسا الجديدة، النمسا الجمهورية[٢]. لنفرض أن لك في المسألة التي تشغلنا هنا، أي مسألة القرار الواجب اتخاذه بشأن التحليل النفسي، نصيحة مهمة تريد إسداءها، لكنني لا أدري إن كنت تودّ أو تستطيع أن تناهض الميول البيروقراطية... وعلى كل حال، سأعرض عليك رأيي المتواضع. فأنا أرى أن الإكثار من البلاغات وقرارات المنع والحظر ينال من هيبة القانون. وبوسعنا أن نلحظ ونعاين: فحيثما تقلّ التحظيرات يتواتر احترامها والتقيُّد بها؛ أما إذا اصطدم الناس في كل خطوة من خطاهم بالنواهي والممنوعات فإن إغراء انتهاكها يتعاظم. ولا داعي، فضلاً عن ذلك، لأن يكون المرء فوضوياً حتى يلحظ أن القوانين والمراسيم لا تتسم، من ناحية أصلها، بطابع مقدس لا يجوز المساس به. فكثيراً ما تكون فقيرة في المحتوى، ناقصة، جارحة لحسّ العدالة فينا، أو تصبح كذلك بمرور الزمن. ونظراً إلى ما يتصف به الحكام من عطالة عامة وتقصير، لا تبقى من وسيلة أخرى لتصحيح هذه القوانين البالية سوى انتهاكها بضمير غير مثقل؛ ثم إنه من الحكمة، إن شئنا الإبقاء على احترام الناس للقوانين والمراسيم، ألا نسنّ منها إلا ما كان سهلاً مراقبة تنفيذه وعدم خرقه. وإن كثيراً من النقاط التي عرضنا لها بصدد ممارسة الأطباء للتحليل يمكن التوكيد عليها هنا ثانية بصدد ممارسته من قبل غير الأطباء. وهي الممارسة التي يقال إن القانون

٢ ـ تحولت النمسا من إمبراطورية إلى جمهورية عام ١٩١٩، وذلك بعد هزيمة الحلف الألماني ـ النمساوي في الحرب العالمية الأولى. «م».



يريد أن ينهى عنها. فالتحليل متواضع في إجراءاته، وهو لا يستخدم أدوية أو أدوات. ولا يعدو في كنهه أن يكون تبادلاً للأحاديث والأفكار، وسيكون عسيراً بالتالي توجيه تهمة ممارسة التحليل بصفة غير مشروعة إلى شخص يستطيع أن يردّ في هذه الحال بأنه لا يفعل أكثر من إسداء النصح وبذل المواساة والتشجيع لأناس مساكين تستدعي حالتهم النفسية مثل هذا العون. وبديهي أنه لا سبيل إلى تحظير ذلك على هذا الشخص لمجرد أن هذا بالضبط ما يفعله الطبيب في بعض الأحيان.

لقد انتشرت في البلدان الناطقة بالإنكليزية على نطاق واسع ممارسة «العلم المسيحي»[٣]، وهو ضرب من النفي الجدلي لـ «المرض» عن طريق تعاليم المسيحية، ولا يتسع المجال هنا لبيان ما ينطوي عليه هذا المذهب من ضلال مؤسف للعقل البشري؛ لكن هل يدور في خلد أحد في أميركا أو إنكلترا أن يأمر بحظر هذه الطرائق والممارسات وفرض العقوبات عليها؟ إذاً، فهل السلطة العليا في بلادنا متيقّنة إلى هذا الحدّ من معرفتها بالطريق الصحيح إلى الهناء والنعيم لتجترئ، كما تريد أن تفعل، على الحؤول بين الإنسان وبين طلب السعادة حيثما يعتقد أنه واجدها؟[٤] وعلى فرض أننا سلّمنا بأن فئة واسعة من الناس تنزلق إلى مواطن الخطر وتلحِق الأذى بنفسها إن تركت حرة في تصرفها، أفلن تفعل الحكومة خيراً في هذه الحال إن هي حددت بدقة الميادين التي لا يجوز فعلاً الدنوّ منها، على أن تترك لبني الإنسان أن يفيدوا، في سائر الميادين الأخرى، من تجربتهم الخاصة، ومن التأثير المتبادل بين بعضهم بعضاً؟

لقد أقبل التحليل النفسي على الدنيا منذ عهد قريب للغاية، والجمهرة الواسعة من الناس تكاد تجهل كل شيء عنه، وموقف العلم الرسمي منه لا يزال يتسم بالتردد والمحاذرة، ومن ثم يخيَّل إليّ أنه لم يئن الأوان بعد لتعكير صفو

٣ ـ العلم المسيحي: كنيسة أسستها في بوسطن في عام ١٨٧٩ ماري بيكر إدي (١٨٢١ ـ ١٩١٠). ومدّعاها أن الأمراض يمكن شفاؤها بوسائل روحية. «م».

٤ ـ قولة مشهورة للإمبراطور فريدرك الثاني: «في دولتي يستطيع كل إنسان أن يطلب السعادة حيث يعتقد أنه واجدها». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



تطوره وتقدمه بضوابط قانونية. فلندع المرضى يكتشفون بأنفسهم مدى ما يلحق بهم من أذى إن طلبوا المساعدة النفسية من أشخاص لم يتعلموا كيف يقدمونها. وحسبنا أن ننوّر المرضى وأن نحذّرهم من الخطر. فبذلك نكون قد تحاشينا ضروب المنع والتحريم عليهم. إن الأعمدة التلغرافية في الطرقات العامة في إيطاليا تحمل هذه اللافتة البليغة في إيجازها: CHI TOCCA MUORE[٥]، وهذا كافٍ ووافٍ لتنظيم سلوك المارة حيال الأسلاك التي قد يتّفق لها أن تتدلّى. أما اللافتات الألمانية المناظرة فهي تطيل وتطنب بلا جدوى حتى لتكاد تجرح المشاعر: DAS BERUHREN DER LEITDRAHTE IST, WELL LEBENSGEFAHRLIEH, STRENGSTENS VERBOTEN[٦] (يحظر حظراً باتاً لمس الأسلاك لأن فيه خطر الموت). ما الفائدة من هذا الحظر؟ فمن يحرص على حياته يمتنع من تلقاء نفسه عن ذلك، ومن به رغبة في الانتحار لا يحفل بأن يحصل على إذن بذلك.

ـ على أنه ثمة سوابق يمكن الاحتجاج بها في هذه المساجلة ضد مبدأ ممارسة التحليل من قبل غير الأطباء. أقصد بذلك حظر ممارسة التنويم المغنطيسي على غير الأطباء، والقرار الصادر مؤخراً بمنع جلسات تحضير الأرواح وبحظر تأسيس جمعيات روحانية.

ـ لا يسعني حقاً أن أبدي إعجاباً بهذه التدابير، ولا سيما أن الأخير منها اعتداء سافر على حرية الفكر من قبل شرطتنا. وليس لأحد أن يرميني بتهمة الإيمان بالظاهرات الروحانية، أو بالرغبة في أن يقبل الناس عليها ويعترفوا بها. بيد أن حظراً كهذا لا يستطيع أن يقمع لدى الناس انجذابهم إلى السر والغيب. بل لعل خطأ كبيراً قد ارتكب على هذا النحو، إذ سُدّ بذلك الطريق أمام العلم المتجرد وحيل بينه وبين الوصول، بصدد هذه الاحتمالات الثقيلة الوطأة، إلى حكم من شأنه تحرير الأذهان. لكن هذا أيضاً يقتصر على النمسا. ففي البلدان

---

٥ ـ من يلمس يمت. «م».

٦ ـ بالألمانية في النص. «م».



الأخرى لا يصطدم البحث «الباراسيكولوجي» بأي عائق قانوني. أما مسألة التنويم المغنطيسي فأمرها يختلف عن مسألة التحليل النفسي. فالتنويم يؤدي إلى قيام حالة نفسية لاسوية، وما عاد يلجأ إليه غير الأطباء في أيامنا هذه إلا في العروض المسرحية. ولو كان العلاج بالتنويم المنغطيسي أنجز ما وعد في أول الأمر، لكانت ثارت حوله اليوم الأسئلة نفسها التي تثار حول التحليل. وعلى أي حال، إن تاريخ التنويم المغنطيسي هو، وإن من وجه آخر، سابقة تهيّئ لنا أن نتكهن بمصير التحليل. فيوم كنت في شبابي مدرساً خصوصياً[7] لعلم الأمراض العصبية، كان الأطباء يصبّون جام غضبهم على التنويم المغنطيسي، ويصمونه بـ«التدجيل»، وبأنه من عمل الشيطان، وبأنه قد تترتب عليه أخطر العواقب. أما اليوم فقد احتكروا لأنفسهم التنويم المغنطيسي، وصاروا يلجؤون إليه بلا خوف كطريقة في البحث والاستقصاء، ولا يزال العديد من الاختصاصيين في الأعصاب يرون فيه السلاح الأكثر فاعلية الذي تحويه ترسانتهم العلاجية.

لقد سبق لي أن أخبرتك أن ليس غرضي الإدلاء بمقترحات من شأنها أن تؤدي إلى اتخاذ موقف من المسألة التي نحن بصددها: أمن الأفضل تنظيم التحليل بقوانين أم إطلاق الحرية له؟

إني أدري أن هذه مسألة مبدأ، وأن الأشخاص الذين سيُدْعَون إلى الفصل فيها سيفعلون ذلك في أرجح الظن تحت تأثير عواطفهم أكثر مما تحت تأثير الحجج والبراهين. وقد عرَضت لك من قبل ما يبدو لي مؤيداً لسياسة «دعه يفعل»[8]. أما إذا قرّ القرار، على العكس من ذلك، على اعتماد سياسة التدخل الفعال، فإن هذا التدبير الأعرج والمجحف ـ أي حظر ممارسة التحليل على غير الأطباء حظراً باتاً ـ يبدو لي ناقصاً وغير كافٍ على الإطلاق. فالأمر يستلزم في هذه الحال أكثر من ذلك، وعلى وجه التدقيق تحديد الشروط التي ستباح فيها

٧ ـ بالألمانية DOZENT: وهو الأستاذ الجامعي الذي يتلقى أجر أتعابه من تلاميذه أنفسهم. «م».

٨ ـ بالفرنسية في النص LAISSEZ FAIRE: شعار اقتصادي ليبرالي صيغ في القرن الخامس عشر للضغط على السلطة الملكية من أجل رفع العقبات أمام إنشاء مشاريع جديدة، ثم وظّف في القرن العشرين ضد السياسة التدخلية للدولة في الاقتصاد والتجارة. «م».



مزاولة التحليل، على أن يشمل هذا التحديد كل من له رغبة في الاشتغال به بلا استثناء. ولا بدّ كذلك من إنشاء هيئة أو سلطة يكون من حقها أن تقرر ما هو التحليل، وماذا ينبغي له من إعداد، كما لا بدّ من تهيئة الوسائل لتدريسه والتمرين عليه. إذاً فالأمر واحد من اثنين: إما الامتناع امتناعاً جازماً عن التدخل، وإما تنظيم العملية كلها تنظيماً واضحاً دقيقاً. ومن الواجب على الأخص المحاذرة من التدخل العشوائي في موقف هو من الأساس معقد، بفرض حظر عسفي يجري اشتقاقه آلياً من تشريع تقادم عليه الزمن وبات عادم الصلاحية في هذه الحالة.



(٧)

ـ أجل. ولكن الأطباء، ثم الأطباء! إني عاجز فيما يبدو عن اقتيادك إلى الدخول في صميم موضوعنا. فأنت تفلت باستمرار من بين أصابعي. فالمسألة الجوهرية أن نعرف هل يتعيَّن أن نمنح الأطباء وحدهم حق مزاولة التحليل، بعد أن يستوفوا ـ وهذا ما أسلِّم به ـ بعض الشروط. وبديهي أن الأطباء في جملتهم ليسوا من دجالي التحليل الذين وصفت. ولقد ذكرت بنفسك أن الغالبية الساحقة من تلاميذك وأتباعك تتألف من أطباء. وقد بلغني أنهم لا يشاطرونك البتة نظرتك إلى مسألة ممارسة التحليل من قبل غير الأطباء. ولا بدّ لي من التسليم بطبيعة الحال بأن تلامذتك هؤلاء يذهبون مذهبك فيما يتصل بالتأهيل التقني للمحللين، إلخ، بيد أنهم أنفسهم يرون أن ذلك لا يتعارض مع إغلاق أبواب التحليل دون غير الأطباء. فهل صحيح ما بلغني؟ وإن كان كذلك، فكيف تعلله؟

ـ واضح أنك مطَّلع على أمور كثيرة. فحقٌّ ما بلغك. إن عدداً كبيراً من معاونيّ من الأطباء، وليس جميعهم، يختلفون معي بالفعل بصدد هذه النقطة ويؤيدون فكرة حصر مزاولة تحليل العصابيين بالأطباء وحدهم. وهائنتذا ترى أنه من الممكن أن تقوم خلافات في الرأي حتى في معسكرنا نحن. ومع أن موقفي من المسألة معروف، فإن التباين في وجهات نظرنا لا يعكر صفو تفاهمنا. هل تريدني أن أشرح لك موقف تلامذتي؟ لست أدري ما ينبغي أن أقوله لك بصدده، ولكني أعتقد أنه راجع إلى قوة العصبية المهنية لديهم. فقد تقدموا في الحياة عبر مسالك مغايرة للمسالك التي سرت فيها أنا، وهم ينفرون من احتمال الانعزال عن زملائهم، ويحبذون أن تعترف بهم المهنة التي إليها ينتمون، وهم على استعداد، في مقابل الحصول على هذا الاعتراف، للتنازل في مجال لا يبدو



لهم من وجهة نظرهم الشخصية فائق الأهمية. ولكن قد لا يكون الأمر كما يرون. فحسبك أن تعزو إلى تلامذتي دوافع تتصل بخوف المزاحمة حتى تكون قد اتهمتهم لا بحِطَّة النفس فحسب، بل كذلك بحسر النظر. والحق أنهم دوماً على استعداد لتدريب أطباء آخرين على الممارسة التحليلية. أما أن يقاسمهم آخرون من زملائهم أو من غير الأطباء المرضى المتاحين، فلا أعتقد أن ذلك يقدِّم أو يؤخر فيما يتعلق بوضعهم المادي. ومن ثم لا مناص من أن ندخل في حسابنا اعتباراً آخر. وأغلب الظن أن تلامذتي واقعون تحت تأثير فكرة معيَّنة، وهي أن الطبيب تتوفر له في الممارسة التحليلية ميزة لا مراء فيها على غير الطبيب.

ـ ميزة لا مراء فيها! هأنتذا تقرّ وتعترف أخيراً! وهذا ما يحسم المسألة.

ـ ما كان الاعتراف ليشقّ عليّ! ولعلك تستدل من ذلك أنني لست أعاند وأتشبث برأيي إلى ذلك الحدّ الأعمى الذي تفترض. والحق أني أرجأت نقاش هذه النقطة، لأن التطرق إليها سيقتضي منا من جديد التورط في تأملات نظرية.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ هناك مسألة التشخيص قبل كل شيء. فحين نخضِع للتحليل مريضاً يشكو من اضطرابات توصف بأنها عصبية، نريد أن نتيقَّن أولاً ـ بالقدر الذي يتأتى لنا ـ أن علاجنا يناسب حالته، وأنه من الممكن أن يلقى على أيدينا فائدة. والحال أن هذا متيسر في حالة واحدة فقط، وهي أن يكون مرضه عصابياً حقاً.

ـ كان كل ظني أنه من الممكن تعرّف طبيعة الداء من تظاهراته من خلال الأعراض التي يشكو منها المريض.

ـ هنا تحديداً يبرز تعقيد جديد. فليس في مستطاعنا على الدوام تعرُّف طبيعة الداء بيقين تامّ. فقد تكون الصورة الخارجية التي يعرضها علينا المريض صورة عصاب، ولكنها تخفي مع ذلك شيئاً آخر: بداية مرض عقلي عضال لاعلاج له، أو مقدمة لسيرورة انحلال في المخ نفسه. وليس من الميسور على الدوام التمييز والقيام بالتشخيص التفاضلي، ولا المصادرة عليه فوراً في كل طور من أطوار المرض. وبديهي أن مسؤولية تشخيص كهذا لا يمكن أن يتحملها سوى الطبيب



وحده. وهذه، كما رأينا، ليست بالمهمة السهلة على الدوام. فقد يحافظ المرض لمد طويل من الزمن على سيماء هادئة، إلى أن تظهر طبيعته الخطيرة على حين غرة. والواقع أننا نلتقي بصورة مطردة لدى مرضى الأعصاب، جميعهم بلا استثناء تقريباً، خوفاً من أن يطيش الجنون بصوابهم. وإن عزّ على الطبيب أن يتعرف في أول الأمر الحالة على حقيقتها، أو إن تعذر عليه أن يصدر حكماً في أجل قصير، فلا أهمية لذلك: فلن يلحق بالمريض ضرٌّ ولن يقع شيء مما كان ينبغي ألا يقع. وفي حال كهذه لن تكون المعالجة التحليلية قد أنزلت بالمريض أذى، ولكن تكون قد انكشفت لاجدوى هذا المجهود. وعلاوة على ذلك، لا مناص من أن يوجد من الناس من يحمّل التحليل تبعة هذا الإخفاق المؤسف. وهذا اتهام مجحف بكل تأكيد، لكن من الخير تفادي تقديم الذرائع له.

ـ هذا أمر يبعث على القنوط. فكل ما عرَضته عليّ حتى الآن عن طبيعة الأعصبة وأصلها قد تقوَّض من أساسه.

ـ إطلاقاً. وإنما يؤكد ذلك فقط ما كنت ذكرته لك من أن العصابيين مصدر عناء ومتاعب للجميع، بمن فيهم المحللون. ولربما بددت ارتباكك، إن أنا عبَّرت تعبيراً صحيحاً عما أريد قوله. وعلى هذا فقد كان من الأصوب أن أقول: إن المرضى في الحالات المشار إليها يعانون حقاً من عصاب، لكن هذا العصاب ليس نفسي المنشأ، بل بدني المنشأ، وأسبابه جسمانية لا نفسانية. هل تفهمني؟

ـ أجل، لكن لا أستطيع التوفيق بين وجهة النظر هذه ووجهة النظر الأخرى، أقصد السيكولوجية.

ـ هذا مع ذلك ممكن، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التعقيدات السائدة في داخل المادة الحية. كنا قد تساءلنا: ما كنه العصاب؟ وكان جوابنا أن كنهه يكمن في أن «الأنا»، ذلك التنظيم الرفيع للجهاز النفسي الذي نما وتطور تحت تأثير العالم الخارجي، لا يعود يمتلك المقدرة في هذه الحال على أداء وظيفته في التوسط بين «الهذا» والواقع، وأنه ينسحب، في ضعفه، من منطقة بكاملها من مضمار «الهذا» الغريزي، ولا يكون أمامه مناص من تحمل عواقب هذا التنازل في صورة انكماش في سلطانه، وفي شكل أعراض واستجابات وتشكيلات ارتجاعية لا تصيب أبداً هدفها.



لقد كان «الأنا» عند كل منا في الطفولة على هذه الحال من الضعف؛ ولهذا يكون للخبرات الأولى في مقتبل حياتنا تأثير عظيم على مؤخرها. والعبء الذي تنوء طفولتنا تحت وطأته ثقيل: إذ يتعيَّن علينا في عدد قليل من السنين أن نجتاز كل التطور، كل المسافة الشاسعة التي تفصل الإنسان البدائي في العصر الحجري عن الإنسان المتحضر المعاصر، وأن نتدارك على الأخص شرَّ النوازع الجامحة للحاثات الغريزية الجنسية الطفلية. وعندئذ يلجأ «أنانا» إلى الكبت، ويرزح تحت عبء عصاب طفلي تدوم رواسبه إلى الطور الناضج من العمر ويهيّئه للأمراض العصبية لاحقاً. ويتوقف كل شيء عندئذ على الحظ الذي تخبّئه الأقدار للكائن الذي شبّ عن الطوق. فإن تكن صروف حياته بالغة القسوة، وإن تكن المسافة شاسعة للغاية بين مطالب دوافعه الغريزية والعراقيل التي ينصبها الواقع في طريق تلبيتها وإشباعها، فقد يمنى «الأنا» بالفشل في جهوده للتوسط والمصالحة؛ ومما يزيد من فرص حدوث ذلك أن تكون قوة الإعاقة المتخلفة عن الطفولة كبيرة. وعندئذ يكرر «الأنا» مرة ثانية سيرورة الكبت القديمة، فإذا بالدوافع الغريزية تنعتق من سيطرة «الأنا» وتخلق لنفسها، بطريق النكوص، إشباعات بديلة، وإذا بـ«الأنا» المسكين، الأعزل من السلاح، يقع فريسة العصاب.

لا يغب عنا أن نقطة التمفصل في كل موقف هي القوة النسبية لتنظيم «الأنا». ومن ثم سيسهل علينا أن نستكمل الصورة الإتيولوجية[1] الإجمالية. فنحن نعرف من قبل أن من جملة الأسباب الطبيعية ـ إن جاز التعبير ـ للمرض العصبي ضعف «الأنا» الطفلي، والعبء الواقع على عاتقه في التحكم بالحاثات الجنسية المبكرة، وأثر الخبرات التي تشاء المصادفات، في أغلب الأحيان، أن يتعرض لها في طفولته الأولى. لكن أليس من الممكن أن تلعب عوامل أخرى أيضاً دورها، ترجع إلى الزمن السابق للحياة الطفلية؟ ومن قبيل ذلك نوازع غريزية عاتية جامحة في «الهذا»، تفرض على «الأنا» من بادئ الأمر واجبات لا قِبَل له بها؟ أو كذلك ضعف، لأسباب مجهولة، في قدرة «الأنا» على النمو والتطور؟ بديهي أن عوامل كهذه لها أهمية إتيولوجية قد تكون في العديد من

١ ـ الإتيولوجيا: مبحث الأسباب والعلل بصفة عامة، وعلم أسباب المرض بصفة خاصة. «م».



الحالات حاسمة. لذا كان علينا أن نأخذ في اعتبارنا دوماً قوة الدوافع الغريزية في «الهذا»؛ فحيثما تبلغ مدى بعيداً من القوة، لا نتوقع أن تثمر خطتنا العلاجية نتائج ذات شأن. ذلك أن الأسباب التي تعترض سبيل نمو «الأنا» لا تزال مجهولة منا. تلكم هي، فيما نتصور، حالات العصاب التي تقوم في صميمها على عوامل تتصل بالجِبِلَّة. وأرجح الظن، على كل حال، أن العصاب لن تقوم له قائمة ما لم يتوفر شرط جِبلِّي، ولادي، موائم.

لكن إن يكن ضعف «الأنا» النسبي هو العامل الحاسم في نشوء الأعصبة، فالمفروض أيضاً أن تؤدي الإصابة لاحقاً بمرض جسماني إلى توليد عصاب بالنظر إلى الوهن الذي يطرأ على «الأنا». وهذا هو واقع الحال في أغلب الأحيان. فأي اضطراب في تنظيم البدن لا بدّ أن يؤثر في الحياة الغريزية في «الهذا»، وأن يشحذ القوى الغريزية شحذاً تتخطى معه حدود قدرة «الأنا» على احتوائها والسيطرة عليها. والمثال السويّ على هذه السيرورات تقدِّمه لنا التحولات العميقة التي تتعرض لها النساء خلال الظهور الأول للطمث أو انقطاعه في سن الإياس. ومن الممكن أيضاً في حال الإصابة بمرض عام، وعلى الأخص في حال تعرُّض الجهاز العصبي المركزي لإصابة عضوية تضعف تغذية الجهاز النفسي في مصادره، أن يضطر هذا الجهاز إلى الاستمرار في أداء وظائفه الدنيا، وإلى الانقطاع عن أداء وظائفه الرفيعة، ومنها الحفاظ على تنظيم «الأنا». وفي الأحوال جميعاً يتبدى العصاب في صورة متماثلة تكاد لا تتغير: فآليته السيكولوجية واحدة على الدوام، وإن تنوعت أسبابه أو تعقدت.

ـ إنك تشعرني بمزيد من الرضى عنك الآن. فهأنتذا تتكلم أخيراً كطبيب. وإني لأنتظر منك أن تقرّ وتسلِّم بأن شيئاً بلغ في تعقيده الطبي مبلغ العصاب لا سبيل إلى تدبُّره بالعلاج إلا على يد طبيب.

ـ أخشى أن تكون قد تجاوزتَ الهدف الذي أرمي إليه. فما كنا في سبيل الكلام عنه يدخل في عداد علم أسباب الأمراض، على حين أن التحليل هو محض طريقة علاجية. إنني أسلِّم، بل أشترط أن يتولى التشخيص طبيب أولاً كلما اقتضت الحالة تحليلاً نفسياً. ومن حسن الحظ أن معظم الأعصبة التي



تعرض لنا نفسيةُ المنشأ، ولا يحوم حولها أي شك من وجهة النظر الباتولوجية[٢]. ومتى ما تحقق الطبيب من طبيعة المرض، استطاع بملء الثقة والاطمئنان أن يتخلى عن علاجه للمحلل غير الطبيب. على هذا المنوال كانت تسير الأمور في جمعياتنا التحليلية كافة. وبفضل الصلة الحميمة بين الأعضاء الأطباء والأعضاء غير الأطباء فيها، أمكن تلافي الأخطاء التي كنا نخشى من وقوعها تلافياً تاماً إن جاز لي القول. ولكن قد تعرِض حالة ثانية يضطر معها المحلِّل إلى التماس معونة الطبيب. فقد تظهر في أثناء المعالجة التحليلية أعراض ـ هي بالتحديد الأعراض البدنية ـ قد يقف المحلِّل متحيِّراً في الفصل في ما إذا كانت ذات صلة بالعصاب أم في ما إذا كان مصدرها خللاً عضوياً مستقلاً. وهنا أيضاً لا يستطيع أن يبتّ في المسألة سوى الطبيب وحده.

ـ إذاً، فحتى أثناء التحليل لا يمكن للمحلِّل غير الطبيب أن يستغني عن الطبيب! وهذه حجة أخرى في غير صالحه!

ـ كلا، ما هي بكذلك. إذ ما كان المحلِّل الطبيب نفسه ليسلك في هذه الحال غير هذا المسلك.

ـ ما عدت أفهم.

ـ لقد أقررنا بالفعل القاعدة التقنية التالية: إن ظهرت تلك الأعراض المريبة الملتبسة في أثناء العلاج، وجب على المحلِّل ألا يعتمد على حكمه الشخصي، بل أن يطلب إلى طبيب آخر لا صلة له بالتحليل أن يفحص مريضه، حتى ولو كان المحلِّل نفسه طبيباً ولا يزال واثقاً بمعلوماته الطبية.

ـ وما الداعي إلى هذا التقييد الذي يبدو لي فعلاً عديم اللزوم؟

ـ ليس هو بعديم اللزوم، بل له على العكس عدة أسباب أولها أنه ليس من السهل تولي شخص واحد المعالجة الجسمانية والمعالجة النفسانية معاً. وثانيها أن حالة التحويل قد تقتضي ألا يتولى المحلِّل بنفسه فحص المريض جسمانياً. وثالثها أن المحلِّل يحقّ له أن يرتاب في تجرُّد أحكامه وموضوعيتها ما دام اهتمامه منصباً بقوة على العوامل النفسية.

٢ ـ الباتولوجيا: علم الأمراض، وفي سياق النص: الأمراض العضوية المنشأ. «م».



ـ لقد اتضح لي موقفك من المحلِّلين غير الأطباء. فأنت في صميمك تريد أن تبقى الأبواب مفتوحة أمامهم. ولكن بما أنك لا تستطيع أن تنكر عدم كفايتهم للقيام بمهمتهم، فأنت تسوق لي من الحجج كل ما من شأنه تبرير وجودهم وتيسير الأمور عليهم. أما أنا شخصياً فلست أرى من ضرورة لوجود محلِّلين غير أطباء لا يسعهم في خاتمة المطاف إلا أن يكونوا معالِجين من الدرجة الثانية. إني لا أمانع في غضّ الطرف عن نشاط بعض المحلِّلين من غير الأطباء ممن جرى تأهيلهم، لكنني أرى أنه لا يجوز بعد اليوم تأهيل غيرهم، وأنه يتوجب على معاهد التحليل التعليمية أن تتعهد بألا تفتاح أبوابها من الآن فصاعداً أمام غير الأطباء.

ـ إني على استعداد للاتفاق معك في الرأي إن يكن في مستطاعك أن تثبت لي أن ذلك سيخدم مصالح الأطراف جميعاً. ولتسلّم معي بأن هذه المصالح من ثلاثة أنواع: مصالح المرضى، ومصالح الأطباء، وأخيراً لا آخراً[٣]، مصالح العلم الذي يتضمن مصالح كل من سوف يمرض مستقبلاً. فهل تريد أن نبحث معاً في كل نقطة من هذه النقاط الثلاث؟

فأما المريض فلا يعنيه في كثير أو قليل أن يكون محلله طبيباً أو غير طبيب، وذلك ما دام خطر الخطأ في تشخيص حالته قد انتفى بعد تأمين الفحص الطبي له قبل بدء العلاج، وفي أثنائه إذا ما اقتضت الضرورة ذلك. والأهم من ذلك بكثير بالنسبة إليه أن تتوفر في المحلِّل الصفات الشخصية التي تجتذب ثقته وتحفظها، وأن يكون قد اكتسب تلك المعارف وتلك الرؤى وتلك التجارب التي تؤهله للاضطلاع بمهمته على خير وجه. وقد يساورك الظن أن ثقة المريض بمحلِّله تتزعزع متى ما علم أنه ليس بطبيب. وبديهي أننا لا نغفل أبداً عن إطلاع المريض على مؤهلات المحلِّل. وقد تأتّى لنا أن نقتنع بأن الأحكام المسبقة المهنية لا أثر لها عليه، وأنه على استعداد لتقبُّل الشفاء من أية ناحية أتاه ـ وهذه حقيقة يعرفها السلك الطبي من قديم الزمان، وإن ساءته وغاظته. ثم إن من يزاولون اليوم التحليل من غير الأطباء ليسوا أشخاصاً عادمي القيمة، جمعناهم من عابري

٣ ـ بالإنكليزية في النص: LAST NOT LEAST. «م».



السبيل، بل هم من خريجي الجامعات، ومنهم دكاترة في الفلسفة، ومجازون في التربية، وبعض نساء لهن خبرة عظيمة بالحياة ويتمتعن بشخصية رفيعة. والتحليل الذي نشترط أن يخضع له جميع المرشحين للدراسة في أحد معاهد التحليل هو في الوقت نفسه خير وسيلة للتحقق من قدرتهم الشخصية على مزاولة مهنة تتطلب منهم صفات وخصالاً كثيرة.

لنأتِ الآن إلى مصلحة الأطباء. فأنا لا أستطيع أن أؤمن بأن إلحاق التحليل النفسي بالطب سيعود عليهم بالفائدة مهنياً. فدراسة الطب تستغرق سنوات خمساً، وقد تتعداها مع الامتحانات النهائية إلى السنة السادسة، وتنطرح على الطلاب باستمرار مطالب جديدة، ولا مناص لهم من تلبيتها وإلا واجهوا مستقبلهم الطبي بعدّة منقوصة. والولوج إلى مهنة الطب أمر بالغ الصعوبة، ومزاولتها لا تدرّ دخلاً كبيراً على صاحبها ولا تعوّضه معنوياً. فلو أخِذ بوجهة النظر القائلة بضرورة إلمام الطبيب بالجانب النفسي أيضاً من الأمراض، ولو أضيفت إلى مدة تعلم الطب ـ وهي طويلة أصلاً ـ المدة الضرورية لتعلم التحليل لكان هذا معناه تضخيم المادة المطلوب استيعابها وزيادة سنوات الدراسة من ثم بنسبة مماثلة. وإني لأتساءل عما إذا كان الأطباء ترضيهم هذه النتيجة التي تترتب على مطالبتهم بحصر التحليل النفسي بهم، وهي نتيجة لا مهرب لهم منها، وهذا في زمن تفاقمت فيه شروط الحياة المادية تفاقماً شديداً ـ وعلى الأخص بالنسبة إلى الطبقات التي منها ينحدر الأطباء ـ وبات فيه الجيل الجديد ملزماً بأن يقوم بوأد نفسه في أبكر وقت ممكن.

لكنك قد لا ترغب في إثقال كاهل الدراسة الطبية بمادة الدراسة التحليلية. وقد ترى أنه من الأنسب ألا يهتم محللو الغد بتأهيلهم الخاص المطلوب إلا بعد انتهائهم من دراسة الطب. وقد تقول إن الوقت الذي سيصرف في هذا السبيل لا أهمية له من وجهة النظر العملية، لأن الشاب إن كان دون الثلاثين من العمر فلن يظفر من المريض بتلك الثقة التي لا غنى عنها لمن يتطلع إلى أن يبذل للآخرين يد العون المعنوي. وبوسعي الإجابة في هذه الحال بأن الطبيب المتخرج حديثاً من المدرسة لن يفوز هو الآخر بنصيب كبير من توقير مرضاه، حتى وإن

اقتصر على علاج أمراضهم البدنية، وبأن المحلِّل الشاب يستطيع بالمقابل أن يحسن استغلال وقته بالعمل في عيادة من عيادات التحليل النفسي، تحت إشراف محللين ذوي خبرة ومران.

والأهم من ذلك فيما يبدو لي أنك، باقتراحك هذا، تدعو إلى تطبيق برنامج لو جرى الأخذ به لاستتبع تبذيراً للقوى والطاقات لا مبرر له من وجهة النظر الاقتصادية في أيامنا الصعبة هذه. والواقع أن التأهيل التحليلي إن كان يتلاقى والتعليم الطبي في إحدى النقاط، فإنه لا يتطابق وإياه، ولا يُشمل به. ولو أنشئت ذات يوم ـ وهذه فكرة تبدو الآن مغرقة في الخيال! ـ مدرسة عليا للتحليل النفسي، لدُرِّست فيها بكل تأكيد مواد تدرَّس في كليات الطب أيضاً: فإلى جانب «علم نفس الأعماق»، أي علم نفس اللاشعور، الذي سيبقى على الدوام محور الدراسة، لا بدّ أن يدرّس في تلك المدرسة العليا مدخل إلى البيولوجيا، وكذلك، وعلى أوسع نطاق ممكن، علم الحياة الجنسية، وأن يُدرَّب الطلاب أيضاً على الجداول السريرية للطب العقلي. ومن اللازم، ناهيك عن ذلك، أن يتضمن برنامج التعليم التحليلي مواد بعيدة غاية البعد عن الطب وقد لا يستشف الطبيب أثراً لها طوال مدة مزاولته لمهنته، مثل تاريخ الحضارة، والميثولوجيا، وعلم نفس الأديان، والتاريخ والنقد الأدبيين. وإن لم ترسخ قدم المحلِّل في هذه الميادين طراً، فقد يقف حائراً أمام عدد كبير من الظاهرات التي ستعرض له. وبالمقابل، إن الشطر الأوسع من المواد التي تُدرَّس في كلية الطب لن تجديه فتيلاً. فلا معرفة عظام الرسغ، ولا معرفة تركيب الهيدرات الفحمية، أو مسالك الألياف العصبية في الدماغ، ولا شيء مما توصل الطب إلى اكتشافه في مضمار الجراثيم، ناقلة عدوى الأمراض، وكيفية مقاومتها والوقاية منها، أو في مضمار التفاعلات المَصْلية، أو تكوُّن الأورام الخبيثة، لا شيء من هذا كله ـ كائنة ما كانت قيمة هذه الاكتشافات بحدّ ذاتها ـ يمكن أن يعني المحلِّل في كثير أو قليل، ولن يساعده مساعدة مباشرة على فهم العصاب وشفائه، ولا مساعدة غير مباشرة بشحذ مواهبه وملكاته العقلية على نحو ما تستلزمه مهنته. ولا يعترضنَّ علينا معترض بأن نظير هذه الحالة سينشأ أيضاً فيما لو قرّ قرار الطبيب على اختيار أي



تخصص آخر كطب الأسنان مثلاً. ففي هذه الحالة أيضاً يحتاج إلى ذلك القدر الكبير من المعلومات التي تؤلف مادة امتحانه، وسيتوجب عليه أن يتعلم لاحقاً الكثير من الأشياء التي لم تُدرَّس له في المدرسة: ومع ذلك فلا سبيل إلى المقارنة بين الحالتين. فالنظريات العامة في علم الأمراض، ونظريات التهاب الأعضاء، وتقيُّحها، ومواتها، وتأثرها بعضها ببعض، تظل محتفظة بقيمتها بالنسبة إلى طب الأسنان. أما المحلِّل بالمقابل فتجرفه المادة التي يعالجها إلى عالم مغاير، ظاهراته مغايرة، وقوانينه مغايرة. ومهما جاهدت الفلسفة لتمدّ جسراً يصل بين ما هو جسماني وما هو نفساني، تبقَ الهوة بين الاثنين قائمة من منظور تجربتنا، ولزام على جهودنا العملية أن تأخذ ذلك في حسبانها فعلياً.

إنه لمن الحيف، ولما لا يتفق والهدف المنشود، أن يُرغم الشخص، الذي ينوي التفرغ لإنقاذ شخص آخر من عذابات أو رهاب أو وسواس، على سلوك طريق الطب بكل امتداداته وتعرجاته الطويلة الملتفة. ولن يكون من وراء ذلك من جدوى سوى خنق التحليل نفسه. فلتتصوَّرْ طريقين يفضيان كلاهما إلى بقعة جميلة من بقاع الطبيعة: واحدهما قصير ومستقيم، والثاني طويل ومتعرج وغير مباشر؛ فمهما حاولت أن تمنع الناس من سلوك الطريق الأقصر، ربما لأنه يمرّ بمغارس مزهرة تريد أنت أن تقيها شرَّ أقدام القاصدين، فلن يتقيَّد أحد بحظرك، حتى ولو علَّقتَ لافتة، إلا إذا كان الطريق الأقصر وعراً عسير المرتقى، بينما الطريق الأطول ممهَّد سهل المرتقى. أما إذا لم يكن كذلك هو واقع الحال، ولم يكن الدرب الأقصر أصعبهما مسلكاً، فلك أن تتنبأ بيسر وسهولة بعدم جدوى تحظيرك وبالمصير الذي ستؤول إليه مغارس الزهر. وأخشى أنك غير مستطيع أن تقسر المحللين غير الأطباء على دراسة الطب أكثر مما أنا مستطيع إقناع الأطباء بدراسة التحليل. فأنت تعرف، ولا بدّ ، الطبيعة البشرية!

ـ لكن إن كانت مزاولة العلاج التحليلي تتطلب تأهيلاً خاصاً، وإن كانت دراسة الطب لا تتحمل عبء هذا التأهيل الإضافي، وإن كانت المعلومات الطبية، ناهيك عن ذلك، عديمة اللزوم في أكثرها للمحلل، وإن سلَّمنا بأنك على صواب من رأيك في هذا كله، فماذا يكون مآل ذلك التصور المثالي الذي اعتدنا



على تكوينه لأنفسنا عن الطبيب، هذا الطبيب الذي نفترض فيه ملء الاستعداد لتلبية نداء مهنته ولتحمُّل كل الواجبات التي تلقي بها على عاتقه؟

ـ لست أستشفّ مخرجاً من هذه الصعاب كلها، وليس من مهمتي أصلاً أن أجد هذا المخرج. على أني أرى شيئين اثنين: أولهما أن التحليل مربك لك ومن الأحسن لو أنه لم يوجد ـ والعصابي أيضاً مربك للآخرين! ـ والثاني أن مصالح جميع الأطراف ستبقى محفوظة، ولو إلى حين من الزمن، إن قرّ عزم الأطباء على تحمل وجود فئة من المعالجين تتولى عنهم عبء معالجة الأعصبة النفسية المنشأ والواسعة الانتشار، وتبقى على صلة وثيقة ودائمة بهم في سبيل منفعة هؤلاء المرضى.

ـ أهذه كلمتك الأخيرة، أم لا يزال لديك ما قد تودّ أن تضيفه؟

ـ من المؤكد أني أبغي أن أتطرق إلى ثالثة المصالح التي تقدمت الإشارة إليها، أقصد مصلحة العلم. ولعل ما سأقوله لن يلقى منك احتفالاً، غير أن ذلك لن يزيدني إلا حرصاً على الكلام عنه.

بالفعل، إننا لا نودّ على الإطلاق أن نرى التحليل النفسي وقد ابتلعه الطب، ووجد ملاذه الأخير في مصنفات الطب العقلي، وفي الفصول المخصصة منها لـ«الطرق العلاجية»، جنباً إلى جنب مع الإيحاء التنويمي والإيحاء الذاتي والإقناع وغيرها من الطرق التي تولدت من جهلنا والتي لا ندين بتأثيرها القصير الأمد إلا لكسل الجموع البشرية وعطالتها وجبنها. فالتحليل النفسي يستحق مصيراً خيراً من هذا المصير، ويجب أن نأمل بأنه سيفوز به. فهو بوصفه «علم نفس الأعماق» ونظرية اللاشعور النفسي، قد يصبح لازماً لا غنى عنه لجميع العلوم التي تبحث في نشأة الحضارة الإنسانية ومؤسساتها الكبرى، نظير الفن والدين والتنظيم الاجتماعي. هكذا أفهم الأمر: فالتحليل النفسي قد أسدى من الآن خدمة جلى في حلّ بعض المعضلات التي تطرحها هذه العلوم، لكن مساهمته هذه لا تزال ضئيلة بالقياس إلى ما يمكن أن يتمخض عنه يوم يشرع مؤرخو الحضارة وعلماء نفس الأديان والألسنيون أنفسهم باستخدام أداة البحث والتنقيب الجديدة التي يضعها التحليل في متناولهم. فما علاج الأعصبة إلا واحد من تطبيقات التحليل،



وربما أبان المستقبل أنه ليس أخطرها شأناً. ومهما يكن من أمر، فمن الحيف أن نضحّي بكل التطبيقات الأخرى على مذبح هذا التطبيق وحده، لمجرد أن ميدان هذا الأخير يتصل بدائرة المصالح الطبية المهنية.

ذلك أن الأمور تتصل هنا فيما بينها اتصالاً لا نستطيع تعكيره في حلقة من حلقاته بدون أن ننزل الأذى به في جملته. فلو أن ممثلي مختلف العلوم السيكولوجية عكفوا على التحليل النفسي يتعلمونه ليطبقوا مناهجه ووجهات نظره على المسائل التي يشتغلون بها، لما كان من الكافي أن يقتصروا على النتائج المحتواة في أدبيات التحليل النفسي، بل لكان عليهم أن يبدأوا بتفهم التحليل من خلال الطريق الوحيد المفتوح أمامهم لذلك، وهو أن يخضِعوا أنفسهم للتحليل. وهكذا تنضاف إلى العصابيين الذين تمسّ حاجتهم إلى التحليل فئة ثانية من الناس تلجأ إليه لأسباب ثقافية، علاوة على ما ستجنيه منه من فائدة بما سيتهيأ لها من ارتفاع محتمل في القدرة على العمل. والحال أن إنجاز عمليات التحليل كلها هذه يقتضي فريقاً من المحللين لن تكون بهم حاجة تذكر إلى معرفة الطب بكل تفاصيله. لكن هؤلاء المحللين التعليميين، إن جاز لي القول، لا بدّ أن يكونوا قد تلقوا تأهيلاً خاصاً محكماً. وإن شئنا ألا يأتي هذا التأهيل ناقصاً، فلا بدّ أن تتاح لهؤلاء المحللين الفرصة لمعاينة حالات يمكن لهم أن يستخلصوا منها فائدة ومعرفة وضرباً من الاقتناع ؛ وبما أن المعافين من الناس والذين لا يساورهم ظمأ إلى المعرفة لا يطيب لهم أن يخضعوا للتحليل فلن يبقى سوى العصابيين ليتدرب أولئك المحللون التعليميون بواسطتهم على نشاطهم المقبل، غير الطبي ـ تحت رقابة متيقظة بطبيعة الحال. وهذا كله يقتضي قدراً من حرية الحركة ويتنافى مع إجراءات وتدابير ضيقة لا دافع لها سوى الصَغار.

لعلك لا تؤمن بهذه الفائدة النظرية الخالصة للتحليل النفسي، أو قد ترى أنه لا ينبغي أن يكون لها من دور في المسألة العملية التي تشغلنا هنا: مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء. دعني إذاً ألفت انتباهك إلى أن للتحليل النفسي ميداناً تطبيقياً آخر لا يمكن أن يطاله قانون المزاولة اللامشروعة للطب أو أن يطالب الأطباء باحتكاره. أعني بذلك تطبيقه على علم التربية. فحين يبدأ طفل



من الأطفال بالإفصاح عن علائم نمو غير مستحب، فيمعن في العبوس والمشاكسة وشرود الذهن، لا يملك طبيب الأطفال ولا طبيب المدرسة أن يفعلا له شيئاً، حتى ولو بدت على هذا الطفل دلائل عصبية واضحة مثل الحصَر وفقدان الشهية والتقيؤ والأرق. وهذه الأعراض العصبية وما تستتبعه من تغيُّرات في الخلق والطبع يمكن إزالتها كلها معاً فيما إذا توفرت للطفل معالجة تجمع بين التأثير التحليلي والأساليب التربوية، وهي معالجة لا يمكن أن يتولاها سوى أشخاص لا يترفَّعون عن الاهتمام بالشروط السائدة في الوسط الذي يعيش فيه الطفل ويعرفون كيف يشقّون لأنفسهم طريقاً إلى دخيلة نفسه. وقد تيسَّر لنا أن ندرك أهمية الأعصبة الطفلية التي لا تسترعي الأنظار في وقتها في كثير من الأحيان كعامل رئيسي في التهيئة للإصابة بأعصبة خطيرة في طور الرشد من الحياة، وهذا ما يجعل من تحاليل الأطفال وسيلة ممتازة من وسائل الوقاية. ولا مراء في أن التحليل لا يزال له أعداؤه، لكنني لا أرى كيف يمكن لهم أن يمنعوا هؤلاء المحلِّلين المربِّين أو هؤلاء المربِّين المحلِّلين من ممارسة نشاطهم. فالأمر لن يكون عليهم سهلاً على ما أظن. بيد أنه لا يجوز أن يسرف المرء في الاطمئنان أبداً!

لكن لنعد أدراجنا إلى مسألة المعالجة التحليلية للعصابيين الراشدين، إذ نحن لم نفرغ بعد من تناولها من وجوهها كافة! فحضارتنا تمارس علينا ضغطاً يكاد لا يحتمل ولا يطاق، ولا بدّ بالتالي من تخفيفه وتلطيفه. فهل من الخرق والحمق أن نتوقع من التحليل النفسي الاقتدار في يوم من الأيام، برغم كل الصعاب التي يعانيها، على تقديم ما يخفف عن البشر عبئهم؟ لربما خطرت يوماً لأحد الأميركان فكرة توظيف جزء من ملياراته في توفير الدراسة التحليلية للشغِّيلة الاجتماعيين(٤) في بلاده، ولتجنيد فرقة منهم تتولى مكافحة الأعصبة الحضارية.

ـ آه! آه! أضربٌ جديد إذاً من جيش الخلاص(٥)!

ـ لمَ لا؟ إن خيالنا كما ترى لا يستطيع أبداً أن يعمل إلا بمقتضى نماذج، لكن

٤ ـ بالإنكليزية في النص: SOCIAL WORKERS. «م».

٥ ـ جيش الخلاص: حركة إنجيلية عالمية أسسها عام ١٨٦٥ القس وليم بوث وهدفها التبشير بالإنجيل وتسكين آلام البشر دونما تمييز عرقي، وهي منظمة على منوال الجيش من ضباط وجنود وعاملين. «م».



لو قام مثل ذلك الجيش وتدفَّق أعضاؤه على أوروبا يطلبون العلم والمعرفة، لحادوا عن فيينا لأن التحليل فيها يكون قد تعرَّض لرضَّة مبكرة أوقفت نموَّه وقضت عليه. أتبتسم؟ إني لا أقول ذلك لأضلِّل حكمك، فليس هذا قصدي على الإطلاق! وإني لأعرف أنك لا تصدِّقني، ولست أستطيع على أية حال أن أضمن لك أن الأمور ستسير فعلاً على هذا المنوال! لكني أعلم شيئاً واحداً، وهو أن القرار الذي سيُتخذ بصدد مسألة مزاولة غير الأطباء للتحليل لن يكون على جانب كبير من الأهمية. وصحيح أنه قد يكون له مفعول موضعي، لكن الإمكانيات الداخلية لنمو التحليل وتطوره، وهي وحدها بيت القصيد، لا يمكن أن تنال منها تدابير المنع ولا المراسيم والقرارات.



تذييل[1]

لقد كان الدافع المباشر لتحرير كتابي الصغير، الذي دارت حوله المناقشات التي تقدمت هنا[2]، هو أن السلطات الفييناوية اتهمت زميلنا الطبيب الدكتور رايك[3] بأنه مشعبذ ودجال. وبوسعنا أن نقول إنه بات معلوماً للجميع تقريباً أن هذه الشكوى سُحبت بعد إجراء جميع التحقيقات اللازمة والنظر بتدقيق في تقارير شتى. ولست أعتقد أن هذا النجاح ينبغي أن يعزى إلى كتابي. فقد اتضح أن الظروف غير موائمة للتمسك بالدعوى، وثبت بالدليل أن الشخص الذي رفع الشكوى بحجة الضرر اللاحق به لم يكن جديراً بالثقة إلى الحدّ الكافي. ولا شك أن إيقاف إجراءات الدعوى ضد الدكتور رايك لا يمكن أن يعتبر بحدّ ذاته

---

١ ـ نشر فرويد هذا التذييل للطبعة الثانية من كتابه **مسألة مزاولة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء** عام ١٩٢٧. ولكن طبعة منشورات غاليمار التي كنا اعتمدناها في ترجمة هذا الكتاب كانت أهملت التذييل الذي لم يُقيّض له أن يُترجم إلى الفرنسية إلا مع صدور الترجمة الكاملة لمؤلفات فرويد في عشرين مجلداً عن المنشورات الجامعية الفرنسية في العقد الأخير من القرن العشرين. بيد أن المغالاة في الحرفية من جانب المترجمين الأربعة لنص التذييل حملت مترجماً آخر في عام ٢٠٠٢ هو فيليب فوليو على معاودة ترجمة النص بلغة أقرب إلى فهم القارئ، وعليها كان اعتمادنا في نقل هذا النص إلى القارئ العربي. «م».

٢ ـ يشير فرويد هنا إلى المناقشة التي نظمتها **المجلة الدولية للتحليل النفسي** في صيف ١٩٢٧ حول مسألة مزاولة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء. «م».

٣ ـ ثيودور رايك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٨ ـ ١٩٦٩). كان من أوائل تلاميذ فرويد الذي تولى مساعدته مالياً لاستكمال دراسته. وكانت أطروحته عن فلوبير أول أطروحة تحليلية نفسية في المجال الأدبي. هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية هرباً من النازية. وهناك أنشأ في نيويورك أول معهد علمي للتحليل النفسي. من مؤلفاته: **المازوخية لدى الإنسان المعاصر، القاتل المجهول، الأسطورة والذنب، خلق المرأة، السماع بالأذن الثالثة**. «م»..



دليلاً على حكم ذي بعد مبدئي تصدره المحكمة الفييناوية بخصوص ممارسة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء. فيوم تخيَّلت في كتابي الذي يحامي عن أطروحة محددة شخصيةَ ذلك المحاور الحيادي «المنزّه عن الغرض»، كنت أتصوّر في ذهني واحداً من كبار موظفينا، رجلاً متفتح الذهن وذا حظٍّ رفيع من النزاهة، مما أتاح لي الفرصة للدخول معه في حوار حول الكيفية التي أديرت بها الدعوى في قضية رايك، ولتسليمه، حسب طلبه، مذكّرة شخصية حول هذه القضية. وقد كنت أعلم أني لن أتوصل إلى إقناعه بالأخذ بوجهة نظري، ولهذا لم أدع حواري مع الشريك غير المتحيّز ينتهي إلى توافق.

كذلك ما كنت أتوقع أن أتوصل إلى تقريب الشقة بين المحلّلين النفسيين أنفسهم حول مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء بحيث يتوصلون إلى اتخاذ موقف مشترك. ومن يتسنى له أن يعقد من خلال تلك المذكرة مقارنة بين بيان الجمعية المجرية وبيان جمعية نيويورك قد يسهل عليه أن يفترض أن ما كتبته لم يُفلح في تسوية شيء، وأن كل طرف تمسّك بحزم بوجهة النظر التي كان يحامي عنها من قبل. ولكن ليس يكفي أن أقول إني لا أعتقد ذلك، بل أنا على يقين من أن العديد من الزملاء قد خفّفوا من حدة موقفهم المتطرف، ومن أن أكثرية منهم قد تبنّت رأيي، أي فكرتي القائلة إن مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء لا ينبغي أن تحسم من منظور ما درجت عليه التقاليد، وإنها لم تنبع أصلاً إلا من موقف غير مسبوق، وإنها تتطلب بالتالي تحكيماً جديداً.

ويبدو أن الكيفية التي صوّرتُ بها المسألة برمّتها قد لاقت نجاحاً. فقد أعطيتُ مكان الصدارة للفكرة التالية: ليس المطلوب أن نعرف هل المحلِّل مُتحصِّل أم لا على شهادة طبية، وإنما المطلوب أن نعرف هل هو تحصَّل على التكوين الخصوصي اللازم لممارسة التحليل النفسي. وفي مقدورنا أن نربط بذلك المسألة التي خاض زملاؤنا غمار النقاش بصددها بحماسة كبيرة: ما التكوين الأنسب للمحلِّل النفسي؟ ولطالما اعتقدت، وما زال هذا رأيي اليوم، أنه ليس هو التكوين الذي تتطلبه الجامعة من طبيب المستقبل. فالتكوين المسمّى بالطبي هو على ما يتراءى لي بمثابة التفافة طويلة وشاقة، وصحيح أنه يزوِّد المحلِّل بالكثير مما هو لازم

له، ولكنّه يُحمِّله أيضاً عبء أشياء كثيرة لن يكون في وسعه يوماً أن يستخدمها، فضلاً عن أنه يحْمِل بين طيّاته خطر صرف انتباهه وطريقته في التفكير عن تفهُّم الظاهرات النفسية. فخطَّة تكوين المحلِّل ينبغي بادئ ذي بدء أن تُقرَّر وتُرسم بحيث تتضمن دراسة العلوم العقلية وعلم النفس وتاريخ الحضارة وعلم الاجتماع كما التشريح والبيولوجيا وتاريخ التطور البشري. والأشياء المطلوب تَعلُّمها كثيرة بحيث يكون من المباح شرعاً أن يُحذف من التعليم كل ما ليس له صلة مباشرة بالنشاط التحليلي وبالملاحظة العيانية. وقد يكون من السهل الاعتراض على خطة كهذه بأنه لا وجود لمثل تلك المدارس العليا في مضمار التحليل النفسي، وبأن مطلباً كذاك هو مطلب مثالي. وبالفعل، إنه لمطلب مثالي، لكنه قابل للتحقيق، وواجب تحقيقه. ومعاهدنا التحليلية التعليمية، رغم عدم كفايتها بحكم فتوّتها، هي بمثابة بداية لتحقيق كذاك.

ولا بدّ أن قرائي لم يفُتْهم أن يلاحظوا، مما تقدّم، أني افترضت فرضاً لا يزال موضع أخذ وردّ في المناقشات الدائرة، وهو أن التحليل النفسي ليس اختصاصاً من اختصاصات الطب. والواقع أنه يصعب عليّ أن أفترض العكس وأن أُسلِّم بأن الأمر يمكن أن يكون موضع نقاش. ذاك أن التحليل النفسي قسم من علم النفس، وليس قسماً من علم النفس الطبي بالمعنى القديم للكلمة، أو من علم نفس الظاهرات المَرَضية، وإنما هو فقط، وبكل بساطة، قسم من علم النفس، وليس بالتأكيد كل علم النفس، وإنما أُسّه، أو ربما أساسه. وليس لاحتمال استخدامه لغايات طبّية أن يوردنا موارد الخطأ. فالكهرباء والأشعة السينية وجدتا تطبيقاً لهما في الطب، لكن العلم الذي يعالج هذين المجالين يبقى هو الفيزياء. وليس حتى للحجج التاريخية أن تُغيّر شيئاً في ذلك الانتماء. فنظرية الكهرباء هي بتمامها قسم من ملاحظة استعداد عصبي ـ عضلي، ومع ذلك ليس ثمة من يزعم اليوم أنها قسم من الفيزيولوجيا. وقد يُقال عن التحليل النفسي إنه من اختراع طبيب في سياق مسعاه إلى مساعدة المرضى. ولكن ليس من شأن ذلك، على ما هو بادٍ للعيان، أن يمثّل فارقاً يستتبع تغييراً في الحكم. بل إن هذه الحجة التاريخية خطرة كل الخطورة، وما علينا، من وجهة النظر هذه، غير أن نستذكر



مدى الامتعاض، بل مدى الرفض الحاقد الذي قابل به السلك الطبي التحليل النفسي في بادئ الأمر. وهذا ما قد يدفع ببعضهم إلى الادعاء بأنه ليس للسلك الطبي من حقّ أو سلطان على التحليل النفسي. ومع أني، والحق يُقال، أرفض مثل هذا الاستنتاج، فإني ما زلت إلى اليوم على ارتياب ولا أفتأ أتساءل عما إذا لم يكن يخلق بنا أن نُرجِع الكيفية التي يتحامل بها الأطباء على التحليل النفسي إلى الطور الأول أو إلى الطور الثاني من الطورين المتعاقبين اللذين ميَّز بينهما أبراهام من منظور نظرية الليبيدو: إما الاستحواذ على الموضوع بهدف الاحتفاظ به وإما الاستحواذ عليه بهدف تدميره(٤).

ولنبقَ لهنيهة أخرى بعد مع الحجة التاريخية: فما دام الأمر يتعلق بشخصي فبوسعي أن أقدّم، لأولئك الذين يعنيهم الموضوع، لمحة عن دوافعي الشخصية. فبعد إحدى وأربعين سنة من النشاط الطبي تفيدني معرفتي بنفسي أنني لم أكن قط طبيباً بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد صرت طبيباً عقب تحوّل في مسار مقصدي الأولي، وهو تحوّل فُرض عليّ فرضاً؛ ولئن يكن من انتصار في حياتي فإنه يتمثّل في كوني قد استعدت، بعد انعطافة طويلة، وجهتي الأولية. ففي سنواتي الأولى ما عرفت أي حاجة إلى أن أساعد بني الإنسان في ما يعانونه من ألم، كما أن الاستعداد السادي المسبق لديّ لم يكن على قدر كبير من النمو ليرغمني على تعهُّد تلك الحاجة بالرعاية. كذلك ما كنت لعبت قط لعبة «الدكتور»، إذ سلك فضولي الطفلي مسالك مغايرة. وفي سنوات شبابي شطّت لديّ شططاً كبيراً الحاجةُ إلى فهم شيء ما بخصوص أسرار هذا العالم وإلى الإسهام بقسط ما في الوصول إلى حلّ لها. وقد بدا لي أن التسجيل في كلية

٤ ـ كارل أبراهام: محلل نفسي ألماني (١٨٧٧ ـ ١٩٢٥). تلميذ وفيّ لفرويد. عمل مع يوجين بلولر في المعهد الطبي في زيوريخ، والتقى فرويد عام ١٩٠٧، ودارت بينهما مراسلات، وترأس **الرابطة الدولية للتحليل النفسي**. من مؤلفاته: **الرضات الجنسية، الأسطورة والحلم، عقدة الخصاء عند المرأة**. وفرويد يحيل في النص إلى مقاله الذي نشره عام ١٩٢٤ تحت عنوان: «عن تاريخ تطور الليبيدو بالإحالة إلى التحليل النفسي للاضطرابات النفسية»، والذي ميّز فيه بين مرحلتين في الطور الفموي عند الطفل: طور أولي يرتبط بالمصّ، وبالتالي بالاستحواذ على الثدي، وطور افتراسي أو سادي يرتبط بالعضّ، وبالتالي تدمير الثدي. «م».



الطب خير سبيل إلى تلبية هذه الحاجة. بيد أنني حاولت، بغير ما نجاح، أن أوجّه اهتمامي نحو علم الحيوان وعلم الكيمياء، إلى أن آل بي المطاف، تحت تأثير فون بروكه[٥] الذي كان له نافذ القول في حياتي، إلى الفيزيولوجيا التي كان يقتصر ميدانها، والحق يُقال، في ذلك الزمن على الهستولوجيا[٦]. وقد كان عليّ يومئذ أن أجتاز جميع امتحاناتي في كلية الطب بدون أن أولي اهتماماً يُذكر لما هو طبي، في الحين نفسه الذي كان فيه أستاذي المبجّل يجهد لإقناعي بأنه يتوجب عليّ، بحكم وضعي المادي البائس، أن أتحاشى اختيار مهنة منظّرٍ. وعلى هذا النحو تحولت عن هستولوجيا الجهاز العصبي إلى علم الأمراض العصبية، وبحكم اهتمامات جديدة طرأت لديّ يمّمت شطر الاهتمام نحو الأعصبة. لكنني أعتقد أن انعدام وجود ميل طبي حقيقي لديّ لم يلحق أذى بمرضاي، لأن المريض لا يصيب كسباً كبيراً إذا كان الاهتمام العلاجي لدى الطبيب متضخماً. فخير له دوماً أن يكون الطبيب محافظاً على برودته ودقيقاً بالمقابل في عمله.

لا ريب في أن العرض الذي تقدَّم لم يسهم بقسط موفور في توضيح مشكلة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء. ذلك أنه ما كان له غير أن يوضح للقارئ مبرراتي الشخصية، مع أن القضية هنا هي قضية قيمة التحليل النفسي بحدّ ذاته واستقلاله عن تطبيقه الطبي. ومن هذا المنظور قد يعترض عليَّ معترض بأن مسألة معرفة هل التحليل النفسي، من حيث هو علم، قطاع من الطب أو قطاع من علم النفس، هي محض مسألة نظرية وليس لها من فائدة عملية. وجوابي في هذه الحال أن مدار البحث هنا هو على موضوع آخر، هو مدى جواز استخدام التحليل في معالجة المرضى. ومن ثم، إن السؤال المطروح هو معرفة ما إذا كان من المفترض بالتحليل أن يقبل بإدراجه في إطار الطب كاختصاص قائم بذاته ، مثله مثل الطب الشعاعي على سبيل المثال، وأن

٥ ـ إرنست فون بروكه: رجل علم ألماني (١٨١٩ ـ ١٨٩٢). من مؤسسي التشريح المجهري والهستولوجي. تولى إدارة معهد الفيزيولوجيا في فيينا، وكان من تلاميذه فيه فرويد. وقد قدَّم له مساعدة كبيرة في اختيار توجهه العلمي، فكان فرويد يسمِّيه بـ «بروكه العظيم». «م».

٦ ـ الهستولوجيا: علم الأنسجة. «م».



يخضع بالتالي، فيما يخصّ جميع الطرائق العلاجية، للأنظمة المرعية الإجراء. وإني لأقرّ وأعترف ـ لا مناص لي من التسليم بذلك ـ بأن كل ما أريده هو أن أعرف على وجه اليقين أن العلاج ليس من شأنه أن يقتل العلم. بيد أن جميع هذه المقارنات لا تتأدى، مع الأسف، إلى نتائج ملموسة، وليس هناك مناص من أن نصل في نهاية المطاف إلى نقطة يفترق فيها العنصران المقارَن بينهما. فحالة التحليل النفسي هي غير حالة الطب الشعاعي. والفيزيائيون ليسوا بحاجة إلى أناس مرضى ليدرسوا قوانين الأشعة السينية، لكن التحليل ليس في متاحه بالمقابل من مادة أخرى سوى التظاهرات النفسية لدى بني الإنسان، والدراسة لا يمكن أن تجرى إلا على بني الإنسان. وبما أن بعض العلاقات تكون سهلة على الفهم، فإن الإنسان المعصوب يقدّم من هذا المنظور مادة أغنى كثيراً بالفائدة وأسهل منالاً من تلك التي يقدّمها الإنسان السويّ، ولو سُحبت هذه المادة من ذاك الذي يريد أن يتعلم التحليل ويمارسه، فإن نصف ما هو متاح له من إمكانيات التكوين والتأهيل يكون قد سُحب منه. وبعيدة عني هي، بطبيعة الحال، فكرة المطالبة بالتضحية بمصلحة المريض الذي يُعاني من العصاب على مذبح مصلحة التعليم والبحث العلميين. ولهذا على وجه التحديد كان ما أخذه نصي الصغير عن مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء على عاتقه بيانه هو أنه، في حال اتخاذ بعض الاحتياطات، لا يُستبعد أن يتوافق إلى حدّ كبير كلا الضربين من المصلحة، وأن حلاً كهذا لن يكون هو الحلّ الأسوأ من منظور خدمة المصلحة الطبية إذا ما أُحسن فهمها.

هذه الاحتياطات سبق لي أنا نفسي أن أشرت إليها جميعها. وأبيح لنفسي أن أقول إن النقاش بصدد هذا الموضوع ما أضاف جديداً، ويودّي أن ألفت الانتباه إلى أنه تأدى إلى توزّع المتناقشين على نحو لا يولي اعتباراً لواقع الأشياء. وحقّ هو كل ما قيل بصدد صعوبة التشخيص التفاضلي وانعدام اليقين في تقييم أهمية الأعراض البدنية في العديد من الحالات، وهو ما يوجب بالتالي توافر معرفة طبية أو تدخلاً من جانب الطب. ولكن عدد الحالات التي لا يتظاهر فيها مثل هذا الشك البتّة، والتي تنعدم فيها الحاجة إلى وجود الطبيب، أكبر بالمقابل بما لا

يُقارن. وليس من المستبعد أن تكون هذه الحالات عديمة الأهمية علمياً، ولكنها تضطلع بالمقابل بدور كبير بما فيه الكفاية لتبرر تدخلِ محلل نفسي خبير وإن لم يكن طبيباً. ومنذ بعض الوقت حلّلت أنا نفسي زميلاً كان يبدي عن رفض قاطع لأن يمارس نشاطاً طبياً مَن ليس هو بطبيب. وقد أمكن لي أن أقول له: ها نحنذا نعمل معاً منذ ثلاثة أشهر. ففي أي لحظة وجدتّني ملزماً باللجوء إلى معلوماتي الطبية؟ ولقد أقرَّ بأن فرصة من هذا القبيل لم تسنح قط.

وأنا لست عديم الإحساس أيضاً بالحجة التي تقول إن المحلل النفسي غير الطبيب لا يمكنه، إذا ما توجّب عليه أن يستشير طبيباً، أن يحظى بأي مصداقية أو سلطة لدى مرضاه، ولا يستطيع أن يصل في الشهرة إلى أعلى من تلك التي يمكن أن يصل إليها مُمرّض أو ممسّد أو نظيرهما من الأشخاص. وهنا ينبغي أن أقول إن التحليل النفسي ما استطاع، هذه المرة أيضاً، أن يتوقع على النحو الصحيح أن من عادة المريض أن يمحض مثل تلك السلطة تبعاً لتحويله مشاعره[٧]، وأن حيازة شهادة طبية لا تكتسي بالتالي في نظره ذلك المقدار من الأهمية الذي يفترضه الطبيب. ولن يكون عسيراً البتّة على المحلل النفسي المحترف وغير الطبيب البلوغ إلى الشهرة التي هي من حقِّه بصفته مرشداً «علمانياً للضمير»[٨]. وباعتمادنا صيغة «الإرشاد العلماني للضمير» هذه يسعنا أن نحدد مواصفات الوظيفة التي يتعيّن على المحلّل، سواء أكان طبيباً أم غير طبيب، أن يضطلع بها لدى الجمهور. إن أصدقاء لنا في عداد رجال الكهنوت البروتستانتيين، وكذلك الكاثوليكيين مؤخراً، يعمدون إلى تحرير أتباع أبرشياتهم[٩] من ضروب الكفّ في حياتهم بإعادة توجيه معتقداتهم الدينية عن طريق تزويدهم بقدر من المعارف السيكولوجية بصدد صراعاتهم الداخلية.

٧ ـ التحويل: إسقاط المريض المحلَّل نفسياً لمشاعر الودية أو العدائية على شخص المُحلِّل. «م».

٨ ـ كما أن الكاهن هو بالتعريف «مرشد الضمير»، كذلك إن المحلل النفسي هو «مرشد الوعي». ومما يتيح لفرويد هذه المقاربة الجناسية كون الضمير والوعي يطلق عليهما في بعض اللغات الأوروبية لفظ واحد هو: Conscience. «م».

٩ ـ الأبرشية: رعية الخوري أو الأسقف من جماعة المؤمنين في منطقة محددة. «م».



أما خصومنا من السيكولوجيين المنتمين إلى علم النفس الفردي الآدلري[١٠] فيسعون إلى استحداث تغيُّر مماثل لدى مرضاهم، ممن يعانون من العجز وعدم تماسك المنطق، بتسليطهم الضوء على نقطة معتمة وحيدة في نفسيتهم وبكشفهم لهم عن دور مشاعر الأنانية والريبة لديهم في توليد مرضهم. وبديهي أن هاتين الطريقتين، اللتين تدينان بنجعهما لكونهما تتّبعان مثال التحليل النفسي، تحتلان موقعهما في إطار المعالجة النفسانية. أما نحن، المحللين النفسيين، فنتخذ هدفاً لنا إخضاع المريض لتحليل كامل وعميق إلى أقصى حدٍّ ممكن، ولا يدخل في نيّتنا أن نُخفّف عن معاناته بتعييشه في إطار جماعة كاثوليكية أو بروتستانتية أو اشتراكية، بل ما نصبو إليه هو إغناؤه بما هو متاح له في داخل ذاته بردِّنا إلى أناه الطاقات الكامنة في لاشعوره والتي تكون قد باتت مستعصية عليه بسبب الكبت، وكذلك الطاقات التي يكون أناه قد اضطر أصلاً إلى تبذيرها على نحو غير مثمر للحفاظ على كبوتاته. وما نمارسه على هذا النحو إنما هو إرشاد وعيه بأحسن معاني الكلمة[١١]. أما إذا كنا حدّدنا لأنفسنا على هذا النحو هدفاً طموحاً أكثر مما ينبغي، وأما إذا كان معظم مرضانا يستأهلون فعلاً المشقة التي نتحملها لإنجاز هذا العمل، وأما إذا كان من الأوفر للجهد من المنظور الاقتصادي المحض أن ندعم من الخارج ما هو مصاب بالخلل بدلاً من أن نحاول إصلاحه من الداخل، فهذا ما لا أستطيع توكيده، ولكنني بالمقابل أعلم شيئاً آخر. ففي التحليل النفسي يكون هناك، من بادئ البدء، ترابط بين العلاج والبحث، إذ ما دامت المعرفة هي التي تشقّ السبيل إلى النجاح، فلن يكون أمامنا من سبيل إلى البدء بالمعالجة بدون أن يتاح لنا أن نعرف شيئاً جديداً، ولن يُضيء لنا أي نور بدون أن نمتحن مدى فلاحته في الإضاءة. وطريقتنا التحليلية هي الوحيدة التي تتيح لنا أن نحافظ على هذا المسار الثمين. إذ فقط عندما نمارس إرشاد الوعي التحليلي يتأتى

١٠ ـ نسبة إلى ألفريد آدلر (١٨٧٠ ـ ١٩٣٧) الذي كان مرشحاً لأن يخلف فرويد في زعامة المدرسة التحليلية النفسية، ولكن الذي ما لبث أن انشقّ عن هذه المدرسة ليتزعم أخرى جديدة اشتهرت باسم مدرسة التحليل النفسي الفردي. «م».

١١ ـ إن ما أباح لفرويد استخدام هذا التعبير هو الترادف اللفظي، كما رأينا، بين «الضمير» و«الوعي». «م».



لنا ، ونحن ما زلنا في أول الطريق، أن نُعمّق تفهّمنا للنفسية البشرية. وهذا المنظور الذي يفتح أمامنا الأفق لكسب علمي حقيقي هو الجانب الأنبل والأحبّ إلى النفس من جوانب العمل التحليلي. فهل يحقّ لنا أن نُضحّي به على مذبح اعتبار عملي ما؟

إن بعض العبارات التي ترددت في سياق هذه المناقشة تولّد لديّ الشك بأن نقطة بعينها من نصي عن مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء قد أسيء فهمها. فقد ارتفعت أصوات تُحامي عن الأطباء ضدي، وكأنني أعلنت أنهم جميعاً، وعن بكرة أبيهم، غير مؤهلين لممارسة التحليل النفسي، وكأنني أصدرت الأمر أيضاً بالاستغناء عن كل معونة طبية. وهذا ليس في نيّتي طبعاً. ولكن ما أوحى ظاهرياً بذلك هو أنه قد بدا عليّ وكأنني قلت، في نصي ذي المرمى السجالي، إن المحللين الأطباء غير المؤهلين هم أشدّ خطورة بعد من المحللين غير الأطباء. والحال أنه في مستطاعي أن أوضح رأيي الحقيقي باقتباسي قولة تهكمية كانت صدرت عن سامبليسيموس[١٢] بحقّ النساء. فقد كان أحد المتحاورين قد اشتكى من جوانب الضعف لدى الجنس الجميل وما يترتب على ذلك من قلاقل، فردّ عليه المحاور الآخر بالملاحظة التالية: لكن المرأة تبقى مع ذلك خير ما في جنسها. وإني لأقرّ وأعترف: فما لم توجد مدارس لتأهيل المحللين فإن الأفراد الذين تمّ تكوينهم طبّياً هم خير المؤهلين ليصيروا مُحلِّلين. ولكن من حقّنا مع ذلك أن نطالب بألا يغنيهم تأهيلهم عن تمرُّسهم وبأن يتغلبوا على التحيُّز الذي قد يدفع بهم إليه كونهم قد درسوا في كلية الطب، وبأن يقاوموا إغراء محاولة التودد إلى علم الغدد الصمّ والجهاز العصبي المستقل بذاته في الوقت الذي يكون مطلوباً منهم أن يتفهموا الوقائع النفسية بمفاهيم سيكولوجية قائمة بذاتها. كذلك، إني أشاطر في الرأي أولئك الذين يتوقعون ألا يتولّج أمر المشكلات ذات الصلة بالترابطات بين الظاهرات النفسية وبين أسسها العضوية والتشريحية

١٢ ـ سامبليسيموس: بطل كبرى الروايات الألمانية في القرن السابع عشر التي صدرت عام ١٦٦٩ تحت عنوان **المغامر الألماني سامبليسيموس** لمؤلفها هانس جاكوب كرستوفل (١٦٢٢ ـ ١٦٧٦). واسم بطلها يعني حرفياً **الإنسان البسيط غاية البساطة**. «م».



والكيميائية سوى أولئك الأفراد الذين تأتّى لهم أن يدرسوا كلا النمطين من الظاهرات، أي المحُلّلين الأطباء. بيد أنه لا يجوز أن يغيب عنا أن ذلك ليس هو كل التحليل النفسي، وأننا لن نستطيع أبداً، من ناحية أخرى، أن نستغني عن معونة أشخاص تأهّلوا وتخصّصوا في مضمار العلوم العقلية. ولقد درجت بنا العادة في منشوراتنا أيضاً، ولأسباب عملية، على فصل التحليل الطبي عن تطبيقات التحليل النفسي ـ وما هذا بصائب ـ إذا إن الخط الفاصل بين التحليل النفسي العلمي وتطبيقاته يمرّ بالقطاع الطبي والقطاع غير الطبي على حدّ سواء.

إن الرفض الأكثر تصلّباً الذي تصطدم به مزاولة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء في هذه المناقشات الجارية على قدم وساق يأتي من جانب زملائنا الأمريكيين. ولست أعتقد أنه من نافل القول أن أردّ عليهم هنا ببضع ملاحظات. ولعلّي لا أسيء استخدام التحليل النفسي لأغراض جدالية إذا ما عبّرت عن اعتقادي بأن مقاومتهم يمكن ردّها حصراً إلى دوافع عملية. فهم يلاحظون في بلدهم أن المحللين النفسيين غير الأطباء يشطّون ويُغالون ويقترفون أخطاء، وأنهم بالتالي يتسبّبون في المضرّة لمرضاهم كما لسمعة التحليل النفسي. ومن المفهوم في مثل هذه الحال أن يحرصوا، في سياق استنكارهم هذا، على النأي بأنفسهم عن أولئك الطفيليين العادمي الذمة وعلى استبعاد غير المؤهلين طبياً عن كل مشاركة في التحليل النفسي. لكن وضعية كهذه كافية وحدها لتُقلّص من مدى أهمية موقفهم، لأن مسألة مزاولة التحليل من قبل غير الأطباء لا يجوز حسمها بمقتضى اعتبارات عملية فحسب، فضلاً عن أن الظروف المحلية الأمريكية قد لا تكون كافية وحدها لتُعتبر حجّة ملزمة.

إن قرار زملائنا الأمريكيين ضد مزاولة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء ـ وهو قرار أملته جوهراً وأساساً دوافع عملية ـ لا يبدو لي عملياً، لأنه لا يسعه أن يُغيّر شيئاً في طبيعة أي عامل من العوامل المتحكمة بالموقف في جملته. ولعل قرارهم ذاك لا يعدو من حيث القيمة سوى أن يكون محاولة للمنع. ولكن إذا لم يكن في المستطاع منع المحللين غير الأطباء من مزاولة نشاطهم، وإذا لم يكن الصراع ضدهم يحظى بمؤازرة الجمهور، أفلا يكون من الأنسب في هذه الحال

أن يؤخذ واقع وجودهم بعين الاعتبار، وأن تتاح لهم بالتالي فرص للتأهل، وأن يكون في الإمكان ممارسة بعض التأثير عليهم، وأن يفسح أمامهم المجال، ولو على سبيل التشجيع، ليحظوا ببعض التقدير في الوسط الطبي وليحدث قدر من التقارب معهم بهدف التعاون، بحيث يُتاح لهم على هذا النحو أن يجدوا مصلحة لهم في أن يرفعوا من مستواهم الأخلاقي والفكري؟




مكتبة
الفكر الجديد



الحلم وتأويله

هذا المجلد الخامس من مؤلفات فرويد شبه الكاملة هو أكثر المجلدات الثمانية تنوعاً من حيث مادته. فمن تحليل الأحلام وتأويلها، إلى دراسة العلاقة بين الهذيان والأحلام في الفن، وتحديداً في الرواية، إلى محاولة تأسيس علم نفسي ميتاسيكولوجي جديد يكون بمثابة ما بعد علم النفس بالمعنى التقليدي للكلمة، إلى طرق مسألة ممارسة التحليل النفسي من قبل غير الأطباء، تقدّم هذه النصوص الأربعة نموذجاً عينياً لتطور التحليل النفسي، نظريةً وممارسةً، على مدى ربع قرن بكامله.


9 786144 299746 >



